شرح الزيارة الجامعة الكبيرة

الجزء الرابع

من تأليفات :

مفتاح علوم أهل البيت عليهم السلام

العالم الرباني والحكيم الصمداني مولانا الأوحد الشيخ أحمد بن زين الدين الأحسائي

أعلى الله مقامه

١١٦٦ - ١٢٤١ هـ

طبع بأمر وإشراف

المرجع الديني الكبير خادم الشريعة الغراء

المولى المجاهد الحاج ميرزا عبد الرسول الأحقاقي الحائري

دام ظله العالي

أعدّه وعني بتصحيحه ومراجعته

لجنة السيد الأمجد لإحياء تراث الشيخ الأوحد الأحسائي

والمشايخ العظام أعلى الله كلمتهم

مفتاح علوم أهل البيت عليهم السلام

العالم الربّاني والحكيم الصمداني مولانا الأوحد الشيخ أحمد بن زين الدين الأحسائي

أعلى الله مقامه

المرجع الديني الكبير خادم الشريعة الغرّاء

المولى المجاهد الحاج ميرزا عبد الرسول الأحقاقي الحائري

دام ظله العالي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلّى الله على محمد وآله الطاهرين.

أمّا بعد ، فيقول العبد المسكين أحمد بن زين الدين الإحسائي هذا الجزء الرابع من شرح الزيارة الشريفة الزيارة الجامعة الكبيرة.

قال عليه السلام بأبي انتم وأمّي ونفسي وأهلي ومالي ذكركم في الذّاكرين وأسماؤكم في الأسماء.

قال الشارح المجلسي رحمه الله ذكركم في الذاكرين أي إذا ذكره الذاكرون فأنتم فيهم، أو ذكرُكم لله في جنب الذاكرين ممتازٌ أوْ كالشمس إذا ذكروا فأنتم داخلون فيهم لكن أيّ نسبةٍ لكم بهم لقوله فما أحلى أسماؤكم وكذلك البواقي انتهى.

وقال السيد نعمة الله الجزائري رحمه الله في شرح التهذيب ذكركم في الذاكرين ....إلخ، مبتدأ وخبر أي ذكركم موجود بين الذاكرين كما أن أسماءكم موجودة بين الأسماء، إلاّ أن ذكركم لا نِسْبَةَ لَهُ إلى ذكر الذاكرين، وكذلك أسماؤكم بل هي أحلى وأشرف من كل ذكر ومن كل اسم وهكذا باقي صفاتكم فإنّها مشاركة لصفات البشر في الاسم مفترقةٌ عنها بالمعنى انتهى.

أقول: قد تقدّم الكلام في بأبي أنتم وأمي، وإنّ (بأبي) خبر مقدّم (وأنتمْ) مُبتدأ مؤخّر وأنّه أيْ (بأبي) كان معمولاً ثانياً لأفدْى، وأنتم كان معمولاً أوّلاً

له، فلمّا حُذِفَ لكثرة الاستعمال حتّى أنه غلَب حضُورُ معْنَاهُ بالبَالِ ضمن معناهُ المعمول الثاني لأنّه ثمرةُ عامِله فَنَاب عنهُ، ولأنّه نفسُ الْفِدَاءِ فيكون أوْلى مِنْ أنتم بالتضمن وبالنّيابةِ ولأجْلِ هذا تصدَّرَ وتقدّم وتأخّر المبتدأ، وذكْرُكُمْ بَدَلٌ مِنْ أنتُمْ بَدَل اشتِمالٍ أي بأبي وأمي ونفسي وأهلي ومالي أفدي ذكركُمْ في الذّاكِرِينَ الموجود في ألْسُنِ الذاكرين أو في نفوسهم أو في قلوبهم أو المسموع من ألْسِنَتِهم أو المرئيّ في أعمالهم، فإنّ اتباع سبيلِهِمْ والأخذ عنهم والردّ إليهم والرضى بهم والتسليم لهم أعظم ما يذكرهم به شيعتهُم وأتباعهم، أو المعلوم من معتقداتِ ذاكريهم من شيعتهم وأتباعهم فإنه أعلى ما يُذْكَرُون به كما إذا اعتقد المؤمن العارفُ توحيد الله بتعريفهم عليهم السلام وبسبيل معرفتهم وبمعرفتهم، فإنّ هذا أعلى ما يُذكَرُونَ به نفسي لساداتي ومواليّ الفِداء، فإن شِئتَ أسمعتك ألْحانَهُمْ وألْحَانَ شيعتهم الأوّلين الّذين جعلهم الله خلف العرش.

فأقول: أو يكون المعنى بأبي وأمي ونفسي وأهلي وما لي أفدي ذكرَكم لله ما بين الذاكرين بأسراركم وعقولكم وأنفسكم وأشباحكم وأجسامكم وأجسادكم وألفاظكم وأعمالكم وأحوالكم وألوانكم، وجميع ما لكم، وذكركم لأنْفُسكم في هذه المراتب وذكركم لشيعَتِكم في ما لهم من هذه المراتب، وذكركم لأَعدائِكم بأعمالهم وبما لهم من هذه المراتب وذكركم لمن دونهم إلى التّرُاب والثرى أو ذكر الله إيّاكم فيما ذكر وفيما لم يذكر فصار المعنى أن المصدر الذي هو المفدى بهذه الأمور التي هي أحب الأشياء وأعظمها عندي بعد الله وبعدكم يا مواليّ يجوز أن يكون مضافا إلى المفعول أو إلى الفاعل، فعلى أنه مضاف إلى المفعول يكون ذاكركم هو الله سبحانه وتعالى في كل مرتبة من مراتب وجوداتكم من الحقيقة المحمدية إلى

التراب الطيب مما هو منسوب إلى باطنكم وفيما هو منسوب إلى ظاهركم من الجهل الأول إلى الأرض السبخة وذلك يوم اتخذكم أعضادا وأطوادا فبسط بكم عوامل أفعاله كما قال تعالى (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلى ما خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمائِلِ سُجَّداً للهِ وَهُمْ داخِرُونَ) وقال تعالى (وَللهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالآْصالِ) حتى أعلن كل شيء بتوحيده وتمجيده وتسبيحه وتحميده فبذلك ذكركم خير الذاكرين حين ذكرتموه بذلك فأنزل فيكم وبكم (فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ) .

أو على أنه مضاف إلى المفعول أيضا ذكركم الذاكرون فالله سبحانه ذكركم بما ذكر به نفسه، فجعل طاعتكم طاعته ومعصيتكم معصيته، ورضاكم رضاه، وسخطكم سخطه وذكر بكم من سواكم من خلقه، وذكركم الذاكرون وذكروا بكم من عرفوا فبأحب الأشياء عندي أفدي ذكر الله تعالى لكم من بين ما ذكر تعالى من سواكم وأفدي ذكر الذاكرين لكم من بين ما ذكروا ممن عرفوا، وأفدي ذكر الله تعالى بكم من سواكم، مِن بين ذكرِ الله بسواكم من سواكم، وأفدي ذكر الذاكرين بكم مَن سواكم مِن بين ذكرِهم بسواكم مَن سواكم وأفدي ذكر الله تعالى لكم فيما أحبّ من ملكه، وبما أبغض من ملكه، وأفدي ذكر الذاكرين لكم فيهم وفي جميع مراتب وجوداتِهم من الأفئدة والعقول والأرواح والنفوس والطبائع والموادّ والأشباح والأجسام والأجساد والاعتقادات والمتيقّنات والعلوم والأعمال والأقوال والأحوال.

وعلى أنّه مضاف إلى الفاعل يكون المعنى فبأحبّ الأشياء عندي أفدي ذكركم لله تعالى بما ذكركم به في كل مقامٍ ظهر بكم لكم، ولمن سواكم من بين ذكر

الذاكرين لله تعالى في كل مقام وبكل كلام، وأفدي ذكركم بالله تعالى لكلّ من شاء الله بما شاء كما شاء، من بين ذكر الذاكرين بالله تعالى لمن شاء الله بما شاء كما شاء وأفدي ذكركم لله تعالى فيما شاء من خلقه الذاكرين لآلائه الشاكرين لنعمائه وأفدي ذكركم بالله تعالى فيما شاء من خلقه الذاكرين لآلائه الشاكرين لنعمائه.

فهذه الأشياء التي ذكرتها صور أغصان سدرة المنتهى وأغصان شجرة طوبى في جنة المأوى وعلى هذه الغصون أطيار على صور الطواويس من أمثالهم فيِ قوالب الصّافيّن والكروبيّين والمسبّحين لا أقدر أنْ أُسمّي بأسمائهم ولا ينقش قلمي هيئاتَ ألحانهم لئلا يسمع من الناس صنفانِ فيهلك قوم ويخرّ صعِقين قومٌ ، ولقد قال سلمان الفارسي عليه سلام الله لعلي أمير المؤمنين ﷺ (يا قتيل كوفان لولا أن تقول النّاس واش واه رحم الله قاتل سلمان لقلتُ فيك مقالاً تشمئزّ منه القلوب، يا محنةَ أيّوب).

وأنا أقول لولا هذه العلّة لبيّنتُ بعض تلك الأطيار وأريتُك ألوانها كألوان الطواويس وأسمعتُكَ بعض ألحانها المهلكة والمسكرة لحسن أصواتها ونغماتها على أنّ الأوراق تكاد تضيق عن بيانها، وإنّ سلمان الفارسي رحمنا الله به وبحبّه لما أشار إلى هذه الأطيار وألحانها ونغمات سجعها على أغصان الشجرة نقشتُ لك بقلمي في هذا الشرح كثيراً من صور أغصانها وأشجارها وأوراقها وأطيارها.

واعلم أنّ في لغة أهل البيت عليهم السلام فيما يتخاطبون به ويخاطبون به من علّموه بعض لغاتهم معاني لا تجري على ظاهر اللغة العربيّة، لأن المعروف عنهم عليهم السلام أن اللّغة تصرف على سبعين وجهاً في الكلمة الواحدة فقد يسمَون الشيء بما يخالف المعنى المصطلح عليه.

ففي مثل ما نحن بصدده وهو أنّا قلنا أن قوله عليه السلام (ذكركم في الذاكرين) بدل اشتمالٍ وقد يطلقون عليه بدل بعض من كل، سواء قلت أنه مجرّد اصطلاح أم لمناسبة قويّة.

فإنك إذا قلت: نفعني زيد علمه، يقولون علمه بدل من زيد بدل اشتمال وهم عليهم السلام يطلقون عليه ما هو حكم بدل بعضٍ من كل، كما في رواية حمران بن أعين عن الصادق عليه السلام حين سأله فقال (يا حمران كيف تركت المتشييعين خلفك قال تركتُ المغيرة وبُنان البيان أحدهما يقول العلم خالق ويقول الآخر العلم مخلوق قال فقال عليه السلام لحمران فأيَ شَيء قلتَ أنت يا حمران قال فقال حمران لم أقل شيئاً قال فقال أبو عبدالله عليه السلام أفلا قلتَ ليس بخالقٍ ولا مخلوق فقال ففزع لذلك حمران، قال فقال فأي شيءٍ هو قال فقال من كمالِه كَيَدِكَ مِنك) انتهى.

فجعل عليه السلام العلم بعضاً من الشيء، فعلى هذا إذا قلتَ نفعني زيد علمه يكون علمه بدل بعضٍ من كلٍ وهذا معنى صحيح لأن علماء العربيّة إنما قالوا: بدل اشتمال لأنّ زيداً مشتملٌ على علمه، وعلى قوله عليه السلام أن زيداً جملةٌ بعضها الجسم وبعضها العلم وبعضها العقل، وبعضها الحواس الظاهرة والباطنة وغير ذلك.

ولا يعني ببدل البعض إلاّ كون البدل بعضاً من جملة أُسْند العامل إليها أوّلاً، فظنّ السامع أن حكم العامل واقع على الجملة، فبيّن المتكلّم أن الجملة لم يسند العامل إلاّ إلى بعضها وإنما أتينا بالكلّ لكونه مقوِّماً للمسندِ إليه بخلاف بدل الاشتمال، وإن كان بهذا النحو يعني أنه لم يسند إلى الكل ولكن الجملة لم تكن مقوّمةً للمسندِ إليه وإنما هي ظرف له، وهذا الاختلاف راجع إلى المعنى لا إلى اللّفظ، فإنّ العلم إذا كان بدل بعض لم يُرَدْ منه كونه صورة انتزاعيّة ليكون

مظروفاً فيتحقق الاشتمال، وإنّما هو ركن الذّات والصورة إنّما هي علامة كما قيل في الإعراب أنه تغيير الآخر، وأمّا الحركات فهي علامات ففي ما نحن فيه على الظاهر يخلص المعنى في بدل الاشتمال.

وأمّا على الباطن والتّأويل يجوز أن يكون بدل بعضٍ من كلٍّ أو بدل كلٍّ من كلٍ، فعلى المعنى الظاهري بالقول بالاشتمال فالمراد بالذكر ما يحضر عند الذاكر من ذات المذكور أو صفته ويحصل له أو يقع عليه أو يحصل له من ذات المذكور أو صفته من قول أو عمل أو تصوّر أو حضور ذهني أو حسي عند وجودِ مقتضٍ له.

وأمّا على الباطن والتأويل فعلى إرادة بدل البعض نقول أنّ الذاكر لم يحط منهم عليهم السلام بجميع ما يقتضي المذكوريّة، وإنّما يحيط بالبعض من جهاتهم فتتّجهُ إرادة البعض لإرادة جهةٍ واحدةٍ من جهات كثيرة هي كل الشيء لا أنّ المراد هُو الصِفاتُ ليُقال هذا هو الاشتمال وإنّما يراد بالجهاتِ الأبعاض، كما يقال جهات الشيء لأجزاء ماهيّتِه، مثلاً للإنسان جهتان جهة حيوانيته وجهة ناطِقِيَّتِه.

فَتَقُولْ الآن عرفتُ زيداً حيوانيّته أو ناطقيّته، وهذا على الإضافة إلى المفعول، وكان الذاكر من سِوَاهُمْ من الخلق فإن كان هو الخالق سبحانه كان على هذا بدل كلٍّ من كل، لأنه تعالى محيطٌ بهم في كل رتبةٍ من مراتب وجوداتهم، فأوّل مرتبة ذكرهم فيها ذكرهم بهم، فبكلِّ ما يعزّ عَلَيَّ أَفْدي ذكر الله تعالى لكم بكم من بين ذكره لجميع خلقه بهم، بل وبمحمد وآله صلى الله عليه وآله وسلم أي من بين ذكر الله تعالى لخلقه بهم ومن بين ذكر الله تعالى لخلقه بكم ولو قدّرنا في معنى ذكر الله إرادة الأوصاف والأحوال فإنه كما يذكرهم بهم يذكرهم بأوصافهم وبأحوالهم كان بدل اشتمال كما مرّ، وهل يتمشى بدل كلٍّ من كلٍّ على تقدير الإضافة إلى الفاعل، الظاهر

المعلوم من المذهب على ظاهر المذهب أنّه لا يتمشّى، وظاهر الروايات تنفيه.

منها ما رواه الكشّي في رجاله بسنده عن علي بن حسان عن عمه عبد الرحمن ابن كثير قال (قال أبو عبدالله عليه السلام يوما لأصحابه لعن الله المغيرة بن سعيد ولعن الله يهودية كان يختلف إليها يتعلم منها السحر والشعبذة والمخاريق إن المغيرة كذب على أبي عليه السلام فسلبه الله الإيمان وإن قوما كذبوا عليَّ ما لهم أذاقهم الله حر الحديد فو الله ما نحن إلا عبيد الذي خلقنا واصطفانا ما نقدر على ضر ولا نفع وإن رحمنا فبرحمته وإن عذبنا فبذنوبنا والله ما لنا على الله من حجة ولا معنا من الله براءة وإنا لميتون ومقبرون ومنشرون ومبعوثون وموقوفون ومسئولون وَيلَهُمْ ما لهم لعنهم الله لقد آذوا الله وآذوا رسوله صلى الله عليه وآله وسلم في قبره وأمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين وعلي بن الحسين ومحمد بن علي صلوات الله عليهم وها أنا ذا بين أظهركم لحم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وجلد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أبيت على فراشي خائفا وجلا مرعوبا يأمنون وأفزع ينامون على فرشهم وأنا خائف ساهر وجل أتقلقل بين الجبال والبراري أبرأ إلى الله مما قال فِيَّ الأجدع البراد عبد بني أسد أبو الخطاب لعنه الله والله لو ابتلوا بنا وأمرناهم بذلك لكان الواجب أن لا يقبلوه فكيف وهم يروني خائفا وجلا أستعدي الله عليهم وأتبرأ إلى الله منهم أشهدكم أني امرؤ ولدني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وما معي براءة من الله إن أطعته رحمني وإن عصيته عذبني عذابا شديدا أو أشد عذابه) انتهى، وأمثال هذا كثير في رواياتهم وأمّا بواطن أخبارهم فدالّة على ذلك تصريحاً وتلويحاً.

أمّا التّلويح فمثل ما في الاختصاص بسنده إلى الحسن بن عبدالله عن أبي عبدالله عليه السلام قال (خطب أمير المؤمنين صلوات الله عليه فقال أيّها النّاسُ سَلُوني

قبل أن تفقدُوني، أيها النّاس أنا قَلْبُ الله الواعي ولسانه الناطق وأمينه على سرِّه وحجّته على خلقه، وخليفتُه على عباده وعينه الناظرة في بريّته ويده المبسوطة بالرأفة والرحمة ودينه الذي لا يُصَدّقُني إلاّ من محض الإيمان محضاً ولا يكذّبُني إلاّ من محضَ الكفر محضاً) انتهى، وأمثال هذا كثير.

وأمّا التّصريح فممنوع منه وما أكثر ما كتبته في شرحنا هذا.

بقي شيء من مكنون العلم على تقدير الإضافة إلى المفعول وكون الذاكر هو الله سبحانه وهو ذكر الله لكم بخلقه وذكر الله لخلقه بكم ، فإن المذكور في الأوّل أفضل من الذكر، والذكر في الثاني أفضل من المذكور، فإن أريد بالذكر المصدر من غير تأويل بالمفعول كان المعنى بكلّ ما يعزّ عليّ أفدي ذكر الله تعالى لخلقه بكم من بين ذكر الله تعالى لكم بخلقه، وإن أريد بالمصدر المفعول كان المعنى بكل ما يعزّ عليّ أفدي ذكر الله تعالى لكم بخلقه من بين ذكر الله تعالى لخلقه بكم، هذا إذا أريد بالذكر الذكر الظاهر وهو ما يحضر عند الذاكر ويحصل له من ذات المذكور أو صفته أو يقع عليه ويحصل له من ذات المذكور أو صفته من قول أو عمل أو تصوّرٍ أو حضورٍ ذهني أو حسّي عند وجود مقتضٍ له.

وأمّا إذا أريد به الباطن والتأويل كما تقدّم فهو كالوجه الأوّل وهو عدم تأويل المصدر بالمفعول، إلاّ أنّ في فهم المراد من قولي ذكر الله تعالى لكم بخلقه إشكالاً، وفي قولي ذكر الله تعالى لخلقه بكم دقّة وغموضاً، وقد بيّنتُه في مواضع كثيرة من هذا الشرح ولكن أشير إليه هنا كما هو عادتي بالتكرير للبيان والإيضاح.

فأمّا الإشكال فاعلم أنا نريد بالذكر في الباطن والتأويل هو الإيجاد بالمشيّة التي هي الذكر الأول للمشاء كما في حديث يونس بن عبد الرحمن عن الرضا عليه السلام

حين سأله عن المشيّة والإرادة والقدر والقضاء والإمضاء قَالَ عَلَيهِ السَلامْ (تَعْلَمُ مَا الْمَشِيئَةُ قُال لا قَالَ عليه السلام هِيَ الذِّكْرُ الأَوَّلُ تَعْلَمُ مَا الإِرَادَةُ قُال لا قَالَ عليه السلام هِيَ الْعَزِيمَةُ عَلَى مَا يَشَاءُ) الحديث.

وأراد عليه السلام بقوله (هي الذكر الأول) أنّ المشاء قبل ذلك موجود بالوجود الإمكاني ولم يكن شيئاً مذكوراً بالتكوين، يعني أنه كان ممكناً ولم يكن مكوَّناَ، فأوّل ما يذكر بالإيجاد أن يشاء الله تعالى كونه، فكونه يعني وجوده بدون ماهيته هو أوّل ما ذكر به، فإيجاد الكون في المشية وإيجاد العين في الإرادة، فالمحدَث بالمشيّة هو الكون أي الوجود، والمحدث بالإرادة هو العين أي المتقوّم بمادته وصورته، سواءً كانتا مجرّدتَيْن أم جسمانيتين والوجود هو المادة البسيطة، ولكن لا يظهر إلاّ بالماهيّة ومتمّماتها من المشخصات، فإذا قلنا أن المراد بقوله (ذكركم في الذاكرين) أنّ هذا الذكر هو إيجادكم فإذا قلنا إيجاد الله لكم بخلقه صار المعنى أن الله سبحانه أوجدهم بخلقه وهذا في غاية الإشكال.

ورفع الإشكال أن نقول أنّهم عليهم السلام قد خلقهم الله سبحانه قبل الخلق بألفِ دهرٍ وفي روايةٍ بألفِ ألف والذي فهمتُ من وجه الجمع بين هاتين الروايتين أن الخلق في الأولى الأنبياء عليهم السلام، وفي الثانية سائر المخلوقات، فكانوا عليهم السلام يعبدون الله عز وجلّ ويسبّحونه ولم يكن في الوجود الكوني غيرهم ، وكانوا عنده تعالى وكان ظهورهم في الوجود مساوِقاً لتحقّق الإمكان الراجح في حجُب الغيوب، ولم ينزلوا إلى هذا العالم ولم يظهروا فيه لأنه لم يخلق بعد، فلم يمكن ظهورهم في لا شيء فلمّا خلق هذا العالم أوجدهم فيه ولم يكونوا موجودين في هذا العالم إلاّ بوجود هذا العالم وهذا الخلق فكان الله تعالى مُوجِداً لهم في هذا الخلق بهذا الخلق.

وأضرب لك مثلاً تعرف به المراد وهو من الأمثال التي ضربها رب العباد، وهو أنّ الشمس إذا طلعت طلعت بنورها وإشراقها غير مفارق لها ولا فاقدة له، فلولم تقابلها الأرض بكثافتها لم يظهر لها نور كما تراها فيً الليل فإنها مقابلة للسماوات، ولم يظهر لها نور لعدم كثافة السماوات ويظهر نورها في القمر والكواكب لكثافتها فإذا طلعت من الأفق لو فرض عدم الأرض أو عدم كثافتها رأيتها كالجمرة لا نور فيها، فإذا ظهرت الأرض ظهر نور الشمس فأوجد الله سبحانه نور الشمس بالأرض مع أنّ نور الشمس معها.

ومثال آخر أنت سميع في ذاتك فإذا لم يقع بقربك صوت لم يظهر سمعُك فإذا تكلّم عندك متكلّم وجد سماعُك بوجود الصوت، أيَ وجد ظهوره بوجود الصوت ولم يكن سماعك في نفس الأمر معدوما، وإنّما أحدث حال كلام الغير بل شرط وجوده في الظاهر وتعَلّقِه بمدركه وجود مُدرَكِه وشرط وجود نور الشمس في الأرض وجود الأرض مع أنه قبل ذلك لم يكن معدوماً.

وأمثال ذلك كثير كالكسر والانكسار وكصورتِك في المِرْآة وغير ذلك، وهذا معنى أن الله سبحانه أوجدهم عليهم السلام بخلقه، ولا ريب أنّ إيجاد الله تعالى لهم عليهم السلام بِخَلْقِهِ كما سمعتَ لا يساوي إيجاد الله تعالى للخلق بهم عليهم السلام إذْ لا فضيلةَ لهم عليهم السلام في كون إيجادهم بالخلق بل قد يتوهم من هذا حصول النّقص في ظاهر حاجتهم إلى من هو دونهم بخلاف كون إيجاد الخلق بهم فإن فيه كمال الفضيلة، ومعنى إيجاد الخلق بهم أن الله سبحانه خلق موادّ جميع من خَلَقْ وَمَا خَلَقْ من فاضل أشعة أنوارهم، وخلق صور الخلق كلهم من هيئات أحوالهم وأعمالهم هذا في صور المؤمنين والملائكة والنبيين وما لحِقَ بهم.

وأما صور الكافرين والشّياطين والمنافقين وما لَحِقَ بهم فمن هيئاتِ خلافِ أحوالِهم وأعمالهم وقد تقدّم هذا المعنى في مواضع من هذا الشرح.

فإن قلت: كيف تفرض ما لم يكن في الواقع وهو أن الله سبحانه أوجدهم بخلقه فإن هذا لا يكون لأنّه يلزم منه أنّهم يتكمّلون بمن دونهم مع أنّه لا دليل عليه.

قلتُ: نعم قد كان هذا، وَهُمْ كذلك يحتاجون لمن دونهم ويتكمّلون بهم إلاّ أن حاجتهم إلى من دونهم وتكمّلهم بهم ليس راجعاً إلى ذواتهم عليهم السلام لأنَّ ذواتهم كاملةٌ بل من دونهم محتاجون إليهم ومتكمِّلون بهم.

وإنّما ذلك التكمل وتلك الحاجة راجعانِ إلى ما يكون لهم وإلى من ينتسب إليهم وذلك كالشجرة فإنها تحتاج إلى الورق الّذي لا يوجد ولا بقاء له إلاّ بمددها إلاّ أنها يحسن منظرها بوجود الورق، وكالوزير فإنّه إذا صلُحَتْ رعيّته كان بذلك وجيهاً عند السُّلْطان، وإذا عصت رعيّة الوزير كان ذلِك مُبَعّدا لَهُ عند السُلْطَان وإن لم يقع منه تقصير، فكذلك هم عليهم السلام فإنُّهم ينتفِعُون بصلاح شيعتهم فيما يرجع إلى كونهم ذوي أتباع صالحين بصلاحهم، وهو زيادة في حسن ظاهرهم بحيث يكون ذلك فضيلة لهم نسْبيّةً لا ذاتيّةً كما مثّلنا بالشجرة والورق، ولأجل هذا قالوا صلى الله عليهم لشيعتهم (أَعينونا بورعٍ واجتهاد) يعني أعينونا فيما تريدون منّا من الشفاعة والعَفْو وترك حقوقنا فإنكم إذا تورّعتم واجتهدتم لم تحتاجوا إلى أن نستشفع فيكم.

وقال صلى الله عليه وآله وسلم (تناكحوا تناسلوا فإنّي مُباهٍ بكم الأمم الماضية والقرون السالفة يوم القيامة ولو بالسِّقْطِ) الحديث.

فإن قوله صلى الله عليه وآله وسلم (مُبَاهٍ بكم الأمم الماضية.......إلخ) ، مشعر بالانتفاع، ولكنه كما قلنا لا يرجع إلى تكمل ذواتهم بذلك بل يرجع إلى بعض الأحوال الظاهرة منهم.

وقوله عليه السلام:(وأسماؤكم في الأسماء) يراد منه بما ذكرتُ مما يعزّ عليّ أفدي أسماؤكم في الأسماء أي من بين الأسماء، والاسم إنّما وضع علامة للشيء، قال في القاموس: واسم الشيء بالكسر والضم وسِمَةٌ وسِمَاةُ مثلثين علامته انتهى.

وذِكره في مادة (سما) تنبيهاً على أنه من السموّ لا من الوسم، وتفسيره ينافي تنبيهَهُ إلاّ أن اختياره ما دلَّ عليه تنبيهه كما هو اختيار البصريين في الاشتقاق والتفسير مقتضٍ معنى الاسم، ولذا جرت به طبيعته كما هو اختيار الكوفيّين وهو أولى لمطابقة الاشتقاق للمعنى، لأن الاسم إنما وضع لتمييز المسمى فهو علامة له والعلامة من الوسم أَلْيَقُ بها من السمو.

لأن الرفعة المعنيّة لا يراد بها المسمى، ولا فائدة في أن يراد بها الألفاظ ودليلهم بالجمع والتصغير لا ينهض بالحجة، لأنه إذا قام الاحتمال بطل الاستدلال والاحتمال القائم المساوي بل الراجح لأجل صحة معناه هو أنّهم إنما قال الصرفيّون بأنهما إنما يَرُدَّان الأسماء إلى أصولها غالباً بقي فيه غير الغالب وفيه، ولا يقال أن غير الغالب لا يعارض الاستدلال لأنّا نقول إذا رجعنا إلى المعنى وكان معنا لا مع البصريّين ورجعنا إلى السبب الموجب لكون الجمع والتصغير يَرُدّان الأسماء إلى أصولها غالباً شهد بصدق غير الغالب وكان غالباً في مورده.

وذلك لأن شويكياً تصغير شاكٍ مقلوب شائك إنما لم يرده التصغير إلى أصله لمعلوميّة أصله أنّه شائِكٌ وإنّما يردّ ما كان أصله في الغالب مجهولاً لأن ما كان أصله في الغالب مجهولاً لو لم يردّ إلى أصله في التصغير أو التكسير لجهل أصله بخلاف ما كان أصله معلوماً فإنه لا يجب مع أحدهما الردّ وإن جاز لأسرارٍ في الوضع يطول بها الكلام، إذ لا يمكن تبيينها إلاّ بذكر كثير من الأمثال ليتبيّن الحال.

والاسم لمّا كان كثير الدوران في الكلام والاستعمالات والمحاورات، وكان معلوم الأصل بشهادة معناه وأنه علامة على المسمى التي لا يناسب معناها إلاّ الأخذ والاشتقاق من الوسم لا من السموّ لم يغيّره التصغير والتكسير لأن التغيير لما لا يستعمل إلاّ على هذه الهيئة خلاف الأصل وخلاف الاستعمال وخلاف المأنوس، ولو كان مجهول الأصل بحيث لو لم يردّ إلى أصله في بعض الأحوال لجهل أصله وجب ردّهُ إلى الأصل في التصغير والتكسير حفظاً لأصله، وإن خالف غالب الاستعمال بحيث لو كان الردّ مصادماً لغالب الاستعمال بحيث يحصل من الردّ مجهوليّة الاستعمال ولو في بعض الأحوال وجب نصب قرينة لرفع هذا الاختلال، ولمّا زال المحذور من جهل أصل الاسم وحصل المحذور من تغيير أصل سلاسة الاستعمال وخلاف المأنوس أُبقي على أصل استعماله لمعلومية أصل وضعه، وهذا مع حسنه وظهور دليله موافق لمعناه فيجب المصير إليه والشهرة ليست في مثل هذا الذي يخالف أصل معناه دليلاً إذ رُبَّ مشهور ولا أصل له، وفي عيون الأخبار ومعاني الأخبار عن الرضا عليه السلام في تفسير بسم الله قال عليه السلام (يعني أَسِمُ نفسي بسمةٍ من سماتِ الله وهي العبادة قيل له ما السمة قال العلامة) انتهى ، فتدبّر هذا الحديث من حجة الله تعالى عليك هل أبقى للسموِّ المدّعى رسماً أوْ أثراً.

وأيضاً سُئِل عليه السلام عن الاسم ما هو (قال صِفَةٌ لِمَوْصُوفٍ) انتهى ، ولا ريب أن العلامة صفة للشيء والسمو لا معنى له، أما في المسمى فظاهر، وأمّا في اللفظ بأن الاسم مرتفع على أخويه الفعل والحرف، فأظهر في البطلان.

فإذا عرفت ما أشرنا إليه من إرادة كون الاسم علامة للمسمّى ووقفتَ على

ما قرّرنا في أصول الفقه من أن بين الأسماء والمعاني مناسبة ذاتية لأنّه علامة للمسمّى ومميّز له، فإذا كان الواضع عالماً بالمناسبة وقادراً عليها كان العدول عنها إلى عدمها فيما يريدُ تمييزه عن الاشتباه مخالفاً للحكمة ولإتقان الصنع، لأنّ العلامة إذا كانت مناسبة لذي العلامة في مادّتها وصورتها كانت دلالتها ذاتية وارتباطها ارتباطاً مع الموافقة.

فتكون أدلّ في التعريف وأظهر في التمييز، فإن عثر عليها المُخَاطَبُون فذلك، وإلاّ فكان الواضع لم يهمل الحكمة ولم يظلمها ولم يضع في غير ما جعلها مقتضيةً له فمن شاء إطْلاعَهُ على علل الأشياء وأسبابها علّمه ذلك بتفهيمه أو بوضع القرائن له والإمارات وإلاّ فهو يُحبّ من المخاطب في غير ما يريد منه إيقاع الأفعال موافقةً للأمر التسليم والانقياد.

ومنه أنه لا يسأل عمّا يفعل وهم يسألون، على أنّه كما عرّف كثيراً من خلقِه، وترك كثيراً ممّا خلق على إبهامه على أكثر المكلّفين لأنّ الانقياد والتسليم في حقّهم خير لهم من التعريف في كثير من الأشياء، لأنّ العباد خلقهم الله تعالى مختلفين، فمنهم من يحسن تفهيمه كما يحسن تكليفه ومنهم من لا يحسن تفهيمه وإن حسن تكليفه.

فإن قلتَ: هذا إنّما يتم على القول بأنّ الواضع هو الله سبحانه وأمّا على القول بأنّ الواضع غيره فلا.

قلتُ: لو قلنا بأنّ الواضع غير الله لم يكن محذور في أنّ الألْفاظ بينها وبين المعاني مناسبة ذاتيّةٌ، لأنّ الوضع لا يمكن إلاّ ممّن له قوّة المعرفة التي لا تنقص عن المعرفة بالمناسبة واعتبارها يدل على هذا أنّا وجدنا في اللّغة واشتقاق الألفاظ بعضها من بعض، وَنظمها على ما يوافق الحكمة ما يبهر العقول مع ما عرفنا من

قصورنا عن أكثر أسرارها ولا يكون ذلك إلاّ ممّن يقدر على المناسبة ويعرف كمال حسنها وشرفها على عدمها.

وإذا كان قادراً على العلم بها وعلى فعلها مع معرفته بأنها أكمل وأدلّ على المطلوب وأوفق بالحكمة كان العدول عن ذلك نقصاً في الكمال وعدولاً إلى الإهمال عن الحكمة، لأن الأسماء في الحقيقة صفات المسميّات فلو لم يكن بين الصفة وموصوفها مناسبة ذاتيّة ومطابقة حقيقية لكانت صفة زيد التي يطلب بها تمييزه تصلح لعمرو، وإذا صلحت لعمرو كان وصف زيد بها للتمييز عن عمرو يزيد في التباسه بعمرو فافهم.

ولا يلزم على كون الواضع غير الله لو أريد المناسبة أن يعرفها غيره لوجود المماثل له، فيعلم مراده لأن الشخص إذا صنع شيئا قد تكون له إرادات وملاحظات ومناسبات لا يعرفها غيره بل ربّما لا يعرفها هو في وقتٍ آخر، وهذا ظاهر لا شبهة فيه، وإذا ثبت هذا قلنا لو فرضنا أن الواضع غيره تعالى يكون وضعه للمناسبة ولا يعثر على أكثر إراداته غيره فلزم الواضع أن يعرّف غيره ما عنى بالأسماء من المسميات بالتّرديد والتكرار حتّى يعرفوا المقصود منها ولا يلزمه تفهيم المناسبات، لأن مطلوبه وهو التفهيم حاصل من دون تعريف المناسبات ومعرفة المناسبات، وإن كان أكمل للمخاطبين لكنه لو إلتزمها في تفهيم المعاني لتعذر أكثرها على أكثر المخاطبين إذ ليس كلهم أولي أفهام دقيقة، والباب عميقة على أنّا لا نريد بالواضع إلاّ الله سبحانه ، لأنه تعالى أخبر في كلامه الصدق بذلك فقال تعالى (وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّها) ، والجمع المحلّى بالألف واللام يفيد العموم ثم أكده بكلها لئلاّ يتوهم العموم العرفي، (ثُمَّ عَرَضَهُمْ) أي

المسميات (عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْماءِ هؤُلاءِ) والجمع المضاف يفيد العموم ليتطابق العامّان ويرتفع الاحتمال، ولم يكن حينئذٍ أحدٌ من الخلق يمكن أن يكون واضعاً فأخبر بأنه تعالى (عَلَّمَ آدَمَ الأَسْماءَ كُلَّها) من جميع اللغات وإلاّ لم يكن المعلّم كلّ الأسماء.

وفي المجمع وتفسير العياشي عن الصادق عليه السلام أنِ سُئل ماذا علّمه قال (الأرضين والجبال والشعاب والأودية ثم نظر إلى بساط تحته فقال وهذا البساط مما علّمه) انتهى.

وفي تفسير العسكري عليه السلام عن السجّاد عليه السلام (علّمه أسماء كلّ شيء) انتهى.

والحاصل من يريد العلم لا يشكّ في أن الواضع هو الله، فإن الله سبحانه خالق كلّ شيء وقد بينّا جميع هذا في فوائد الأصول من أراد البيان وقف عليه هناك.

والحاصل أنه لما ثبت بالإشارة أنّ المراد من الأسماء هي العلامات الميّزات والصفات المعينَات للمسمّيات تبيّن لمن عرف المراد أن المراد بها الأعمّ من اللفظيّة والمعنويّة، لأن العلامة والتمييز يحصل بكلّ منهما والاسم كما يسمى صفة كما مر في قول الرضا عليه السلام (الاسم صفة لموصوف) .

كذلك تسمى الصفة اسماً كقول أمير المؤمنين عليه السلام رواه الحسن بن سليمان الحلي في المحتضر قال رواه بعض علماء الإمامية في كتاب منهج التحقيق إلى سواء الطريق بإسناده عن سلمان الفارسي رضوان الله عليه عنه في حديث طويل معروف بحديث السحابة عنه عليه صلوات الله حين قال له سلمان وأصحابه (يا أمير المؤمنين كيف تملك وتعلم بهذه الأشياء قال عليه السلام أعلم ذلك بالاسم الأعظم الذي إذا كتب على ورق الزيتون وألقي في النار لم يحترق، وبأسمائنا التي كتبت على الليل فاظلم وعلى

النهار فأضاء واستنار وأنا المحنة النازلة على الأعداء، وأنا الطامّة الكبرى أسماؤنا مكتوبة على السموات فأقامت وعلى الأرض فانسطحت وعلى الرياح فذرَتْ وعلى البرق فلمع وعلى النور فسطع وعلى الرعد فخشع) الحديث.

فإن المراد بالاسم هنا الصفة كما تقول كتُبَ اسم الشمس على وجه الأرض فاسْتَنار، يعني أنّ نور الشمس الذي هو صفتها حين أوقعه الله تعالى وأوجده على وجه الأرض استنار وكتب بمعنى أوجد وخلق كما قال تعالى (أُولئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ) عن الباقر عليه السلام في قَوْلِ رَسُولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم (إِذَا زَنَى الرَّجُلُ فَارَقَهُ رُوحُ الإِيمانِ قَالَ هُوَ قَوْلُهُ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ ذَاكَ الَّذِي يُفَارِقُهُ) انتهـى.

فبحضور هذا الملك الذي هو روح الإيمان يكتب الله الإيمان بواسطة فعل الطاعة أي يثبته في قلب المؤمن فيبيضّ ويستنير، وبغيبته يحضره الشيطان المقيض فبحضورِ ذلك الشيطان يكتب الله الكفر والنفاق بواسطة فعل المعصية الموجبة لذلك في قلب الكافر والمنافق.

وفي الكافي وتفسير العياشي عن الباقر عليه السلام قَالَ (مَا مِنْ عَبْدٍ إلا وَفِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ فَإِذَا أَذْنَبَ ذَنْباً خَرَجَ فِي النُّكْتَةِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ فَإِنْ تَابَ ذَهَبَ ذَلِكَ السَّوَادُ وَإِنْ تَمَادَى فِي الذُّنُوبِ زَادَ ذَلِكَ السَّوَادُ حَتَّى يُغَطِّيَ الْبَيَاضَ فَإِذَا غَطَّى الْبَيَاضَ لَمْ يَرْجِعْ صَاحِبُهُ إِلَى خَيْرٍ أَبَداً وَهُوَ قَوْلُ الله عَزَّ وَجَلَّ كَلا بَلْ رانَ عَلى قُلُوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ) انتهى.

وأمّا إنّ الكتابة بالملك بواسطة الطاعة وبالشيطان بواسطة المعصية فما رواه في الكافي في قوله تعالى بِرُوحٍ مِنْهُ عنهما عليهما السلام (هو الإيمان) انتهى.

أي أن الروح روح الإيمان أي المكتوب به وعن الصادق عليه السلام قَالَ (مَا مِنْ مُؤْمِنٍ إلا وَلِقَلْبِهِ أُذُنَانِ فِي جَوْفِهِ أُذُنٌ يَنْفُثُ فِيهَا الْوَسْوَاسُ الْخَنَّاسُ وَأُذُنٌ يَنْفُثُ فِيهَا الْمَلَكُ فَيُؤَيِّدُ الله الْمُؤْمِنَ بِالْمَلَكِ فَذَلِكَ قَوْلُهُ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ) انتهى.

وفعلُ الله تعالى إنّما هو بمقتضى الأسباب للفعل من تهيَّأ المكلّف وميله وترجيحِه للفعل وأخذِه في الفِعلِ.

وروي في المجمع قد وردت الرّواية الصَّحيحة أنّه لمّا نزلت هذه الآية يعني قوله تعالى (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام سُئِل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن شرح الصدر ما هو فقال نورٌ يقذفهُ الله تعالى في قلب المؤمن فينشرح صدره وينفسح قالوا فهل لذلك إمارة يعرف بها فقال نعم الإنابة إلى دارِ الخلود والتجافي عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل نزول الموت) انتهـى.

وفي التوحيد والعيّاشي عَنْه عليه السلام (إِنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ إِذَا أَرَادَ بِعَبْدٍ خَيْراً نَكَتَ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةً مِنْ نُورٍ وَفَتَحَ مَسَامِعَ قَلْبِهِ وَوَكَّلَ بِهِ مَلَكاً يُسَدِّدُهُ وَإِذَا أَرَادَ بِعَبْدٍ سُوءاً نَكَتَ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةً سَوْدَاءَ وَسَدَّ مَسَامِعَ قَلْبِهِ وَوَكَّلَ بِهِ شَيْطَاناً يُضِلُّهُ ثُمَّ تَلا هَذِهِ الآيَةَ) انتهى.

فإذا فهمتَ هذه الأخبار ظهر لك أنّ الإيمان الذي يكتبه الله تعالى في قلب المؤمن هو النور الذي يستنير به قلبه فيكون باعثاً له على طاعة الرّحمن ويكتسب به الجنان، وهو النكتة البيضاء التي كتبها الله على يد ذلك الملك المسدّد له بواسطةِ طاعة المكلف حتى ابيّض قلبه واتّصفَ بالبياض وسُمّيَ به وهو الإيمان الذي كتبه الله تعالى في قلب المؤمن، فإذا عرفتَ هذا الكتْبَ عرفتَ قوله عليه السلام (وبأسمائِنا التي كُتِبَتْ على الليل فأظلم وعلى النهار فأضاء واستنار) ولم يكتب على الليل

علي وفاطمة والحسن والحسين والأئمة عليهم السلام وكذلك على النهار وإنما كُتِبَت أسماؤهم التي هي صفاتهم، وكذلك كُتِبَتْ على قلب المؤمن فأضاء واستنار وعلى قلب الكافر والمنافق فأظلم.

فإن قلت: كيف يظلم قلب المنافق والكافر إذا كتبت عليه مع أنّ أسماءهم نور.

قلتُ: إنّ استنارة القلب بأسْمَائِهم إذا قبلَها وظلمته إذا لم يَقْبَلْها، لأن الأسماء المرادة هي ولايتهم ومحبتهم وطاعتهم فإَذا عرضت محبّتهم وولايتهم على القلوب والليل والنهار مثلا وغير ذلك قبلها قلبُ المؤمن والنّهار فاستضاءا أو استنارا، وأنكرها الليل وقلبُ المنافق وقلَب الكافر فأظلمت وذلك ما أشار إليه تعالى بقوله (بابٌ باطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذابُ)فالباب هو علي عليه السلام باب مدينة العلم باطنه الولاية أي إذا قبلها من عرضت عليه وظاهره يعني إنكار ولايته ممن لا يقبلها وهو العذاب.

فإن قلت: كيف يكون النور ظلمة والرحمة عذابا.

قلتُ: هذا ظاهر فإن قبول النور نور وعدم قبوله ظلمة، وقبول الرحمة رحمة وعدم قبولها عذاب، لأنهما ضدّان ومثال ذلك ما قال الشاعر:

أرى الإحسان عند الحرّ دينا

وعند النذل منقصة وذما

كقطر الماء في الأصداف درّا

وفي بطون الأفاعي صار سما

وحقيقة ولايتهم هي امتِثال أوامر الله واجْتِنَاب نواهيهِ وذلك هو الرحمة وسبب الرحمة وهو الجنة وسبب الجنةِ وهو النورُ وَسَبَبُ النّور وهو الخير كلّهُ،

وإنكار ولايتهم هو تركُ أوامر اللهِ وفعل نواهيه وذلك هُو العذاب وسببُ العذاب وهو النار وسبب النار وهو الظلمة وسبب الظلمة وهو الشرّ كلّه.

والولاية المشار إليها وإنكارها يجري كل منهما في الاعتقادات والأعمال والأقوال، وقبولُها هو الخير خلقه الله فطوبى لمن أجراه على يديه وإنكارُها هو الشرّ خلقه الله فويل لمن أجراه على يديه، فكل ما تسمع من كل خيرٍ وكل ما ترى من كل خير وكل ما تجد من كل خير الذي أعني به ولايتهم هي أسماؤهم التي كتبَها الله على ألواح المكلفين من أوليائه بإقرارهم بأنواع ولاية محمد وآله ﷺ من الاعتقادات الصَّحيحة كَتَبَها، كتب على ألواح أفئِدة أوليائِه معارفها وفي قلوبهم معانيها وفي نفوسهم صورها وفي أشباحهم مثلها.

ومن الأعمال الصالحة كتبها، كتب في جوارحهم صورها وفي نفوسهم مثلها وفي قلوبهم معانيها ، ومن الأقوال الطيبة كتبها، كتب أصواتها في ألسنتهم وفي آذانهم هياكلها وفي خيالاتهم صورها فاستنارت هذه الألواح بما جرت به أقلام الحق عليها من أسمائهم صلّى الله عليهم أجمعين، وهو تأويل قوله تعالى (وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ).

وكل ما تسمع من شرّ وكل ما ترى من شرٍّ وكل ما تجد من كل شرٍ الذي أعني به ترك ولايتهم وهو ولاية أعدائهم هي أسماء أعدائِهم التي كتبها الله سبحانه على ألواح المكلّفين من أعدائهم بإنكارهم لأنواع ولاية محمد وأهل بيته صلى الله عليه وعليهم من الاعتقادات الباطلة ومن الأعمال السيئة ومن الأقوال المنكرة على تفصيل ما ذكرنا في حق أهل الحقّ.

وكل ما تسمع وترى وتجد من خير أو شرّ أو حلوٍ أو مرّ أو منير أو مظلم

أو حسن أو قبيح في جميع الخلق من المكلفين وغيرهم من الحيوانات والنباتات والمعادن والجمادات وما بين ذلك من البرازخ فهي أسماؤهم في كل محبوب وأسماء أعدائهم في كلّ مكروهٍ كتبها العدل الحكيم بأقلام الحق المستقيم على حسب قوابلها وذلك قوله عز وجل (إِنَّا عَرَضْنَا الأَمانَةَ عَلَى السَّماواتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها وَأَشْفَقْنَ مِنْها وَحَمَلَهَا الإِنْسانُ إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولاً) .

ففي البصائر عن الباقر عليه السلام (هي الولاية أبين أَنْ يَحْمِلْنَها كفرا وَحَمَلَهَا الإِنْسانُ والإنسان أبو فلان) انتهى ، وهو أبو الدواهي.

وفي المعاني عن الصادق عليه السلام (الأمانة الولاية والإنسان أبو الشرور المنافق) وقول علي عليه السلام (هي الصلاة) لأن الصلاة هي صورة الولاية والركن الأعظم من ظاهرها ومن صورتها، فما وجدتَ من جمال أو رأيتَ أو سمعتَ فهو اسمهم كُتِب على ذلك الجميل واسم ولايتهم.

وكذا ما سمعتَ أو رأيتَ أو وجدت من نور أو حلاوة أو قوّة أو اعتدال أو شفاء أو دواء أو إصابةٍ أو توفيق أو غير ذلك من كلّ مستحسنٍ في كل شيء فهو أسماؤهم وولايتهم كتبت في ذلك الشيء بقبوله لها ، وكل ما سمعتَ أو رأيتَ أو وجدتَ من أضداد ذلك كله في شيء فهو أسماءُ أعدائهم وولايتهم وعداوة محمد وأهل بيته صلى الله عليه وآله وسلم كتبت في ذلك الشيء بإنكاره لولاية محمد وآله صلى الله عليه وآله وسلم وبقبوله لولاية أعدائهم التي هي إنكار ولاية النبي وآله صلى الله عليه وآله وسلم، فما تجد من حلاوة السُّكر فهي اسم من أسمائهم، وما تجدُ من مُرورة الصبر فهي اسم من أسماء أعدائهم.

وعن أنس بن مالك قال (دفع علي بن أبي طالب عليه السلام إلى بلالٍ درهماً ليشتري به بطّيخاً قال فاشتريتُ به فأخذ بطّيخةً فقوّرَها فوجدها مرّة فقال يا بلال رُدّ هذا

إلى صاحبه وائتني بالدرهم إن رسول الله ﷺ قال لي إن الله أخذ حُبَكَ على البشر والشجر والثمر والبذر فما أجاب إلى حُبِّك عَذُبَ وطاب وَما لم يُجب خَبُثَ ومَرّ وإني أظنّ أن هذا ممّا لا يجبني) أخرجه الملا في سيرته قال بعد هذا وفيه دلالة على أن العيب الحادث إذا كان مما لا يُطلعّ به على العيب القديم لا يمنع من الردّ، انتهى.

وفي الاختصاص بسنده عَنْ قَنْبَرٍ مَوْلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام قَالَ (كُنْتُ عِنْدَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام إِذْ دَخَلَ رَجُلٌ فَقَالَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنِّي أَشْتَهِي بِطِّيخاً قَالَ فَأَمَرَنِي أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام بِشِرَاءِ بِطِّيخَةٍ فَوَجَّهْتُ بِدِرْهَمٍ فَجَاءُونَا بِثَلَاثِ بِطِّيخَاتٍ فَقَطَعْتُ وَاحِداً فَإِذَا هُوَ مُرٌّ فَقُلْتُ مُرٌّ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَقَالَ ارْمِ بِهِ مِنَ النَّارِ وَإِلَى النَّارِ قَالَ وَقَطَعْتُ الثَّانِيَ فَإِذَا هُوَ حَامِضٌ فَقُلْتُ حَامِضٌ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَقَالَ ارْمِ بِهِ مِنَ النَّارِ وَإِلَى النَّارِ قَالَ فَقَطَعْتُ الثَّالِثَ فَإِذَا هُوَ مَدُودَةٌ فَقُلْتُ مَدُودَةٌ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَقَالَ ارْمِ بِهِ مِنَ النَّارِ وَإِلَى النَّارِ.

ثُمَّ قَالَ وَجَّهْتُ بِدِرْهَمٍ فَجَاءُوا بِثَلَاثِ بِطِّيخَاتٍ فَوَثَبْتُ عَلَى قَدَمَيَّ وَقُلْتُ اعْفُنِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ قَطْعِهِ كَأَنَّهُ تَأَثَّمَ بِقَطْعِهِ فَقَالَ لَهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام اجْلِسْ يَا قَنْبَرُ فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ فَجَلَسْتُ فَقَطَعْتُ فَإِذَا هُوَ حُلْوٌ فَقُلْتُ حُلْوٌ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَقَالَ كُلْ وَأَطْعِمْنَا فَأَكَلْتُ ضِلْعاً وَأَطْعَمْتُهُ ضِلْعاً وَأَطْعَمْتُ الْجَلِيسَ ضِلْعاً فَالْتَفَتَ إِلَيَّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام فَقَالَ يَا قَنْبَرُ إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَرَضَ وَلايَتَنَا عَلَى أَهْلِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالثَّمَرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ فَمَا قَبِلَ مِنْهُ وَلايَتَنَا طَابَ وَطَهُرَ وَعَذُبَ وَمَا لَمْ يَقْبَلْ مِنْهُ خَبُثَ وَرَدِيَ وَنَتُنَ) انتهى.

ومثل معناه ما في بشارة المصطفى بسنده إلى أبي هريرة وما في العلل بسنده عن سليمان بن جعفر عن الرضا عليه السلام، فهذه الحلاوة اسم ولايتهم أي صفتها والمرورة والحموضة والتدويد اسم ولاية عدوهم يعني إنكار ولايتهم.

والمراد بهذه الفقرة الشريفة مثل ما قبلها يعني بما يعزّ عليّ أفدي أسْماءكم من بين الأسماء، فإنّ أسماءكم حبيبةٌ عند جميع الخلائق من محبّيكم ومبغضيكم علموا أوْ لم يعلموا، فإن لم يعلموا فظاهر فإنّهم يحبّون أكل السّكرّ لحلاوته وأكل المطاعم اللذيذة وشرب الماء البارد في أيام الصيف ولبس الثياب الحسنة والذهب والفضّة والجواهر النفيسة وأمثال ذلك والصفات الحسنة كالعلم والشجاعة والكرم والحلم والعقل وما أشبه ذلك ولا يعلمون ما هذه الصفات المحبوبة ومن أين نشأت وإلى من انتسبت ، ويكرهون أضدادها وهي أسماءُ ساداتهم وكبرائهم وأسماؤهم يلعن بعضهم بعضاً، وإن علموا فكذلك فلا يَرَوْن صفةً ولا حالاً من أئمتنا عليهم السلام إلاّ وهو محبوب عندهم وإنما يعادونهم حسداً مِنْ عنْدِ أنْفُسِهِمْ من بعدِ ما تبَيَّن لَهُم الْحقّ.

والحاصل أنّ أسماءهم التي أشار إليها منها ما ذكرنا من أسمائهم الصفاتيّة وما لم نذكر ومنها اللّفظية، فإنّها مشتقّة من أسمائه تعالى يعني خلقها سبحانه من أسمائِه كما خلق صفاتهم وأسماءها من صفاته الفعلية وأسمائِها وكما خلق أنوارهم أي وجوداتهم من نوره يعني النور الذي أحدثه بنفس مشيّته بغير واسطةٍ غيره ونسبه إلى نفسه تعالى وأقرَّهُ في ظلّه فلا يخرج منه إلى غيره.

وهذا معنى ما روي عن علي بن الحسين عليهما السلام قال (حدثني أبي عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى أن قال قال الله يا آدمُ هذه أشباح أفضل خلائقي وبريّاتي هذا محمد وأنا الحميد المحمود في فعالي شققتُ له اسماً من اسمي وهذا علي وأنا العلي العظيم شققت له اسماً من اسمي وهذه فاطمة وأنا فاطر السموات والأرض فاطم أعدائي من رحمتي يوم فصل قضائي وفاطم أوليائي عمّا يعتريهم ويشينهم

شققتُ لها اسماً من اسمي وهذا الحسن وهذا الحسين وأنا المحسن المجمل شققتُ اسميهما من اسمي) الحديث.

فتأمل في هذا الحديث يظهر أنّه سبحانه يريد بالاسم ما هو أعم من اللّفظ ولو أراد خصوص اللفظ لما قال تعالى وهذه فاطمة وأنا فاطر السموات والأرض، ولو أراد خصوص المعنى لما علّقه بالألفاظ ولكنه تعالى يريد الأسماء المعنويّة والأسماء اللفظيّة وهو المفهوم من أحاديثهم الكثيرة ما ذكرنا وما لم نذكر، فيكون المراد بقوله عليه السلام (وأسماؤكم في الأسماء) على هذا ما ذكرنا في قوله عليه السلام (ذكركم في الذاكرين) من المعنيَيْن، أحدهما ما ذكرنا هنا والثاني الظرفية الظاهرة مِن (في).

ثم إن اعتبرنا اللفظية في اللفظية كانت أسْماؤهم عليهم السلام في سائر الأسماء كالواحدِ في الأعداد وكالفِعْلِ في ما اشْتُق منه كضَرَبَ محرّكاً في الضرب وكالصوت في الصَّدا وما أشبه ذلك، فإنّ الأعداد متقوّمة بأمثال الواحد المتكررة فيها والمصادر متقوّمةً بموادّ أفعالها وما فيها من الحروف، كالضادِ في المصدر مثال لما في الفعل الذي هو ضَرَبَ محركاً يعني أن الضادّ في المصدر مثال الضاد في الفعل والراء مثال للراء والباء مثال للباء فيه، والصداء مثال للصوت مع أنّك ترى الواحد في الأربعة مثل الواحد في الأعداد والمادة في المصدر مثل مادة فعله، والصدا مثل الصوت.

وكذلك هي في الأسماء كصورة المقابل للمرآة في الصورة التي في المرآة وهكذا، وكذلك إذا اعتبرنا المعنويّة مع المعنويّة على نمطٍ واحد والأصل في ذلك ما ثبت بالأدلّة القطعيّة من أن الظاهر صفة الباطن وآيته ودليله فهو مطابق والشهادة شاهدُ الغيب وسفيره، قال الصادق عليه السلام (العبودية جوهر كنهها الربوبية فما فقد من العبودية وجد في الربوبية وما خفي من الربوبية أصيب في العبودية قال الله

تعالى سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الآفاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ أي موجود في غيبتك وفي حضرتك) انتهى.

وإن اعتبرنا اللفظية في المعنوية فهي باعتبار كونها محلا لمعنويّتها بمنزلة كن في المكوّنات، وإن اعتبرنا المعنوية في المعنوية فكاللفظيّة في اللفظيّة، وإن اعتبرناها في اللّفظيّة لم يجز ذلك الاعتبار إلاّ مجازاً يعني باعتبار توسُّطِ الأسباب المتعدّدة وإلاّ لاحترقت اللّفظيّة ، وفي الحديث (إنّ لله سبعين ألف حجاب) وروي (سبعمائة) وروي (سبعين) وروي غير ذلك (من نور وظلمة لو كشف حجاب منها أوْ لو كُشِفَتْ لأحرقت سبحاتُ وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه) انتهى.

وإنّما قلنا ذلك كله لأنّ الصانع عز وجل واحد والصنع واحد والمصنوع واحدٌ أو كواحدٍ قال الله تعالى (ما خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ واحِدَةٍ) فلذا قلنا من عرف شيئاً من جميع جهاته فقد عرف الأشياء والله سبحانه يرزق من يشاء بغير حساب.

قال عليه السلام وأجسادُكم في الأجساد وأرواحكم في الأرواح وأنفسكم في النفوس وآثاركم في الآثار وقبوركم في القبور.

أقول: الجسد لغةً هو الجسم أو أخص منه، وفي القاموس (الجسد محرّكةً جسم الإنسان والجنّ والملائكة والزعفران وعجل بني اسرائيل والدم اليابس) هـ.

وفي مجمع البحرين قوله تعالى (عِجْلاً جَسَداً) (أي ذا جسَدٍ أي صورة لا حراك فيها إنما هو جسد فقط أو جسداً بدناً ذا لحم ودم) ثم قال (والجسد من الإنسان بدنه وجثّته والجمع أجساد، وفي كتاب الخليل لا يقال لغير الإنسان من خلق الأرض جسد وكل خلق لا يأكل ولا يشرب نحو الملائكة والجنّ فهو جسد،

وعن صاحب البارع لا يقال الجسد إلا للحيوان العاقل وهو الإنسان والملائكة والجن ولا يقال لغيره جسد) انتهى.

وقال في القاموس (الجسم جماعة البدن أو الأعضاء من الناس وسائر الأنواع العظيمة الخَلق كالجُسمان بالضم الجمع أجسام وجُسوم) انتهى.

وفي مجمع البحرين (تكرّر في الحديث ذكر الجسم قيل هو كل شخص مدركٍ وفي كتاب الخليل نقلاً عنه الجسم البدن وأعضاؤه من الناس والدوابّ ونحو ذلك مما عظم من الخلق، وعن أبي زيد الجسم الجسد وكذلك الجسماني والجثماني وقد مر الفرق بينهما في كلام الأصمعي في جثم والجسم في عرف المتكلمين هو الطويل العريض العميق فهو ما يقبل القسمة في الأبعاد الثلاثة) انتهى، وكلام الأصمعي الذي أشار إليه هو الجثمان الشخص والجسمان الجسم هـ.

أقول: هذا بعض ما ذكره أهل اللغة وغيره من هذا النوع، والمعروف المحصّل من كلام أهل اللغة والعلماء والمفسرين أن الجسد هو جسم الحيوان الظاهر المشاهد، وقد جرى اصطلاح أهل الصناعة الدائر على ألسنتهم في محاوراتهم أن الجسد هو المعدن كالمعادن السبعة الذهب والفضة والرصاصيْن والنحاسين والزئبق، وكأنّ إطلاق الجسد في أصل اللّغة على جسم الحيوان من حيث كونه لا روح فيه أغلبي، أو فيما تأخّر من لغة العرب، وإلاّ فيطلق على غيره كما ذكر في القاموس في إطلاقه على الزعفران، وكاستعماله في ذي الروح كقولك جسد زيد، ومنه ما في هذه الزيارة الشريفة، إلاّ أن يقال إنّما يطلق على ذي الروح من حيث هو بدون روح أي يراد به عند الإطلاق غير الرّوح لا الروح ولا المركب منهما، ولعلّ اختصاص أهْلِ الصِّناعةِ به في المعادِنِ من هذا القبيل، إمّا لأنّها لا أرواح

فيها أوْ لأنّهم فرضوا ناقصها كالرصاصين والنحاسَيْن ومتوسطها كالفضّة وكالزئبق وتامّها كالذّهب بالنِسبَةِ إلى الإكسير الذي يكملّها كالستّة الأول أو يجعلها مكملةً لغيرها كالذهب كالأجساد من غير أرواح والرّوح هو الإكسير، ولعلَّ اختصاص أصحاب الأفلاك بالجسم للطافتها كالأرواح أو لفرض ملازمة نفوسها لها على الدوام كما هو رأي أهل الطبيعة وجرى اصطلاح المسلمين منهم على ذلك لكون كلامهم معهم في مطلق تلك الأجرام.

وأمّا الجسم بقول مطلق فهو المتحيّز الذي يقبل القسمة في الجهات الثلاث وهو إما مطلق بسيط أي لا تركيب فيه كما قيل، وهذا يسمّى جسماً من حيث جوهره وذاته ويسمى هيولى من حيث قبوله للصورة النوعية.

وإمّا تعليمي وهو ما يعتبر فيه المقدار خاصّة سمّوه بذلك لأنهم يعلمون فيه أولادهم الهندسة التي هي الحدود والخطوط لا غير.

وإما طبيعي لتعلّق البحث فيه من حيث الطبيعة، وأحاديث أهل العصمة عليهم السلام وأدعيتهم تارة يستعمل فيها أجسامهم وتارة أجسادهم وتارة أجسادهم وأجسامهم وتارة أجسامهم بدل أجسادهم ولهم صلّى الله عليهم في مخاطباتهم للمكلّفين اعتبارات لا يطّلع على كلِّها إلاّ هم، والمعروف عند من يعرف شيئاً من لغاتهم سلام الله عليهم أنّ الأجساد تطلق في مقابلة الأرواح والأجسام في إطلاقها أعمُ من ذلك والأشباح كالأجساد والأرواح كالأجسام.

واعلم وفّقك الله أنّ الإنسان له جَسَدانِ وجسمانِ.

فأمّا الجسد الأوّل فهو ما تألّف من العناصر الزمانيّة وهذا الجَسَد كالثوب يلبَسُه الإنسان ويخلعه ولا لذّة له ولا ألم ولا طاعة ولا معصية، ألا ترى أنَّ زَيْداً

يمرض ويذهب جميع لحمه حتى لا يكاد يوجد فيه رطل لحم وهو زيد لم يتغيّر وأنت تعلم قطعاً ببديهتك أن هذا زيد العاصي ولم تذهب من معاصيه واحدة، ولو كان ما ذهب منه له مدخل في ذهاب المعصية لذهب أكثر معاصيه بذهاب محلّها ومصدرها، وهذا مثلاً زيدٌ المطيع لم تذهب من طاعاته شيء إذ لا ربط لها بالذاهب بوجه من الوجوه لا وجه علّيّة ولا وجه مصدريّة ولا تعلقٍ ، ولو كان الذّاهب من زيدٍ لذهب بما يخصّه من خير وشرّ وكذا لو عفِن وسمن بعد ذلك هو زيد بلا زيادة في زيدٍ بالسمن ولا نقصان فيه بالضعف لا في ذاتٍ ولا في صفاتٍ ولا في طاعة ولا في معصية.

والحاصل هذا الجسد ليس منه وإنّما هو فيه بمنزلة الكثافة في الحجر والقِلى فإنهما إذا أُذيبا حصل زجاج وهذا الزجاج بعينه هو ذاك الحجر والقِلى الكثيفانِ لمّا ذابَ زالَتْ عنه الكثافة وليست من الأرض فإن الأرض لطيفة شفّافة وإنّما كثافتها من تصادم العناصر، ألا ترى الماء إذا كان ساكناً كان صافياً ترى ما تحتَهُ فإذا حرّكته لم تر ما فيه وهو يتحرك لتصادم بعض أجزائه ببعض مع قليل من الهواء فكيف بتصادم الطبائع الأربع وهذا الجسد كالكثافة في الحجر والقِلى ليست من ذاتهما.

ومثال آخر كالثوب فإنه هو الخيوط المنسوجة وأمّا الألوان فهي أعراض ليست منه يلبس لوناً ويخلع لوناً وهو هو، ولعل قول علي عليه السلام في جوابه للأعرابي في النفس الحسيّة الحيوانية يشير إلى ذلك حيث يقول (فإذا فارقت عادت إلى منه بُدِئت عود ممازجة لا عود مجاورة فتنعدم صورتها ويبطل فعلها ووجودها ويضمحل تركيبها) هـ ، حيث صرّح بعدم صورتها وبطلان وجودها واضمحلال تركيبها.

وأما الجسد الثاني فهو الجسد الباقي وهو الطينة التي خلق منها ويبقى في قبره إذا أكلت الأرض الجسد العنصري وتفرّق كل جزء منه ولحق بأصله فالناريّة تلحق بالنار والهوائية تلحق بالهواء والمائيّة تلحق بالماءِ والتّرابيّةُ تلحق بالترابِ يبقى مستديراً كما قال الصّادق عليه السلام وقد قال علي عليه السلام في النفس الناميّة النباتيّة (فإذا فارقت عادت إلى ما منه بُدِئَتْ عود ممازجةٍ لا عودُ مُجاورةٍ) وعنى بها هذا الجسد العنصري الذي ذكرنا.

وأمّا الثّاَني الباقي هو الذي ذكره الصادق عليه السلام (تبقى طينته التي خلق منها في قبره مستديرة) أي مترتبة على هيئة صورته أي أجزاء رأسه في محل رأسه، وأجزاء رقبته في محلها، وأجزاء صدره في محلّه وهو تأويل قوله تعالى (وَما مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ) وهذا الجسد هو الإنسان الّذي لا يزيد ولا ينقص يبقى في قبره بعد زوال الجسد العنصري عنه الذي هو الكثافة والأعراض.

فإذا زالت الأعراض عنه المسمّاة بالجسد العنصري لم تره الأبصار الحسيّة، ولهذا إذا كان رميماً وعدماً لم يوجد شيء حتى قال بعضهم أنه يعدم وليس كذلك، وإنما هو في قبره إلاّ أنّه لم تره أبصار أهل الدنيا لما فيها من الكثافة، فلا ترى إلاّ ما هو من نوعِها.

ولهذا مثّل به الصادق صلوات الله عليه بأنه مثل سحالة الذهب في دكان الصائغ يعني أن سحالة الذهب في دكان الصائغ لم ترها الأبصار فإذا غسل التراب بالماء وصافاه استخرجها، كذلك هذا الجسد يبقى في قبره هكذا، فإذا أراد الله سبحانه بعث الخلائق أمطر على كل الأرض ماء من بحرٍ تحت العرش أبرد من الثلج ورائحته كرائحة المني يقال له صاد وهو المذكور في القرآن.

فيكون وجه الأرض بحراً واحدا فيتموج بالرياح وتتصفّى الأجزاء كل شخص تجتمع أجزاءُ جسده في قبره مستديرة أي على هيئة بُنْيَتِهِ في الدنيا أجزاء الرأس ثم تتصل بها أجزاء الرقبة ثم تتصِل أجزاء الرقبة بأجزاء الصدر والصّدر بالبطن وهكذا، وتمازجُها أجزاء من تلك الأرض فينمو في قبره كما تنمو الكُماءةُ في نبتها، فإذا نفخ اسرافيل في الصور تطايرت الأرواح كلّ روح إلى قبر جسدها فتدخل فيه فتنشق الأرض عنه كما تنشق عن الكماءة فإذا هم قيام ينظرون، وهذا الجسد الباقي هو من أرض هُورقليا وهو الجسد الذي فيه يحشرون ويدخلون به الجنّة أو النار.

فإن قلتَ: ظاهر كلامِك أن هذا الجسد لا يبعث وهو مخالف لما عليه أهل الإسلام من أنّها تبعث كما قال تعالى (وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ).

قلتُ: هذا الّذي قلتُ هو ما يقوله المسلمون قاطبة فإنهم يقولون أن الأجساد التي يحشرون فيها هي هذه التي في الدنيا بعينها ولكنّها تصفّى من الكدورة والأّعراض، إذ الإجماع من المسلمين منعقد على أنّها لا تبعث على هذه الكثافة بل تصفى فتبعث صافية وهي هي بعينها وهذا الذي قلتُ وإيّاه أردتُ، فإنّ هذه الكثافة تفنى يعني تلحق بأصلها ولا تعلّق لها بالروح ولا بالطاعة والمعصية ولا باللذة والألم ولا إحساس لها، وإنّما هي في الإنسان بمنزلة ثوبه وهذه الكثافة هي الجسد العنصري الذي عنيتُ فافهم.

وما ورد عن أهل البيت عليهم السلام من أن أجسادهم الآن رفعت إلى السماء فإنّ الحسين عليه السلام لو نُبش في أوّل دفنه لرُئيَ والآن لم ير، وإنّما هوالآن معلق بالعرش ينظر إلى زوّاره إلى آخر معنى ما روي فمحمول على مفارقة الأجساد العنصريّة

التي هي البشرية للأجساد الأصليّة فلم تدركها بعد مفارقة البشريّة أبصار أهل الدنيا وقد تقدم فراجع.

وأمّا الجسمان فالأوّل هو ما تخرج به الروح وهو مع الروح ويفارق الجسد الباقي والموت يحول بينهما وهو مع الروح في جنّة الدنيا عند المغرب وتأتي فيه إلى وادي السلام وتزور فيه بيته ومحلّ حفرته، وروح المنافق مع ذلك الجسم في نار الدنيا عند مطلع الشمس وعند غروبها تأوي فيه إلى برهوت وتسري فيه في وادي الكبريت في المركّبات المسخوطات الملعونات.

وذلك حال الفريقَيْن إلى نفخة الصعق ثم تبطل الأرواح فيما بين النفختين وتبطل كل حركة من الأفلاك ومن كل ذي روح ونفس حيوانيّة أو نباتية وذلك مدة أربعمائة سنةٍ ثم يبعثون في الأجسام الثانية، وذلك لأن تلك الأجسام تصفى وتذهب كثافَتُها وهي الأجسام الأولى كما قلنا في الأجساد حرفاً بحرف ويحشرون في الأجسام الثانية، وهي هذه الّتي في الدنيا بعينها لا غيرها وإلاّ لذهب معها ثوابهم وعقابهم.

ولكن هذا الجسم الذي في الدنيا هو بعينه هذا المرئيّ لطيف وكثيف، فأمّا الكثيف فيُصَفّى وتفنى كثافته التي سمّيناها الجسد الأول العنصري ويبقى لطيفه في قبره وهو الجسد الثاني الباقي.

وأمّا اللطيف فيظهر به في البرزخ وهو مركب الروح وهيكلها إلى نفخةِ الصور فيُصَفى وتذهب كثافته الّتي سمّيناها جسماً أوّليّاً، ويبقى لطيفه في الصور في ثلاثة مخازن وتذهب الكثافة بالتصفية من ثلاثة مخازن وهذه الستّة المخازن في ثقبة تلك الروح فتأتي الروح بها في المخازن الثلاثة العليا إذا نفخ إسرافيل نفخة النشور وتنزل إلى القبر وتلج بها معها في ذلك الجسد اللطيف فيحشرون.

واعلم بأنك لو وزنتَ هذا الجسد في الدنيا وصُفِّيَ بعد الوزن حتى ذهب منه الجسد العنصرْي وبقي الجسد الباقي الذي من هورقليا ثم وزنْتَهُ وجدتَهُ لم ينقص عن الوزن الأوّل قدر حبّة خردل، لأن الكثافة التي هي الجسد العنصري عرض والأعراض لا تزيد في الوزن دخولاً ولا تنقص خروجاً.

فلا تتوهّم أن المحشور والمثاب والمعاقب شيء غير ما هو موجود في الدنيا وإن غُيِّر وصفّي بل هو واللهِ هذا بعينه وهو غيره بالتصفية والكسر والصوغ، كما قال الصادق عليه السلام في قوله تعالى (كُلَّما نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْناهُمْ جُلُوداً غَيْرَها لِيَذُوقُوا الْعَذابَ) وفي الاحتجاج للطبرسي عن حفص بن غياث قال (شهدت المسجد الحرام وابن أبي العوجاء يسأل أبا عبد الله عليه السلام عن هذه الآية فقال ما ذنب الغير قال ويحك هي هي وهي غيرها قال فمثل لي ذلك شيئا من أمر الدنيا قال نعم أرأيت لو أن رجلا أخذ لبنة فكسرها ثم ردها في ملبنها فهي هي وهي غيرها) .

وفي تفسير علي بن إبراهيم قيل لأبي عبدالله عليه السلام (كيف تبدل جلودهم غيرها فقال أرأيت لو أخذت لبنة فكسرتها وصيرتها ترابا ثم ضربتها في القالب أهي التي كانت إنما هي ذلك وحدث تغير آخر والأصل واحد) انتهـى.

فبيّن عليه السلام أنّ هذه الجلود المبدّلة غير جلودهم وهي جلودهم، فالمغايرة مغايرة صفة فكذلك ما نحن فيه فإنّ الجسد الذي في الدنيا المرئي بعينه هو المحشور بعد التصفية كما ذكرناه مكرّراً.

فإذا فهمت ما ذكرنا فاعلم أن المراد بالأجساد المذكورة الأجساد الباقية لا الأجساد العنصريّة التي هي نفس الكثافة لأنّ هذه ليست شيئاً معتبراً في حقيقة

الأجساد إلاّ كاعتبار العصف في الحب وقوله تعالى (وَمِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ إِذا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ)يراد به أنه تعالى خلق الإنسان من نطفة أمشاج أي من نطفة أبيه ونطفة أمّه وتلك النطفة خلقها تعالى منْ صفوة الغذاء وخلق تعالى الغذاء من صفوة التراب فكان هذا التراب الظاهر المعروف هو محلّ قوى العناصر ومطرح أشِعّة الكواكب الحاملة لقوى طبائعها الحاملة لأشعّة نفوسها، فالوجود الفائض بفعل الله تعالى من كتم غيب الإمكان كامن في جواهر الوجود وهي مجتمع ذلك الوجود الفائض بقوابله وانفعالاته.

وهذه الجواهر كامنة في رقائق تنزلاته المعبّر عنها بورق الآس الأخضر وهي كامنة في الصور النفسيّة المعبّر عنها بالذرّ وعالم الأظلّةِ، وهذه كامنة في الطبائع والهيولى المتقوّمة في ظهورها بالأشباح وهذه كامنة في طبائع الكواكب ونفوسها وتؤدّي الكواكب ما استُودِعَتْ بمن جعله الله سبحانه قائماً عليها ومدبّراً لها ووكيلاً على نفوسها وأفعالها وحركاتها وجميع ما يراد منها بخلقها من الملائكة المدبّرة أمرها في أحكام العِلّيّة، وأمر مطارحِ أشعَّتِها وأحكام سَبَبِيتها وأمر مسبَّبات مواليدِها إلى مطارحها من الترَاب والمعادن والنباتات والحيوانات ثم من الأغذية والنُّطف إلى أنْ تتكوَّنَ الأجساد من العناصر وهي أكمام الأجساد الباقية وهي مراكب الأجسام الحاملة للأرواح.

فإذا قيل الأجساد يراد منها الباقيه لا الفانية العرضيّة التي صحبت آدم عليه السلام عند نزوله من الجنّة ولزمت ذرّيته لمحل الخطايا والتقصيرات.

وأمّا الأئمة عليهم السلام فما لحقهم ذلك إلاّ مجازاً لأجل أهل التقصيرات (وَلَوْ جَعَلْناهُ مَلَكاً لَجَعَلْناهُ رَجُلاً) وبهذا يظهر لك جواب ما قيل إنه قد ثبت عن الصادق عليه السلام

ما معناه (ما ذهب مالك في برٍّ أو بحرٍ إلاّ ولله فيه حق ولا صيدَ صيْد في برٍّ أو بحرٍ إلاّ بتركِ الذكر ذلك اليوم) فكيف هذا وقد قُتِل الأئمّة عليهم السلام ونُهِبَت أموالهم.

والجواب ما أشرنا إليه أنّ ما لحقهم من ذلك فليس على الحقيقة وإنما هو على المجاز حيث انضمّ إليهم واحتُسب عليهم من ضعفاء شيعتهم ومحبّيهم أهل المعاصي والذنوب والتزموا عليهم السلام بتقصيرات محبّيهم فلحقهم ما سمعتَ، ويحتمل أن يراد بالأجساد الأعمّ فإرادة الفاني لكونه حامِلاً للباقي والحاصل أن الأمر الجامع لهذه الفقرات شيء واحدٌ أنّ أجسادهم عليهم السلام في أجساد من سواهم كالسّراج في أشعّته وعكوسات الأشعّة من الأظلّةِ اللازمة لها التي هي أمثلة أجساد أعدائهم وأرواحهم في أرواح من سواهم ونفوسهم في نفوس من سواهم بنسبةٍ واحدةٍ هذا على ظاهر الحال وإلاّ فالأمر أعظم من هذا لما ذكرنا مراراً فيما تقدّم مما روي عنهم صلى الله عليهم أن قلوب شيعتهم خلقت من فاضل أجسامهم.

يعني أن قلوب شيعتهم خُلِقَتْ من أشعّة أجسامهم ومن عرف هذا تبيّن له إن وُفِّق له أنّ قلوب شيعتهم المدركة للكليّات نسبتُها في نُوريّتِها إلى نوريّة أجسامهم صلى الله عليهم كنسبَةِ الواحد إلى السَّبعين، وهذه نسبة الشّعاع إلى المُنير، فإذا غمض عليك هذا فاعتبر بما روي عن سيّد الشهداء عليه السلام لعن الله قاتِلَهُ وظالمَهُ أن رأسه الشريف يقرأ القرآن وهو على رأس السِّنَانِ حتى سُمِع يقول (أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيم كانُوا مِنْ آياتِنا عَجَباً).

فأسألك بالله هل تعرف من نَفْسِك أنّك أعلم بكتابِ الله وبمعناه وظاهره وباطنه وتأويله من رأس الحسين عليه السلام وهو جزءُ جسمِه أم لا.

فإن قلت: أجد في نفسي ذلك فلسْتَ من شيعتِهم ومُحبّيهم والعياذ بالله.

وإن قلتَ لا أجد ذلِك فذلِك ما قلتُ لكَ إلاّ أنّ المخاطبات وما يجري مجراها من الأدعية والزيارات تجري على المتعارف ، فلذا قلنا إنَ أجسادهم عليهم السلام في أجساد من سواهم كالسراج في أشِعّته، والأمر الواقع أن أجسادهم في أجساد من سِواهم كجرم الشمس في شعاع القمر يعني مثل ما هو أربعة آلاف وتسعمائة في واحدٍ من أفراد ذلك العدد.

ثم إن المعنى هنا مثل ما تقدّم في نظائره في الفداء يعني بأبي أنتم وأمي ونفسي وأهلي ومالي أفدي أجسادكم في الأجساد أي ما بين الأجساد أعني بما هو عزيز عليَّ وحبيبٌ لديّ وأبذله وقايةً لأجسادكم من كل محذورٍ ومكروه، على كل حالٍ يوافقُ مرادكم فعلى، هذا المعنى من قال ذلك من شيعتهم وزائريهم غير عاملٍ بما أمروا به كذّبوه في ما يدّعيه إلاّ أن يتجاوَزُوا ويتركوا حقّهم ، فإنّ ذلك إليهم لأنّ الأعمال الصالحة بالنيّة المخلصة على نهج ولايتهم وولاية أوليائهم والبراءة من أعدائهم وممّن رضي بفعالهم وأقوالهم إلى يوم القيامة هي جُلّ نُصرتهم والمجاهدة بينِ أيديهم لأعدائهم الظاهرة والباطنة، بل كل نصرتهم ووقايتهم عن كُل ما يكرهُونه، نعم لو قال ذلك بنيّة التوبة أو متلبساً بالندم أو بالخضوع والحياء معترِفاً في نفسه بالتقصير قبلوا منه هَدْيَه فيتصدّق بثلثه على شيعتهم المستحقّين.

فإن تمكّن أن يجعل هذا الثّلث الذي تصدّق به من هديه مواخاة لهم فذلك المطلوب والغاية وإلاّ فتعارُفٌ وهو أقلّ المجزي وثلث من ذلك الهدى يهديه إليهم صلّى الله عليهم وهو التسليم لهم والردّ إليهم والتفويض إليهم كما تضمّنَتْه الزيارة التي رواها الشيخ رحمه الله في المصباح في شهر رجب التي أوّلها (الحمد لله

الذي أشهدنا مشهد أوليائه في رجب) إلى أن قال فيها (أنا سائلكم وآملكم فيما إليكم التفويض وعليكم التعويض فبكم يجبر المهيض ويشفى المريض وما تزداد الأرحام وما تغيض إني بسركم مؤمن ولقولكم مسلم وعلى الله بكم مقسم ... إلخ) .

ومن ذلك الاعتماد والاتّكال كما في الدعاء المنقول عن السيد رضي الدين علي بن موسى بن طاوس قدّس الله سرّه عن الحجّة عليه السلام (اللهم إن شيعتنا منا خلقوا من فاضل طينتنا وعجنوا بماء ولايتنا اللهم اغفر لهم من الذنوب ما فعلوه اتكالا على حبنا وولنا يوم القيامة أمورهم ولا تؤاخذهم بما اقترفوه من السيئات إكراما لنا ولا تقاصهم يوم القيامة مقابل أعدائنا فإن خفّت موازينهم فثقلها بفاضل حسناتنا) انتهى، فافهم الإشارة واتّخذها بشارةً.

واعلم مع ما سمعتَ أنّه قَدْ جاءتِ الأخبار الصحيحةُ عنهم عليهم السلام أنّ الله سبحانه لا يتجاوز ظلم ظالم وجاء أيضاً أنه لا يُنجِي إلاّ العمل الصالح مع عفو الله وغير ذلك فتخلّص من التنافي من غير إنكار، فإن الإنكار هو الكفر وعليك فيما أشكل عليك الردّ إليهم فإن الردّ إليهم نصفه من الاعتماد والاتّكال والنصف الآخر من ثلث الهدى الباقي، وهو الذي تأكل منه ولكن لا تأكل منه إلا أن تذكر اسم الله عليهم اللهم صلِّ على محمد وآل محمد كما صلّيت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد.

فبأحبِّ الأشْياء إليّ وأعزِّها لديّ أفدي أجسادكم من بين الأجساد وأخصها لشَرفِها وعليّتها وبقائها وتأصّلها وتقدّسها وطهرها إذ كلّ ما سواها من جميع الأجساد، بل والنفوس ناقص منحطّ الرّتبة في كل مقام هذا كله على ظاهر الحال.

ولو سلكت طريقَ التأويل وظاهر الظاهر جاز لكَ أنْ تُريد بالأجسادِ المَفْدِيةِ مالَهُمْ من أجْسَادِ غيرهم، فإنّ حقائق أجساد ما سواهم لهم وهم أولى بها من غيرهم فإنّهم يلبسون ما شاءوا ويخلعون ما شاءُوا فَهُمْ أولى بجسدِ زيدٍ منْه لأن ذلك الجسد من شعاعهم أعطوه زيداً عاريةً فَهُمْ أولى به من زيدٍ لأنَّ المادّة لهم ومنهم وقد تقدمت الإشارة إلى هذا مِراراً فراجع.

وإنّما جاز هذا بمعنى أنهم اختصّوا ببعضٍ منها دون بعض مع أنّ كلّها لهم لأنهم إنّما يلبسون أحسنها لبُعْدِه عن التغيير أو لقلّة التغيير فيه لاستقامة طبيعة من ألبسوه إيّاه أوْ لصلاحه وعمله المُوَافق لسنّتهم، فَقَلَّ تغييرهُ فكانَتْ صورته أقرب إلى حاله حال بُروزِه عنهم عليه السلام فلذا حَسُنَ أن يفدى لشرفه وإرادته مع أنه خلاف الظّاهر لتنزيه أجسادهم الأصليّة عن الذكرِ أو لعدم الاطّلاع عليها من سائر الخلق، فإرادة أمثالها أولى ومثال ذلك في الاستشهاد بكلام قيس بن الملوّح مجنون ليلى حسَنٌ قال شعرا:

سلامي على جيران ليلى فإنّها
أعزُّ على العُشّاق مِنْ أنْ يُسَلمَا
فإنّ ضياء الشمسِ نورُ جَبينها
نعم وجهُها الوضّاحُ يُشْرِقُ حَيْثُما

وإنّما قلنا: أنهم يلبسون أحسنها إذا لم يحصل صارف عن الأحسن من سبب القابليّة كما كان جبرائيل عليه السلام في كل وقت ظهر فيه لأحد من الأنبياء أو حين ظهر لمريم عليها السلام فإنه يظهر في أجمل صورة في ذلك الزمان كما كان يظهر لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم في صورة دحية بن خليفة الكلبي لأنه أجمل أهل زمانه.

وذلك لما قلنا من أن أجمل صورة توجد في زمان الظهور تكون أقرب إلى تلك الحقيقة الطاهرة الطيّبة لاعتدال مزاجها وإن كانت لا تبلغ اعتدال تلك الحقيقة الطيّبة فإنه لو خرج محمد ﷺ أو الأئمة عليهم السلام على ما هم عليه من جمال صورتهم المطابقة لحقيقتهم لما رءاهم أحدٌ من ملك أو نبيّ أو غيرهما إلاّ وصعق لوقته، ولكنّ الله سبحانه قدر ظهورهم على قدر احتمال من دونهم ممن يظهرون له كما أشْرنا فيما تقدم من أن نورهم يزيد على الشمس بألفِ ألفِ ألف مرّة وأربعة آلاف ألف مرّة وسبعمائة ألف مرّة وعشرة آلاف مرّة.

وإنّما قلنا: إذا لم يحصل صارف عن الأحسن من سبب القابليّة ، لأنه لو حصل صارف كذلك لبِسوا ما اقتضته القابليّة المتغيّرة، إلاّ أنّه في ظاهرهم بأن يُرى ظاهرهم في ذلك ومن لم يكن على عينيه غطاء رآهم على ما هم عليه في هذه الحال كما ترى الشمس إذا أشرقت على المرايا المتلوّنة بالخضرة والحمرة والصفرة مثلاً وبالاعوجاج والصغر ظهر نورُهَا بلون القابل والبصير لا يرى في نورها تغييراً لأن التغيير إنّما هو في القابل.

ومن ذلك ما رواه ابن أبي جمهور الإحسائي في المجلى ورواه صاحب كتاب أنيس السُّمَرَاءِ وسمير الجلساء في كتابه عن جابر بن عبدالله الأنصاري قال (شهدتُ البصرة مع أمير المؤمنين عليه السلام والقوم قَدْ جمّعوا مع المرأةِ سبعين ألفاً فما رأيتُ منهم منهزماً إلاّ وهو يقول هزمني عليّ ولا مجروحاً إلاّ يقول جرحني علي ولا من يجود بنفسِه إلاّ وهو، يقول قتلني عليٌّ ولا كنتُ في الميمنة إلاّ وسمعتُ صوت عليٍّ ولا في الميسرة إلا وسمعتُ صوتَ علي، ولا في القلب إلاّ وسمعتُ صوته ولقد مررتُ بطلحة وهو يجود بنفسه وفي صدره نبلةٌ فقلتُ له من رماك

بهذه النبلة فقال علي بن أبي طالب عليه السلام فقلتُ يا حزب بلقيس ويا جند إبليس إنّ علياً عليه السلام لم يرم بالنبلِ وما بيده إلاَّ سيفُهُ فقال يا جابر أما تنظر إليه كيف يصعد في الهواء تارة وينزل في الأرض أخرى ويأتي من قبل المشرق مرّة ومن قبَلِ المغرب أخرى وجعل المغارب والمشارق بين يديه شيئاً واحداً فلا يمرّ بفارس إلاّ طعنَهُ ولا يلقى أحداً إلاّ قتله أو ضربَهُ أو أكبَّهُ لوجهه أو قال مُت يا عدوّ الله فيموت فلا يفلت منه أحدٌ فتعجّبت ممّا قال ولا عجب من أسرار أمير المؤمنين عليه السلام وغرائب فضائله وباهر معجزاته، انتهى.

وروي في المجلى أيضاً عن المقداد بن الأسود الكندي (أنّ علياً عليه السلام يوم الأحزاب وقد كنتُ واقفاً على شفير الخندق وقد قتل عمرو بن عبد وِدْ وانقطعت بقتله الأحزاب وافترقوا سبع عشرة «سبعة عشر» فرقة وإنّي لأرى كلّ فرقةٍ في أعقابها علياً يحصدُهم بسيفه وهو عليه السلام في موضعه لم يتّبع أحداً منهم لأنه عليه السلام من كريم أخلاقه أنّه لا يتّبعُ منهزِماً) هـ.

فهذانِ الحديثان صريحان في ظهوره عليه السلام فيما شاء وتعدّد مظاهره ولاسيّما الثاني حيث قال فيه (يحصدهم عليه السلام بسيفه وهو عليه السلام في موضعِه) وأمّا الأوّل فالاستشهاد به ظاهر حيث أنه ظهر في الصورة القبيحة وهي صورة مروان بن الحكم، للاتّفاق على أن طلحة إنّما رماه بالنبلة مروان بن الحكم ولّما كان طلحة قد حضره الموتُ وعاين الملائكة كُشِفَ عنه غطاءه فبصره حينئذٍ حَديدٌ، فشاهد الحقيقة أنّ الّذي رماه هو عليّ عليه السلام في صورة مروان بن الحكم لكونه آلة هلاكه، فاقتضت قابليّةُ هلاكِه على يديه ظهوره عليه السلام في صورته لأن مقتضى قوابل أفعاله سبحانه وتعالى أن تظهر أسباب تعلّقها بالمفعولات على ما اقتضَتْه تلك القوابل تمْشِيةً لأحكام الحكمة الإلهيّة على النظم الطبيعي.

فظهرت صورة رضوان خازن الجنان عليه السلام على أحسن صورة كما هو مقتضى النعيم والتنعم، وظهرت صورة مالك خازن النيران عليه السلام على أقبح صورة لأعدائه كما هو مقتضى التعذيب والتّأليم وأنّ عليّاً صلوات الله عليه ليظهر في أحسن صورة لأوليائه ويظهر في أوحش صورة لأعدائه، وهذا مقتضى الحُب والبُغْضِ فلمّا كان طلحة في حالة النزع والمعاينة وهي حالة كشف الغطاء لم ير مروان بن الحكم وإنّما رأى عليّاً عليه السلام ومن لم يكشف عنه الغطاء لكمالٍ أو لاحتضارٍ لمْ يَرَ علِيّاً عليه السلام وإنّما يُعَاين مَرْوان بن الحكم فعلى عدم وجود الصّارف عن الأحسن ، فلا إشكال في جواز الفداء لتلك الأجساد لتَشَرُّفِها بهِمْ ولأجل هذا استشهدنا بكلام مجنون ليلى حيث يقول: سلامي على جيران ليلى ، وقد تقدّم.

وأمّا مع الصارف عن الأحسن ووجود المقتضى لِلَبْسِ غير الأحْسن فالطّريق فيه مثل توجيه الثّناء على جهة العَدْلِ والحكمة في خلقِ إبليس وخلق الشرّ بعمل المعاصي وخلق الكفر بعمل الكافر فافهم.

وقوله عليه السلام (وأرْواحُكم في الأرواح) يراد منه أنّ الروح هنا غير النفس لذكر النفوس بعد ذلك، نعم قد يراد منه ما هو أعم من ذلك فيشمل العقول إلاّ أن يقال أن العقول في حقهم عليهم السلام غير متعدّدةٍ، وإنّما عقلهم واحد وهو العقل الكلّي وليس بشيء فإنّه كما أن عقولهم غير متعدّدة كذلك أرواحهم غير متعدّدة وإنما هو روح واحدة، والجواب للاحتمالين المتعارضين معاً أن تعدّد الأرواح في حقهم من حيث ظهوره في المتعدّد ظاهر، وكذلك العقول والاتحاد فيهما من وحدة حقيقة عقلهم وحقيقة روحهم فتشمل الأرواح العقول لإطلاق الأرْواحِ عليها.

وأمّا النفوس فلا تراد من الأرواح هنا لذكر النّفوس وذلك لأنّ الروح قد

تطلق ويراد منها النفس كما يقال قبَض روحه أي نفسه، وقد يراد بها العقل كما قال ﷺ (أول ما خلق الله روحي) أي عقلي.

هذا ما يراد من معنى الرّوح من حيث اللّفظ باعتبار استعماله لفظِه، وأمّا ما يراد منه من معناه من حيث الوضع فالعقل هو الكون الجوهري وهو المعاني المجرّدة عن المادة العنصريّة والمدّة الزمانية والصورة النفسيّة والمثالية وهو محل المعاني أيضاً وهو مدرك المعاني كذلك بنفسه، ويدرك الصور النفسانية بالنفس والمثالية بالخيال والأشباح الماديّة بالحواسّ الظاهرة، فإذا أدرك المعاني بنفسه فهو حينئذٍ كتابٌ في قرطاس فهو هي في نوره.

وأمّا النفس فهي الصورة المجرّدة عن المادة العنصرية والمدّة الزمانية وليست مجرّدة عن الصورة النّفسيّة، وعلى الحقيقة مجرّدة عن الصورة المثاليّة، فزيد في العقل معنى لا صورة له بل هو كالنطفة أي كما هو في النطفة والعلقة وفي النفس مثله إذا كسي لحماً وأنشي خلقاً آخر.

وأمّا الروح فهي برزخ بين العقل والنفس فزيد فيها كالمُضْغةِ والعظام، فالعقل صورته الألف القائم هكذا( ) والنفس صورتها الألف المبسوطه هكذا (ـــــ) والروح صورته الألف القاعد هكذا ( ) على هيئة قائم الزاوية فقيام العقل كناية عن بساطته وانبساط النفس كناية عن انتشاره لكثرة الصور وقعود الروح كناية عن بَرْزخيته، فإنّه بين بين لا كبساطة العقل لأنه لا هيئة له إلاّ المعنوية ولا ككثرة النفس لأنّها عبارة عن الصور بل هي على هيئة وَرَق الآس فإذا قيل ورق الآس في الأخبار فالمراد به الرقائق الرُّوحية يعنى المُضَغ المجردة وهى الأرواح.

وأمّا الذر فهي الصور النفسانية فإنها على صُوَرِهِمْ في الدُّنيا وإنما كانت الروح بصورة ورق الآس لأنّها كاملة في نفسها، وكل كاملٍ مستديرٌ استدارة صحيحة ولما لم تكن تامّة في التجرّد مطلقاً بل لها نوع ارتباطٍ ببعض أفعالها بالجسم وهي في ذاتها وفي بعض أفعالها مجرّدة مفارقة كان وجهها الأعلى متوجهاً إلى العقل بكل ذاتها وببعض أفعالها كان ما يلي الجهة العليا منها، يعني ما يلي العقل دقيقاً للطافته ومفارقته للارتباط وكان أسفلها واسعاً لِغلَظِه وتعلّقه في الجملة بالأجسام .

فلما ارتبطت ببعض أفعالها السفليّة بالأسفل الذي هو الجسم ومالت بطبعها إلى جهة العقل صاعدة إلى نحوه امتدّت فكانت صورتها باعتبار فعليْها العلوي المفارق والسفلي المقَارِن كصورة ورق الآس، والرُّوح هي الكون الهوائي والنفس هي الكون المائي كما روي عن جعفر بن محمد عليه السلام والعقل في أنوار العرش هو الأبيض والروح هو الأصفر والنفس هو الأخضر).

ومثل هذا قوله عليه السلام (وأنفسكم في النّفوس)

أمّا الإشارة إلى المعنى المراد من النّفس فقد ذكرناه قبل هذا وهنا مع ذكر الرّوح على جهة الإشارة إلى بعض أحوالها ونقول هنا أن النفس المذكورة يراد منها صدر العقل ومركبه لأن النفس إذا أطلقت يراد منها أحد أمور.

أحدها: الكليّة الأوليّة، وهي بقولٍ مطلق حقيقة الشيء من حيث ربّه ويراد منها الوجود والنور الذي خلق منه والفؤاد والنفس التي من عرفها فقد عرف ربّه وحقيقته من حيث نفسه ويقال لها الماهيّة وهذه خلقت من نفس الأولى من حيث نفسها أي من جهة انفعالها وقبولها للإيجاد وهي حقيقة الظلمة فيه وأصل الشرور والمعاصي.

كما أن الأولى حقيقة النور فيه وأصل الخيرات والطاعات وحقيقته مطلقاً وهي العَيْن والمائيّة ومجمع البحرين وهي النفس النّاطقة المشار إليها في تمييزها بِأنَا، وذلك قول علي عليه السلام كما رواه في الغرر والدرَر الشيخ عبد الواحد بن محمد بن عبد الواحد الأيدي قال عليه السلام (وخلق الإنسان ذا نفس ناطقة إن زكاها بالعلم والعمل فقد شابهت جواهر أوائل عللها وإذا اعتدل مزاجها وفارقت الأضداد فقد شارك بها السبع الشداد) هـ.

أقول: وتمام اعتدال مزاجها وكماله كما قال عليه السلام إذا كان نصفها الأسفل نفساً كاملةً كما يأتي ولا يكونُ كذلك إلاّ إذا كان الأعلى هو الماء الذي كان العرش عليه فإذا كان كذلكَ كانت به هي قلب العبد المؤمن الذي قال تعالى فيه (ما وسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن).

وثانيها: النفس الأمارة بالسُّوء المعبّر عنها بالجهل ولها سبع مراتب.

الأولى: الأمّارة بالسّوء شأنها الخروج عن الطاعة وفعلها المعاصي.

والثانية: الملهمة وهي الأولى بعد أنْ تُعَلّم بعض الخيرات يكون لها تَروُّحٌ وانتباهٌ مع ما هي فيه من الحالة الأولى.

والثالثة: اللوّامة وهي الأولى بعد أن تُعَلّم بعض الخيرات وتتعلّم وتعمل فتكون لها حالتانِ وَمَيْلانِ مَيْلٌ بحقيقتها فهي حالة الأمّارة بالسوء وميل بالحالة الثانية من تَطبّعِها وفعْلِها بعض الخيرات فتلومُه على فعل الخير بطبعها وعلى فعل الشرّ بتَطَبُّعِهَا.

والرابعة: المطمئنّة وهي إذا تركت طبعها وتطبّعت بأطباع العقل وكانت أخته حين علّمها ممّا علّمه الله فتعلّمت وتخلّقَتْ بالخيراتِ كمال قال تعالى في التّأويل

﴿فَإِنْ تابُوا وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكاةَ فَإِخْوانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾، فحينئذٍ يرضى بفعلها العقل ويأكل من صَيْدِها كما في تأويل قوله تعالى ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللهُ﴾ .

فإن الله سبحانه علّم العقل بأنّ العبد لا يملك شيئا بل كلّما كسب وحصل فهو لسَيِّدِه لا يأكل منه إلاّ ما أطعمه منه ولا يمضي حتى يأذن له ويترك إذا أمره بالترك، فهذا حال العقل في معاملته مع ربّه وهو حال العبد المطيع مع سيده ، فلذا قال تعالى في ذكر الكلاب المعلّمة للصّيد قال ﴿وَما عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللهُ﴾ فإن الله علّمهم بأنّ العبد لا يكون صادقاً مع سيّده إلاّ بما ذكرنا ونحوه فعلِّموا كلابكم بنحو ما علّمكم الله بأنهنّ لا يأكلن ما يصِدْنَ ولا يمضين إذا رأينَ الصيد إلاّ بأمر صاحبهن، وإذا أمرهُنَّ بالتّركِ تركن ، فإذا كنّ كذلك فقد تعلّمن ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ فكذلك النفس إذا علّمها العقل بأنّها لا تفعل شهوتها إلاّ بأمره، وإذا أمرها بالترك تركت وإذا فعلَتْ شهوتَها بأمرِه إنما فَعَلتْها له، فكذلك هذه النفس إذا فعَلتْ ما أمرها به العقل من مقتضى ما تعلَّمْته منه فقد سكنَتْ فيما تطبّعت عليه من أخْلاقِ العقل وقَرتْ فهي مطمئِنَّةٌ.

والخامسة: النفس الراضية وهيِ بعدما اطمئنَّتْ واستقامت على الاطمِئنانِ فتح الله عليها باب الرّضا فرضيَتْ بما أجرى عليها من فضل أو عدلٍ، وذلك هو حال صدق العبوديّة فإذا استقامت على ذلك حتّى كانت تلقى كلّما يجري عليها من أحكام القدر بالرّضى رضيها اللهُ ورضي عنها، وهي السّادسة المسمّاة بالمرضيّة لأنّ الله سبحانه رضي عنها ورضيَهَا لنفسِه واصطنعَها له.

والسّابعة: النفس الكامِلة الّتي اعْتَدلَ مزاجُهَا وفارقت الأضداد كما تقدّم عن

علي ﷺ وهي بما قامت مظهر الرحمانية في النَّشْأتَيْنِ الّتي وَسِعَتْ كلّ شَيْءٍ.

وثالثها: اللاّهوتيّة الملكوتيّة الكليّة، وهي قوّة لاهوتيّة وجوهرة بسيطة حيّة بالذاتِ أصلها العقل منه بدأت وعنه وَعَتْ وإليه دَلَتْ وأشارَتْ وعودها إليه إذا كملت وشابهته، ومنها بدأت الموجوداتُ وإليها تعود بالكمال فهي ذاتُ الله العليا وشجرة طوبَى وسدرة المنتهى وجنّة المأوى من عرفها لم يشق ومَن جَهِلها ضلّ وغوى، كما قال علي ﷺ للأعرابي حين سأله عن النفس وهذه النفس هي المسماة باللّوح المحفوظ وهي نفس فلك البروج وكتاب الأبرار فيه لأنّه علّيون، وكتاب الأبرار صورهم وصور أعمالهم وأقوالهم وكثير من معتقداتهم فيها، يعني في ظلِّها وشعاعها وهي في الحقيقة نفس الإمام ﷺ، وهي النفس التي نسبها الله تعالى إليه وسَمَّاها نَفسه ولهذا قال ﷺ (فهي ذاتُ الله العليا).

وقوله ﷺ (أصلها العقل) دَليلٌ على ما قُلْنَاه، وقول عيسى ابن مريم ﷺ (تَعْلَمُ ما فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ ما فِي نَفْسِكَ) في تفسير التّأويل هذه هي النفس التي لا يعلم ما فيها عيسى ويظهر من كلامه ﷺ في قوله (وعودها إليه إذا كملت) أن المراد بهذه النفس هي التي وسعت الرحمانيّة، وهو ما ذكرناه في الكاملة من النفس المقابلة للعقل، وهذه هي مركب العقل، فهي منه لأنّها أوّل مظاهره وتنزلاته بدليل قوله ومنها بُدِئَت الموجودات ولا بأس بذلك إلاّ أنّ هذه ركن من مظهر الرحمانيّة من أربعة أركانٍ فمجموع الأربعة هي العرش بخلاف تلك فإنّها مع ما قامت به تمام المظهر، وهذه الأركان الأربعة التي هي العرش أركان تلك مع ما قامت به ، فإنها مع ما قامت به كزيدٍ مثلاً وهذه الأربعة كالجاذبة والهاضمة والدافعة والماسكة في زَيْدٍ فإنّ حقيقة زيدٍ مرَبّعةٌ بهذه الأربع، وهذه النفس هي

الّتي أشار إليها أمير المؤمنين ﵇ في جوابه لكميل بن زياد قال ﵇ (والكلية الإلهية لها خمس قوى بهاء في فناء ونعيم في شقاء وعز في ذل وفقر في غناء وصبر في بلاء ولها خاصيتان الرضا والتسليم وهذه التي مبدؤها من الله وإليه تعود قال الله تعالى وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي وقال تعالى يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلى رَبِّكِ راضِيَةً)الحديث.

ورابعها: الناطقة القدسيّة وهي قوّة لاهوتيّةٌ بدأ إيجادِها عند الولادة الدنيويّة مقرّها العلوم الحقيقيّة الدينيّة، موادها التأييدات العقليّة، فعلُهَا المعارف الرّبّانيّة، سبب فراقها عند تحلّل الآلاتِ الجسمانيّة، فإذا فارقَتْ عادت إلى ما منه بُدِئَتْ عودَ مُجاورة لا عود ممازَجةٍ، قال ﵇ هذا في جوابه للأعرابي وفي جوابه لكُمَيْل بن زياد قال (لها خمس قوى فكر وذكر وعلم وحلم ونباهة وليس لها انبعاث وهي أشبه الأشياء بالنفوس الفلكية ولها خاصيتان النزاهة والحكمة) انتهـى.

أقول: يجوز إرادة الاتّحاد بين هذه وبين المائيّة المتقدّمة المعبّر عنها بأنَا ، فإنّ هذه قد يُعَبّر عنها بأنا، ويجوز إرادة المغايرة بين المائيّة وبين هذه فإن المراد بتلك العَيْن أي الحقيقة الجامعة لهذه وللوجود، والمراد بهذه القوّة المتقوّمة بذلك الوُجود المعبّر عنه بالمادّة، أي الحصّة الحيوانيّة وهي صورة إجابة تلك الحصّة لدعوة الحقّ وهيئتها المتميّزة بالحدود الشّريفة والمشّخصات الكريمة اللطيفة كالعلم والحلم والصدق والخير والتقوى والمروّة والطاعة والسّخاء وغير ذلك من حدود التقدس والحكمة.

وخامسها: النفس الحيوانية، وهي قوّة فلكيّة وحرارة غريزيّة أصلها الأفلاك، وبدءُ إيجادها عند الولادة الجسمانيّة، فعلها الحياة والحركة والظلم والغشم

والغلبَة واكتساب الأموال والشهوات الدنيويّة، مقرّها القلب، سبب فراقها اختلاف المتولّدات، فإذا فارقت عادت إلى ما منه بُدِئَت عود ممازجة لا عود مجاورة فتعدم صورتها ويبطل فعلُها ووجودُها ويضمَحِلُّ تركيبها).

هذا كلامه عليه السلام في حديث الأعرابي، وفي جواب كميل قال عليه السلام (والحسية الحيوانية لها خمس قوى سمع وبصر وشم وذوق ولمس ولها خاصيتان الرضا والغضب وانبعاثها من القلب) انتهى.

فقوله عليه السلام (أصلها الأفلاك) أي أصل حركتها وجرمها، لأنها بخارٌ تكوّنَ عن الطبائع الأربع المتعلّقة بالدَّم الأصفر المتعلق بالعلقة الدم التي في تجاويف القلب الصنوبري من الجانب الأَيسر أكثر، وذلك البخار تألف من بُخَارٍ حار يابسٍ جزءٌ، ومن بخارٍ حار رطب جزءٌ، ومن بخارٍ بارد رطب جزءانِ ومن بخارٍ بارد يابسٍ جزءٌ فامتزجت وطبختها الحرارة والرطوبة بمعونة تأثيرات أشعّة الكواكبٍ والعناصر حتى نضجت نضجاً معتدلاً وتلطّفت حتى ساوت فلك القمر في التلطّف والاعتدال، فأثّرت فيها نفسه فتحرّكت بحركته.

مثاله إذا قرّبت خشبه يابسةً من الجمر بحيث لا يصل الجمر إليها ولا يماسّها ولكن بحرارته اصفرّت الخشبة واسودّت لشدّة حرارة الجمر فلمّا كلّستها حرارة الجمر حتى وصلت إلى رتبة الفحميّة اشتعلت بالنار وإن لم تماسّها لقربها منها في الرتبة ومساواتها لما تعلّقت به النار، فكذلك هذه الأبخرة فكما أن تلك الخشبة كان وجهها المقارب للحرارة حتى شابه ما اشتعلت به قد تعلّقت به النار حتى كان ناراً، كذلك تلك الأبخرة لمّا نضجت وتلطّفت حتى شابهت فلك القمر تعلّقت نفسه بها فتحركت بحركته، وإنما قال عليه السلام في النفس الناطقة (وبدو إيجادها عند الولادة الدنيويّة).

وقال عليه السلام هنا (وبدو إيجادها عند الولادة) لأنّ النَّاطقة هيئة الإدراك والمعرفة والعلم والفهم فتوجد عند مبادىء أسْبَاب التمييز المعبّر عنه بالولادة الدّنيويّة.

وأمّا الحيوانية الحسيّة فهي من لوازم الجسم، لأن الجسم الحيواني لا يكادُ يَنْفَك عن الحركة الحسية فلأجل ذلِك ذكرها عليه السلام معه فقال (وَبَدْو إيجادها عند الولادة الجسمانيّة).

وسادسها: النفس النباتيّة، وهي قوة أصلها الطبائع الأربع، بدو إيجادها عند مسقط النّطفة، مقرّها الكبد، مادّتُها من لطائف الأغذية، فعلها النموّ والزيادة وسببُ فراقها اختلاف المتولدات، فإذا فارقت عادت إلى ما منه بُدِئَتْ عودَ ممازجةٍ لا عود مجاورةٍ) هذا كلامه عليه السلام للأعرابي وجوابُه لكميل قال (لها خمس قوى ماسكة وجاذبة وهاضمة ودافعة ومربية ولها خاصيتان الزيادة والنقصان وانبعاثها من الكبد)هـ.

أقول: هذه النفس تتألّف من العناصر على نحو ما ذكرنا من حال الحيوانيّة الحسيّة في التأليف، فلا بُدَّ من وجود جزءٍ من الحرارة وجزء من الهواء وجزأين من الماء وجزءٍ من التراب فتجتمع الأجزاء في أرْضِها فتنحلّ بمعونة حرارة الفصل ورطوبته وتكون الأربعة غذاءً واحداً، فتتحرَّك حركة النموّ بما فيها من الحرارة والرطوبة فإذا فارقت عادت إلى ما منْه بُدئت عَوْدَ مُمازجةٍ لا عود مجاورة، يعني أنّ ما فيها من الأجزاء النّاريّة تلحَقُ بالنار العنصريّة فتمتزجُ بها وتلحق الأجزاء الهوائيّة بالهواء فتمتزج بها، والأجزاء المائيّة تلحق بالماء والترابيّة بالتراب فتضمحلّ مميّزات الأجزاء ومشخّصاتها ويمتزج كلّ جزءٍ بأصله.

والظاهر أن المراد بها هنا هي الثالثة وهي اللاّهوتيّة الملكوتيّة الكليّة المسماة

باللوح المحفوظ، وهذه النفس كما وصفها أمير المؤمنين صلوات الله عليه فيما نقلنا عنه هي نفسهم الشريفة، فلذا قال عليه السلام (فهي ذاتُ الله العُلْيَا وشجرة طُوبَى وسدرة المنتهى وجنة المأوى) إلى آخر ما قال عليه السلام.

وإنما قال (فهي ذاتُ الله) لأنه يريد أنّها ذاتٌ خلقها الله تعالى ونسبها إلى نفسه تشريفاً لها، ولأنّها لا تكون في حالٍ من أحوالها لغيره تعالى وذلك قوله تعالى (وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي) وفي الإنجيل (خلقتُكَ لأجلي وخلقتُ الأشياء لأجلك....إلخ) وقال أمير المؤمنين عليه السلام (نحن صنائع الله والخلق بعد صنائع لنا) أي نحن الذين اصطنعنا لَهُ وصنع الخلق لنَا، وجميع الأنْفُس مِنها كالشعاع من المنير فهي نفس النفوس كما رُوِي عنه عليه السلام (أنا ذاتُ الذوات والذّاتُ في الذّواتِ للذّاتِ).

وبالجملة يكون المعنى كما تقدمّ على الوجه الأوَّلِ يعني بما يعزّ عليّ أفدي أنفسكم ما بين نفوس ما سواكم، أو في نفوس الخلق كما تقول أفْدي نفسكَ في جَسَدكَ، فعلى الوجه الأوّل تصدق المغَايَرةُ الصالحة للتّخصيص بالمماثلة، وعلى الثاني إنَّما تكمل الظّرفية إذا اعتبرت الربوبيّة .

فإن فرض الظرف نفوس الخلق مع اعتبار الربوبية كان المفروض مظروف أفعال نفوسِهم وآثارها المتعلقة بنفوس الخلق بالصنع وبالموادّ والصور لشؤونهم عليهم السلام، أي أفدي أفعال نفوسهم وإمداداتهم أو تأثيراتها في نفوس ما سواهم، فقد أحكموا بالله سبحانه الصنع والصنيع كما قال تعالى (فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً)فإنّ النحل بما أوحي سبحانه إليها وألهمها قد أحكمت الصنع والصنيع حيث سَلكَتْ سُبُلَ ربِّها ذُلُلاً فيما علّمها من عمل العسل والشمع وهذا مثالهم ومثال صنعهم وصنيعهم، فبتسبيحهم سبحت الملائكة وبتهليلهم وتمجيدهم

هلَّلُوا ومَجَّدوا وكذلك سائر الخلائق ولولاهم ما عُبِد الله ولولاهم ما عرف الله ولولاهم مَا خَلَقَ الله خلقاً، وحيْثُ خلق فبهم خلق ما خلق وبهم رزق ما رزَق وبهم يُمْسِكُ السَّمَاء أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إلا بِإِذْنِهِ وبهم يحي وبهم يميت، وبهم يحشر الأموات وبهم ينبت النَّباتَ وبهم ينزل الماء من السّماء وبهم فتح الله الخلق وبهم يختم، ولم يكلهم إلى أنفسهم فيفعلون بأنفسهم بل يفعلون بالله لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ولم يتّخذ الله سبحانه غيرهم أعضاداً لخلقه فيفعل بدونهم بل يَفْعَلُ بهم ما شاء ولا يفعل إلاّ بهم لأنهم محالّ مشيّته وألْسِنَةُ إرادته.

وقوله عليه السلام (وآثارُكم في الآثار وقبوركم في القبور).

أقول: قال الله سبحانه (وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ)، الآثار هي أعمالهم وسُنتهم أو آثار أقدامِهم في سعيهم في أعمالهم، يعني أنّا لا نترك شيئاً من أحوالهم حتّى آثار أقدامِهم، أو المراد آثار أعمالهم في أرزاقهم وآجالهم وأعمارهم وقلوبهم وأرواحهم ونفوسهم وأجسامهم وجميع أحوالهم حتى لا نغادر صغيرة ولا كبيرة إلاّ أحصيناها، أوْ آثار هَدْيهم وتعلّمهم وتعليمهم وعلومهم وهدايتهم وإضلالهم وغير ذلك.

فقوله عليه السلام (وآثاركم) يراد منه كما في الآية لأنّه اقتباس منها، والمَعْنى أفدي أعمالكم فيما بين الأعمال وأقوالكم فيما بين الأقوال وأحوالكم فيما بين الأحوال، وعلومكم فيما بين العلوم وما أشبه ذلك، لأنّ آثارهم صلى الله عليهم تُقال على جميع آثار أفعالهم الباطنة كالاعتقادات التي هي المعارف للتوحيد من معرفة صفات أفعال الحق سبحانه، وآثارِها ونبوّة الأنبياء وولاية الأولياء وما يتبعه من أحوال النشأتين وعلى جميع آثار أفعالِهم الظَّاهرة من الأوامر والنَّواهي والآداب

ومَا يَترتّب على شيءٍ مِنْ ذلك من موجبات ثواب أو عقاب أو استنارة قلوب عن أعمال صالحة وسواد قلوب عن أعمالٍ طالحةٍ، ومن علوم أسسَّوها وسُنَنٍ أقامُوها وغير ذلك من الكلم الطيّب والسعي المشكور من حركة أو سكون أو تحريك أو تسكين مما يتعلّق بالقلوب والأعمال والأقوال للدنيا والآخرة لهم ولأوليائهم ولأعدائهم ظاهراً وباطناً، فإنّهم عليهم السلام في ذلك كلّه المبدأ والمعاد فالعلّة الفاعليّة بهم والعلّة الماديّة منهم أي من شعاعهم وظلّهم ، والعلّة الصورية بهم على حسب قوابل الأشياءِ من خيرٍ وشَر والعلّة الغائيّة هم لأنَّ الأشياء خلقت لأجلِهمْ.

أمّا أولياؤهم ومحبّوهم وأتباعهم وسائر الطاعات وأنواع الخيرات فظاهر، وأمّا أعداؤهم ومبغضوهم وأتباعهم وسائر المعاصي وأنواع الشرور فلأنّ وجودها شرط لوجود أضدادِها، فكما أنّ أصلهم عليهم السلام نور وأصل شيعتهم ومحبيهم وأتْباعهم نور وكذلك الطاعات وأنواع الخيرات نور وهم أصل نور شيعتِهم ومحبّيهم وأتباعهم بذواتهم ونور الطاعات وسائر أنواع الخيراتِ فرْع نور أعمالهم.

كذلك أعداؤهم ومبغضوهم أصلهم ظلمة ، وظلمة أصل أتباعهم فرع ظلمة أعدائهم وظلمة أصل المعاصي وأنواع الشرور فرع ظلمة أعمالهم، مثلاً الإمام نور ونور أصلِ شيعتهم فرع نور ذواتهم وشعاعهُ ، وأصلُ الصلاة نورٌ وهو أي أصل الصلاة فرع نور أعمالهم أي فرع نور ولايتهم، وأصل عدوهم ظلمة وأصل الفحشاء ظلمة متفرّعة من ظلمة أعمال عدوّهم وغصبهم مقامهم، وإنّما اتّبعهم أتباعهم على الفحشاء لأن أولئك الأتباع ظلمة أصلهم متفرّعة من ظلمة ذوات متبوعيهم فلذا اتّبعوهم في الأعمال لأن ذلك فرع أتباعهم في الذوات.

وقد ذكر بعض ما ذكرنا الإمام جعفر بن محمد الصادق عليهما السلام (أن الأعمال فروع الرجال) ذكره في الحديث الطويل الذي كتبه للمفضل بن عمر كما رواه الحسن بن سليمان الحلي في مختصر بصائر سعد بن عبدالله الأشعري بسنده إلى المفضل وذلك حين سأله عن أقوام يزعمون أن الدين هو معرفة الرجال فمن عرف أن الصلاة رجل فقد أقام الصلاة وإن لم يصل وكذلك من عرف أن الزنا رجل فقد أقام الدين وإن زنا والحديث طويل في هذا المعنى.

فكتب له الجواب مفصّلاً فكان مما كتبت أن قال (أخبرك أنه من كان يدين بهذه الصفة التي كتبت تسألني عنها فهو عندي مشرك بالله تبارك وتعالى بيّن الشرك لا شك فيه وأخبرك أن هذا القول كان من قوم سمعوا ما لم يعقلوه عن أهله ولم يعطوا فَهْمَ ذلك ولم يعرفوا حد ما سمعوا فوضعوا حدود تلك الأشياء مقايسة برأيهم ومنتهى عقولهم ولم يضعوها على حدود ما أمروا كذبا وافتراء على الله ورسوله ﷺ وجرأة على الوصي فكفى بهذا لهم جهلا) إلى أن قال عليه السلام (فأخبرك حقائق إن الله تبارك وتعالى اختار الإسلام لنفسه دينا ورضي من خلقه فلم يقبل من أحد إلا به وبه بعث أنبياءه ورسله ثم قال وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ فعليه وبه بعث أنبياءه ورسله ونبيه محمدا ﷺ فاختل الذين لم يعرفوا معرفة الرسل وولايتهم وطاعتهم هو الحلال المحلل ما أحلوا والمحرم ما حرموا وهم أصله ومنهم الفروع الحلال وذلك سعيهم ومن فروعهم أمرهم الحلال وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم شهر رمضان وحج البيت والعمرة وتعظيم حرمات الله وشعائره ومشاعره وتعظيم البيت الحرام والمسجد الحرام والشهر الحرام والطهور والاغتسال من الجنابة ومكارم الأخلاق ومحاسنها وجميع البر

ثم ذكر بعد ذلك فقال في كتابه إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسانِ وَإِيتاءِ ذِي الْقُرْبى وَيَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ فعدوهم هم المحرم وأولياؤهم هم الداخلون في أمرهم إلى يوم القيامة فهم الفواحش ما ظهر منها وما بطن والخمر والميسر والزنا والربا والدم والميتة ولحم الخنزير فهم الحرام المحرم وأصل كل حرام وهم الشر وأصل كل شر ومنهم فروع الشر كله ومن ذلك الفروع الحرام واستحلالهم إياها ومن فروعهم تكذيب الأنبياء وجحود الأوصياء وركوب الفواحش الزنا والسرقة وشرب الخمر والمسكر وأكل مال اليتيم وأكل الربا والخدعة والخيانة وركوب المحارم الحرام كلها وانتهاك المعاصي وإنما أمر الله بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى يعني مودة ذي القربى وابتغاء طاعتهم وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي وهم أعداء الأنبياء وأوصياء الأنبياء وهم المنهي من مودتهم وطاعتهم يعظكم بهذه لعلكم تذكرون وأخبرك أني لو قلت لك إن الفاحشة والخمر والميسر والزنا والميتة والدم ولحم الخنزير هو رجل وأنا أعلم أن الله قد حرم هذا الأصل وحرم فرعه ونهى عنه وجعل ولايته كمن عبد من دون الله وثنًا وشَرَكًا ومن دعا إلى عبادة نفسه فهو كفرعون إذ قال أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلى فهذا كله على وجه إن شئت قلت هو رجل وهو إلى جهنم ومن شايعه على ذلك فإنهم مثل قول الله إِنَّما حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ لصدقت) الحديث.

أقول: وهذا الحديث مشتمل على ما هو من هذا النّوع وغيره ممّا هو صريح في كثير ممّا نذكره وذكرناه في هذا الشرح ممّا قد تَشْمَئِزُّ منه القلوب من أسرارِ محمدٍ وأهل بيته الطاهرين ﷺ، وإنّما تشمَئِزُّ منه القلوب من ضعْفِ الإيمانِ

وإلاّ فالواجب على المحبّ الّذي يدّعي إمامتهم ووجوب طاعتهم وأنّهم أولى بالمؤمنين مِنْ أَنْفُسِهِمْ أنّه إذا ورَد عليه منهم الخبر الوارد بالطريق الذي ورد به خبر الوضوء فعمل به على جهة الوجوب في كِتابٍ واحدٍ أنْ يقبلَهُ ويعتقد مضمونه، فإن أنكره عقله لدليل معمولٍ عليه ردّه إلى أهله، وقال هم أعْلَمُ بما قالوا وإنْ أنْكرهُ لا لدليل فعليه أنْ يُخالفَ هوى نفسه إذ الواجب أنْ يعتقد أنّهم أعلم منه ولا يقولون بآرائهم وإنّما هو عن رسول الله ﷺ.

وفي البصائر بسنده عن عنبسة قال (سأل رجل أبا عبد الله عليه السلام عن مسألة فأجابه فيها فقال الرجل إن كان كذا وكذا ما كان القول فيها فقال له مهما أجبتك فيه لشيء فهو عن رسول الله ﷺ لسنا نقول برأينا من شيء).

وروي في البحار عن سُلَيْمُ بْنُ قَيْسٍ في كِتَابِهِ أَنَّ عَلِيَّ بْنَ الْحُسَيْنِ عليه السلام قَالَ لأَبَانِ بْن أَبِي عَيَّاشٍ (يَا أَخَا عَبْدِ قَيْسٍ إِنْ وَضَحَ لَكَ أَمْرٌ فَاقْبَلْهُ وَإِلا فَاسْكُتْ تَسْلَمْ وَرُدَّ عِلْمَهُ إِلَى اللهِ فَإِنَّكَ أَوْسَعُ مِمَّا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ) انتهى.

والأحاديث بهذا المعنى مستفيضة في ذلك فإذا لم تقبل عنهم عليهم السلام إلاّ ما قبلَهُ عَقْلُكَ لم تقبل من رسول الله ﷺ ولا من الله سبحانه وتعالى فليْسَ لك عُذْرٌ مع دعوى التشيّع في عدم القبول إلاّ أنْ تحتَمِلَ عدم صحّة الْوُرود بأن تردّ الخبر بضعف السَّند وبمخالفة المذهب وبجهالة الكتاب وهذا قد يتّفقُ لك في خبرٍ لا دائماً، فإذا ورد في كتاب الكافي مثلاً حديثٌ في الوُضوءِ ولَهُ مُعَارِضٌ إلاّ أنّ سند الأوّل أصحّ مثلاً عملت بالأول ولا تتوقّف في ذلك وليس لك مرجّح إلاّ صحّة السّند والحال أنّك لا تُدْرِكُ الصّحّةَ بعقلك ليكون ما رددتَه غير موافقٍ لعقلك.

وإذا ورد حديث في الكافي بل عشرة أحاديث في الكافي صحيحة السند وليْس

لها مُعارِض إلا أن عقلك لا يدرك معناه فينبغي منك كما قبلت حديثاً له معارض مع أنّكَ لَمْ تدرك معناه وإنّما قبلتَهُ لصحّةِ سندِه أنْ تَقْبَل العشرة الأحاديث الصحيحة التي لا مانع لها إلاّ عدم إدراكك لها، وهذا كحديثِ الوضوء الذي قَبلْتَ مع وجود المعارض وعدمِ الإدْراكِ بل هذه العشرة أولى بالقبول لعدم المعارض ووجود المعارض في حديث الوضوء مع أنّك في أحكام الشريعة التي لا تعرف بعقلِك منها شيئاً تثبت الحكم بحديثٍ واحدٍ له معارض وتدين الله به وتقول هذا حكم الله في حقّي وحق مقلّدي وتؤسّس حكماً تقول هو حكم الله وتجريه عليك وعلى غيرك وتنكر أحاديث متكثّرة لنفسك خاصّة.

فإن قلتَ: العقل ينكرها.

قلتُ: إن أردت عقلك أنت وعقل مثلك فقل أنا لا أعرفه ولا تقل أضرب به عرض الحائط أو هذا من أحاديث الغلاة أو المفوّضة لأنّ من يُؤمن به ويعرفه أكثر من أنْ يحصى، فإن أردت معرفته فاطلبه منهم وتعلّم منهم ولا ترى في نفسك أنّك كبير مستغنٍ عن التّعلّم كما يرونك العوامّ والجهّال، وأنت في نفسك وعند الله سبحانه صغير محتاج للتّعلّم وذلك لأنك تقرّ بتلك الأحاديث وتصدّق كلّ حديثٍ يؤيّدُها على جهة الإجمال فإذا فُصِّلَ لك ما صدّقتَ بمجملة أنكرته، وذلك أنّك تسمع من الأحاديث الصحيحة الواردة في الكتُب المعتبرة أحاديث كثيرة لا ينكر مجملها أحد بل كل أحدٍ يقبلها على سبيل الإجمال وتقبلها بلا شكٍّ منك ولا تردّد، وذلك مثل قولهم عليهم السلام (إن أمرنا هو الحق وحق الحق وهو الظاهر وباطن الظاهر وباطن الباطن وهو السر وسر السر وسر المستسر وسر مقنع بالسر) انتهى، بهذا المعنى أحاديث كثيرة.

ومثل قولهم (إن حديثنا صعب مستصعب لا يحتمله إلا ملك مقرب أو نبي مرسل أو مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان) .

وقولهم (إن حديثنا صعب مستصعب وعِرٌ) وفي آخر (أجرد ذكوان ثقيل مقنّع لا يحتمله ملك مقرّب ولا نبي مرسل ولا مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان قيل فمن يحتمله قال عليه السلام نحن) وفي رواية (من شِئنا أو مدينةٌ حصينة قيل فما المدينة الحصينة قال القلب المجتمع).

وفي آخر (إن حديثنا صعب مستصعب خشن مخشوش فانبذوا إلى الناس نبذا فمن عرف فزيدوه ومن أنكر فأمسكوا لا يحتمله إلا ثلاث ملك مقرب أو نبي مرسل أو عبد مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان) .

وفي حديث آخر في معاني الأخبار عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال (حديث تدريه خير من ألف حديث ترويه ولا يكون الرجل منكم فقيها حتى يعرف معاريض كلامنا وإن الكلمة من كلامنا لتنصرف على سبعين وجها لنا من جميعها المخرج) .

وفي البصائر عن أبي جعفر أو عن أبي عبد الله عليهما السلام قال (لا تكذبوا بحديث أتاكم أحد فإنكم لا تدرون لعله من الحق فتكذبوا الله فوق عرشه) .

وفيه عن أبي الحسن عليه السلام أنه كتب إليه في رسالة (ولا تقل لما بلغك عنا أو نسب إلينا هذا باطل وإن كنت تعرفه خلافه فإنك لا تدري لم قلنا وعلى أي وجه وصفة) انتهى.

وفيه عن أبي جعفر عليه السلام (قَالَ سَمِعْتُه يقول أما وَالله إِنَّ أَحَبَّ أَصْحَابِي إِلَيَّ أَوْرَعُهُمْ وَأَفْقَهُهُمْ وَأَكْتَمُهُمْ لِحَدِيثِنَا وَإِنَّ أَسْوَأَهُمْ عِنْدِي حَالا وَأَمْقَتَهُمْ لَلَّذِي إِذَا

سَمِعَ الْحَدِيثَ يُنْسَبُ إِلَيْنَا وَيُرْوَى عَنَّا فَلَمْ يَقْبَلْهُ اشْمَأَزَّ مِنْهُ وَجَحَدَهُ وَكَفَّرَ مَنْ دَانَ بِهِ وَهُوَ لا يَدْرِي لَعَلَّ الْحَدِيثَ مِنْ عِنْدِنَا خَرَجَ وَإِلَيْنَا أُسْنِدَ فَيَكُونَ بِذَلِكَ خَارِجاً عَنْ وَلايَتِنَا).

وفيه عن سفيان بن السمط قال قلتُ لأبي عبدالله عليه السلام (جُعِلتُ فداك إن الرجل ليأتينا من قبَلِك فيخبرنا عنك بالأمر العظيم فتضيق بذلك صدورنا حتى نكذبَهُ قال فقال أبوَ عبدالله عليه السلام أليس عني يحدثكم قال قلتُ بل قال فيقول للّيل أنه نهار والنهار أنه ليل قال فقلتُ له لا قال فقال ردَّهُ إلينا فإنّك إن كذبت فإنّما تكذِّبُنا).

وفيه عن المفضل بن عمر قال (قلتُ لأبي عبدالله عليه السلام بأي شيء علمت الرسل أنها رسل قال قد كشف لها عن الغطاء قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام بأي شيء علم المؤمن أنه مؤمن قال بالتسليم لله في كل ما ورد عليه) انتهى.

والأحاديث بهذا المعنى كثيرة جداً وأنت تقبَلُها وتنكر تفصيلها.

وما معناهُ إلاّ أنّه يرد عنهم الحديث الذي لا يدرك العقل معناه فيقبله المؤمن بالتسليم ويردّه من ليس بمؤمن وليس معنى المقبول هو ما يدركه العقل فإن ما يدركه العقل يقبله وإن كان حديث كافرٍ ودهري لأنّ الحكمة ضالة المؤمن حيثما وجدها أخذها، وإنّما المراد به ما يقبله من باب التسليم لهم والردّ إليهم باعتقادِ أنّه ليس كلّما قالوه تدركه عقولنا، وإن لم يجب علينا اعتقاده إذا خالف ظاهر الاعتقاد وليس لك أن تقول هذا الذي تردّه مخالف لظاهر الاعتقاد لأن الّذي تردّه موافق في الإجمال كما تعتقده ويخالف تفصيلك لأنّك تفصّل على ما يخالف الإجمالي الذي تعتقده، مثلاً قالوا عليهم السلام (اجعلوا لنا ربّاً نؤُب إليه وقولوا فينا ما شئتم ولن تبلغوا) الحديث.

ومعناه في كل ما تنسب إليهم أي اجعل لهم رباً يرجعون إليه في كل ما تنسبون إلينا لا مطلقاً يعني ليس المراد اجعلوا لنا ربّاً نرجع إليه في العلم بمعنى لا نعلم إلاّ به إلاّ أنّا نقدر بدونه ونسمع بدونه وهكذا، بل المراد أنّا لا نعلم شيئاً حتى في الآن الثاني ممّا علّمنا إلاّ به، ولا نقدر على شيء إلاّ به ولا نحكم على شيء إلاّ به ولا نريد شيئاً إلاّ به ولا نترك شيئاً إلاّ به ولا يكون لنا من الأمر شيء في قليل ولا كثير لا في الدين ولا في الدنيا ولا في الآخرة إلاّ به وهذا معنى (اجعلوا لنا ربّاً نؤُب إليه وقولوا فينا ما شئتم ولن تبلغوا) الحديث.

فتفهّم وتدبّر في هذه الكلمات وما قبلها من كلّ هذا الشرح وما يأتي منه فإنه جارٍ على هذا النحو وهو تفصيل كثير ممّا سمعتموه مجملاً، فإنّ هذا من المستصعب الذي لا يحتمله إلاّ ملك مقرّب أوْ نبي مرسل أو عبد مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان وشرح صدره للإسلام، وهذا الذي علي في النصيحة وكلٌّ ميسّر لما خلق لهُ وكلٌّ عامل بعمله (وَاللهُ يَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيم) .

فقوله عليه السلام (وآثاركم في الآَثار) يراد منه علومهم وأعمالهم وما أقاموه عن أمر الله من كلّ ما أشرنا إليه فيما يعزّ علي أفدي آثاركم في الآثار أي ما بين الآثار أفديها من كلّ شَيْءٍ حتى من عدم قبول المكلفين لها والإقتداء بها والأخذ بها والسلوك مسلكها ومن الدثورِ والاضمحلال ، وإن كان في نفس الأمر لا دثور يعتريها ولا اضمحلال لها فإن الله سبحانه هو الحافظ لها وكيف لا تقبل أيضاً والله عز وجل جعل حياة الخلق ورزقهم ومعاشهم وبقاءهم بها، بل بها يمطرون وبها يرحمون وبها يدخل الجنّة من قبلها ويدخل النار مَنْ ردها مع أن كلّ شيءٍ يقبلها فهل ترى أحداً يكره بقاءه وحياته ورزقه ودفع المكاره عنه وما أشبه ذلك

وكل ذلك مما ذكرنا لك وإنّما يردّها الحاسدون المتكبرون على نحو ما سبق.

وأمّا على معنى الظرفيّة فكونُ آثارهم في الآثار ظاهر على نحو ما تقدّم من أنّه لا يكون حقّ في أيدي جميع المكلّفين إلاّ ما كان عنهم ولا باطل إلاّ ما لم يكن عنهم.

روى المفيد في المجالس بسنده عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال (أما أنه ليس عند أحدٍ من الناسِ حقّ ولا صوابٌ إلاّ شيء أخذوه منّا أهل البيت ولا أحدٌ من الناس يقضي بحقّ ولا عدلٍ إلاّ ومفتاح ذلك القضاء وبابُه وأوله وسُنتهُ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام فإذا اشتبهت عليهم الأمور كان الخطأ من قبَلهم إذا اخطأوا والصواب من قِبَلِ علي بن أبي طالب إذا أصَابُوا).

وفيه بسنده عنَ يحيى بن عبدالله بن الحسن قالَ (سمعت جعفر بن محمد عليهما السلام يقول عنده ناس من أهل الكوفه عجبا للناس يقولون أخذوا علمهم كله عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فعملوا به واهتدوا ويرون أنا أهل البيت لم نأخذ علمه ولم نهتد به ونحن أهله وذريته في منازلنا أنزل الوحي ومن عندنا خرج إلى الناس العلم أفتراهم علموا واهتدوا وجهلنا وضللنا إن هذا محال) انتهى.

أمّا لأنّهم عليهم السلام كما كانوا أسبَاباً في الأسباب أي أسباب الأسباب في كلّ مقام من مراتب وجودات الجواهر، كذلك آثارهم أسباباً لآَثار من سواهم قد تقوّمَتْ بآَثارهم في موادها وهيئاتها.

وأمّا لأنّهم مُعَلّمون بتعليم كلّي فلم يبق كلّي كما في الخلق ولا جزئيّ إلاّ أوقَفوا كلّ من له أهليّة العَمَل في شيءٍ منّ الأشياء، مما يتصور في حق أحدٍ من الخلق عليه إمَّا بقوْل وإمّا بعمَلٍ وإما لأنهم هادون بهداية الله وإمّا بمعنى التّوفيق فإنَّ

الله سبحانه بهم حبّب إلى شيعتهم الإيمان وزيّنه في قلوبهم إذ الحبّ من الله عز وجلّ والتّحبيب بهم والتّزيين إنما هو إظهار آثار جمالهم على ما شاء كما شاء لمن شاء هذا في آثار الطيّبين والطيّبات ظاهر.

وأمّا كون آثارهم عليهم السلام في آثارِ الخبيثين الخبيثات فعلى نحو ما أشرنا إليه فيما سبق من نظائرها لأنّهم بما آتاهم الله من فضله سبقوا أهل الخيرات فيما عملوا من الأعمال الصّالحات، فعملوا أعمالهم الصالحة بتعليمهم وهدايتهم واتّباعاً لهم واقتفاءً لآثارهم، بل هم المُناة المقدّرون لكلّ شيْءٍ منهم الموردون لهم حوض هدايتهم وولايتهم الذّائدُون لهم عن ورود حياض أعدائهم الشياطين الداعين إلى النار، وسبقوا أهل الشرور فيما عملوا من الأعمال الطالحة الخبيثة فعملوا الأعمال الطيّبة الصالحة تعليماً لهم ليقتدوا بهم فخالفوهم استكباراً عن أمرهم واستنكافاً عن اتّباعهم، فهم عليهم السلام المُناةُ المقدّرون لكلّ شيء منهم الذائدون لهم عن ورود حوضهم بإعراضهم لأنّ حوضهم لا يرده أحدٌ إلاّ بطاعتهم وامتثال أمرهم والاقتداء بهم إذ ليس له طريق إلاّ ذلك وذلك لمّا قال تعالى لهم لعنهم الله في قوله تعالى (وَجَعَلْنا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بارَكْنا فِيها قُرىً ظاهِرَةً وَقَدَّرْنا فِيهَا السَّيْرَ) قال تعالى لهم لعنهم الله (سِيرُوا فِيها لَيالِيَ وَأَيَّاماً آمِنِينَ فَقالُوا رَبَّنا باعِدْ بَيْنَ أَسْفارِنا) يعني اجعل لنا طريقاً إليك وإلى رضاك غيرهم لنصل إليك بدونهم وبغير واسطتهم ، فأخبر الله عنهم فقال (وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ) أي أرادوا من أنفسهم ما لا يمكن في حقّها أو ظلموا وسائطهم عليهم السلام إلى كلّ خير بإرادة تأخيرهم عن مراتبهم الّتي رتّبهم الله فيها.

فإن الله سبحانه بفضله عليهم جعلهم الدعاة إليه وإلى رضوانه ولم يجعل لأحدٍ

من خلقه طريقاً إلى شيء من الخير إلاّ بواسطتهم، فحاولوا تأخيرهم عن مرتبة الوساطة العامّة والبابيّةَ المطلقة فظلموهم بدعواهم مراتبهم أو ظلموا أنفسهم بإرادتهم منها ما لا يمكن في حقّها إلا بالوساطة المخصوصة، فكان تركهم الاقتداء بهم مستلزِماً لضلالتهم لأنّ مَن ترك الهِدَاية ركب الضلالة إذ لا واسطة بينهما ومستلزماً لكون الأئمة صلّى الله عليهم ذائدين لهم عن طريق الهداية بإعراضهم عن طريقها وموردين لهم طريق الضّلالة باستحبابهم لها وميلهم إليها وذلك كله بإذن الله تعالى أما الاستلزام الأول فظاهر، وأمّا الاستلزام الثاني فلما ثبت أنّه لا يكون شيء إلاّ بإذن الله وقدره وقضائه وقد جعلهم صلوات الله عليهم أجمعين أولياء أمره وقدره وقضائه فهم بأمره يعملون وهذا هو المراد من كلام الحجة عليه وعلى آبائه الطاهرين صلاة الله وسلامه في دعاء شهر رجب المشهور الذي مرّ الاستشهاد به مراراً كثيرةً حيث يقول (أعضاد وأشهاد ومناة وأذواد وحفظة ورواد) .

وقد تقدّم بعض بيان هذه الكلمات فقوله (مُناة) جمع ماني أي مقدّرون (وأذواد) جمع ذائد أي يذودُون مَنْ شاؤوا بأمر الله وإذنه عمّا شاؤوا إلى ما شاؤوا، وقد تقدّم ذكر حديث أبي الطفيل عامر بن واثلة قال (قلت يا أمير المؤمنين أخبرني عن حوض النبي ﷺ في الدنيا أم في الآخرة فقال بل في الدنيا قلت فمن الذائد عنه فقال أنا بيدي فليردنه أوليائي وليصرفن عنه أعدائي) وفي رواية (ولأوردنه أوليائي ولأصرفن عنه أعدائي) الحديث.

وأوصيك وصيّة ناصح ألاّ تستغرب هذه الأشياء أو تنكرها فإنّا لا نريد بذلك أنهم عليهم السلام فاعلون أو خالقون أو رازقون بل نقول الله سبحانه هو الخالق

والرازق وهو الفاعل لما يشاء وحده عز وجل لم نجعل له شريكاً في شيء، إلاّ أنّا نقول أنه سبحانه لا يفعل شيئاً بذاته لتكرّمه وتنزهه عن المباشرة، وإنّما يفعل ما يشاء بفعله وبمفعوله من غير تشريكٍ بل هو الفاعل وحدَهُ.

أمّا فعلُه للشيء بفعله فهو أنّه إذا أراد شيئاً كان ما أراد كما أراد من غير حركةٍ ولا مَيْلٍ ولا انبعاثٍ ولا تفكّرٍ ولا رَوِيّة، وليس معه شيء يفعل به ما يفعل زائدٌ على فعِله لما فعل إذ ليس شيء غير ذاته المقدّسة وفعله ومفعوله فلا شيء يصح عليه إطلاق الشيئيّة إلاّ ذاته ثم فعله شيء بشيئيّة ذاتِه، أي أن فعلَهُ إنّما هو شيء بذاته تعالى ومفعوله إنّما هو شيء بِفعلِه.

وأمّا مفعوله فهو تعال يفعل بما شاء من مفعولاتِه ما شاء من صنعه، مثلاً إذا أراد أن ينبت الحنطة خلق لها الأرض بفعله أو شيء من مفعوله وخلق الماء كذلك وخلق زيداً مثلاً يزرعها وخلق لزيد جميع ما يتوقّف عليه عمله من القوى والعلوم وتسليطه على البذر والماء والأرض فإذا ألقى البذر في الأرض وسقاه كما علّمه الله وألهمه أنبت الله سبحانه بهذه الأشياء التي هي مفعولاته ما شاء من صنعه فقال تعالى (أَفَرَأَيْتُمْ ما تَحْرُثُونَ أَ أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ) والله سبحانه هو الزارع وحده من غير تشريك مع غيره.

وكذلك ما خلق في الأرحام، كما روي أنّه خلق ملكين خلاّقين يقتحمان إلى البطن من فم أمّه، فهما يقدّرانه كما أمرهما، وكذلك ميكائيل جعله موكّلاً بالأرزاق وهو تعالى وحده هو الرّزاق ذو القوة المتين، وكذلك ملك الموت جعله موكّلاً على قبض الأرواح قال تعالى (قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ) مع أنه تعالى قال (الله يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها)وإذا قلنا هو الفاعل سبحانه نريد أنه يفعل

بفعله لا بذاته لأنّ كلّ فاعل لا يفعل إلا بفعله ومرادنا بفعله الذي يفعل به ما شاء هو فعله ومفعوله فإن مفعوله يفعل به كما يفعل بفعله لا فرق بينهما إلاّ بشيئين:

أحدهما: أن فعله أحدثَهُ بنفسه ومفعوله أحدثه بفعله.

وثانيهما: أنّ فعله يفعل به كل ما سواه تعالى فهو عام وكُلّيٌّ وغيره متناهٍ في تعلّقاته ولا أوّل له في الإمكان ومفعوله خاصّ وجزئي ومتناهٍ في تعلّقاتِه بالنسبة إلى الفعل لا مطلقاً، فإنه أيضاً غير متناهٍ بالنسبة إلى نفسه وله أوّل في الإمكان فإنّ أوله الفعل الذي به كان، وهذا المقام من غامض الأسرار وسرّ الأقدار فإن أتى له ذكر فيما بعد فتحتُ بابه الذي ما فتح قبلي.

ومرادنا أن هذه الأشياء من الفاعلين والمفعولات والأفعال كلّها قائمة في وجوداتها وفي كل ما يصدر عنها وتفعله بفعله تعالى قيام صدور يعني كقيام الكلام بالنسبة إلى نفس المتكلّم وشفتيه وأضراسه ولهاته وحلقه وحركته فيها مع قيامه بالنسبة إلى الهواء فلو صحّ عنهم عليهم السلام أنّهم قالوا أنّا نفعل شيئاً من ذلك فليس فيه إشكال كما سمعتَ قوله تعالى في حق عيسى عليه السلام ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي﴾ولا يلزم منه غلوّ ولا جبر ولا تفويض ولا شيء ينافي الحق بوجهٍ ما لأنه إذا ورد شيء من ذلك، فمرادنا منه ما ذكرنا أوّلاً وهو كمال العبوديّة والأدلّة من الكتاب والسنّة جارية على ذلك متواردة فيه، وإنّما نتوقف في صحة ورود ذلك عنهم وأنت إذا عرفتَ هذه الجملة وأمثالها لا ترد عليك شبهة قطّ.

وأمّا كلام بعض العلماء بنفي كثير من هذا وحكمه بكفر من أتى بشيء منه ولو بلفظة وإن لم يعرف المراد منها وتصحيح بعضهم لبعض الوجوه فليس هو الأمر الواقعي كما قال النافي معمّماً، ولا كما قال المصحّح مخصاً، لأنَّ الصراط المستقيم

أدق مما ذهبا إليه، وأنا أنقل لك بعض عباراتهم وبعض ما كتبتُ عليها ليتبيّن لك إذا عرفتَ أنّ الاستقامة في الدين في غير ما ذكروا وإن كان في بعض ما ذكروا حقّ أوْ حقّ للضعفاءِ وقد ذكرنا سابقاً شيئاً في ذلك وهنا أحببتُ إيراد بعض كلامهم لما في نفسي مما أسمع من الجهّال لعل ناظراً في ذلك يذكر أو يخشى.

قال الشيخ عبد الله بن نور اللهِ البحرانيِ في كتابه عوالم العلوم وهو من تلامذة محمد باقر المجلسي وكلّ كلامه أو جلّه من البحار قال ((بعد نقله لاعتقاد الصدوق رحمه الله ونقل كلام المفيد رحمه الله قال تتميم وتحقيق اعلم أن الغلو في النبي والأئمة عليه وعليهم السلام إنما يكون بالقول بألوهيتهم أو بكونهم شركاء لله تعالى في المعبودية أو في الخلق أو في الرزق أو أن الله تعالى اتحد بهم أو أنهم يعلمون الغيب بغير وحي أو بالقول في الأئمة عليهم السلام أنهم كانوا أنبياء أو القول بتناسخ أرواح بعضهم إلى بعض أو القول بأن معرفتهم تغني عن جميع الطاعات ولا تكليف معها بترك المعاصي، والقول بكل منها إلحاد وكفر وخروج عن الدين كما دلت عليه الأدلة العقلية والآيات والأخبار السالفة و غيرها و قد علمت أن الأئمة عليهم السلام تبرءوا منهم وحكموا بكفرهم و أمروا بقتلهم وإن قرع سمعك شيء من الأخبار الموهمة لشيء من ذلك فهي إما مؤولة أو هي من مفتريات الغلاة.

ولكن أفرط بعض المتكلمين و المحدثين في الغلو لقصورهم عن معرفة الأئمة عليهم السلام وعجزهم عن إدراك غرائب أحوالهم وعجائب شؤونهم فقدحوا في كثير من روايات الثقات لنقلهم بعض غرائب المعجزات حتى قال بعضهم من الغلو نفي السهو عنهم أو القول بأنهم يعلمون ما كان وما يكون و غير ذلك مع أنه قد ورد في أخبار كثيرة لا تقولوا فينا ربا و قولوا ما شئتم ولن تبلغوا ، وورد إن أمرنا صعب

مستصعب لا يحتمله إلا ملك مقرب أو نبي مرسل أو عبد مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان ، وورد لو علم أبو ذر ما في قلب سلمان لقتله وغير ذلك مما مر وسيأتي، فلا بد للمؤمن المتدين أن لا يبادر برد ما ورد عنهم من فضائلهم ومعجزاتهم ومعالي أمورهم إلا إذا ثبت خلافه بضرورة الدين أو بقواطع البراهين أو بالآيات المحكمة أو بالأخبار المتواترة كما مر في باب التسليم وغيره.

وأما التفويض فيطلق على معان بعضها منفي عنهم عليهم السلام وبعضها مثبت والأول التفويض في الخلق والرزق والربوبية والإماتة والإحياء فإن قوما قالوا إن الله خلقهم وفوض إليهم أمر الخلق فهم يخلقون ويرزقون ويميتون ويحيون وهذا الكلام يحتمل وجهين.

أحدهما : أن يقال إنهم يفعلون جميع ذلك بقدرتهم وإرادتهم و هم الفاعلون حقيقة وهذا كفر صريح دلت على استحالته الأدلة العقلية والنقلية ولا يستريب عاقل في كفر من قال به.

وثانيهما : أن الله تعالى يفعل ذلك مقارنا لإرادتهم كشق القمر وإحياء الموتى وقلب العصا حية وغير ذلك من المعجزات فإن جميع ذلك إنما يحصل بقدرته تعالى مقارنا لإرادتهم لظهور صدقهم فلا يأبى العقل من أن يكون الله تعالى خلقهم وأكملهم وألهمهم ما يصلح في نظام العالم ثم خلق كل شيء مقارنا لإرادتهم ومشيتهم.

هذا وإن كان العقل لا يعارضه كفاحا لكن الأخبار السالفة تمنع من القول به فيما عدا المعجزات ظاهرا بل صراحا مع أن القول به قول بما لا يعلم إذ لم يرد ذلك في الأخبار المعتبرة فيما نعلم وما ورد من الأخبار الدالة على ذلك

كخطبة البيان وأمثالها فلم يوجد إلا في كتب الغلاة وأشباههم مع أنه يحتمل أن يكون المراد كونهم عللاً غائية لإيجاد جميع المكونات وأنه تعالى جعلهم مطاعين في الأرض والسماوات ويطيعهم بإذن الله تعالى كل شيء حتى الجمادات وأنهم إذا شاؤوا أمرا لا يرد الله مشيتهم ولكنهم لا يشاؤون إلا أن يشاء الله.

وأما أن الأخبار في نزول الملائكة والروح بكل أمر إليهم وأنه لا ينزل ملك إلى السماء لأمر إلا بدأ بهم فليس ذلك لمدخليتهم في ذلك ولا للاستشارة بهم بل لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تعالى شأنه وليس ذلك إلا لتشريفهم وإكرامهم وإظهار رفعة مقامهم.

الثاني : التفويض في أمر الدين و هذا أيضا يحتمل وجهين:

أحدهما: أن يكون الله تعالى فوض إلى النبي ﷺ والأئمة عليهم السلام عموما أن يحلوا ما شاؤوا و يحرموا ما شاؤوا من غير وحي وإلهام أو يغيروا ما أوحي إليهم بآرائهم و هذا باطل لا يقول به عاقل فإن النبي ﷺ كان ينتظر الوحي أياما كثيرة لجواب سائل و لا يجيبه من عنده و قد قال تعالى (وَما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحى).

وثانيهما: أنه تعالى لما أكمل نبيه ﷺ بحيث لم يكن يختار من الأمور شيئا إلا ما يوافق الحق والصواب ولا يحل بباله ما يخالف مشيته تعالى في كل باب فوض إليه تعيين بعض الأمور كالزيادة في الصلاة و تعيين النوافل في الصلاة و الصوم و طعمة الجد وغير ذلك مما مضى وسيأتي إظهارا لشرفه و كرامته عنده ، ولم يكن أصل التعيين إلا بالوحي ولم يكن الاختيار إلا بإلهام ثم كان يؤكد ما اختاره ﷺ بالوحي ولا فساد في ذلك عقلا وقد دلت النصوص المستفيضة عليه فيما تقدم في

هذا الباب وفي أبواب فضائل نبينا ﷺ.

ولعله رحمه الله أيضا إنما نفى المعنى الأول حيث قال في الفقيه و قد فوض الله عز وجل إلى نبيه ﷺ أمر دينه ولم يفوض إليه تعدي حدوده وأيضا هو رحمه الله قد روى كثيرا من أخبار التفويض في كتبه ولم يتعرض لتأويلها.

الثالث : تفويض أمور الخلق من سياستهم وتأديبهم وتكميلهم وتعليمهم إليهم عليهم السلام وأمر الخلق بإطاعتهم فيما أحبوا وكرهوا وفيما علموا جهة المصلحة فيه وما لم يعلموا وهذا حق لقوله تعالى ما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وغير ذلك من الآيات والأخبار وعليه يحمل قولهم عليهم السلام نحن المحللون حلاله والمحرمون حرامه أي بيانهما علينا ويجب على الناس الرجوع فيهما إلينا وبهذا الوجه ورد خبر عن أبي إسحاق والميثمي.

الرابع : تفويض بيان العلوم والأحكام إليهم بما أرادوا ورأوا المصلحة فيها بسبب اختلاف عقولهم أو بسبب التقية فيفتون بعض الناس بالواقع من الأحكام وبعضهم بالتقية ويبينون تفسير الآيات وتأويلها وبيان المعارف بحسب ما يحتمل عقل كل عاقل ولهم أن يبينوا ولهم أن يسكتوا كما ورد في أخبار كثيرة عليكم المسألة وليس علينا الجواب كل ذلك بحسب ما يريهم الله من مصالح الوقت كما ورد في خبر ابن أشيم و غيره وهو أحد معاني خبر محمد بن سنان في تأويل قوله تعالى لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِما أَراكَ اللهُ ، ولعل تخصيصه بالنبي ﷺ والأئمة عليهم السلام لعدم تيسر هذه التوسعة لسائر الأنبياء والأوصياء عليهم السلام بل كانوا مكلفين بعدم التقية في بعض الموارد و إن أصابهم الضرر والتفويض بهذا المعنى أيضا حق ثابت بالأخبار المستفيضة.

الخامس : الاختيار في أن يحكموا بظاهر الشريعة أو بعلمهم و بما يلهمهم الله من الواقع ومخ الحق في كل واقعة وهذا أظهر محامل خبر ابن سنان وعليه أيضا دلت الأخبار.

السادس : التفويض في العطاء فإن الله تعالى خلق لهم الأرض و ما فيها و جعل لهم الأنفال والخمس والصفايا وغيرها فلهم أن يعطوا من شاؤوا ويمنعوا من شاؤوا كما مر في خبر الثمالي وسيأتي في مواضعه ، وإذا أحطت خبرا بما ذكرنا من معاني التفويض سهل عليك فهم الأخبار الواردة فيه وقد عرفت ضعف قول من نفى التفويض مطلقا و لما لم يحط بمعانيه (والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم) . انتهى كلامه.

وأمّا ما كتبتُ عليه فقد كتبتُ عليه كلاماً قليلاً على قدر هامشة الكتاب مجملاً يجمع لك إن فهمته طرق الحق في أقوال الفريقين من الغلاة والمفوّضة، لأن كثيراً ممّن يقال فيه بالغلوّ وهو في الواقع مقصّر في شأنهم عليهم السلام، وأمّا التفويض فالأخبار فيه كثيرة جداً بين نفي وإثباتٍ وأنت إذا عرفتَ الأمر الواقع من فعل الخالق ومن الخلائق عرفت التخلّص بطورٍ غير ما ذكره رحمه الله لأنه نقل الأقوال وقدّر فيها بميزانه وكلّ أحدٍ كذلك لأن العيار الذي يزن به العلماء واحد لا يتعدّد وإنّما يتعدّد بحسب أفهامهم ولو خلص الحق لم يخف على ذي حجىً فكتبتُ هكذا:

الحقّ الأولى بالقبول هو أن جميع الأشياء لا تستغني عن مدد الله تعالى في وجودها وبقائها وفي جميع أحوالها فاعلةً أو مفعولةً ذاتاً أو صفةً جوهراً أو عرضاً، فلا يكون شيء إلاّ بالله ولا يحدِثُ شيء شيئاً إلاّ بالله ومع هذا كله فالعباد مستقِلّون بأفعالهم لم يفعلوها مع الله ولا يستغنون في شيء من أفعالهم عنه

تعالى فلم يفعلوا شيئاً بدون الله تعالى لا فرق في شيء من هذا كلّه بين محمد وآله ﷺ ولا بين غيرهم.

أفهمتَ هذا أم لا ؟ فإن فهمتَ جميع هذه الأشياء فقد كنتَ على الحق فلا تكون غالياً إذ لا ترى لأحدٍ فعلاً بدون الله ولا مشركاً إذ لا ترى أنهم فاعلون مع الله ، ولا كافراً كذلك إذ لا ترى أنهم فاعلون بدون الله ولا مفوّضاً ، إذ لا ترى أنهم بنعم الله فاعلون على الاستقلال كما يفعل الوكيل عن موكّله ، وإن لم تفهم ما ذكرتُ لك فإن سكت فربما تنجو وإلاّ فلا بدّ أن تقول بأحد هذه الأمور المهلكة إذا فارقت ما حدّدت لك . انتهى ما كتبتُ مختصراً مقتصِراً لضيق الهامشة.

واعلم أن جميع الأمور من هذه وأمثالها لا يستقيم منها شيء على شيء من الحق إلاّ إذا كان مبنيّاً على هذه الحدود الّتي حدّدتُ لك ، بقي فيما ذكر رحمه الله أشياء ربّما لا تبنى على هذه الحدود في ظاهر القول، وهي قوله في الغلوّ أن منه القول بأنهم عليهم السلام كانوا أنبياء ، وهذا حق من جهة التسمية ودعوى الوحي إليهم على جهة التأسيس بغير واسطةٍ من البشر ومن كون محمد ﷺ غير خاتم النبوّة وفي كل ذلك ارتفاع لا يخفى.

وأمّا القول بتناسخ أرواح بعضهم فهذا معنى ليس فيه ارتفاع ليكون من الغلو إلاّ على إرادة قدم نفوسهم وذلك شيء آخر، نعم القول بالتناسخ في نفسه وإن كان باطلاً لا يوجب الكفر لكونه غلوّاً ولا يكون باطلاً لذلك، وإنّما كان باطلاً موجباً للكفر لأنّ من قال به يريد به قدم النفوس وانتقالها من جسم إلى جسم وأنه لا جنّة ولا نار ولا معاد فمن هذا كان باطلاً والقول به كفراً.

وأمّا القول بأن معرفتهم تغني عن جميع الطاعات فكذلك ليس من الغلوّ

بقولٍ مطلقٍ ، فإنّ ممَّن قال بذلك يريد به أنّ الدّين الذي أراده الله من خلقه هو معرفة الرجال والأعمال إنّما هي أسماء الرجال ولهذا يقول به في أعدائهم ويرى أن الفحشاء فلان عدوّهم فإذا عرفه أتى بما أمره الله، وإن زَنَى ويقول إنّ معنى صلّوا أي توالوا الإمام عليه السلام لا ذات الأركان فإذا توالى كفاه ذلك، وإن لم يصل وإن معنى لا تزنوا أي لا توالوا فلاناً فإذا تبرّأ منه كفاه وإن زنى فهؤلاء ليسوا من الغلاة، وإن حكم عليهم بالكفر من جهة إنكارهم لضروريات الدين ، نعم لو أنّ شخصاً رأى بأن معرفة الإمام عليه السلام تغني عن العمل لأنه عليه السلام هو المعبود ومعنى عبادته معرفته كان غالياً.

وأمّا قوله في الردّ على المقصّرين فيهم عليهم السلام حتّى قال بعضهم: من الغلوّ نفي السهو عنهم أو القول بأنهم يعلمون ما كان وما يكون....إلخ فليس بصحيح على عمومه.

أمّا في نفي السهو عنهم فإن أُريد أنّهم لا يسهون بتأييد الله وتسديده وعصمته لهم فهو حسن ، وإن أريد به أن ذلك من أنفسهم فهو باطل وكذلك في العلم وما ورد من الأخبار التي يشير إليها، فالمراد منها هذا فإن المخلوق لا يستغنى عن الخالق سبحانه طرفة عين في كلّ شيء فمن لم يلاحظ هذا المعنى فيهم في جميع أحوالهم فهو غالٍ ملعون.

وأمّا قوله في التفويض وثانيهما أن الله تعالى يفعل ذلك مقارِناً لإرادتهم كشق القمر....إلخ، فهذا وإن كان في معنى التفويض في الجملة يمكن قبوله على وجهٍ لكنه كلام ليس بصحيح ، لأن قوله يفْعل ذلك مقارناً لا معنى له في التفويض ولا في نفس الأمر، أمّا في التفويض فلأنه يراد منه أنه تعالى فوّضَ إليهم شيئاً أي أوصل وأنهى.

وأمّا أنه يفعل مقارناً لإرادتهم فأيّ معنى للتفويض في هذا، وأمّا في نفس الأمر فلا معنى للمقارنة بأفعاله تعالى فإنه تعالى إذا جعل شيئاً سبباً لشيء ليس المراد أنه يفعل ذلك الشيء مقارناً لذلك السبب لأن المقارن لا سببيّةَ لَهُ بوجهٍ ما، وإنّما المراد أنّه تعالى يفعل ذلك الشيء بذلك السبب كأَنْ يكون سبباً مادّيّاً أو سبباً صوريّاً كالمشخصات الستّة وما يلزمها ويلحق بها.

وقوله (وإن كان العقل لا يعارضه كفاحاً... إلخ) فإن الأخبار السابقة إنما تمنع منه إذا أريد منه على النحو الذي ذكر ولو أريد به ما أشرنا إليه سابقاً كانت الأخبار السابقة واللاحقة دالَة عليه وداعية إليه وذلك لأن الله سبحانه خلقهم على هيئة مشيته وصورة إرادته وأودعهم اسمه الأكبر الذي هو سرّ سلطنتِهِ في بريّته، وأخذ على جميع الأشياء الميثاق بطاعتهم التي هي شرط تكوّنها كما أشار إليه الحسين عليه السلام في الحديث المذكور في ترجمة عبد الله بن شداد حين عاده وهو مريض فهربت الحمى من عبد الله فقال (قد رضيت بما أوتيتم به حقا حقا و الحمى لتهرب منكم فقال له الحسين عليه السلام والله ما خلق الله شيئا إلا و قد أمره بالطاعة لنا يا كبّاسة فإذا نسمع الصوت ولا نرى الشخص يقول لبيك قال أ ليس أمير المؤمنين أمرك أن لا تقربي إلا عدوا أو مذنبا لكي تكوني كفارة لذنوبه) الحديث وقد تقدّم فقول الحمّى له عليه السلام لبّيك حين ناداها وقوله عليه السلام لها ألم يأمرك أمير المؤمنين عليه السلام بيان لقوله عليه السلام والله ما خلق الله شيئاً إلاّ وقد أمره بالطاعة لنا، وذلك ظاهر في أن جميع الأشياء تمتَثِل أمرهم ، وقوله رحمه الله في تعليله أنه لم يرد ذلك في الأخبار المعتبرة ليس بشيء لأنّ الأخبار المعتبرة فيه لا تكاد تحصى مثل أمر الهادي عليه السلام لصورة السبع التي في مسند المتوكل فقام سبعا فأكل الساحر

الهندي وأمر الرضا عليه السلام لصورتي السبع اللتين في مسند المأمون فقاما سَبُعَيْن فأكلا خادم المأمون حين سبّ الرضا عليه السلام وأمثال هذا في الأخبار المعتبرة كثيرة جدّاً وفي القرآن المجيد (وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُون يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُم) وكيف ينكر هذا وأمثاله ويقبل ما هو أعظم في حقّ الملائكة الذين هم من سائر خدّامهم وبنحو ما تجوّزه في الملائكة الذين فيهم موكّل بالسحاب وتصريف الرياح وتقدير الموت والحياة والرّزق والخلق وغير ذلك، تجوّزه فيهم بالطريق الأولى إذ لا يجوز شيء من ذلك لأحد من الملائكة مع كثرة وروده في حقهم وصحته وثبوته عند جميع المسلمين إلاّ بشرط أن يكون على وجه لا يلزم منه الغلوّ ولا التفويض، كما أنا لا نجوّز شيئاً في حقّهم حيث يرد عنهم إلاّ على وجهٍ لا يلزم منه الغلوّ ولا التفويض، ثمّ إنّي أراك تقبل كل ما ورد من هذا النحو في شأن الملائكة غافلاً عن اشتراطِ هذا الشرط وتتوقّف في قبول شيء مما ورد في شأنهم عليهم السلام مع اشتراط هذا الشرط هذا مع أنّك تظهر أنّهم أفضل من الملائكة وأن الملائكة خدامهم وخدّام شيعتهم (تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى)وقوله فيما عدا المعجزات لا معنى له لأن ما عدا المعجزات هو ما يعمله عامّة الناس وإنّما يتوقّف من يتوقّف فيما تعجز عنه البشر وهو المعجز.

وأمّا غير المعجزات فهو ما تعمله العامّة من الأكل والشرب والنكاح والكتابة وأمثال ذلك مما يعمله أبناء النوع من غير الخارق للعادة فلعلّ توقُّفك إنّما هو في تمكّنهم من الأكل والشرب وعدمه لئّلا يلزمَك إذا نسبتَ إليهم فعل الأكل والشرب القول بالغلوّ أو التفويض ،ما أدري كيف هذا الكلام وما أعجبه.

وأمّا احتماله إرادة كونهم عللاً غائيّة للإيجاد....إلخ، فيمكن تصحيحه على

طورٍ آخر غير ما ذكره وكذا قبول طلبتهم وإرادتهم، وما ذكره من الوجه الثاني من المعنى الثاني فصحّته على طورٍ فوق ما ذكره ، فإذا أردت حقيقة ذلك فاطلبه فيما سبق من كلامنا في هذا الشرح وكذلك باقي ما ذكر من المعاني لأن فهمه لهذه الأشياء بعقل النقل عن القائلين بذلك لا بعقل النقل عنهم عليهم السلام.

واعلم أني ذكرتُ هذه الكلمات في غير محلها لأن محلها ما سبق في قوله عليه السلام (ومفوّض في ذلك كله إليكم) إلاّ أني هناك اقتصرتُ وهُنا حصل موجب في وقت الكتابة فاستطردت هذه النبذة ولا حول ولا قوة إلاّ بالله.

وقوله عليه السلام (وقبوركم في القبور) المعنى فيه كالمعنى المراد مما قبله والمراد من القبور هذه الأجداث الظّاهرة والرموس الطاهرة التي دفنوا فيها ويحتمل أن يراد بها الطّبائع التي استجنّت فيها العقول والأرواح والنفوس متمازجةً غير متمايزة ظاهراً وذلك قبل التفصيل الثاني ، لأن هذه الأمور الثلاثة كانت في الهيولى الأولى الجوهرية بالقوة متمايزة وبالفعل متمازجة وقبلها كانت متمايزة بالفعل لم تسبق هذه الحال لها حال كانت فيه متمازجة لا بالفعل ولا بالقوة لأنها في توحدها الأول لا تكثر فيها تكثر تعددٍ ، وإنما خصنا بالنفي تكثر التعدد لا مطلقاً إذ لم تخلق بسيطة كما قال الرضا عليه السلام (ولم يخلق شيئا فردا قائما بنفسه دون غيره للذي أراد من الدلالة على نفسه و إثبات وجوده) انتهـى.

بل إنما برز كل شيء في الوجود متكثراً تكثر تركيب إذ لا بد لكل موجود من أن يكون له اعتباران اعتبار من ربه وهو وجوده واعتبار من نفسه وهو ماهيته وهذا أشد الأشياء المكونة بساطة فهو واحد في الكون الجوهري ثم تنزل إلى الكون الهوائي ثم تنزل إلى الكون المائي ، فكان في الكون الأول عقله وحده

وفي الكون الثاني روحه فحصل اثنان متمايزان وفي الكون الثالث نفسه فحصلت ثلاث متمايزة بالفعل، لم تسبق بتمازج قطّ لا بالفعل ولا بالقوة.

فلمّا نزلت إلى هذه المنزلة كانت فيها متمازجة بالقوّة ومتمايزة بالفعل فلما نزلت إلى الطبيعة المسمّاة بالقبر المعنوي كانت الثلاثة فيها متمازجة بالفعل متمايزة بالقوة ، فالثلاثة في الدنيا كالثلاثة قبل الطبيعة وهي في القبور بعد الدنيا كهي في الطبيعة هذا بقول مطلق في الجملة ،وإلاّ ففي الحقيقة إنّما يكون هذا التشبيه ويجري فيمن لم يمحض الإيمان محضاً والكفر محضاً.

وأما من محض الإيمان محضاً والكفر محضاً، فامتزاج الثلاثة إنّما يكون في الرّحلتين رحلة الخروج من الدنيا إلى القبور ورحلة الخروج من القبور إلى المحشر مثل دخولك في النوم إلى أن تنام فيعود التمايز وخروجك من النوم إلى اليقظة، فيعود التمايز وكذلك في الرحلتين الأوّلتين رحلة الدخول في الطبيعة ورحلة الخروج منها ، فالطبيعة هي القبر الأوّل قبل الدّنيا وهو المشار إليه بقوله تعالى (كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِالله وَكُنْتُمْ أَمْواتاً فَأَحْياكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ) يعني وكنتم أمواتاً قبل هذه الدنيا وذلك بعد أن كلّفهم في عالم الذّرّ فقال لهم ألستُ بربكم قالوا بلى فأجاب من أجاب وأنكر من أنكر وسكتَ من سكتَ ثم كسرهم في الطبيعة فكانوا طيناً وتراباً ثم أحياكم أي بعثكم من قبور طبائعكم كما قال تعالى (أَوَ مَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ وَجَعَلْنا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ) نزلت في شأن من كانوا أمْواتاً بالكفر والنفاق.

وقولنا أنَّ المعنى في هذا كالمعنى يشمل كلّما ذكرنا هنا فيكون المعنى أفدي قبوركم ما بين القبور، وعلى الظرْفيّة يكون المراد أن قبورهم الطبيعيّة في سائر

القبور الطبيعيّة لغيرهم بالقيوميّة أما الطبيعية الطيبة فبباطن طبائعهم ، وأمّا الخبيثة فبظاهرها من قبلها ولهذا أخبر تعالى عن موت طبائع مَنْ سواهم إلاّ من جعل له نوراً من طبائعهم عليه السلام أحياه به وجعله يمشي به في الناس.

ففي الكافي بسنده إلى بُرَيْد قال سمعتُ أبا جعفر عليه السلام يقول في هذه الآية (مَيْتاً لا يعرف شيئا ونُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ إماما يأتم به كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُماتِ الذي لا يعرف الإمام) .

وفي تفسير العياشي مثله وفيه عن بريد العجلي قال (سألت أبا جعفر عليه السلام عن هذه الآية قال الميت الذي لا يعرف هذا الشأن يعني هذا الأمر وَجَعَلْنا لَهُ نُوراً إماما يأتم به يعني علي بن أبي طالب عليه السلام قلت فقوله كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُماتِ لَيْسَ بِخارِجٍ مِنْها فقال بيده هكذا هذا الخلق الذي لا يعرفون شيئا) .

وفي مناقب ابن شهر آشوب قال الصادق عليه السلام (كانَ مَيْتاً عنا فَأَحْيَيْناهُ بنا) .

وفي تفسير عليِ بن إبراهيم قال (جاهلا عن الحق والولاية فهديناه إليها وَ جَعَلْنا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ قال النور الولاية).

وفي الكافي عنَ أبي عبد الله عليه السلام قال في حديث طويل (وَقَالَ الله عَزَّ وَجَلَّ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ فَالْحَيُّ الْمُؤْمِنُ الَّذِي تَخْرُجُ طِينَتُهُ مِنْ طِينَةِ الْكَافِرِ وَالْمَيِّتُ الَّذِي يَخْرُجُ مِنَ الْحَيِّ هُوَ الْكَافِرُ الَّذِي يَخْرُجُ مِنْ طِينَةِ الْمُؤْمِن فَالْحَيُّ الْمُؤْمِنُ وَالْمَيِّتُ الْكَافِرُ وَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ أَوَ مَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ فَكَانَ مَوْتُهُ اخْتِلاطَ طِينَتِهِ مَعَ طِينَةِ الْكَافِرِ وَكَانَ حَيَاتُهُ حِينَ فَرَّقَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بَيْنَهُمَا بِكَلِمَتِهِ كَذَلِكَ يُخْرِجُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الْمُؤْمِنَ فِي الْمِيلادِ مِنَ الظُّلْمَةِ بَعْدَ دُخُولِهِ فِيهَا إِلَى النُّورِ وَيُخْرِجُ الْكَافِرَ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلْمَةِ بَعْدَ دُخُولِهِ إِلَى النُّورِ وَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ لِيُنْذِرَ مَنْ كانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكافِرِينَ) .

وقوله تعالى (أَحْيَيْناهُ وَجَعَلْنا لَهُ نُوراً) لا ينافي ما أشرنا إليه من القيّوميّة المرادة من الظرفيّةِ لأنّ قيوميّة الخلقِ إنّما هي شيءٌ وقيّوميّةٌ بأمر الله وفعله، وقوله عليه السلام (حين فرّق الله بينهما بكلمته) المراد بالكلمة فيه هي الفعل وهي المشيّة والإرادة المعبر عنهما (بكُنْ) بلْ على قوله (حين فرّق) إلى آخره تكون تلك القيوميّة قيوميّة فعله، إمّا لأنّ اَلقيوميّة حقيقة إنّما هي قيوميّة فعله عز وجل ، أو لأنّ طبائعهم عليهم السلام أيضاً فعله لأنا قد بيّنا فيما سبق أن فعله لما شاء ليس بذاته وإنما هو بفعله أو بمفعوله وإنّ مفعوله فعله لمفعولات ذلك المفعول وهو المشار إليه بقوله عليه السلام (وألقى في هويتها مثاله فأظهر عنها أفعاله) انتهـى.

إذ لو لم تكن أفعال مفعوله مفعولاتٍ له تعالى بفعله الذي هو مفعوله لكانت مفعولاتٍ لمفعوله بدونه تعالى فيلزم التفويض المستلزم لإثباتِ الشريك له في ملكه -تعالى عمّا يشركون- كما أنّه لو كانت مفعولاتٍ له بدون مفعوله لزم الجبر -سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ- وليس قولنا أنها مفعولاتٌ له تعالى بمفعوله أنا نريد أنّها حدَثَتْ به تعالى مع مفعوله بل هُوَ عزّ وجلّ واحد في فعله لا يشرك أحداً، والمفعول مستقِل بفعله وحده ولا يفعل إلا ما شاء اللهُ والمراد أن الله سبحانه يحدثُ مادة الفعل بالعبد والعبد يحدثُ صورة الفعل باللهِ والله سبحانه يخلق العمل من تلك المادة وتلك الصورة وذلك العمل المخلوق من تلك المادة وتلك الصورة هو الثّواب والعقاب ولذلك اختصّ ذلك الثواب أو العقاب بذلك العبد دون غيره إنّ في ذلك لعبرةً لأولي الألباب .

كلّ هذا وأمثاله ممّا تقدم مبْني على الصنع بالأسباب لأجل التعريف والبيان وترجيحاً لجانب اللطف بالعباد وإلاّ فإنه عز وجل سبب من لا سبب له وسبب كل ذي سَبب ومسبّبُ الأسباب من غير سبب ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن حسبنا الله ونعم الوكيل.

قال عليه السلام فما أحلى أسماءكم، وأكرم أنفسكم وأعظم شأنكم، وأجلّ خطركم، وأوفى عهدكم.

قال في القاموس (الحُلو بالضم ضدّ المرّ حلى كرضى ودعا وسرق حلاوةً وحلواً وحُلواناً بالضمّ واحلولى وحلى الشيء كرضى، واستحلاه وتحلاّه واحلولى بمعنىً وقولٌ حِليٌّ كغنيٍّ يحلو لي في الفم وحلى بعيني وقلبي كرضى، ودعا حلاوةً وحَلْواً وحلوَاناً أو حلى في الفم وحلى بالعين) انتهى.

وفي غيره ما يقرب من معناه فالحلاوة هي ما يلائم الطبع في كلّ شيء بحسبه وما يلذّ له وتستعمل للحسيّة والمعنويّة، فالحسيّة تدرك باللسان للقوّة الذائقة وبالأنف للقوّة الشامّة وبالعين للقوّة الباصرة وبالإذن للقوّة السامعة وبالبشرة للقوّة اللامسة فالملائم لها حلاوة والمنافر لها ضدها.

والمعنويّة قسمان باطنة ومعنوية فالباطنة خمس:

الحس المشترك وفعله إدراك الخيالات الظاهرة والمراد أنه قوة مركّبة من بين الحِسَّيْن الظاهر والباطن وهو معنى كونه مشتركاً فتدرك به كون الشيء الواحد إذا أدَرْتَهُ كرةً، وهذا الشخص المسمّى بالحس المشترك له عينان العين اليمنى من الحواس الباطنة والعين اليُسْرى من الحواس الظاهرة، لأن اليمنى تنظر بالماء الذي وضع الخيال كرسيّه عليه، مثلاً إذا نظرتَ إلى شيء أدرتَهُ انطبعت صورة ذلك الشيء نفسه في عين هذا الشخص اليسرى وانطبعَتْ دَوْرتهُ في عينه اليمنى فرأيت دائرة لم يجدها هذا الشخص إلاّ في ذلك الماء الذي وضع الخيال كرسيَّهُ فيه فيستحلي ما لاءمهُ.

والثاني: الخيال قيل إنه واضع كرسيّه على الماء وطبعه مائل إلى الرطوبة وهو كثير النسيان لكنه سريع الانفعال (الانتقال) بما يرد عليه.

والثالث: الوهم قد وضع كرسيّه على النار وطبعه مائل إلى اليبوسة، قيل إنه بعيد الفهم إلاّ أنه إذا فهم لا ينسى كذا قيل وهذا الشخص مثل منه من ظاهره فيما يسطو به على أعدائه، وأمّا حقيقته فإنه قد وضع كرسيّه على النهر الذي يصبّ في الحوض وطبعه بارد فيما يلقى به أولياءه.

والرابع: الفكر، قيل إنه وضع كرسيّه في الهواء وطبعه مائل إلى البرودة يكذب ويتّهم ويفتري فيها ويحكم على الذي لا يعرف فلا يلتفتُ إليه، وقيل إن لونه أشهب وطبعه يتقلّب وهو مظهر عطارد الكوكب فهو أبداً يكتبُ.

والخامس: الحفظ، قيل هو شخص قد وضع كرسيّه على الأرض وطبعه مائل إلى الاعتدال وهو يحفظ أفعال البوّابين كلّها، قيل وهو الشخص الذاكر الذي قد وضع كرسيّه على الماء وطبعه مائل على (إلى) الحرارة.

والظاهر أنّ وجه اختلاف الطبعين ومحلّ الكرسي إنّما هو بالنظر إلى حالتي هذا الشخص فإنه إنما سمي ذاكراً لأنّه لا يكون حافظاً مع النسيان.

وإذا لوحظ كونه ذاكراً إنّما يلاحظ في حالة تلقّيه من البوابين وهذه حالة يضع فيها كرسيه على الماء لأن الماء منه القوّة الدافعة وهذه الحالة أيضا تقتضي الحرارة لأنها حالة الطلب والأخذ من البوابين.

وإذا لوحظ كونه حافظاً إنّما يلاحظ في حالة اطمئنانه وسكونه عن الأخذ والطلب، وهو في هذه الحالة قد وضع كرسيه على الأرض لأن القوّة الماسكة منها وطبعه حينئذٍ الاعتدال يعني عدم حرارة الطلب والتلقّي فهذه الخمسة حلاوتها ما يلائمها بنسبته، والمعنويّة عندنا ما يجدها العقل ويدركها بغير واسطة من الروح والنفس وغيرهما.

وأمّا ما تدركه الروح فله اعتباران من حيث عدم تمام الصورة يقال له معنوي إذا أدركته بغير واسطة ومن حيث أن ما فيها إنّما هو المُضَغ المعنويّة وهي مخلّقة وغير مخلّقة يقال له باطني، فيلحق بالاعتبار الأوّل بالعقل وبالاعتبار الثاني بالنفس، ثم إنه قد تقدّم أنّ الاسم يطلق على اللفظي وغيره وهو النقشي والتصوري والعددي والمعنوي الذي هو الصفة كالنور للشمس فاللسان يدرك الاسم المعنوي ويجد حلاوته بالقوّة الذائقة.

وقد تقدّم الإشارة إلى ذلك عند قوله عليه السلام (وأسماؤكم في الأسماء) مما دلّت عليه الأحاديثُ المتكثرّةُ، وقد ذكرنا فيما مضى بعضاً منها في البطّيخ وغيره من طرق العامّة والخاصّة بأنهم عليهم السلام عرضت ولايتهم على كلّ شيْءٍ فما قبلها استحلى وما لم يقبلها مرّ وخبث مع قول علي عليه السلام كما مر لسلمان (أنا الذي كُتب اسمي على العرش فاستقرّ وعلى السموات فقامت وعلى الأرض فرست وعلى الريح فذرت وعلى البرق فلمع وعلى الودق فهمع وعلى النور فسطع وعلى السحاب فدمع وعلى الرعد فخشع وعلى الليل فدجى وأظلم وعلى النهار فأنار وتبسّم) هـ.

والاسم هو الصفة كما تقدم عن الرضا عليه السلام لما سئل ما الاسم فقال(صفة لموصوف).

فإن قلتَ: إنّ هذه الأخبار من موضوعات الغلاة ولو سُلِّمت كان معناها غير هذا الذي ذكرت لأنّ ما تقول غير معقول.

قلتُ: الأحاديث الدالّة على هذه المعاني روتها أعداؤهم الذين يبالغون في إطفاء نورهم ومحو فضائلهم وأنت يا محبّهم الذي عرّضكَ الله لخيرهم وخلقك لتكون مظهراً لفضائلهم حاولتَ في إطفاء أنوارهم ومحو فضائلهم بطَوْرٍ لم تصل إليه أعداؤهم فلعلّك لستَ الصديق الذي قال فيه الشاعر:

إحذر عدوَّك مرةً واحذر صديقك ألف مرة

فلربّما انقلَبَ الصديق فكان أعلم بالمضرّة

وأيضاً سلّمنا أنّ فيها أحاديث مكذوبة لكن لا نسلّم أنها كلّها مكذوبة بل أكثر ما فيها متواتر المعنى ، والحكمة ضالةُ المؤمن حيثما وجدها أخذها .

ثم فأيّ ضررٍ تخافه وأي محذورٍ تخشاه في ذلك، فإن كنت تقول أخاف الكفر والغلو فتدبّر ما بيّنتُ لكَ في مواضع كثيرةٍ من هذا الشرح يظهر لك على جهة القطع والضرورة أنّك مع هذا القول من المقصّرين لا من الغالين.

فإن قلتَ: من أين لك هذه التوجيهات الغريبة والتأويلات البعيدة .

قلتُ: لك ليسَت بعيدة، وإنّما استبعدتها لعدم أنسِك بها (إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ★ وَنَرَاهُ قَرِيبًا) على أنّك تدّبر كلامي ولا تستعجل فإن الله سبحانه يقول (بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ) والشاعر يقول:

فهب أنّي أقول الصبح ليــلٌ

أيعمَى الناظرون عن الضيــاء

وأنا إنّما قلتُ عن الدليل القطعي الضروري ودليلي على هذه الدعوى أنّك تأمّل كلامي من غير معارضة حتّى تفهمه، فإذا فهمته كما أردتُ فيما أوردتُ ولم يحصل لك القطع البديهي، فاعلم أني مفترٍ كذاب والميعاد يوم الحساب إن افتريته فعليّ إجرامي وأنا بريء ممّا تجرمون.

والأنف يشمّه ولقد روي ما معناه أنّ فاطمة عَلَيْهَا السَّلَامُ لمّا وضعتها خديجة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا بل عليها سلام الله لأنها وعاء السلام ونور دار السلام لمّا وضعتها فاحَ الطيب حتى ملأ جميع الأرض والآفاق كلّها، كما أَن الشمس إذا طلعت أشرق اسمها على

جميع الآفاق كذلك الحوريّة القدسية صلى الله عليها وعلى أبيها وبعلها وبنيها لما طلعت في هذه الدار فاح الطيب الذي هو اسْمُهَا على ما قرّرنا لكَ.

والعين تدرك بالقوّة الباصرةِ الاسم المعنوي والاسم النقشي.

أما إدراك العين لحلاوة الاسم المعنوي فظاهر لأنّ الألوان الجميلة والرياش من اللباس والهيئات الحسنة والصُّور الجميلة المستحسنة في سائر الحيوانات وسائر النباتات وسائر المعادن والجمادات من جميع الصّفات من الألوان والمقادير الهندسيّة والأشكال والصقالة والشّفافيّة والصلابة فيما يستحسن فيه واللّين كذلك والخفّة فيما تستحسن فيه والثقل كذلك والحاصل جميع الصفات وأضدادها فيما يستحسن فيه.

وتدرك الأذن بالقوّة السَّامعة ما كان صوتاً أو ظلّ صوتٍ كالصدا.

وكذلك البشرة تدرك بالقوّة اللامسة ما كان كيفيّة من حرارة وبرودة ورطوبة ويبوسة وما كان صلابة وليناً وما كان هندسة.

والحاصل ما أشير إليه من كونه مدركاً عند ذكر العين منه مدرك للباصرة واللاّمسة ومنه مدرك للباصرة ومنه مدرك للاّمسة وكلّ ذلك أسماؤهم وأسْمَاء أسمائهم فما كان مستحسناً بنسبة ملاءمة المدرك أدْرك حلاوته، وكذلك الحواسّ الباطنة فإنَّها لا تُدرِك في محالّها إلاّ الأسماء المنتزعة من الجواهرِ والأعراض وهي أسماؤهم وأسماء أسمائهم على نحو ما ذكرنا في الحواسّ الظاهرة فأسماؤهم اللّفظيّة يدرك حلاوتها اللسان لسلامتها من الغرابة والتعقيد والتنافر وما أشبهها المتعلّقة بموادّ الأسماء وهيئاتها فلا يكون أسلس منها عند النطق بها.

والأذن كذلك في أصواتها في موادّها وهيئاتها فاللفظية للأذن والرقمية

للعين والصورية للخيال والمعنوية للعقل والعددية والمعنوية فكرية أو عقلية روح الرقميّة واللفظية، فالعدديّة قوى اللفظية وكميّة تنزل المعنويّة، فإذا تنزّلت في الاستنطاق ظهرت بأسمائها كما قيل إن بيّنات اسم محمد ﷺ زبر إسلام، فلمّا تنزّلت أعداد بيّناته ظهرت باسمها وهو إسلام الذي هو صفة النبوة وأثرها لأن البيّنات صفة الزُّبر واسمه ، فبيّنات اسم محمد ﷺ (ي م أ ي م أ ل) وعددها مائة واثنان وثلاثون وهو عدد زُبر إسلام، لأنه واحد وستون وثلاثون وواحد وأربعون، وهي مائة واثنان وثلاثون وبيّنات اسم عليّ عليه السلام زُبر إيمان، لأن بيّنات اسمه (ي ن أ م أ) وذلك مائة واثنان.

وإنّما كان نفس بيّنات اسم عليّ عليه السلام إيمان من غير جمع ولا استنطاق بخلاف بينات اسم محمد ﷺ فيحتاج في ظهور إسلام منها إلى جمع اليائين إلى (م) ليكون سيناً لظهور الإيمان من صفته عليه السلام لاختصاصه وعدم اشتراكه بغير المؤمنين، بل هو علامة المؤمنين ومحَكّ الإيمان والنّفاق لأنه الميزان الحقّ حتى أنه روي أنّ عائشة قالت شعرا:

إذا ما التّبرُ حُكَّ على مَحَكٍّ
تبيّنَ غِشُّه من غير شَكِّ
وفينا التّبرُ والذهبُ المُصَفَّى
عَلِيٌّ بيننا شِبهُ المَحَكِّ

وهو اليمين التي قبض سبحانه بها قبضة فقال: للجنّة ولا أُبالي ولم يشترط لنفسِه في ذلك البداء.

وأمّا محمّد ﷺ وإن كان أصل الخير والهدى وإنّما عَلاَ عليٌّ عليه السلام بعُلوِّ محمد ﷺ

وتشرف بشرفه، فإنه كان في الظاهر مشترك الاتّباع فلم تكن نفس بيّنات اسمه إسلام إلاّ بالجمع لأن من أتباعه من ليس من الإسلام في شيء، فإذا جمع أي ضمّ كلّ شيء إلى أصله خلص به الإسلام الذي يجري عليه ظاهر الشريعة ولأجل هذا الاشتراك قال ﷺ (ما اختلفوا في الله ولا فِيَّ وإنّما اختلَفُوا فيك يا عليّ) فإذا جرت أعداد أسمائهم كما سمعت على الخيال وجد لذة الاستقامة في الاستنطاق لموافقته الطبع من غير تكلّف، فلأجل ما يجد من حلاوة أسمائهم ينشرح الصدر بحلاوة المعرفة وطعم الإيمان، وإن كان قد اختلفوا في حلاوة الإيمان هل هي معقولة أم محسوسة في قوله عليه السلام (حَرَامٌ عَلَى قُلُوبِكُمْ أَنْ تَعْرِفَ حَلاوَةَ الإِيمَانِ حَتَّى تَزْهَدَ فِي الدُّنْيَا)وظاهر الحديث في قوله عليه السلام (عَلَى قُلُوبِكُمْ) أنها معقولة والحقّ أنها في العقول في ما يتعلّق بالجنان معقولة وفيما يتعلق باللسان والأركان محسوسة.

وليس الشرح إلاّ بالهدى كما قال تعالى (فَمَنْ يُرِدِ الله أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإْسْلامِ)وهو تأويل قوله تعالى (الله نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلى ذِكْرِ الله ذلِكَ هُدَى الله يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشاءُ)وقال تعالى(فَبَشِّرْ عِبادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولئِكَ الَّذِينَ هَداهُمُ الله وَأُولئِكَ هُمْ أُولُوا الأَلْبابِ) وأحسن القول هو الإمام كما في قوله تعالى (وَلَقَدْ وَصَّلْنا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) .

في الكافي في هذه الآية عن الكاظم عليه السلام (إِمَامٌ إِلَى إِمَامٍ).

وفي تفسير علي بن إبراهيم عن الصادق عليه السلام(إمام بعد إمام) .

وأما المعنوية فما تدرك به عقول شيعتهم من البصائر فممّا كتب عليها من أسمائهم كما كتب اسم الشمس على الأرض فأشرقت بذلك الاسم أي بنورها، وكذلك ما

تدركه أرواحهم ونفوسهم وسائر مشاعر الإنسان وحواسُّهُ فكلّه إمّا أسماؤهم أوْ أسماءُ أسمائهم وليس في شيء ممّا أدركه من أسمائهم أوْ أسماءِ أسمائهم منافرة له بل كلها ملائمة محبوبة وهي الحلاوة المرادة وقد توجد الملاءمة في شيء غير ما ينسب لهم إلاّ أنه بحالٍ دون حالٍ كما في بعض ما على الأرض الذي جعله الله زينةً لها ليبتَلي به عباده أيّهم أَحسن عملاً، فإن أمثال ذلك قد يستحسن في حال النّظر إلى زينة الدّنيا ولو نظر إلى زوالها وفنائها لم يستحسن ، فحلاوته لا يتعجّب منها.

وأمّا ما ينسب إليهم صلى الله عليهم فهو مستحسن في كلّ حال فلذا صحّ على الحقيقة أن يتعجّب من كمال ملاءمته ولزومها فيقال ما أحسن ذلك وما أحلاه فلذا قال عليه السلام (فما أحلى أسماءكم) ومرادنا بأسماء أسمائهم ما كان اسماً لأفعالهم الحقيقيّة وأفعال شيعتهم التي أخذوها عنهم وتابعوهم بها فإنها وإن كانت أسْماء شيعتهم إلاّ أنّها أسماء أسمائهم لأنّ مسمّياتها إمّا شيعتهم أو أفعالهم وكلُّ ذلك أسماؤهم فإذا صح أن يراد بالأسماء ما هو أعم من اللفظيّة كما دلّت عليه الروايات وغيرها وعرفت المراد من الحلاوة العموم فهي في كلّ مدرك بنسبته، وعرفتَ أنّ المدركات إنّما تدرك بنسبة رتبته من الشعور وحلاوته بنسبة ملاءمته لما أدرك فهي باعتبار قوّة الملاءمة وضعفها مشكِّكةٌ.

وعرفتَ أنّ الملاءمة من أسمائهم عليهم السلام أعظم من غيرها من سائر الأسماء، أمّا أسماء الخلق فظاهر وأمّا أسماء الخالق عز وجل فأعظمها ذواتهم وأسماؤهم عليهم السلام المعنويّة لأن أسماءه المعنويّة هي ذواتهم وصفاتهم، وأسماؤهم المعنويّة وأسماءهُ تعالى اللّفظيّة مسمياتها ذواتهم وأسماؤهم المعنوية إذ ليس له تعالى أسماء إلاّ أسماء أفعاله وهم معاني أفعاله، فإذا تبيّن لك هذه الأمور عرفت ما أردْنا من معنى

قوله عليه السلام (فما أحلى أسماءكم) وربّما وجدت حلاوة أسْمائهم في بعض مشاعِرك ومَدارِكك أوْ كلّها (اللهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ) .

وقوله عليه السلام (وأكرم أنفسكم) المتعجّب منه كرمُ نفوسهم بمعنى سخائها الشامل لجميع الموجودات من جميع الخلائق بل جميع الممكنات، أمّا المكوّنات فلما تقدّمَ مما أشرنا إليه من أن جميع الكائنات إنّما تكوّنت بأربع علل.

الأوُلى: العلّة الفاعلية وهي إنّما تقوّمت بهم لأنهم محالّ مشيّة الله وألْسِنةُ إرادته.

وأمّا الثانية: فالعلّة الماديّه وكلّ مكوّنَ إنّما خُلِق من فاضلِ أنوارهم ،لأن فاضل أنوارهم أي شعاعها هو الوجود المقيّد الذي خلق منه مادة كلِّ مكوّنٍ ، وهذا معنى قول الحجة عليه السلام في دعاء شهر رجب (أعضاد) يعني أنّ الله تعالى اتّخذهم أعضاداً لخلقه ، أشار عليه السلام بذلك إلى مفهوم قوله تعالى (وَما كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدا) يعني أنّي إنّما اتّخذتُ الهادين عضداً صلى الله عليهم وهو عضد الخلق كما اتّخذَ النجّار الخشب عضُداً لعمل السرير فافهم، وقد تقدّم هذا المعنى مكرراً فراجع .

والثالثة: العلّة الصوريّة لأنّ الله سبحانه خلق صُورَ المكونات من أشباحِ صورهم يعني صور أمثالهم ومقاماتهم في أعمالهم وأقوالهم عن باطنهم الذي فيه الرحمة، وأتباعهم صُبغوا في هذه الهياكل الشريفة الّتي هي صبغ الرحمة الّذي إليه أشار جعفر ابن محمد عليهما السلام في قوله (إن الله خلق المؤمن من نوره وصبغهم في رحمته) .

فهذا النور هو المادة الذي هو الفاضل المذكور سابقاً والصبغ هو هذه الهياكل.

وأمّا أعداؤهم فصورُهم من صور أمثالهم ومقاماتهم في أعمالهم وأقوالهم عن ظاهرهم الّذي من قبله العذاب، ومعنى هذا أنّ من أجاب دعوة الله في الذرّ إلى طاعتهم خلقه من حدود أعمالهم لإيجاده وتلقينهم له كلمة القبول، وأنَ مَن لم يجب دعوة الله سبحانه في الذرّ إلى طاعتهم خلقه من حدود ذَوْدِهم له وتركهم له ومنعهم المعونة فقبِل بداعي إنيّة نفسِه وهو الإنكار وهو ظاهرهم الذي من قبله العذاب.

وأزيدُك بياناً في هذين إنّك تلقَى مَن أحبّك وأطاعك بباطن رحمةٍ مِنْك وعطفٍ عليه ولطفٍ به فيظهر له من باطنك الرحمة واللطف البشري فإذاً أنت قد ظهرت له في أحسن صورةٍ وأجمل صفة ، وتلقى من أبغضك وعصاك بغضب وإعراضٍ عنه ووجهٍ عَبُوسٍ ، فحالتُك الّتي لقيتَهُ بها مثالُكَ ومقامُكَ أي ظهورك بالغضب وهو ظاهر من قبلك، لأن الرحمة سبقت الغضب في الوجود فهي باطن وذاتي، والغضب إنما عرض للمنافي فهو ظاهر، ولهذا تنسب الرحمة إلى الذات وينسب الغضب إلى الفعل فيقال أنّ الله هو الغفور الرحيم ولا يقال الغَضُوب قال تعالى (إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقابِ وَ إِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ).

والرابعة: العلّةُ الغائية ولوْلاهُمْ لم يخلق الله شيئاً من خلقه وإنّما خلقهم لأجلهم فكلّ من سواهم من الخلق لهم فانظر إلى خيرهم الوَاصِل إلى كلّ واحدٍ من الخلق في أصلِ تكوّنه.

وأمّا الممكناتُ فكل واحدٍ منها لائذ بما هو فيه من الفقْر بجناب الغَنِي الحميد سبحانه وتعالى وهم عليهم السلام ذلك الجناب المنيع والشّأن الرفيع كما في دعائه عليه السلام (إلهي وقف السائلون ببابك ولاذ الفقراء بجنابك) وهذا كلّه في الوجود الّذي هو ظاهر الشَيْء.

وأمّا ما يتعلق بالاعتقادات والأعمال الصّالحة التي لأجلها جاء التكليف وهم أصْله وهُو فرعهم، وذلك لأنّهم هم المعلّمون للخلائق معرفة الخالق، وكيفية طاعته وعبادته وتسبيح الملائكة وتهليلهم وتمجيدهم لله سبحانه وسائر الخلق.

قال عليّ عليه السلام (نَحْنُ الأَعْرَافُ الَّذِي لا يُعْرَفُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إلا بِسَبيلِ مَعْرِفَتِنَا) ، وقد ذكر الله سبحانه ذلك في كتابه فقال تعالى (وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ) فأخبر تعالى بأنّ نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم منعِمٌ وذو فضلٍ في قوله تعالى (إلاَّ أَنْ أَغْناهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ)ويجري لهم ما يجري لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقد تواردَتْ أخبارهم عليهم السلام بخيرهم الفائض على سائر الخلق، والمؤمنون يعرفون ذلك هذا على معنى الكرم بمعنى السخاء.

وعلى معنى الرّضا والحسن كما في قوله تعالى (إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ) أي حسن مرضي يكون المعنى التّعجب من حسن أنفسكم في ذاتها وفي طباعها، فإنّ كلّ مَن عرف من ذلك استحسنه وارتضاه من أوليائهم ومن أعدائهم وإنما يعادونهم حسداً لهم على ما يشاهدونهُ.

وعلى معنى النفع يدخل في الأول لأنّ المعنى فيه ما أعمّ نفع أنفسكم وأشده وعلى معنى التفضيل كما في قوله تعالى(أَرَأَيْتَكَ هذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ) أي فضّلت عليَّ يكون المعنى ما أشدّ تفضيله سبحانه إيّاكم على مَنْ سِوَاكم حتّى أغناكم بما آتاكم عن جميع خلقه، وجعل جميع خلقه محتاجين إليكم في كلّ شيء.

وكذلك على معنى التفضيل بحسن الصورة واعتدال المزاج واعتدال القامة والتمييز بالعقل والإفهام بالنطق والإشارة والخطّ والهداية إلى أسْباب المعاشَ والمعاد والتَّسلُّط على ما في الأرض والتمكن من الأعمال والصناعات وانسياق

الأسباب والمسبّبات إلى ما يعود إليه عملهم بالمنافع إلى غير ذلك كما في قوله تعالى (وَلَقَدْ كَرَّمْنا بَنِي آدَمَ) فإنه يكون المعنى أنّكم في هذه الأشياء التي كرِّم بها بنو آدم على ما سواهم في أقصى مراتب إمكانها في أصل وجودِها ومع انضمام ما نيطت به تبلغ كمالاً على وجهٍ غير متناهٍ في إمكانِها، فلذا حسن التعجّب على الحقيقة مع مشاركة بني النوع فيها ظاهراً ليتمكن بالمقايسة من مقتضى التعجّب.

وقولي ظاهراً قيد للمشاركة وللنّوع لأن الحقيقة إنّ ما كان لهم عليهم السلام من هذه الأمور لم يشركهم فيه أحدٌ إذ لم يصل أحدٌ من الخلق إلى رتبتهم ليشاركهم، وكذلك النوع فإنهم إنّما يدخُلون في النوع ظاهراً وإلاّ ففي الحقيقة هم خلق آخر فوق بني آدم ، وإنما بنو آدم بمنزلة الأسماء مثل لفظ زيد ومعناه إذ لا يقال في الحقيقة أن اللفظ من نوع زيد الذي هو الحيوان الناطق وإنّما دخلوا في النوع ظاهراً كما دخل روح القدس الذي هو من أمر الله في نوع الملائكة مع أنه ليس من نوعهم، ولهذا قال عليه السلام (أنه خلق أعظم من الملائكة)ولهذا لمّا أمر الله تعالى الملائكة بالسجود لآدم فقال لهم (اسْجُدُوا لآِدَمَ)فلمّا سجدوا أخبر عن ذلك فقال (فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلاَّ إِبْلِيسَ)فلم يستثن إلاّ إبليس مع أنّ روح القدس وروح من أمر الله والروح الّذي على ملائكة الحجب الاثنان لم يسجدوا فلمّا عاتب إبليس بعدم السجود قال تعالى له (أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعالِينَ)وهم هؤلاء الأربعة، ولو كانوا من الملائكة لسجدوا هذا وكثيراً ما يطلق على أحدهم الملك فقال أمير المؤمنين عليه السلام لما سئل عن العقل الذي هو روح من أمر الله قال (مَلَكٌ لَهُ رُءُوسٌ بِعَدَدِ الْخَلائِقِ) الحديث.

فدخولهم عليهم السلام في نوع بني آدم كدخول هؤلاء العالين في نوع الملائكة، فلا

مشاركة في هذه الأمور الّتي فضّل الله بها من شاء بمعنى أنهم عليهم السلام خلقهم الله سبحانه قبل الخلق بألف دهر على هذه الصفات المحمودة، فلمّا أراد أن يخلق سائر خلقه أخذ من فاضل شعاعهم موادّ الخلق وصورهم، وأخذ من فاضل شعاع هذه الأمور المذكورة وهو أسماؤها فخلق منها سائر بني آدم أعني هذا النوع ،كما أنّ حقيقة هذا النوع موادّهم وصورهم خلقها من أسماء موادهم عليهم السلام وصُوَرِهِمْ وإنّما أشركنا في ما فيهم من هذه الصفات غيرهم لأجل ظاهر التّسمية.

فلك أن تقول أن ما في بني آدم من هذه الصفات مجازاة تلك الحقائق كما أن حقيقة بني آدم مجازاة حقائقهم عليهم السلام وهم مجازاة الحق عز وجل أما ترى قوله تعالى في حق علي عليه السلام (وَأَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً)(وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ) والأئمة عليهم السلام كذلك ، ولك أن تقول أنّ ما فيهم حقيقة وما في بني آدم حقيقة بعد حقيقةٍ، وعلى هذا التوجيه يكون التعجّب ممّا لا يدرك كنهه ولا صفته إلاّ من جهة إدراك الأسماء وعلى معنى الإيمان كما روي (خير الناس مؤمنٌ بين كريمين) أي بين أبوَيْن مؤمنين، لأنّه يكتسب مع إيمانه من إيمانهما فالتعجّب كذلك كما قال تعالى في حق جدهم صلى الله عليه وآله وسلم (فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِماتِهِ) الآية ، فإنهم قد حذوا حذوَهُ وجرى لهم ما جرى لرسوله الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وعلى معنى مكارم الأخلاق كما روي أنه صلى الله عليه وآله وسلم خص بها وهي عشرة وهي من شعب الإيمان اليقين والقناعة والصبر والشكر والحلم وحسن الخلق والسخاء والغيرة والشجاعة والمروءة والتّعجب حينئذٍ في كمالها لهم واجتماعها فيهم.

وعلى معنى التقوى كما قال تعالى (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقاكُمْ) أي أشدّكم تقوى لله أو أشدكم عملاً بالتقيّة فظاهر وكذا إذا أخذ من القُدْس فما أكرم أنفُسهم وأطهَرَها.

وقوله عليه السلام (وأعظم شأنكم وأجلَّ خطركم) يراد به ما أعظم أمركم أو حالكم أي ما أعظم ما تكونون فيه من شأن لأنّ الله سبحانه خلقهم له لا لأنفسهم ولا لشيء غيره تعالى، فهم محالّ مشيّته وأَلْسِنةُ إرادته ففعلهم فعله تعالى وقولهم قوله تعالى، فكيف توصف عظمةُ شأنهم وهم أبداً في حالٍ لله فيهم وفي خلقه ولهم في هذين الحالَيْن حال خاصةٌ إمّا في المقامات أو في المعاني أو في الأبواب في كلِّ رُتْبَةٍ بنسبةٍ ما يخصها ، وتلْك الحال الخاصة يقال عليها المقامات إمّا دائماً كالأولى التي هي المقامات أو في حال الاتصاف والظهور كما في الثانية أعني رتبة المعاني، والثالثة أعني رتبة الأبواب ، وفي هذه الحال الخاصة قال الصادق عليه السلام(لنا مع الله حالات نحن فيها هو وهو نحن وهو هو ونحن نحن)وفي بعض نسخ الرواية إلاّ أنه هو هو ونحن نحن، هـ.

وهذا شأنهم في المقامات فلا شيء أعظم من شأنهم في مراتب جميع المخلوقات وهذا إذا أريد بالأمر هذا الحالُ، وإن أُريد به الولاية التي هي ملزوم هذا الشأن المذكورة فأشدّ عظماً لأنّها هي ولاية الله التي ذكرها في كتابه فقال تعالى (هُنالِكَ الْوَلايَةُ للهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَواباً) فالولاية الحق هي ذاته المقدّسة فولاية الله بذاته هي ذاته بلا مغايرة لا في نفس الأمر ولا في الفرض والاعتبار وولايةُ الله بفعله ومشيّته هم محلّها لأنّها هي مشيته وولاية الله بهم هي ولايتهم وما أشدّ عِظَمَها.

وقوله عليه السلام (وأجلّ خطركم) قد تقدم بيان هذا في بيان قوله عليه السلام(إلاّ عرّفهم جلالة أمركم وعظم خطركم وكِبَرَ شأنكم) بما يناسب هذا الترتيب فذكر هناك العظم للخطر والكبر للشأن والجلالة للأمر، وهنا ذكر العظم للشأن والجلالة للخطر ويفهم من الموضعين اتّحاد العظم والجلالة والكبر واتحاد الشأن والأمر

والخطر والمعنى في اللغة في الموضِعيْن متّحد أو متقارب والاتّحاد الظاهر من الموضعين، إمّا باعْتبار ما تَعْرِفُه أَهْلُ اللُّغَةِ أو باعتبار استعمال واحدٍ في شيء حقيقةً وفي غيره مَجَازاً ولاَ يُستنكر لتقارُبها.

ففي اللّغة الشأن الأمر والحال وفيها الأَمر بفتح الهمزة وسكون الميم بمعنى الشأن والحال وفيها الخطر القدر والعظمة والمنزلة ، وفيها أكبر أي أعظم قال تعالى (أَكابِرَ مُجْرِمِيها)يعني عظماء (فلمّا رأينه أكبرنه) أي استعظمنه وفيها الجلال العظمة.

والحال أنّ المعنى بحسب اللغة متقارب، وفي النهاية (ومن أسماء الله تعالى ذو الجلال والإكرام الجليل وهو الموصوف بنعوت الجلال والحاوي جميعها هو الجليل المطلق، وهو راجع إلى كمال الصفات كما أن الكبير راجع إلى كمال الذات والصفات والعظيم راجع إلى كمال الذات) انتهى.

وأمّا أهل العرفان وأهل التصوّف ففرقوا بين الجلال والعظمة والكبرياء فجعل بعضهم الجلال صفة الذات، والجمال صفة الجلال ،وبعضهم عكس، ومرادهم أنّ العظمة والجمال صفة للجلال، لأن الجلال التقدس والعزّة والعلوّ والعظمة صفته، ومن عكس جعل الجلال صفةً للعظمة فجعل التقدّس والعزة والعلوّ للصفة، وبعضهم جعل الجلال من صفات القهر والجبروت، والمفهوم من ظاهر الأخبار والأدعية مساواة العظمة للجلال مثل قوله عليه السلام في دعاء يوم الأحد من مصباح المتهجد (لَطُفتَ في عظمتِك دون العظماء)، فقوله (لطُفتَ في عظمتك) مشعِر بأن العظمة ضدّ اللُطْفِ وقال عليه السلام بعد ذلك (يا لطيف اللطفاء في أجل الجلالة)فجعل الجلالة ضدّ اللّطف وظاهر هذا اتّحاد العظمة والجلالِ.

وإنّما قلنا أنه ظاهر هذا لأنه يمكن مطابقته لما في النهاية بأن نقول اللطف يكون في الصّفاتِ ويكون في الذات، فيكون قوله عليه السلام لطفتَ في عظمتك يُرَادُ منه اللّطف في الذاتِ وقوله عليه السلام (يا لطيفَ اللطفاء في أجلّ الجلالة) يراد منه اللطف في الصفاتِ ووصفُ الكبرياء بالعظمة والعظمة بالكبرياء في قوله (والكبرياء العظيم الذي لا يوصف والعظمة الكبيرة)يشعر بالمغايرة وكذا الإضافة في قوله (في جلال عظمتك وكبريائك)والمغايرة تُؤيّدُ الفَرْقَ.

بقي الكلام في هذا الفرق الذي ذكره ابن الأثير وغيره هل هو الفرق المذكور في الأخبار والأدعية أم الفرق غير ما ذكره أهل اللغة.

والذي فهمتُ بعد ثبوت أن جميع الصّفات كلّها راجعةٌ إلى الأفعال، ومعاني الأفعال، لأنّ الذات صفاتها عينها فلا تعدّد ولا مغايرة ولهذا يكون معناها واحداً فهو تعالى يسمع بما يبصر به ويبصر بما يعلم به فحياته عين قدرته وسمعه وبصره وهكذا، لأن المراد بمعنى هذه الألفاظ هو الذّات فلا تغاير فيها باعتبار ولا حيث ولا في نفس الأمر ولا في الفرض.

إنّ الكبرياء أبعد من العظمة والجلال بالنسبة إلى المبدأ لأنها صفة ظاهرها عالم المُلْكِ مِن ذَواتِه وصفاته ولهذا ورد وصفُها بالعرض كما في الدعاء (عريض الكبرياء)والعرض من صفات الأجسام ومبادئ الأجْسام ولا يقال عريض العظمة أو الجلال.

وأمّا الجلال فإن أُريد منه معنى العزّة كان راجعاً إلى كمال الذّات، وكان أخصّ من العظمة لأنّ العظمة راجعة إلى صفات الإضافة والعزة راجعة إلى صفات القدس، وإن أريد منه معنى العظم ضدّ القلّة والحقارة والصّغر كان راجعاً إلى

كمال الصفات كما في النّهاية، وإن أمكن رجوعه إلى كمال الذات بتكلّف معنى العَظَمة.

وأمّا العظمةُ فراجعة إلى كمال الذّات وكمال الصفات فورد ما معناه كان عظيماً قبْلَ عَظَمِته، وهذه العظمة المسبوقة يُرَادُ منها ما يرجع إلى الصفات الفعليّة لأنه سبحانه كما قال أمير المؤمنين صلوات الله عليه (لَمْ يَسْبِقْ لَهُ حَالٌ حَالاً فَيَكُونَ أَوَّلاً قَبْلَ أَنْ يَكُونَ آخِراً وَيَكُونَ ظَاهِراً قَبْلَ أَنْ يَكُونَ بَاطِناً)هـ.

فقوله عليه السلام (وأجل خطرَكم) معناه متفرعٌ على ما يراد من الجلالة، فإن شئت قلت معناه ما أعظم قدركم أو ما أكبر قدركم أو ما أعزّ قدركم.

وقوله عليه السلام (وأوفى عهدكم) أي ما أوفى عهدكم الذي عاهدتهم عليه الله حين خلقكم له بقوله تعالى (أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ) أي ألم أخلقكم لي لا لغيري ولا لأنفسكم أو ألستُ خلقتكم لي وحدي أو أخلقُكم لي قالوا بلى بوجوداتهم وعقولهم وأرواحهم ونفوسهم وطبائعهم وأشباحهم وأجسامهم وأجسادهم وجواهرهم وأعراضهم وأعمالهم وأقوالهم وأحوالهم، أي عاهدْناك بِكل جَهاتِنا على إجابتك إلى ما أَرَدْتَ منّا، فإنّا لَكَ وإنّا إليكَ راجعون فكانوا له كما أراد مِنْهم فصحّ على الحقيقة ما أوفى عهدكم لأنّ كل واحدٍ من مشاعرهم وكل واحدٍ من ظاهرهم وباطنهم من غيبهم ومن شهادتهم من الحواس الخمس وأعضائهم من أجسامهم ومن أحوالهم عاهد الله سبحانه على ما أراد منه وخلقه لأجله وَفَى لله تعالى على أكمل وجه يراد منه فلذلك قال عليه السلام على الحقيقة (فما أوفى عهدكم) هذا فيما عاهدوا الله عليه.

ومثله فيما عاهدوا عليه رعيّتهم لمن وفى لهم بالولاية لأنهم إذا وعدوا على الله

تعالى أنجز لهم ولا يردّهم ولا يكون ذلك لغيرهم من الخلق، فمن أوفى بعهده منهم بعد الله سبحانه وهذا ظاهرٌ.

وفي بعض نسخ الزيارة (وأصدق وعدكم) وعلى هذه النسخة يكون قوله عليه السلام (فما أوفى عهدكم) خاصاً بالعهد الظاهر وفي الباطن كالإجابة في قوله تعالى (قالُوا بَلى)وكذلك في (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)وأمثاله لأنّ إجابة دعاءِ الله سبحانه عهد لا وَعْدٌ لأنه تعالى يطلب حقه على جهة الحتم ويؤكّد الدعوة بالميثاق الغليظ، فلذا قلنا أنه عهد باطن لأنه لم يكن فيه لفظ العهدِ ويكون ما تبرّع به المكلف أو نُدِبَ إليه ولم يوجبه عليه كسائر النوافل هو الوعد، نعم لو تبرّعَ به وألزم نفسه به فإنّه من العهد كما قال تعالى (وَرَهْبانِيَّةً ابْتَدَعُوها ما كَتَبْناها عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغاءَ رِضْوانِ الله فَما رَعَوْها حَقَّ رِعايَتِها)الآية، والوعد على المشهور الصحيح ليس بواجب وما ورد فيه ممّا ظاهره الوجوب لوجود لفظ الوجوب فيه فمحمول على معناه اللغوي أي الثبوت أو الوجوب المعتبر في الكمال بمعنى عدم تحقق كمال الإيمان بدونه كما مدح الله تعالى به إسماعيل بن حزقيل في قوله تعالى (إِنَّهُ كانَ صادِقَ الْوَعْدِ).

وأمّا على عدم اعتبار هذه النسخة فيكون قولُه (فما أَوْفَى عهْدَكُمْ) شاملاً للعهد الخاص وللوَعْدِ، وإن أُريدَ بالعهد الخاصِّ الوجوب والوعد عدمُ الوُجوب لعدم المنافاةِ بَيْنَ إرادةِ معنيين مختلفَيْنِ بلفظٍ واحدٍ على الأصح، لأنّ هذه الإرادة متضمنة لإرادتين لكلّ إرادةٌ يُعْلَمُ ذلك بقرينة وضع اللّفظ للمعنَيَيْن أو صلوحه لهما بالحقيقة والمجاز فإذا ورد هذا اللّفظ الذي هذه حالُه ولم يدلّ دليل على إرادة أحدهما فيتعيّن أو نفيه فيتعيّن الآخر دَلَّ على إرادتهما معاً، فإن كانا

حقيقيّين وتنافيا ففي وقتِ الحاجة يجب على الآمر أن يعيّن أحدهما وفي غير وقت الحاجة لا محذور فيه.

والفائدة فيه تهيّؤ المكلّف للامتثال بما يُعَيَّن عليه عند الحاجة ولا بدّ أن يعيّن الحكيم على المكلّف ولو فرض وقت الحاجة وعدم التعيين فلا مناص عن القول بالتخيير إذا لم يحتمل عدم التكليف، لأنّ الناس في سعةٍ ما لم يعلموا ،والتخيير من وجوه العلم واحتمال عدم التكليف مع وُرود ما يدلّ على التكليف ليس إلاّ بدليل صارف ويقع بينهما التّرجيح حينئذٍ ، وإن كان حقيقةً ومجازاً ولم يكن صارف عن الحقيقة تعيّن الحقيقة وإن حصل التكافؤ للقرائن والإمارات فلا مانع من إرادتهما مثل قوله تعالى (وَلا تَنْكِحُوا ما نَكَحَ آباؤُكُمْ)على جعل النكاح حقيقةً في الوطئ مجازاً في النكاح أو بالعكس.

وأمّا على القول بأنه حقيقة فيهما معاً فمن الأوّل ، والحاصل أنّ الوَعْد ملحوظٌ فيما نحن فيه لأنهم صلى الله عليهم أولى بصدق الوعد من جميع من سواهم، فإن صحّت النسخة وإلاّ فهو مرادٌ من العَهْدِ ولا ينافيه أنّ الوعد يخبر عنه بالصدق والعهد بالوفى لأن الوفاء والصدق يصدق أحدهما على الآخر في المعنى وهذا ظاهرٌ.

قال عليه السلام كلامُكم نور وأمركم رشد ووصيّتكم التقوى وفعلكم الخير وعادتكم الإحسان وسجيّتكم الكرم.

قال الشارح المجلسي كلامُكم نورٌ علم وهداية من الله تعالى والرشد الهداية والخير والسّجيّة الطبيعة انتهى.

أقول: من كون كلامهم عليهم السلام نوراً أنه هداية لمنْ طلب الهداية، ودليل لمن أراد الاستدلال لأن النور هو الدليل والبرهان الذي به تثبت حقيقة الشّيء كما قيل

أنّ القرآن نورٌ لأنه الدليل على كلّ ثابت والبرهان على حقيّة كُلِّ حقٍّ وبطلانِ كلّ باطلٍ، وذلك لأنّهم صلّى الله عليهم لا يتكلّمون إلاّ عن القرآن لأن الله عز وجل قالَ في كتابه في شأنِ جدهم نبيّه ﷺ (وَما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحى) فأخبر أنه ﷺ ما ينطق عن هوى نفسه وإنما ينْطق بالوحي أو عن الوحي وهم صلّى الله عليهم يحذون حذوه فلا ينطقون إلاّ عن الله ورسوله ﷺ.

فكلامهم نورٌ أيْ حقّ (لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ) أي فيما أَخْبَرُوا به عمّا مضى (وَلا مِنْ خَلْفِهِ)فيما يُخْبرون به عمّا يأتي وكلامهم نور أي هداية وبرهان به يتحقق المتحقق ويزهق الباطل، وكلامهم نور تَسْتنيرُ به قلوبُ المسلّمين لهم القابلين (القائلين) عنهم، والنّور هو الظاهر في نفسِه المُظهِر لغيره، وكلامهم عليه السلام هكذا ظاهر في نفسه أي بيّنُ التّحقّق والحقيّة (الحقيقة) لعدم اختلافه من حيث معناه الَذي يريدونه منه وعدم منافاة بعضِه لبعضٍ مع اختلاف ظاهره لأجل مصالح رعيّتهم فمن أخذ بكلّ كلامِهمْ وفِهمَ مرامَهُم بالتسليم لهم والردّ إليهم بحيث يجعل فهمَهُ تابعاً لمرادهم من كلامهم وجدَهُ كلّه نوراً أي حقّاً وصواباً وإصابة للحقّ والهداية والرشاد وما هو إلاّ كالقرآن لأنه مثاله ومنه أخذ مبنيّ على معانيه وألفاظه وإشاراته وتلويحاته وجميع مآخذه وأنحائه.

وفي حديث أمير المؤمنين عليه السلام في تقسيم ما في أيدي الناس من الحديث قال عليه السلام (فَإِنَّ أَمْرَ النَّبِيِّ ﷺ مِثْلُ الْقُرْآنِ نَاسِخٌ وَمَنْسُوخٌ وَخَاصٌّ وَعَامٌّ وَمُحْكَمٌ وَمُتَشَابِهٌ قَدْ كَانَ يَكُونُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ الْكَلامُ لَهُ وَجْهَانِ كَلامٌ عَامٌّ وَكَلامٌ خَاصٌّ مِثْل الْقُرْآنِ وَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي كِتَابِهِ ما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا فَيَشْتَبِهُ عَلَى مَنْ لَمْ يَعْرِفْ وَلَمْ يَدْرِ مَا عَنَى اللهُ بِهِ وَرَسُولُهُ ﷺ)الحديث .

وإلى ما ذكرنا الإشارة بقوله تعالى (وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ)يعني أنَّ كلماته تظهر الحق وتُبَيِّنُه لأنّها نورٌ ، والنور هو الظاهر في نفسه المظهر لغيره.

فعلى الظاهر الكلمات هي القرآن وما أنزل تعالى من الوحي على رسله وأوليائه ولا شك أنّ كلام محمد وأهل بيته ﷺ منها أي من بعضها أوْ أُخِذ منها.

وعلى الباطن الكلمات هي محمد وآله ﷺ وعلى هذا فالمظهر للحقّ أي الذي أظهر الله به الحق وأحقّهُ به هو وجودهم وذواتهم وأعمالهم وأقوالهم وأحوالهم وهذه الخمسة كلّها كلمات الله أما الأوّل والثاني فهما كلام الله ويجوز أن يقال هما كلامهم باعتبار القابليّة كما مر سابقاً مراراً من أن المفعول هو فاعل فعل الفاعل، كما إذا قلتُ لك اضرب فإن (اضرب) فعل أمرٍ وهو فعلي وأمري وأنت فاعله لأنّك المأمور بالضرب، ففاعل اضرب ضمير يعود إليك تقديره أنت ولا يعود إليّ فلا يقال تقديره أنا، وكذلك ما نحنُ فيه فإنّ أمرهُ تعالى في إيجادك كن وفاعله ضميرك أي أنت فهو سبحانه المكوِّن فمنهُ التكوين وليس جزءاً من المفعول، ومنك التكوّن وهو جزؤك المعبّر عنه بالماهيّة والقابليّة لأنّك مركب من شَيْئين من الوجود أي المقبول، وهو أثر فعله تعالى لا فعله ومن الماهيّة وهي القابل وهو فعلك فأنت فاعلُ فعل فاعِلك وصانِعك بمعنى القابل الذي هو جزؤك وبذلك خلقهم وبه اخْتلفوا وقد سبقت كلمته الحسنى لمن استجاب له الاستجابة الحُسْنَى.

وأمّا الثلاثة الأخر فهي كلامُ الله تعالى بهم عليهم السلام وكلامُهم بالله سبحانه وكلّها نور بكلّ معنى يرادُ منه، وقد يستعمل بمعنى القول الذي هو الفِعل وذلك كما في قوله تعالى (وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِما ظَلَمُوا) أي العذاب وهو ممّا أشرنا إليه من الخمسة التي هي كلماتهم باعتبار، فعلى هذا فكونه نوراً مطلقاً إنّما هو على ما قرّرنا

مراراً من أنّ فعل الثواب والنعيم بالفضل والعدلِ نورٌ لأنّه حقّ وصوابٌ ورشدٌ وهِدَايةٌ ولأنّه مُظْهِرٌ لما اقتضَتِ الحكمةُ الإلهيّة إظهاره من الممكنات لكونه سبباً للتكوين على نحو الحكمة ، ومِنْ أنَّ فعل العقاب والتّأليم بالعَدْلِ نورٌ لأنَّه حقّ وصَوَابٌ لكونه جارياً على مقتضى قوابل الأشياء ودواعيها على نحو قوله تعالى (فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّما يَصَّعَّدُ فِي السَّماءِ كَذلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُون وَهذا صِراطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً) يعني في شرحِه صدر من يريد هدايتَهُ للإسلام وجَعْلِ صدرِ مَن يريدُ أنْ يُضِلهُ ضيّقاً حرجاً، فإنّ صراطه في فعله تعالى شرح الصدر للهداية وجعله ضيّقاً حرجاً للضلالة مستقيم أي جارٍ على أكمل وجهٍ يقتضيه العدل والحق لا اعوجاج فيه بوجهٍ ما، لأنّه أعطى على حسب السؤال وصنع على مقتضى القبول منه تعالى فكلامهم صلى الله عليهم نورٌ إذا أريد منه الفعل على هذا النحو ولا يعني بالنور إلاّ هذا ونَحوُه.

وقوله عليه السلام (وأمركم رُشْدٌ) يراد منه أنهم لا يأمرون إلاّ بما فيه الهداية والصلاح للمأمور في الدّنيا والآخرة ، وأنّهم سلام الله عليهم يلاحظون فيه الترجيح لَوْ تعارض صلاح الدنيا وصلاح الدين، كما هو شأن الطبيب الماهر العليم بالمعالجة، وهذا شيء معلوم عند جميع المسلمين ظاهراً، بل كان ذلك في هويّات جميع الخلائق وطبائعهم تدركه أفكارهم وتصوراتهم وإن جهل الأكثرون في التصديق.

وذلك بأنّ في الوجود الخارجي أو الذهني على اختلاف الأنظار من الخلائق من يكون هذا شأنه، بمعنى أنّه لا يأمر إلاّ بما فيه الصلاح أو الأصلح لوْ تعارَضَ الصلاحانِ وإن ذلك يكون منه عن علمٍ وبصيرة بالأصلح وعن قصدِ نصحٍ وعدم

غشٍّ للرَّعيَّة وعدم مجازفةٍ في المعالجة بل على نحو قوله تعالى (وَزِنُوا بِالْقِسْطاسِ الْمُسْتَقِيمِ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ)وذلك التّرجيح في الأصلح كثير فيما ورد عنهم عليهم السلام كمن استخار عند النبي صلى الله عليه وآله في السفر إلى الشام للتجارة، فأخبره بأنّها نهي فخالف ومضى وأصاب مالاً كثيراً، فلمّا رَجَع أخبر النّبي صلى الله عليه وآله فقال صلى الله عليه وآله له لعلّك قد فاتَكَ واجبٌ فأخبر أنّه فاتته صلاة العشاء فقال صلى الله عليه وآله له ما معناه، ما فاتك من خير الصلاة أعظم مما أصبتَ من المال ، وكما نهى الحجة عليه السلام وعجّل الله فرجه علي بن محمد بن علاّن عن الحج فخالف ومضى إلى الحجّ فقُتِل، وغير ذلك فإن الأوّل رجّح فيه الدين والثاني رجّح فيه النفس على الدين وقد يكون بالعكس كما قال تعالى (وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ)ولَيْس هذا مختصّاً بشيء دون شَيْء بل جميع أوامِرهِمْ ونواهيهم لأنّها لم تكن من هوى أنْفُسِهم وإنما تكون بمشيّة الله وإرادته وأمره لأنهم محالّ مشيّة الله، وألْسِنَةُ إرادته وحملة أمْرِه ونَهْيه والتكاليف الإلهيّة الّتي هي علّةُ إيجادات الموجودات كلّها معتبر فيها ما هو الأصلح على نحو ما أشرْنا إليه وبذلك صَنَعَهُمْ ولذلِك خَلَقَهُمْ وبه أمرهم وإليه دعاهم وهم عليهم السلام خزنةُ حُكمِه وأمْره ونَهْيه وهم (لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ) .

وقوله عليه السلام (ووصيتكم التّقوى) يراد منه أنّهم لا يوصُونَ إلاّ بتقوى الله كما يفيده تقديم الوصيّة ، والمراد بالتّقوى تقوى الله فيما يتعلّق بمعرفته وصفاته وأفعاله وعبادته ، فدعوا إلى توحيد الله سبحانه فقالوا أنّه تعالى خلقَ كل شك لا مِن شيءٍ يكونُ معَهُ لأنّه سبحانه إنّما هو إله واحد ليس معه شيء فكلّ شيءٍ ممكن أو موجود في نفس الأمر أي في الخارج أو الذهن أو بالفرض والتقدير فهو مخلوق له تعالى لأن كلّ ما يُسَمّى أو يشار إليه أو يتصوّر أو يفرض وجوده أو

إمكانه أو يحتمل فهو شيء قد صنعه تعالى في مكان حدوده ووقتِ وُجوده ما عدا وجهه الكريم.

وإنّما استثنينا بناءً على الظاهر المتعارف من أنّه تعالى يسمى بأسمائه ويفرض وجوده ويمكن بالإمكان العام، وفي الحقيقة إنّما الموجود آياته ومظاهره والمسمّى بالأسماء مقاماتُه وآياته وأسماؤه، لأن ذاته المقدّسة لا تقع عليها الأسماء ولا شيء من جهات التعاريف، إذ كل ما سواه خلقه ولذا قال أبو جعفر عليه السلام كما في الكافي قَالَ عليه السلام (إِنَّ اللهَ خِلْوٌ مِنْ خَلْقِهِ وَخَلْقَهُ خِلْوٌ مِنْهُ وَكُلُّ مَا وَقَعَ عَلَيْهِ اسْمُ شَيْءٍ فَهُوَ مَخْلُوقٌ مَا خَلا اللهَ) .

وفي آخر قال عليه السلام (وَكُلُّ مَا وَقَعَ عَلَيْهِ اسْمُ شَيْءٍ مَا خَلا اللهَ فَهُوَ مَخْلُوقٌ وَاللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْء) .

وفي حديث أبي عبد الله عليه السلام زيادة (تَبَارَكَ الَّذِي لَيسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) .

فقوله عليه السلام (ما خلا الله) جارٍ على الُمتعارف مِنْ أنه تعالى يسمّى بأسمائه ويوصف بما وصف به نفسَهُ لخلقه، ويُعْرَفُ بذلك ويُعْبَدُ بذلك، وبذلك أمر خلقهُ وطلبَ منهم ذلك إذ لا يمكن لهم ما وراءه.

وكلُّ هذه أشياء محدثةٌ لأنّها بالضرورة غيره وكل شيءٍ غيره فهو مخلوقٌ له تعالى، ومعلوم أنّ المخلوق لا يقع على الخالق لأنّه لا يقع عليه إلاّ ما يصل إلى الأزل ولا يصل المصنوعُ إلى الأزل ولا ينزل الأزل في الحدوث، لأنّ الأزل هو ذاته الحقّ سبحانه ولكن يعرف بها المعرفة الرسميّة وقد رضي من عباده بذلك لأنهم لا يقدرون على غيرها، وإنّما يعرف بها معرفةَ استدلالٍ عليه لا معرفةً

تكشِفُ لَهُ ، كما إذا وجدت الأثر دلك على وجود المؤثّر، وإذا وَجدْتَ الصّفة دَلتْك على وجود الموصوف، وبهذا النحو يعرف بما وصف به نفسه تعالى لخلقه بالأشياء الحادثة مع أنها في الحقيقة لا تقع عليه ، وهو قول الرضا عليه السلام حين قال له عمران الصابي قال (يا سيدي ألا تخبرني عن الله عز وجل هل يوحد بحقيقة أو يوحد بوصف ، قال الرضا عليه السلام إن الله المبدئ الواحد الكائن الأول لم يزل واحدا لا شيء معه فردا لا ثاني معه لا معلوما ولا مجهولا ولا محكما ولا متشابها ولا مذكورا ولا منسيا ولا شيئا يقع عليه اسم شيء من الأشياء غيره ولا من وقت كان ولا إلى وقت يكون ولا بشيء قام ولا إلى شيء يقوم ولا إلى شيء استند ولا في شيء استكن وذلك كله قبل الخلق إذ لا شيء غيره وما أوقعت عليه من الكل فهي صفات محدثة و ترجمة يفهم بها من فهم)هـ.

فأخبر عليه السلام بأنه لا يقع عليه شيء لأنها صفات محدثة وترجمة يعني أنّ ما أراده سبحانه منّا ترجَمهُ لنا في إيجاده ووصفه نفسه لنا بما نعرف ممّا هو من نحونا ونوعِنا من صفاتِ الخلق، وبها نفهم ما يريده منا وهو متعالٍ عن كلّ شيءٍ إلاّ أنّها تدلّنا عليه كما قلنا وهو قول الرضا عليه السلام (فلو كانت صفاته جل ثناؤه لا تدل عليه وأسماؤه لا تدعو إليه والمعلمة من الخلق لا تدركه بمعناه كانت العبادة من الخلق لأسمائه وصفاته دون معناه فلو لا أن ذلك كذلك لكان المعبود الموحد غير الله لأن صفاته وأسماءه غيره)هـ.

وأيضاً هم دعوا عليهم السلام إلى توحيده بصفته بما وصف به نفسه من أنّه ليس كمثله شيء فلا يقترِنُ بشيء، ولا يقترن به شيء، لأنّ الاقتران صفة خلقه فلو صحّ عليه لشابه الأشياء في اقتران بعضها ببعضٍ ، ولا يَخْرجُ مِنْ شَيءٍ ولا يخرج منه شيءٌ

بأيّ نَوعْ فُرِضَ، لأنّ ذلِكَ وِلادةٌ وهو تعالى (لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ولم يكن له كفوا أحد) فمن قال بأن الخلقَ مِنه بالسَّنْخ أو الظلّ فقد شبّهه بخلقه.

ومَنْ قال بأنّ الخلق تنتهي إليه فقد أثْبتَ له الاقتران بغيره لأنه يكون نهايةً لغيره وهو اقتران يمتنع من الأزل.

وكذلك قول مَنْ قال بأنّ بينه وبين شيء من الحوادث ربطاً بوجهٍ ما، وكذا دعوا ﷺ إلى توحيده في فعله تعالى يعني أنه متفرّد بالإيجاد فكلّ شيء صنعه أو يصنعه (بصنعه) قال تعالى (أَرُوني ما ذا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ في السَّماواتِ)وقال تعالى (أَمْ جَعَلُوا لله شُرَكاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ الله خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْواحِدُ الْقَهَّارُ) فكلّ مُحْدَثٍ فمادّتُهُ من فعله.

وأمّا صورتُهُ فَإمَّا من فعله أو بفِعْله كالمعاصي فإنّها وإن كانَتْ من فعلِ العبادِ على جهة الانفراد من غير مشاركة معه تعالى إلاّ أنّها بفعل الله كتحريكِ الشاخِص لظلّه، فإنّه وإن كان منه والتحريك منه إلاّ أنّه بالنور إذ بدون النور لا يمكن له تحريكٌ لعدم وجود ظل يحرّكه فكلّ شيءٍ من الله أو بالله، فما كان منه فالأمر فيه ظاهر وما كان به فمادّته وقُوى فاعِله من آلاته ومن إراداته وأفكاره وتصوّراته وجميع مداركِه من الله وما اختص به من الفعل فبالله فمن ادّعى أنَّ أحداً غيره تعالى يخترع شيئاً من الموادّ فهو مشرِكٌ، ومَن ادّعى أن غيرَهُ يخترِعُ شيئاً من الصُّوَرِ بدونِ الله تعالى أي لا من اللهِ ولا بالله فهو مُفَوِّضٌ والمفوّضُ مشرك.

وكذا دعوا ﷺ إلى توحيده في عبادته كما قال تعالى (فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً) .

وهذا التوحيد إذا أُريد به الحقيقي يُعْتَبر فيه توحيده تعالى في كلِّ ما يصدق

عليه أنه عبادةٌ أو عبوديّةٌ فيوحّده في جميع العبادات الاصطلاحيّة المعروفة، وفي الخلق بجميع جهاته وفي الرزق كذلك، وفي الحياة كذلك، وفي الممات كذلك ، فيوحّده في التوكّل وفي الاعتماد وفي الحفظ وفي رعاية كلّ شيء على نحو ما مرّ من أنّ المراعى إما منه أوْ به.

وهنا تنبيه على حقيقة من حقائق التوحيد وهو أنَّ قولنا هذا الشيء منه نريد به أنه من فعله أي أثر من فعله أي من المحلّ الممكن الإمكان الراجح لفعله فحقيقته مخترعة بتبعيّة اختراع فعله تعالى، يعني أنها محل فعله ومتعلقه فهي متقوِّمة بالفعل تقوّم تحقّق والفعل متقوّم بها تَقَومَ ظهور، والشيء المكوّن من تلك الحقيقة متقوّم بالفعل تقوّم صدورٍ أبداً، فلا حقيقة له إلاّ بفعله تعالى ولا وجود له إلاّ من فعله تعالى أي من أثر فعله، وقولنا هذا الشيء به نريد به أنّ حقيقته من نفس ما منه تعالى مِنْ حيثُ نفسِه ووجودُه من أثرِ شُعاع فعله تعالى فما به تعالى مبني على ما منه تعالى والشيء بحقيقة الشيئيّة واحدٌ لا شريك له تعالى وما سواه شيء بفعله تعالى.

وأمّا فعله تعالى فشيء بفعل الله الذي هو ذلك الفعل أي بنفسه من حيث هو فعل الله تعالى، فهذا مختصر ما أوصوا عليهم السلام به من تقوى الله تعالى فيما يتعلّق بتوحيده في ذاته، وتوحيده في صفاته وتوحيده في أفعاله وتوحيده في عبادته بأن يجتنبَ مخالفة شيء من ذلك في قليلٍ أو كثيرٍ ، وما أشرنا إليه على جهة الإجمال ووصيّتهم صلى الله عليهم مجملاً ومفصّلاً.

وكذا بتقوى الله فيما تتعلّق به أوامره ونواهيه ممّا هو من جهة النفس وممّا هو من جهة الخلق، وذلك كما هو مفصّل في أحاديثهم وأفعالهم وأعمالهم وأقوالهم وأحوالهم ممّا اشتملت عليه شريعة جدهم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم فإنَّ الله سبحانه

قد أمر بذلك وسمّى الأخذ به وترك مخالفته تقوى فقال تعالى (وَما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللهَ) .

وإنما ذكرتُ الإشارة إلى ما يتعلّق بالتوحيد لغموضه وكثرة المذاهب فيه المخالفة لوصيّتهم عليهم السلام وقلّة العبادة وأمّا ما يتعلّق بالأوامر والنواهي من التقوى مما اشتملت عليه الشريعة الغراء من المفروض والمندوب والجائز والمرجوح والممنوع منه، فيلزم من ذكر بعضه التطويل الطويل الذي ليس هذا محلّه مع ظهوره وقلّة الاختلاف فيه وتصدّى الأصحاب رضوان الله عليهم لذكره وتفصيل أبوابه ويجمع ذلك كله أنهم عليهم السلام أوصوا أن تتّقي الله تعالى بفعلِ جميع أوامره وترك جميع نواهيه وبالميل إلى ما أحبّ وعمّا كَرِهَ.

وإن أخذتَ بما جوّز فبقصد الأخذ برخصته وكذا إنْ تركْتَ ، فبهذه وأمثالها كانت وصيّتهم ولم يأمروا بشيء قليلٍ أو كثيرٍ من أضداد هذه بل نهوا عنه بقلوبهم وألْسنتهم وأيديهم وأفعالهم وأعمالهم وأحوالهم، وما وقع من خلاف تقوى الله تعالى من هذا الخلق المتعوس، فإنّما وقع ردا عليهم صلوات الله عليهم وخلافاً لأمرهم وعلى الله سبحانه إعلاء دينه وإظهار كلمته بهم بأن يمكّنهم في أرضه ويستخلفهم في سائر عالمه والله منجز وعده ومتمّ نوره ولو كره المشركون اللهم عجل فرجهم وسهّل مخرجهم واسلك بنا مَحجّتهم ومنهاجهم يا كريم.

وقوله عليه السلام (وفعلكم الخير) يراد منه أنّهم لا يفعلون إلاّ الخير لحصر المبتدأ في الخبر والمراد من الفعل ما هو أعم من عمل الجوارح كما هو مقتضى العصمة والتسديد والتوفيق، أما مشاعرهم الباطنة فهي مستغرقة في العبودية فعلاً وفي العبادة بَعْثاً يعني أنّهم ببواطنهم من الأفئدة والقلوب والأرواح والنفوس

والطبائع مستغرقون في الرضى بما يرد عليهم من محبوب النفوس ومكروهها ، بل هم بها طالبون لما يرد عليهم منه سبحانه كما قال أمير المؤمنين ﷺ الطيبين (أما آن لأشْقاها أن يخضب هذه من هذا وأشار إلى لحيته ورأسه) فذلك وأمثاله هو الصدق في العبوديّة وهي الرضا بما يفعل وهم بها باعثون لجوارحهم وألسنتهم على العمل بما يرد والقيام بوظائفه كما أمروا على أكمل وجهٍ أراد سبحانه منهم.

وهذا وأمثاله هو الصدق في العبادة وهي الفعل لما يرضى، وأما جوارحهم وظواهرهم فهم بها أبداً مشتغلُون بخدمة ربّهم لا تأخذهم سهو الغفلات لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ لا يَفْتُرُونَ ، كما روي عن الصادق عليه السلام في هذه الآية (وَلَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ لا يَفْتُرُونَ) إلى قوله (مُشْفِقُونَ)قال (يا مفضّل ألستم تعلمون أنّ من في السماوات هم الملائكة ومن في الأرض هم الجن والبشر وكلّ ذي حركةٍ فمن الذين قال (ومَنْ عِنْدَهُ قد خرجوا من جملة الملائكة والجن والبشر وكلّ ذي حركة فنحن الذي كنّا عنده ولا كون قبلَنا)الحديث.

فلا توجد لهم لحظة في غير فعل الخير لأنّ الله سبحانه ديموم ديّوم قيّوم فلا فترة تعتريه لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ وفي كلّ ذلك دائم الفيض وهو قوله تـعالى (وَما كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غافِلِينَ)وفي كل آن من فعله قابل لفيضه دائم في خدمته وهم القابلون للفيض الدائم بدوام التسبيح والتقديس الدائمون بكمال الخدمة وكل من سواهم لا يقومون بخدمة (بخدمته) قبول كلّ الفيض كما قال تعالى في الحديث القدسي (ما وسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن) ولا

يصحّ أن يفضل منهم وقت أو مكان لفعل الشرّ وإنّما فضل ذلك منّا لأنّا لم نسع الفيض فنعصي حال عدم القبول.

والمراد من الخير ما هو أعم من الخير الذي هو أحد جنود العقل الخمسة والسبعين، كما هو مذكور في أحاديث جنود العقل بل المراد به ما يشمل العقل وجنوده، فإن جميع تلك من فعلهم فإن الله سبحانه قد جمعها فيهم، وبهم قسّم فواضِلها على سائر خلقه (وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ) .

فالعقل الكلّي الذي هو عقل الكلّ وهو آدم الرّابع على جهة الإجمال هو عقلهم، وقد أكمَلَهُ فيهم وبهم قسم فاضِله على سائر أوليائه من أنبيائه ورسله على حسب قوابلهم من فاضله الّذي هو أشِعّته، وتلك الأشعّة هي أولاده فإن الله سبحانه قد خلق ألف ألف عالم وألف ألف آدم ونحن الآن في آخر العوالم وآخر الآدميين، فعلى جهة الإجمال عقول المرسلين والأنبياء عليهم السلام أولاد آدم الرابع الذي هو عقل محمد وأهل بيته صلى الله عليه وآله وسلم وعقول المؤمنين أولادُ هؤلاء الأولادِ فلذا قال صلى الله عليه وآله وسلم (أنا وعلي أبوا هذه الأمة) .

والأصل في هذه الأبوّة هذا، وذلك لأنّ كلّ مولود فله ستّة آباءٍ، أبوان لعقله وهما محمد وعلي صلّى الله عليهما وآلهما، محمد صلى الله عليه وآله وسلم أب العقل أي مادّته فإن مادّته من صفة نوره صلى الله عليه وآله وسلم ، وعليّ عليه السلام الأب الثاني، فإنّ صورة العقل من صفة نوره عليه السلام والصورة هي الأب الثاني أي الأم ، وله أبوان لنفسه الأمارة بالسّوء وهما الأعرابيان أبو الدواهي أب النفس الأمارة بالسوء، وأبو الشرور الأب الثاني وهو أمُّها وله أبوان لجسده فأشار تعالى إلى أبوي العقل بقوله تعالى (وَوَصَّيْنَا الإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ حُسْناً) وإلى أبوي الأمارة بالسوء بقوله تعالى (وَإِنْ جاهَداكَ

عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما) وإلى أبوي الجسد بقوله (وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا).

فقولنا وبهم قسم فاضلَهُ لأنّ هذا الفاضل أولاد عقلهم كما ذكرنا فيصدق توليدهم والقِسْمةُ بهم على فعلهم ويصدق على العقل وجنوده الخير الذي هو فعلهم لأنّ العقل الكلّي قد يصدق عليه أنه فعلهم.

إمّا على اعتبار قابليّتهم له عند إيجاد الله سبحانه له فيهم أو لأنّه تربيتهم وزرعهم، كما أشار إليه العسكري صلوات الله عليه في نسبتهم بقوله عليه السلام (فالكليم ألبس حلة الاصطفاء لما عهدنا منه الوفاء وروح القدس في جنان الصاقورة ذاق من حدائقنا الباكورة)وروح القدس هذا هو العقل المشار إليه فأخبر أنّه أوّل مَنْ ذاق ثمرة الوجود من حدائِقنا، وإنّ ذلك الذوقَ بهم لا غير بقرينة قوله في الكليم عليه السلام لما عهدنا منه الوفاء، فافهم.

وأما كون العقل خيراً فممّا لا ريب فيه لأنه نور لا ظلمة فيه إلاّ قدر ما يقيمه من مسمى الضدّيّة، ولأجل صفائه وخلوصه لربّه لم يكن له جهة مخالفة فكانت الجنان ثماني وكانت النيران سبعاً، لأنّ الوجه في ذلك ما قلنا وذلك لأن الحواس الخمس في العالم الصغير والنفس والجسم إذا استعملت كل واحدة منها في الخير كانت بابا من أبْوَاب الجنان وآيةً لنظيرها في العالم الكبير، وجنّاته (وجنانه) سبع جناتٍ وإن استعملت كل واحدة منها في الشرّ كانَت باباً من أبْوَاب النّيران وآيةً لنظيرها في العالم الكبير ونيرانه سبع نيران فكل واحد من هذه السبعة يصلح للخير فيكون باباً من الجنان ويصلح للشرِّ فيكون باباً من النيران.

وأمّا العقل في العالم الصغير فيصلح أن يستعمل في الخير فيكون باباً أعلى من

أبواب الجنان وآيةً لنظيره في العالم الكبير وهو جنّة عدنٍ وهي الثامنةُ العُلْيَا، ولا يصلح أن يستعمل في الشرِّ لأنه خير ونور ولهذا لم يكن باباً في النيران، فكانت الجنان ثماني والنيران سبعاً ولهذه العلّة قال الصّادق عليه السلام حين سُئِل عن العقل (قَالَ مَا عُبِدَ بِهِ الرَّحْمَنُ وَاكْتُسِبَ بِهِ الْجِنَانُ) ولما سئل عما في معاوية (قَالَ تِلْكَ النَّكْرَاءُ تِلْكَ الشَّيْطَنَةُ وَهِيَ شَبِيهَةٌ بِالْعَقْلِ وَلَيْسَتْ بِالْعَقْلِ).

يعني أنّها إدراك يشابهُ إدراك العقل ولكن العَقْل لا يمكن استعمالُه في الشَّرِّ لأن الشرّ ظلمة وهو من جنود الجهل الذي هو ظلمة لا نور فيه إلاّ قدر ما يقيمه من النّور الذي هو ضدّه، بحيث لا يكون لما فيه من النور تأثير لاضمِحلالِه، كما أنّ ما في العقل من الظلمة لا يكون له تأثير لاضمِحلالِه وإذا كان العقل خيراً كما سمعت لم تكن له جنود إلاّ من نوعه، فكلّ جنوده خيرٌ ولا يجوز أن يكون في جنوده شيء من الشرّ لأن وجود ذلك في جنوده إنما يكون لو كان في العقل شائبة من الشرّ لها تأثير وتعيّن لينسب ذلك الذي من الشر إليها.

فإذا كان خيراً محضاً على نحو ما ذكرنا كانت جنوده كذلك وهم عليهم السلام لا يفعلون بأنفسهم إلاّ الخير، وكذلك فعلهم بما منهم وبما ينسب إليهم من حيث هو منسوب إليهم، نعم قد يفعلون بغيرهم أي بدواعي غيرهم ما هو شرّ وهو قوله تعالى (وَظاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذابُ)وقد يفعلون بمن ينسب إليهم لا من حيث ينسبون إليهم ذلك أيضاً فإن من ينسبون إليهم كشيعتهم قد يفعلون المعاصي الموجبة للعذاب ولكنهم إنّما فعلوا ذلك من حَيْثُ مَيْلهم إلى طريقة أعدائهم فيأكل المؤمن العاصي بمعصيته من شجرة الزّقوم من بعض أوراقها، وهو من هذه الحيثية ليس مشايعاً لهم وإنّما هو مائل إلى أعدائهم وهم عليهم السلام من وراء

المقصّرين من أشياعهم بالتلافي من الاستغفار والذود عن المعاصي والدعاء لهم حتى يأكل ذلك العاصي من طلع شجرة الزقوم، أعوذ بالله من سخط الله فيخرج من حزبهم ويلحق بأعدائهم أستجير بالله من غضب الله ومن غضبهم.

وإنّما قلنا قد يفعلون بغيرهم أي بدواعي غيرهم ما هو شرّ لأن ذلك الفعل إلقاؤهم للعاصي وتخليتهم له ، يعني أنّ الله سبحانه إنّما يعصي مَنْ عَصَاهُ إذا لم يقبل منه تعالى إذا خَلاّهُ مِنْ يده، وهم عليهم السلام يده ففعل تعالى به ما فَعلَ هو بنفسِه وهم محالُّ فعله صلّى الله عليْهم أجمعين.

وقولنا يفعلون بغيرهم ما هو شرّ مثل قوله تعالى في الحديث القدسي(أنا الله لا إله إلا أنا خلقت الخير فطوبى لمن أجريته على يديه وأنا الله لا إله إلا أنا خلقت الشر فويل لمن أجريته على يديه) وذلك لأن الله تعالى يفعل الأشياء بقابليّتها كما قال تعالى (وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ الله عَلَيْها بِكُفْرِهِمْ)وهم خزائن حكمه على عباده فيحكمون بإذنِ الله على فاعل الشرّ بفعل الشرّ وإنّما ردَّدْتُ هذا المعنى لسُوء ظني بفهم أكثر الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون ولكن أكثرهم يجهلون ولكن أكثرهم لا يعقِلون.

وقوله عليه السلام (وعادَتكم الإحْسَان) أقول قد تقدّم فيما ذكرنا سابقاً وفيما ذكرناه في كثير من رسائلنا أنّ المخلوق لا يكون إلاّ مركباً كما قال تعالى (وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ)وكما قال الرضا عليه السلام (ولم يخلق شيئا فردا قائما بنفسه دون غيره للذي أراد من الدلالة على نفسه وإثبات وجوده)هـ.

فكل محدثٍ مركبٌ من مادةٍ وصورة وإن شئت قلت من وجودٍ وماهيّةٍ والمعنى واحد، والوجود نورٌ أحدثه اللهُ بفعله، فهو أثر فعله ونور منه يجري مجراه

لأنه أبداً في طاعة ربِّه لا يَجِدُ نَفْسَهُ، ولهذا أطلق عليه نورُ الله في قوله عليه السلام (اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللهِ)فقال الصادق عليه السلام (يعني من نوره الذي خلق منه) والعقل وجه منه والله سبحانه المحسن وقد أظهر إحسانه وجميله اللذين هما صفة فعله بفعله فيما عامل به بريّتَهُ من ذلك الجميل والإحسان وأجرى بذلك عادته، وإنّما يجري على العصاة أحكام الغضب لأنّهم لم يقبلوا جميله وإحسانه فعاملهم بفعلهم وهو ردّ جميله وإحسانه فكان ردّ الجميل قبيحاً وردّ الإحسان إساءة قال تعالى (وَما ظَلَمْناهُمْ وَلكِنْ كانُوا هُمُ الظّالِمِينَ)ولله درّ من قال شعراً:

أرى الإحسان عند الحرّ ديناً

وعند النذل منقصةً وذمّا

كقطر الماءِ في الأصداف دُرّ

وفي بطون الأفاعي صار سَمّا

فلمّا أجرى سبحانه عادته بفعله ومشيّته وإرادته على الإحسان كانوا صلى الله عليهم عادتهم الإحسان لأنّهم لا يفعلون إلاّ بأمره وهم محالّ مشيّته وألسنة إرادته وحملة أمره (وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ) .

فلما كانوا كذلك لم تكن الإساءة عادتهم لأنّ الإساءة مبدؤها الماهية وهم عليهم السلام لا ينظرون إلى أنفسهم قطّ ولا إلى ما سوى الله، والماهيّة ظلمة أحدثها الله سبحانه بفضل فعله الذي أحدث به الوجود لفائدة تقوّم الوجود إلاّ أنّهم عليهم السلام ليس فيهم من الماهية إلاّ قدر ما يمسك وجودهم، فماهيتهم فانية الاعتبار مضمحلّة الوجدان والتعيّن ، فلا اعتبار لها فلا يقع منهم شيء من مقتضى الماهيّة فلا تكون لهم إلاّ عادة الإحسان.

وما رُوي في الدعاء (إلهي عادتك التفضل والإحسان وعادتُنا الإساءة والعصيان ولا تغيّر عادتك بتغيير عادتِنا بجاه محمد وآله الطاهرين) يُشعر بأنّ ما سوى الله عادته الإساءة والعصيان لأنه مِنْ حيث نظره إلى نفسِه كان سالكاً طريق ماهيّته التي هي ظلمة لا تقتضي من شأنها إلاّ الإساءة والعصيان وهذا ظاهر ولكن فيه إشكال في قوله (بتغيير عادتِنا) إذ المعنى أنّا غيّرنا عادتنا من الفضل والإحسان إلى الإساءة والعصيان من وجهين:

أحدهما: قوله عادتنا الإساءة والعصيان.

وثانيهما: أنّ المناسب للكلام السابق أنّا غيّرنا عادتنا وهي الإساءة والعصيان إلى الفضل والإحسان ،وهذا ينافي قوله لا تغيّر عادتك لأن المعنى أنّ الداعي إلى تغيير عادتك إنما هو تغيير عادتنا إلى الإساءة والعصيان.

وأمّا إذا غيّرناها إلى الفضل والإحسان فليس بموجبٍ لتغيير عادته بل موجب لاستمرار عادته سبحانه وتعالى ، وحلّه أنّ للمخلوق عادةً من حيثُ فعل خالقه وهي الفضل والإحسان وهي جهة وجودِه، لأنه أثرُ فعلِ خالقِه المتفضّل المحسن سبحانه وتعالى وعادةً من حيث نفسه وهي الإساءة والعصيان، لأن هذا هو مقتضى الماهيّة وحيثيّته من جهة فعل ربّه وجوديّة ولها أولويّة الاعتبار فلهذا صحّ قوله بتغيير عادَتِنا لأنّها وجوديّة، والاعتبار بالوجودي أوْلى من العدمي وحيثيّتهُ منْ جهة نفسه عدميّة ولها أولويّة الالتفات إلى النفس وإن كانَتْ عدَميّة فلهذا صحّ قوله (وعادتنا الإساءة والعصيان) لأنهم بنظرهم إلى إنيّتهم غالباً كانت عادةً لهم غالبةً وإن كان من حيث الوجود وأنّه ينبغي، وأنّ الله تعالى إنّما خلقهم لهذا أوّلاً وبالذاتِ وإنما خلق ماهيتهم وإنيّتهم لاستقامة ما

خلقهم لأجله، فالماهية والإنيّة إنما خلقهما تعالى ثانياً وبالعرض إلاّ أنّهم تعوّدوا بعادة الوجود أوّلاً ثمّ بعد ذلك تغيّروا وتعوّدوا بعادة إنيّتهم فلذا قالوا باعتبار الأولى بتغيّر عادِتنا، وباعتبار الثانية قالوا عادتنا الإساءة والعصيان.

وأمّا محمّد وأهْل بيته الطاهرون صلى الله عليه وعليهم أجمعين فإنّهم لم يتغيّروا عن العادة الأولى لأنّ ماهيّاتهِم وإنيّاتهم لعدم التفاتهم إليهما في حال ضَعُفتا وكادتا تفنيان في نور وجودهما فلمْ يتعيّنا ليكونا داعِيَيْنِ إلى ما يناسبهما من الأعمال فلم تتغير عادتهم الأولى فلذا قال عليه السلام (وعادتكم الإحسان).

وقوله عليه السلام (وسجيتكم الكرم) يُراد من السَّجية الغريزة والطّبيعة التي جُبل عليْها الإنْسان، ووَرَد في وصف النبي صلى الله عليه وآله وسلم خُلقُهُ سَجيّةٌ أي طبيعة من غير تكلُّفِ وهذا منه.

واعلم أنّ الطبيعة قد تكون من الحقيقة الأوليّة الّتي هي الإمكان وقد تكون من المادة وقد تكون من الصُّورة وقد تكونُ من مجموعهما والصورة قد تكون من القابليّة الكونيّة التكوينية وقد تكون من القابلية الكونية الشّرعيّة، لأن قوابل الأشياء للوجود إنّما هي أعمال المصنوعين إلاّ أنّ منها ظاهرةً كالأولى، ومنها باطنةً كالثانية، وما يكون من المجموع قد يكون مركباً من المادّة والأولى وقد يكون منها، ومن الثانية وقد يكون كلٌّ منها من الجبروت أو من الملكوت أو من الملك أو ممّا بينها أي بين الجبروت والملكوت أو بين الملكوت والملك يعني من أحد البرزخين بين الذّرَّيْنِ، والطبيعة للشخص تكون من واحد من هذه أي الحقيقة الأولية ومن هذه الأحد والعشرين أو من أكثر.

وقد تكون له من كلّها ولا تكون من جميعها في الخيرات والفضائل إلاّ في خير

الخلق، ولا تكون من جميعها في الشرور والرذائِل إلاّ في شرّ الخلق فهم صلى الله عليهم سجيّتهم الكرم والحلم والرفق والرحمة وسائر الفضائل على أكمل وجهٍ يمكن، لأن جميع المراتب إذا صلحت كانت المرتبة الواحدة منها أصلح فيها منها في غيرها أي في غير اجتماعها، لأن كل واحدة مع الاجتماع تُعين ما قبلها بنصف قوّتها وتُعين ما بعدها بنصفِ قوّتها بخلاف انفرادها أو مع اجتماع بعضها، فإنّ القوى لا تتضاعف كما تتضاعف مع اجتماع الكلّ.

وقد يراد بالطبيعةِ الطّبيعةُ الاصطلاحية وهي الرابعة العشرة التي يشار إليها في أركان العرش بالنور الأحمر الذي احمرّت منه الحمرة، وهذه يكون فيها الكسر الأول بعد الصوغ الأول الذي هو الخلق الثاني ومنشأ السعادة والشّقاوة، وفي هذه الطبيعة استقرار الطّبائع الذاتية والاكتسابيّة وفي هذه قال تعالى للمجيبين للجنة ولا أبالي، وقال للمنكرين للنّار ولا أبالي، لما قلنا من استقرار الطبائع هُنا لأنّ الطبائع المفارقات بالذات استقرّت بالإجابة المقترنة بالأفعال بالطبائع الماديّات بواسطة أو بغير واسطة إلاّ أن الظاهر أن المراد هنا بالطبيعة ما يعمّ هذه وغيرها.

ولّما كانوا عليهم السلام محال مشيّة الله سبحانه وألْسِنةَ إرادته وأبواب أوامره ونواهيه وخزائن كرمه وجوده ومفاتح خزائنه لزم أن تكون سجيّتهُم الكرم، لأنّهم في جميع أفاعيله جعلهم الوسائل والوسائط بينه وبين خلقه، فكل الوجود خير وكل خير فهو منهم بأمر الله تعالى، يعني أنّ الله سبحانه خلق كلّ ما في الوجود بهم لأن جميع ما في الوجود إمّا خير والله خلقه من فاضل أنوارهم، وإما شرٌّ والله خلقه بمقتضى قابليّته، وقابليّته نشأت من إنكار صاحب الشرّ لولايتهم لّما عرضت عليه فهم أصل الكرم وفرعه ومبدؤه سبحان من خلقهم على قبول كلّ

خير منه وجعلهم كذا فضلاً منه ومنّاً عليهم.

ولقد قلتُ في قصيدة نظمتها في مرثية سيد الشهداء أبي عبدالله الحسين عليه السلام في ذكر بعض الثناء عليهم صلى الله عليهم قلتُ شعرا:

جادوا وسادوا وشادوا المجدَ ثُمَّ هُمُ
لطـالبي كـل معروفٍ مَغايـيـلُ
معـارفٌ في البرايا عـارفـونَ بهـمْ
هادونَ والغير جُهّـالٌ مجاهـيـلُ
فشـأنُهـمْ نُسُك والفَتْكُ فِعلُـهُمُ
وذاك لله تـعـزيـز وتَـذْلـيـلُ
سُحبُ الحيا هاطلات مِن عطائِهم
إليهمُ مدتِ الأيـدي المحاصـيلُ
فراحتا الدهر من فضْفَاضِ جُودِهِم
مَمـلـوءتـان وما للفـيـض تَعْطيلُ

أقول: والشاهدُ في البيت الأخير فإنّ راحتي الدهر راحة اليد اليمنى هي مجموع ما في عالم الغيب من الممكنات، وراحة اليد اليسرى هي مجموع ما في عالم الشهادة مملوءتان من فيض كرمهم وجُودهم، والفضفاض الكثير الذي بعضه على بعض والواسع فإن جميع من في هذين العالمين قد غمرهم كرمهم، وإليه الإشارة بقوله تعالى (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ الله لا تُحْصُوها).

والمراد من قولي (وما للفيض تعطيل) أنّ نعم الله وعطاياه سبحانه لا تتناهى لا في الدنيا ولا في الآخرة، فلا غاية لنعيم الآخرة وكل ذلك من أثر فعل الله عز

وجل وهم محالّ فعله وإرادته وعلى أيديهم أجرى نعمه لمن يشاء لا سواهم، لأنّهم أبواب فعله وفضله وكرمه وبهم أظهر كرمه وبهم أوصل سيوب فضله وشآبيب كرمه إلى من يشاء وهذا حكم الدنيا والآخرة .

فإن خيرات الجنان لا غاية لها ولا نهاية لا في الاتّصال والاستمرار ولا في الزيادة والتضاعف، ولا في تجدّد النعيم مما لا عين رأت ولا أُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ومما لا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ فإن كل ذلك وما أشبهه من كرم الله الذي أجراه عليهم ونسبَهُ إليهم ووصفهم به كما أجرى الرأفة والرحمة على نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم ونسبهما إليه ووصفه بهما فقال تعالى (حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ) فإذا فهمت ما ذكرنا ظهر لك حقيقة أن سجيّتهم الكرم على كلّ من في ملك الله و(ذلِكَ فَضْلُ الله يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَالله ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) .

قال عليه السلام وشأنكم الحقّ والصّدق والرفق
وقولكم حكم وحتم ورأيكم علم وحزم.

الشأن الأمر والحال، والمراد في ظاهر العبارة هنا الحال، يعني أن مقتضى ذاتكم وطبيعتكم وخُلُقكم بضم الخاء واللام، ويجوز بفتح الخاء وسكون اللام أي بنيتكم ونشئ موادّكم وتخطيط صُوركم وتركيبكم الحق وهو الثابت، يعني مطابقة ما في نفس الأمر من كل شيء لشأنهم لأنّ كلّ ما في الكون من سواهم فهو ممادحهم ومناقبهم وثناؤهم لأنّ الآثار والصفات إذا كانت حقّاً فهي ممادح الموصوف والمؤثر والصدق وهو مطابقةُ شأنهم عليهم السلام لما في نفس الأمر من أفعاله تعالى وصفاته العليا وأسمائه الحسنى ، فإنَّهُ عزَّ وجلَّ لمّا خلقهم له واصطنعهم لنفسه لم يكونوا في حالٍ ما من أحوالهم غيباً وشهادةً لأنفسهم ولا لأحدٍ سواه

سبحانه، فكانوا ألسِنةَ صدق نطقوا بوجوداتهم وبماهيّاتهم وبعقولهم وأرواحهم ونفوسهم وطبائعهم وموادهم وأشباحهم وأجسامهم وأجسادهم وأعمالهم وأقوالهم وحركاتهم وسكناتهم بذكره والثناء عليه بما هو أهله، فكانوا بكلّهم ذكر الله تعالى والثناء عليه فنطقوا بهذه الألسنة بما طابق ما أراد منهم وخلقهم له، ومَنْ كان في حال لغيره تعالى فقد كذب إذ لم يطابق ما في نفس الأمر، لأنّ غير الله تعالى إن اعتُبِرَ أنه شيء فإنما هو شيء بفعل اللهِ تعالى شيئيّة صدورٍ.

فشأنهم الحق على اعتبار مطابقة الواقع لهم وشأنهم الصّدق على اعتبار مطابقتهم للواقع.

أو فشأنهم الحق باعتبار أنّهم بالله وشأنهم الصدق باعتبار أنّهم لله.

أو فشأنهم الحق باعتبار أنَهُمْ متلقون وشأنهم الصدق باعتبار أنهم مؤدون.

أو فشأنهم الحق باعتبار أنهم مقاماتُه وعلاماتُهُ وشأنهم الصدق باعتبارِ أنّهم كلماتُه وآياته.

أو فشأنهم الحق باعتبار ذواتهم وحقائقهم وشأنهم الصدق باعتبار أقوالهم وأحوالهم.

أو فشأنهم الحق باعتبار ولايتهم وشأنهم الصدق باعتبار عبوديّتهم، وهذا الفرض جامع لما ذكر ولما لم يذكر ولما لم يخطر على قلب بشرٍ سواهم، وما ابتلي أحد من الأنبياء والمرسلين عليهم السلام ومن دونهم من الصالحين إلا باحتمال التَّخْصيص في حقيّة (حقيقة) عموم ولايتهم وصدق شمول عُبُوديّتهم، وإن عمّمت المراد من الشأن بما يشمل الأمر فإن أردت به أمركم الكلّي العام كنت مُريداً به ولايتهم الكليّة وعليه فالحق والصّدق والرفق وكُلُّ صفةٍ ربّانيةٍ وخُلُق إلهي آثارها ومظاهر

تأثيراتها وشؤونها وأفرادُها وصفاتها وأمثالُها وهو قول الصادق عليه السلام كما في البصائر (إن أمرنا سر مستتر وسر لا يفيده إلا سر وسر على سر وسر مقنع بسر) .

وعنه عليه السلام (إِنَّ أَمْرَنَا هَذَا مَسْتُورٌ مُقَنَّعٌ بِالمِيثَاقِ مَنْ هَتَكَهُ أَذَلَّهُ اللهُ) .

وعنه عليه السلام (إن أمرنا هو الحق وحق الحق وهو الظاهر وباطن الباطن وهو السر وسر السر وسر المستسر وسر مقنع بالسر)هـ .

وإنْ أردْتَ به الخاصّ من الأمر وهُو الحكم بين الناس، أو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إن الله سبحانه يقول (وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ) .

وفي التوحيد عن أمير المؤمنين عليه السلام (اعْرِفُوا اللهَ بِاللهِ وَالرَّسُولَ بِالرِّسَالَةِ وَأُولِي الأَمْرِ بِالأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ)وفي رواية (وأولي الأمر بالأمر بالمَعْرُوفِ والنّهي عن المنكر) هـ.

وهذا الأمر بعض ذلك الأمر الكلي لأن المراد بالكلي هو ما قال تعالى (هُنالِكَ الْوَلايَةُ للهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَواباً وَخَيْرٌ عُقْباً) وهذا الأمر الجزئي هو الحكم بين الناس بحكم الله الذي أنهاه إليهم.

وفي تفسير قوله تعالى (فَإِنْ تَنازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ)في تفسير القمي قال الصادق عليه السلام (فإن تنازعتم في شيء فارجعوه إلى الله وإلى الرسول وإلى أولي الأمر منكم) .

وفي نهج البلاغة في معنى الخوارج لمّا أنكروا تحكيم الرجال قال عليه السلام (إِنَّا لَمْ نُحَكِّمِ الرِّجَالَ وَإِنَّمَا حَكَّمْنَا الْقُرْآنَ هَذَا الْقُرْآنُ إِنَّمَا هُوَ خَطٌّ مَسْطُورٌ بَيْنَ الدَّفَّتَيْنِ لا يَنْطِقُ بِلِسَانٍ وَلا بُدَّ لَهُ مِنْ تَرْجُمَانٍ وَإِنَّمَا يَنْطِقُ عَنْهُ الرِّجَالُ وَلَمَّا دَعَانَا الْقَوْمُ إِلَى

أَنْ نُحَكِّمَ بَيْنَنَا الْقُرْآنَ لَمْ نكُنِ الْفَرِيقَ الْمُتَوَلِّيَ عَنْ كِتَابِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَقَدْ قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ فَإِنْ تَنازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ فَرَدُّهُ إِلَى اللهِ أَنْ نَحْكُمَ بِكِتَابِهِ وَرَدُّهُ إِلَى الرَّسُولِ أَنْ نَأْخُذَ بِسُنَّتِهِ فَإِذَا حُكِمَ بِالصِّدْقِ فِي كِتَابِ اللهِ فَنَحْنُ أَحَقُّ النَّاسِ بِهِ وَإِنْ حُكِمَ بِسُنَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَنَحْنُ أَحَقُّ النَّاسِ وَأَوْلاهُمْ بِهَا) وغير ذلك ممّا يدلّ على أن المراد بأولي الأمر أولياء الحكم بالحق بين الناسِ وهو بعض الأول لأن الحكم ينقسم إلى شرعي وإلى وجودي، والأوّل الكلّي يشمل القِسمين وقد مرّ بيان هذا في مواضع متعددة، وكونُ الثاني حقّاً وصدقاً كما تقدّم في الأول في المطابقة.

وأمّا الرّفق الذي هو لين الجانب والمعالجة بما هو أسهل وأخفّ فإنّما ذكر مع الحق والصدق وإن كان لا ينافي غيرهما لأنه أوفق بتحسين الكلام من جهة اتّحاد آخرِها في حرف واحد ومن جهة تساويها في الحروف لكون كل ثلاثة والتحسين ملحوظ في هذه الزيارة الشريفة كما هو مطلوب السائل له عليه السلام مع أنه معهما أليق وأوفق لأنّ المراد من هذا الشأن كما ذكرنا سابقاً من المطابقة ومن التلقّي والتّأدية وغيرها والرفق فيها أتمّ وأكمل.

أمّا المطابقة المذكورة فهي متفرّعة على التّلقي والتأدية لأنهما أصل لجميع الوجوه المذكورة وغيرها، وهذا الأصل مقرون بالرفق من الفاعل سواء كان هو الله سبحانه لأنه عز وجل حليم ذو أناة لا يعجل أما أنه حليم فلرحمته الواسعة المشتقة منه أي من الحلم يعني أنه رحيم لأنه حليم وهو حليم لأنه رؤوف، وهو رؤوف لأنه قادر فيَتَأنّا عباده في إيجادهم ليقبلوا عنه باختيارهم ، وفي ما يريد منهم إقامة للحجة عليهم وإتماما لنعمته عليهم ورأفةً بهم لعلمه بضعفهم

وليجزي قوماً بما كانوا يكسبون وهو ولا يعجل لأنه تعالى لا يخاف الفوت لأنه لا يكون شيء إلاّ بأمره وإذنه، وهذا شأنُه عز وجل في معاملته لخلقه ، أم هم صلّى الله عليهم لأنهم في التأدية الوجودية والتشريعيّة منه تعالى بإذنه إلى خلقه يجرون على أخلاقه تعالى التي أجراها عليهم كما أخبر عن رسوله ﷺ (عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ) حتى انتهى بهم الحال بسبب ما أفاض عليهم من رحمته حتّى جعلهم خزائن رحمته وكرمه وفضله وَلُطْفه إلى أنْ تَحمّلُوا عن شيعتهم جميع ذنوبهم وتقصيراتهم وفدوهم بأنفسهم.

وإنّما لم يتحمّلوا عن أعدائهم مع عموم صفحهم وعفوهم فراراً من الوقوع في القبيح ومخالفة الحكمة، لأن مخالفة الحكمة منافٍ للمقام الرفيع الذي بلّغهم الله عز وجلّ إيّاه، لأنّهم إنما بلغوا هذا المقام لملازمتهم للحُسْن والحكمة في كلّ حالٍ، ولو فارقوا ما أراد منه من ملازمة الحق والحسن والحكمة -والمعاذ بالله- لانحطّوا عن مقامهم إلى أخسّ المراتب وهو قول النبي ﷺ (ولو عصيتُ لهويتُ) وأشار سبحانه إلى هذا لأهل الجهل بهم عليهم السلام قال تعالى (بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُون يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إلاَّ لِمَنِ ارْتَضى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلهٌ مِنْ دُونهِ فَذلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ) وهو سبحانه لم يرتض دين أعدائهم فلو عفوا عنهم وشفعوا لشفعوا لمن لم يرتض وهو قول (إِنِّي إِلهٌ مِنْ دُونِهِ) فافهم.

وإنما كان العفو عنهم قبيحاً لأنهم لم يقبلوا العفو لِسَدِّهم أبوابَهُ بأعمالهم ومنعِهم أسبابه بأفعالهم.

وإنما قلتُ لأهل الجهل بهم عليهم السلام لأنّ أهل العلم بهم والمعرفة لهم يعلمون أن

المراد بِـ (مَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلهٌ مِنْ دُونِهِ) هم أعداؤهم على حدّ ما ذكرنا سابقاً في رفع شبهةٍ ترد على قوله تعالى (تَاللهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِين) إذا فسّرت الآيتان بما ورد عنهم عليه السلام في هؤلاء القائلين أنهم أعداؤهم، يقولون في الجحيم لمن أضلّهم من ساداتهم وكبرائهم (تَاللهِ إِنْ كُنَّا) يعني في الدنيا (لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ) حيث عدلنا بكم ولي الله الذي أمرنا بطاعته ربّ العالمين سبحانه فأمرتمونا أنتم بمعصيته فقبلنا أمركم وتركنا أمر ربّ العالمين فسويناكم برب العالمين.

وهذا الذي فعلوه عليه السلام بشيعتهم غاية الرفق واللطف فكان التكليف من الفاعل للأمر سبحانه والتّأدية من الفاعلين للتبليغ عليه السلام مقرونين بالرفق والحلم والرأفة، وسواء كان القابل المتلقي عن الله تعالى هو إيّاهم صلّى الله عليهم أم المكلّفين المُتلَقّين عنهم فلا بدّ من الرفق ولهذا كثيراً ما يأمر الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بالتأني والصّبر وعدم الاستعجال فقال تعالى (فَاصْبِرْ كَما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ)(وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ)(فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تَكُنْ كَصاحِبِ الْحُوتِ)وغير ذلك من الآيات وكذلك الروايات ما لا يكاد يحصى، ولقد قال عليه السلام في هذا المعنى كلاماً جامعاً قال عليه السلام (قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق فإن المبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى)هـ.

يعني أنّكم تعمّقوا في هذا الدين المتين في العلم والعمل برفقٍ على حسب مقتضى المطلوب من علم أو عمل بالمبادرة وعدم التسويف فيما يصلح بذلك، أي بقدر ما يصلحه بغير زيادة، وبالتّأنّي وعدم الاستعجال فيما تفسده المبادرة والعجلة بقدر ما يصلح به بغير زيادة مهلة يفوتُ به المطلوب في كل شيء بحسبه

في استقامة الحال في الطلب، ثم ضرب عليه السلام مثلاً للطالب بالمُسافر وقال (إنّ المُبت) الذي يحثّ دابّته بأكثر مما تقدر عليه حرصاً على سرعة قطع المسافة (لا ظهراً أبقىَ ولا أرضاً قطع) يعني أنه تموتُ دابّته فلم يبق له ظهر يركبه ولا قطع أرضا لموت دابّته، والدابّة في المثل هي نفسك التي تحمل أثقالك إلى بلد لم تكن بالغاً له إلاّ بشق الأنفس والمسافة طريقك إلى ما دعيتَ إليه والذي دعيتَ إليه لقاء الله سبحانه والدار الآخرة فافهم.

وقوله عليه السلام (وقولكم حكم وحتم) يراد منه أنّهم عليهم السلام لما لم يتقوّلوُا على الله عز وجل بعض الأقاويل وإنّما قولهم عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن الله سبحانه وعن أمير المؤمنين عليه السلام وعن الملك المحدّث ومن ذلك تفصيل لكلّ جزئي جزئي ومنه جمل وكُليّات تنطبق على جميع جزئيّاتها مفصلةً، وهم بإذن الله سبحانه وإذن رسوله وأمير المؤمنين صلى الله عليهما وآلهما يفصلون وقد خلقهم الله تعالى وجبلهم على الحقّ والصواب كما قال تعالى لنبيّه صلى الله عليه وآله وسلم (وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ)وهم يجري لهم ما يجري لرسول صلى الله عليه وعليهم، ومعهم روح القدس يسدّدهم فيجري منه لهم ما يطابق إرادتهم لأنه لا يريد إلاّ ما أراد الله وهم حملة إرادة الله تعالى فليس لهم إرادةٌ غير إرادته (وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـكِنَّ الله رَمَى)فإذا أرادوا فإنّما أراد الله عز وجل لأنّ إرادته إنّما يجريها على قلوبهم قال تعالى (ما يسعني أرضي ولا سمائي ولكن يسعني قلب عبدي المؤمن) صلى الله عليه وعليهم، وليس المراد من الحديث القدسي حُلوله في قلوبهم - تعالى عن ذلك علواً كبيراً - وإنّما المراد حلول فعله ومشيّته وإرادته فافهم.

فإذا استنبطوا جزئياً من كليّ فهو على طريق القطع والضرورة لأنّهم كَشَفَ الله

تعالى لهم الأسباب والمسببات من ملكوت السماوات والأرض فأراهم حقائق الأشياء وأعيانها من ملكوت السماوات والأرض من الدنيا والآخرة، كما أرى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض فهم يعاينون ذلك، فَعِلمُهُمْ في الحقيقة مستند إلى الحس في الغيب والشهادة.

أما سمعت أنه ﷺ لما هاجر إلى المدينة وأخذ يبني مسجده خفض له جبرائيل عليه السلام الأرض فبنى مسجده على عين الكعبة، لأنه حينئذٍ يشاهد البُنْيَة المشرّفة، ولمّا أسري به إلى السماء وأحاط بجميع ملكوت الدنيا والآخرة في ليلته وأصبح في بيته وأخبر أصحابه بذلك وأنه أتى بيت المقدس بالشام وربط البراق في الحلقة التي كان الأنبياء عليهم السلام يربطون فيها دوابّهم ، وكان في المنافقين والمشركين من سافر إلى الشام ورأى بيت المقدس فكذّبوا وقالوا (إن كنت صادقاً فصف لنا المسجد الأقصى والبيت المقدس) فأتى جبرائيل عليه السلام فاقتلع المسجد الأقصى والبيت المقدس ونصبه أمام وجهه يرى ذلك هو وهم لا يرون شيئاً، فوصف لهم ذلك كما رأوا فكلّ الأسباب والمسبّبات قد رأوها معاينة فيحكمون بها أراهم الله، ولهذا أشار تعالى إليهم في تأويل قوله تعالى (وَأَوْحى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِها شَرابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ فِيهِ شِفاءٌ لِلنَّاسِ) .

وفي تفسير علي بن إبراهيم عن الصادق عليه السلام (نحن والله النحل الذي أوحى الله إليه أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً أمرنا أن نتخذ من العرب شيعة وَمِنَ الشَّجَرِ يقول من العجم وَمِمَّا يَعْرِشُونَ من الموالي والشراب المختلف ألوانه العلم الذي يخرج منا إليكم).

وفي تفسير العياشي عنه عليه السلام (فالنحل الأئمة والجبال العرب والشجر الموالي عتاقه ومما يعرشون يعني الموالي والعبيد ممن لم يعتق، وهو يتولى الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة، والثمرات المختلف ألوانه فنون العلم الذي قد يعلم الأئمة شيعتهم (فِيهِ شِفاءٌ لِلنَّاسِ) يقول في العلم شفاء للناس، والشيعة هم الناس، وغيرهم الله أعلم بهم ما هم (ولو كان كما يزعم أنه العسل الذي يأكله الناس إذا ما أكل منه ولا شرب ذو عاهة إلا برأ لقول الله (فِيهِ شِفاءٌ لِلنَّاسِ) ولا خلف لقول الله، وإنما الشفاء في علم القرآن لقوله (وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ) فهو شفاء ورحمة لأهله لا شك فيه ولا مرية. وأهله الأئمة الهدى الذين قال الله (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا).

وفي تأويل الآيات الظاهرة مثل معنى ما ذكر إلاّ أنّ فيه (والجبال شيعتنا والشجر النساء المؤمنات).

وبالجملة فهم عليهم السلام يحكمون بالحكم القطعي المستند إلى معاينة الأسباب والمسبّبات المعبّر عنه في التأويل بقوله (أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً) فإن المراد بالبيوت التي يسكنونها هي جهة تعلّق الخطاب من المكلف، فإنه إنّما يتعلّق بالمكلّف لوصف في فعله أو ذاته مقتضٍ للتعلّق لما بينهما من المناسبة والعلاقة الذاتية كما قرّرناه في محلِّه، ومن شاهد ذلك فقد سكن ذلك البيت الذي هو جهة التّعلق، وقوله (فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً) يشير إلى المعاينة وإصابة الحق فيه على جهة القطع كما هو سبيل الله تعالى في عباده ولذا قال علي عليه السلام حين أخبر عن بعض أحوال الغيب (كلّ ذلك علم إحاطة لا علم أخبارٍ) هـ.

والمراد من الإحاطة المشاهدة بقرينة قوله (لا علم أخبار) ومِن جملة تلك

الجمل والكلياتِ الرَّجْم للغَيْب وهي المفصلات وهو أن يرجم الغيب بالقرعةِ بإلهامِه تعالى إذا لم يذكر الحكم الجزئي أو الكلّي لا في الكتاب ولا في السنّة فإنّ الملك الذي هو روح القدس يقذف الله في قلبه الرّجم وشرط إصابته فيلقيه إلى الإمام عليه السلام فإذا ساهم عليه السلام وقال الكلام الذي هو شرطُ الإصابة لم يخط الحكم الواقعي جزئيّاً كان أم كُلّيّاً أبداً فأعلمهم الله عزّ وجل إذا ساهَمُوا في طلب حكمه تعالى بإصابته دائماً، فإذا ساهم عليه السلام في طلب معرفةِ حكمه تعالى فخرج الرجمُ وقع القذفُ به من الله تعالى في قلب الملك المُسَدِّد، ففي البصائر بسنده عن عبد الرحيم قال سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول (إن عليا عليه السلام إذا ورد عليه أمر لم يجئ به كتاب ولا سنة رجم به يعني ساهم فأصاب ثم قال يا عبد الرحيم وتلك المفصلات).

قال في البحار عقيب هذا الحديث الشّريف (بيان قوله عليه السلام (ساهم) أي استعلم ذلك بالقرعة وهذا يحتمل وجهين.

الأول أن يكون المراد الأحكام الجزئية المشتبهة التي قرر الشارع استعلامها بالقرعة فلا يكون هذا من الاشتباه في أصل الحكم بل في مورده ولا ينافي الأخبار السابقة لأن القرعة أيضا من أحكام القرآن والسنة.

والثاني أن يكون المراد الأحكام الكلية التي يشكل عليهم استنباطها من الكتاب والسنة فيستنبطون منهما بالقرعة ويكون هذا من خصائصهم عليهم السلام لأن قرعة الإمام لا تخطئ أبدا والأول أوفق بالأصول وسائر الأخبار وإن كان الأخير أظهر) انتهى.

أقول: قوله رحمه الله (والأوّل أوفق بالأصول) إن أراد بها أصول الفقه فليس لها مدخل في تحقيق هذه المسألة لأن أصول الفقه أغلبُهَا جارية على ما عرف

من العرف واللّغة، وأمّا ما له تعلّق بالأصول من الأخبار فهو وارد في كيفيّة الاستنباط والتراجيح ولا تعلّق لشيء من ذلك ولا ما أشبهه ببيان حقائق الأشياء، ومعرفة هذه المسألة إنما تعرف بمعرفة الإمام عليه السلام ومعرفة تَلَقّيه العلوم ومعرفة جهات علومه ومعرفة الملك وكيفيّة القذف في قلبه من الجناب الأقدس، وما أشبه هذه ولا شيء من أصول الفقه له تعلق بهذا بوجه من الوجوه، وإن أراد بها أصول الدين فإن كان بطريق المتكلمين والحكماء فكذلك لأنّهم إنّما يبحثون على مذاقهم وقواعدهم وإن كان بطريق أهل البيت عليهم السلام فهي بالثاني أوفق.

والحاصل أن الموجب لقطعيّة قرعتهم في الأوّل موجب للقطعيّة في الثاني، لأن ذلك إنّما هو من الاسم الأكبر ومعه لا فرق بين الأول والثاني وليس ما حكموا به وأفتوا به عن هوى الأنفس أو عن الرأي أو الظن، وإنّما قالوا هذا وغيره عن الله سبحانه لأنه تعالى يعلّمهم ما شاء بطرق متعدّدة في الظاهر، وهي طريق واحد عن الله عز وجل يأتي به محمّد صلى الله عليه وآله وسلم عن الله تعالى في وسائط متعددة كلّها صادقة عن الله تعالى يعني عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منها منه صلى الله عليه وآله وسلم وعن الملك المحدّث وعن جبرائيل عليه السلام وعن الملائكة وعن القرآن وعن اللوح وعن القلم وعن الأقلام وعن الألواح وعن الأفلاك وعن العناصر وعن الجمادات وعن المعادن وعن النباتات وعن الحيوانات وعن الخطرات والإرادات والأفكار والحركات وعن القرعة وعن الاسم الأكبر وعن الاسم الأعظم وعن سائر علومهم المزبورة كالغابر والمزبور والكتاب والجفر والجامعة ومصحف فاطمة عليها السلام وألف باب كلّ باب يفتح ألف باب والوراثة من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والنكت في الأذن والقذف في القلب والوحي ونور ليلة القدر وعلم المنايا والبلايا والأنساب وفصل الخطاب

ومعاقل العلم وأبواب الحكم وضياء الأمر وعُرَى العِلم وأواخيه وسلاح رسول الله ﷺ وميراثه ومواريث الأنبياء عليهم السلام والجفرين جلد ماعزٍ وجلد ضأن وكتاب أرْض، وعن العلم الحادث وهو ما يحدث بالليل والنهار يوماً بيوم وساعة بساعة والأمر بعد الأمر والشيء بعد الشيء إلى يوم القيامة.

والأثرة وهي علوم جميع الأنبياء والمرسلين وعلم محمد ﷺ وغير ذلك من جهات علومهم صلّى الله عليهم، وأعظمها ما يحدث باللّيل والنّهار ساعة بساعة على حسب ما يلتفتون إليه كلما طلبوا وجدوا.

وهنا بحث شريف لولا أن بيانه يتوقّف على ذكر مقدماتٍ كثيرة لذكرته إلاّ أني ذكرت أكثره في هذا الشرح مفرّقاً لكثرة شرائط فهمه والله المستعان.

والأواخي جمع أَخِيّة بفتح الهمزة وكسر الخاء المعجمة وبعدها المثنّاة التحتانيّة مشددةً عود يُدفن طرفاه في الحائط ووسطه بارز تربط به الحيوانات.

وأمّا الجفران ففي أحدهما السلاح وفي الآخر الحروف وبعبارة أحدهما أحمر والآخر أبيض.

والحاصل أنّ لهم عليهم السلام في كل شيء علماً حقّاً من جميع ذرّات العالم العلوي والسفلي والغيب والشهادة والبدء والعود والدنيا والآخرة، فكلّ ما حتم وما كان فقد انتهى إليهم وما لم يحتم أمّا بأن يكون مشروطاً في الغيب والشهادة أو مسكوتاً عنه فلا يعلمونه وما كان محتوماً في الغيب خاصة، يعني لم يرسم نقيضه من الكائنات في عالم ألواح عالم الغيب ولم يحتم في عالم الشهادة فلهم أن يقولوا ولهم أن يسكتوا فإن قالوا لم يحتموا ما لم يحتم لهم وقولي من الكائنات احترازاً عما في الإمكان، فإن كل ممكن فله ضدّ في الإمكان في النور أو في الظلمة .

وبالجملة فهم لا يقولون إلاّ عن الله تعالى ورسوله ﷺ ولا يقولون من أنفسهم إلاّ عن الله تعالى وعن رسوله ﷺ.

ففي البصائر بسنده عن محمد بن شريح قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول (والله لو لا أن الله فرض ولايتنا ومودتنا وقرابتنا ما أدخلناكم بيوتنا ولا أوقفناكم على أبوابنا والله ما نقول بأهوائنا ولا نقول برأينا ولا نقول إلا ما قال ربنا).

وفيه عن عن علي بن الحكم عن فضيل بن عثمان عن محمد بن شريح مثله وزاد في آخره (أصول عندنا نكنزها كما يكنز هؤلاء ذهبهم وفضتهم).

وفيه إلى أن قال عليه السلام(مهما أجبتك فيه بشيء فهو عن رسول الله ﷺ لسنا نقول برأينا من شيء)وقد دلّت الأدلّة القطعيّة عقلاً ونقلاً أنهم لا يقولون عن الله تعالى وعن رسوله ﷺ إلاّ على جهة الحتم والقطع لأنّهم قد عاينوا ذلك عياناً.

وفيه بسنده عن بريدة الأسلمي عن رسول الله ﷺ قال (قال رسول الله يا علي إن الله أشهدك معي سبع مواطن حتى ذكر الموطن الثاني أتاني جبرئيل فأسرى بي إلى السماء فقال أين أخوك فقلت ودعته خلفي قال فقال فادع الله يأتيك به قال فدعوت فإذا أنت معي فكشط لي على السماوات السبع والأرضين السبع حتى رأيت سكانها وعمارها وموضع كل ملك منها فلم أر من ذلك شيئا إلا وقد رأيته كما رأيته)هـ.

وفيه بسنده عن عبد الله بن مسكان قال (قال أبو عبد الله عليه السلام (وَكَذلِكَ نُرِي إِبْراهِيمَ مَلَكُوتَ السَّماواتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ) قال كشط لإبراهيم السماوات السبع حتى نظر إلى ما فوق العرش وكشط له الأرض حتى رأى ما في الهواء وفعل بمحمد ﷺ مثل ذلك وإني لأرى صاحبكم والأئمة من بعده قد فعل بهم مثل ذلك) هـ.

وهذا عندنا مما لا ريب فيه ومن كان هذه حالهم يجب أنّ يكون قولهم حكم وحتم،أمّا أنه حكم فلأن قولهم قول الله تعالى، وأمّا أنّه حتم فكذلك ولأن قولهم قد قُضي وأمضى فيكون حتماً لأنّه إنّما وصل إليهم بعد أن قُضِي وأمضي وإذا وقع القضاَء بالإمضاء فلا بداء فيه لله تعالى فهو حكم وحتم.

وقوله عليه السلام (ورأيكم علم وحزم) الرأي قيل التفكّر في مبادئ الأمور والنّظر في عواقبها وعلم ما يؤول إليه من الخطأ والصَّواب وهذا تفسير الرأي الصّواب كرأي المعصوم عليه السلام، وقيل الرأي أعم من ذلك لصدقه على الاستحسان والقياس ومنه عند الفقهاء أصحاب الرأي هم أصحاب القياس والتأويل، كأصحاب أبي حنيفة وأبي الحسن الأشعري ومنه قوله عليه السلام (من قال في القرآن برأيه فقد أخطأ) انتهى.

يعني قال فيه بما رآه مما لم يكن مستنداً إلى كتاب أو سنّة وإليه الإشارة بقوله تعالى (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَواهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ الله)، ولحنه أنّ مَن اتّبع هواه أي ما تميل إليه نفسه لاستناده إلى الدليل من برهان أو يقين أو هدى من الله، فالأول دليل المجادلة بالّتي هي أحسن، والثاني دليل الموعظة الحسنة، والثالث دليل الحكمة فهو مهتدٍ موفّقٌ للصواب لأن الضال المخطئ مَنْ يحوم حول نفسه فمن مال إلى رأيه غير مستندٍ إلى واحد من هذه الثلاثة فهو ضالّ مخطئ.

أقول: إنّ تفسير الرأي الأول أتى به القائل تفسيراً لرأي النبي صلى الله عليه وآله وسلم فلذا قلتُ بعده، (وهذا تفسير الرأي الصواب كرأي المعصوم عليه السلام) لبيان مراد القائل ومن تدبّر ظهر له أنّ هذا التفسير أعم من رأي المعصوم عليه السلام، ومن رأى غيره بنظره بعقله وإن كان مستنداً إلى الكتاب والسنّة، فإنَّ الأوّل لا يخطئ الواقع أبداً، والثاني يخطئ ويصيبُ فالأولى في تفسير رأي المعصوم عليه السلام أنّ المراد بالتّفكر في مبادئ الأمور والنظر في عواقبها وعلم ما يؤول إليه من الخطأ والصواب هو التّفكر

على نحو ما أشرنا إليه في تأويل قوله تعالى (وَأَوْحى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً) بأن يستنبط بنظر الله وينظر بعين الله في كل شيء بما أمره الله ودلّه عليه بما خلقه على أكمل استقامةٍ وجَبلَهُ على الصواب بحقيقةِ ما هو أهلُه من صدق القبول عنه في كلّ المواطِن، وبما أفاض على فؤاده من ضياء المعرفة، وعلى قلبه من نور اليقين، وعلى صدره من شعاع شرحه لدينه، وعلى جميع حواسه من العلم والتسديد، وعلى أركانه من نور العمل والقيام بحق العبودية والعبادة فهو يسلك في استنباطه ونظرِه سُبُلَ ربّه ذُلُلاً وذلك ما أراه الله ورفع له منار هدايته ومصباح تأييده وتسديده وتوفيقه وإرشاده، وأيّده بروح منه لا يسهو ولا يلهو ولا يغفل ولا يجهل فلا يكون من رأيه على نحو ما سمعتَ إلاّ مصيباً للواقع من مطلوبه ولا كذلك غيره وإن تفكّر في مبادئ الأمور ونظر في عواقبها.

وفي الكافي عن الصادق عليه السلام (وَاللهِ مَا فَوَّضَ اللهُ إِلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ إلا إِلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم وَإِلَى الأَئِمَّةِ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ إِنَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِما أَراكَ اللهُ وَ هِيَ جَارِيَةٌ فِي الأَوْصِيَاءِ عليهم السلام).

وفي الاحتجاج عنه عليه السلام أنه قال لأبي حنيفة (وتزعم أنك صاحب رأي وكان الرأي من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صوابا ومن دونه خطأ لأن الله تعالى قال (لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِما أَراكَ اللهُ) ولم يقل ذلك لغيره) انتهى.

فإذا فهمت ما ذكرنا ثبت لك أنّ رأيهم عليهم السلام بأمر الله تعالى وأنّهم لا يخطئون أبداً لأنّهم معصُومون مؤيّدون مسدَّدُون فيكون رأيهم علماً أي جازماً ثابتاً مطابقاً للواقع.

وقوله عليه السلام (وحزم) الحزم ضبط الرجل أمره والاحتياط في حفظه، وقوله عليه السلام

(الحَزْم) مساءة الظن يراد منه أنّه يضبط أمره ويحذر فواته فلو احتمل في شخص تقويتَهُ ولو احْتِمَالاً مرجوحاً احترز منه، وهو معنى مساءة الظنّ لأنه حين احترز إنّما احتاط لحفظ أمره لا أنّه ظان في الشخص أنه يفوته ولكن لمّا تصوّر ذلك عند نسبته إليه احتاط في التَّجنُّب وإنّما سمّي هذا التحرز مساءة ظن لأنه يشابهه في كونه باعثاً على التحفّظ.

ولَمّا كان رأيهم عليهم السلام لا ينبعث من خيالهم أو نفوسهم أو قلوبهم إلاّ بواردٍ باعثٍ من الله تعالى على طلب ما عرض لهم من إرادة حكم ما أريد منهم أوْ أرادوه فإذا ورد الباعث من الله تعالى جعلوا هداه سبحانه دليلهم في أنحاء طلبهم من فكر ونظر وتدبّر وإدراك، ولا يلتفتون إلى حالٍ من أحوال أنفسهم في قليل أو كثير ليكون الله سبحانه هو الباعث لهم وهو دليلهم وهو مفيض ما أراد منهم عليهم، فبهذا الاحتراز من أنفسهم ومن كل ما سوى الله تعالى في كل شيء كان رأيهم حَزْماً لعلمهم بأنّ حفظ مطلوبهم عن الفوات لا يكون بأنفسهم ولا بأحدٍ من الخلق ولا يكون إلاّ بالله وهذا بعون الله ظاهر.

وفي نسخة الشارح المجلسي رحمه الله (ورأيُكم علم وحلم) أي عقل أو حزم ويكون تفسيره انتهى.

وفسّر الحلم بالعقل وقوله (وحزم) تقسيم في التفسير يعني أن الحلم الذي هو رأيكم يراد به العقل أو الحزم، والحزم تفسيره أي تفسير الحلم والموجود في بعض النسخ علم وحلم وحزم وربّما وجد في بعض النسخ المصححة بالجيم يعني أنّ رأيكم جزم، أي قطع وحتم يعني أنه ليس بالظنّ والتخمين والقياس والاستحسان، بل هو أمر قطعي عندكم عياني بالبراهين الإلهيّة والإلهام وغيرهما

كما تقدّم، أوْ أن المعنى أنّ رأيكم أي مرئيّكم حتم يجب اتّباعه لأنّكم معصومون يجب القبول عنكم ويحرم الاعتراض عليكم والشكّ فيكم شكّ في الله تعالى وفي رسوله ﷺ وفي كتابه، أمّا تفسيره رحمه الله (الحلم) بالعقل ففيه بُعْدٌ لأنه من أفعال العقل، لأن الحلم هو التُّؤَدة وضبط النفس عن هيجان الغضب وهذه أفعال العقل وآثاره ولهذا عدّ في حديث العقل أن الحلم من جنوده لا أنه هو إلاّ أنّ الخطب سهل.

قال عليه السلام إن ذكر الخير كنتم أوّله وأصله وفرعه ومعدنَه ومأواه ومنتهاه

قال الشارح المجلسي رحمه الله إن ذكر الخير كنتم أوله لأن ابتداءَه لكم ومنكم، وأصله فإنهم أصل الخيرات لكونهم مقصودين بالذات ،ومنهم وصلَتْ من وصلت، وفرعه أي وجودهم نشأ من خير الله تعالى وفضله على عباده، أو كمالاتهم العليّة وأفعالهم المرضيّة فرع وجودهم فهم أصله وفرعه، ومأواه أي لا يوجد إلاّ عندهم، ومنتهاه أي لو وجد عند غيرهم فبالآخرة ينتهي إليهم كما تقدم أو أنفسهم منتهى مراتب الكمال والجود، انتهى.

أقول: الخير معروف ويراد منه المستحسن المحبوب والمطلوب، كالمال والحياة والدين والأعمال الصالحات وغير ذلك من الأمور المحبوبة والشريفة والنجيبة والزاكية وما أشبه ذلك والمراد أنه إذا ذكر الخير من العصمة والولاية والسلطنة والصلاح والدين والعبادة وصدق العبوديّة والعلم والشجاعة والكرم والإمامة وتولّي الأمر والحكم بين الناس والصبر والقناعة والعقل والحلم والحياء والفهم والفطنة والزهد والقناعة والعفو والرضا وغير ذلك من

الصفات الحميدة والأخلاق الزكية والأفعال المرضيّة من الاعتقادات والأعمال والأقوال والأحوال ممّا يتعلق بالنفس والغير في الدنيا والآخرة كنتم أوّله، يعني أنّكم سبقتم من سواكم إليه أو إنّما وصل إلى غيركم منه، فإنما هو من فضلكم وفاضلكم، أو إنّما خلقه الله لكم أوْ إنّما يذكر على جهة كونه صفة لكم، أو أثراً منكم، أو إنّما يذكر أحدٌ من الخلق بشئ منه فأنتم المذكورون قبله وذلك لازم في الأذهان كما إذا ذكرت الصفة والعرض فإن اللازم في الأذهان أنهما مبنيان على الموصوف والجوهر فالموصوف في الذهن سابق عند ذكر الصفة من حيث هي صفة والجوهر المعروض سابق في الذهن عند ذكر العرض من حيث هو عرض لأن الصفة حينئذ مبنيّة الوجود على الموصوف والعرض حينئذ مبني الوجود على الجوهر المعروض أو أنّكم أكمل أفراد الموصوفين به أوْ أشهرها أو لأنكم عِلَلُ وجوده كما تقدّم مراراً، يعني العلل الفاعلية بالله سبحانه والمادية والصوريّة والغائيّة أو المعنى على جهة الإجمال كنتم أوّله منكم وإليكم ولكم وبكم وفيكم وعليكم وعنكم ولديكم ومعكم وعندكم وتفصيل هذه العشرة النسب تقدّم مفرّقاً فراجع.

وقوله عليه السلام (وأصله) يعني أنّ كل ما يصدق عليه اسم الخير من كل ما في الإمكان بعدكم فأنتم أصله في أصل وجوده لأن وجوده من أشعّة أنواركم ، وفي أصل صورته لأنّها منتزعة من هيئات أعمالكم وأقوالكم وأحوالكم، وفي أصل تأديته إلى من وصل إليه فإنه بتقديركم بإذن الله تعالى، لأنّ الله سبحانه جعلكم مُنَاةً لخلقه وأذْواداً لمن حُرِم شيئاً منه وحفظةً لمن أراد الله تعالى بقاءه منه على من يشاء من عباده وفي أصل قابليّة من قَبِلَ منه لأن الله سبحانه جعلكم أعضاداً

لخلقِه فكما أنعمتم على من أراد الله عز وجل إنعامه عليه بإذن الله تعالى بموادّ الخيرات،كذلك أنعمتم عليه بإذن الله تعالى بقوابلها بحقيقة ما هم أهله لأنّ الله سبحانه جعلكم لخلقه أعضاداً وأشهاداً ومناةً وأذواداً وحفظةً ورُوَاداً، فالله عز وجل بكم يخلق وبكم يرزق وبكم يمسك السماء أن تقع على الأرض إلاّ بإذنه، وبكم ينزل المطر وبكم يورق الشجر وبكم ينبت النبات ويثمر الثمر وبكم يفقر ويغني وبكم يمنع ويعطي وبكم يضحك ويبكي وبكم يميت ويحيي وهو على كل شيءٍ قدير.

وقوله عليه السلام (وفرعه) أي أنتم فرع الخير الواجب جل وعلا أي أثَر فعله ودليل قدرته وآيةُ وجودِه كما أشار إليه الشارح رحمه الله أو أنتم أي أعمالكم وأقوالكم فرعه كما دلّ عليه حديث المفضّل المتقدم بعضه ، والخير أنتم أو أنتم الذين تفرِّعونه وتفصلونه، أو أنتم الّذين تشرعون شرائعه وتَسُنّون سُنَنَهُ كما أمركم الله سبحانه، أوْ أنتم سببُ تَفرعه لأنّه صفتكم وعملُكم وصفةُ أعمالِكم وسيرتِكم، أو أنه لكم وثوابُكم، أو أنه مدَدُكم من ربّكم بكم وبغيركم من الخلائق، أو أنّه ممادِحُكُمْ والثّناء عليكم من ربّكم، أوْ أنه ثناؤكم على ربّكم على أيديكم وأيدي أنعامِكم إلى غيْرِ ذلك.

وقوله عليه السلام (ومعدنه) المعدن محلّ الجوهر والجسد المركّب من الكبريت والزئبق المنْطرق وغير المنْطرق، ومحلّ المكث والإقامة مِنْ عَدَن بالمكان إذا أقام فيه ومكان كلِّ شيء فيه أصلُه، ومعنى كونهم عليهم السلام معدن الخير أنّهُمْ محلّ الخير وموضعُ إقامته ومَحَلُّ نشوئِه ومكانٌ فيه أصل الخير وهو أي أصل الخير مادة من شعاعهم كالزئبق للمعدن وصورة من صفة أفعالهم وأعمالهم ومعارفهم

كالكبريت للمعدن يعني أنهم أَصْلُ الخَيْرِ منْهم نشأ وعنهم بدأ ومنهم خرج وإليهم يعود وعندهم يبقى وفيهم يقيم ومعهم يستَقِرُّ وبهم يقوم وبهم تأهّلَ مَنْ تَأهّلَ لِشَيْء منه لأنّهم الواسِطةُ لكلِّ خيْرٍ والسبَب في وجُوده وقابليّته.

وقوله عليه السلام (ومأواه) مرجعه ومنزلُه الذي ينضمُّ إليه ومنه جنّات المأوى، يعني الجنات التي تأوي إليها أرواح الشهداء، كذا عن ابن عباس أي ترجع إليها وتنضم ولعل هذه الجنان من جنان الدنيا لأن جنان الآخرة ترجع فيها الأرواح في الأجساد وإذا خصها بالأرواح فالمراد بها جنّة الدنيا وهي المدهامتان كما روي عن علي عليه السلام وقد تقدم الحديث في ذكر الرجعة، فإذا أريد بهذا ذلك فمعنى أنّها تأوي إليها بعد الموت أوْ بعد إتيانها وادي السلام وزيارة قبورهم وأهاليهم يرجعون إليها.

ومعنى أنّهم عليهم السلام مأوى الخير، أنّ الخير على أي حال فُرِض فإنّه يرجع إليهم وينضم إليهم لأن كلّ شيء يرجع إلى أصله، وهم كما تقدّم أصل الخير فيرجع إليهم لأنّه من فاضل نورهم كما يرجع نور الشمس إليها، فإنّها إذا غربت رجعت الأشعة إليها لأنّها أصلها وقائمةٌ بها قيام صدور، فكذلك الخير فإن كان من أعمالهم فهو وصفهم ووصف الشيء لاحق به وإن كان من أعمال غيرهم فكذلك كما تقدّم لأنّه إنّما برز عنهم، وإنّما وصل إلى ذلك الغير بهم، وإنما توفّق لفعله بهم فهو أولى، ولأنّ كلّ ما سواهم كما ذكرنا سابقاً إنّما خلق لهم قال أمير المؤمنين صلوات الله عليه (نحن صنائع الله والخلق بعدُ صنائعُ لنا) الحديث ، يعني به عليه السلام أن الخلق إنّما صنعهم الله لهم فأعمالهم لهم، وإنّما يثابون عليها كثواب العبد إذا أطاع مولاه وعمل له فإنّه يثيبُه بالإطعام والكسوة والتقريب من سيّده وربّما ولاّه بعض أملاكه ووكّله عليها أو صرّفه فيها.

وإنّما أُمِر الخلائق بإيقاع الأعمال للهِ تعالى خالصةً من شائبة شرك غيره لتقع صحيحة مقبولةً، فإذا أوقعها العبد كذلك قبلها الله لهم عليهم السلام وأثابَهُ على طاعته، وإذا أوقعها لغير الله تعالى سواء أوقَعها لهم عليهم السلام أمْ لغيرهم أو لله تعالى مع غيره وقعت باطلةً مردودة فعاقبه عليها، ووجه كون الأعمال لهم عليهم السلام أنّها صفات العاملين والعاملون صفاتهم، فإذا أوقعها العامل لله تعالى كانت موافقةً لأمره، والثواب مركّب من أمر الله هي مادته ومن عمل العبد المقبول بامتثال أمر الله تعالى فهو لهم عليهم السلام بالأمر الذي امتثل العبد متعلّقه وهو منهم ولهم ويثاب عليه العامل بصورة الامتثال لأنّها منه وصورة الامتثال صفة الأمر، والحاصل أن كلّ خيرٍ فهم مأواهُ على أي طَوْرٍ فرض.

وقوله عليه السلام (ومنتهاه) منتهى الشيء غاية وصوله ورجوعه بحيث لا يتجاوزه قال تعالى (وَأَنَّ إِلى رَبِّكَ الْمُنْتَهى) قيل معناه إذا انتهى الكلام إليه فانتهوا وتكلموا فيما دون العرش ولا تتكلّموا فيما فوق العرش، فإنّ قوماً تكلموا فيما فوق العرش فتاهت عقولهم.

وفي الكافي عن الصادق عليه السلام (إِنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ وَأَنَّ إِلى رَبِّكَ الْمُنْتَهى فَإِذَا انْتَهَى الْكَلامُ إِلَى الله فَأَمْسِكُوا) هـ .

فالخير المذكور الذي هُمْ صَلَّى الله عليْهِمْ مُنْتهَاه هو ما صدر عنهم، وأمّا ما صدر عن غيْرهم فهو بواسطتهم وبهم لأنّه منهم صدر فما كان منهم فهو ينتهي إليهم وما كان من الغير بهم فأصله ينتهي إليهم وعارضه اللاّحق بالأصل ينتهي إلى الغير، ولكن هذا الخير المنتهي إلى الغير إن كان في نفسه بقدر ما يتقوّم به الغير بحيث لا يكون له اقتضاء لأثرٍ ذاتي له فهو لا ينتهي إليهم بالذّات ولا بالعرض كوجود أعدائهم.

وإن كان يفضل عن قدر ما يتقوّم به الغير بحيث يكون له بسبب تلك الزيادة اقتضاء لأثرٍ ذاتيّ له فهو ينتهي إليهم بالعرض، كما في شيعتهم ومحبّيهم من وجود أكوانهم وأعمالهم، هذا حكم العرضي في الآخرة.

وأما في الدّنيا فإن ما لَحِقَ أعداءهم من الخير قد يكون صورة كالصورة الإنسانيّة الّتي أَلْبَسَهُم الله إيّاها في عالم الذّرِّ بظاهر إقرارهم، ولهذا أقرّوا في الدنيا بأَلْسِنَتِهِمْ بالشهادَتَيْنِ وقلوبهم منكرة وهم مستكبرون فظواهرهم بالصُّوَر الإنسانية وبها أقرّوا بألسنتهم بالشهادتين، وبواطنهم بصور الشياطين والأنعام، فإقرارهم في الدنيا بالصور الإنسانيّة والإقرار والصور من الخير.

فإذا كان يوم القيامة عادت تلك الصور مع آثارها من الشهادتين إلى أصلهما من الشيعة، فكان هذا الخير يأوي وينتهي إليهم عليهم السلام بالعرض لأنه من أتباعهم، وإنّما عاد إليهم بالعرض لأنّه زائد على القدر الذي تقوَّم به أعداؤهم وكان له اقتضاء لأثر ذاتيّ وهو الشهادتان هذا في الدنيا، وهؤلاء منهم من تُسْلب منهم هذه الصور بعد خروج أرواحهم، ومنهم مَن لا تُسْلب عنه في البرزخ وتُسْلَبُ منه يوم القيامة فكل الخير قليله وكثيرهُ وجليله ودقيقه يرجع إليهم لأنه منهم وهم مأواه ومنتهاهُ إمّا بالذّات أو بالعرض إلاّ قدر ما يتقوّم به أعداؤهم إذا لم يكن له اقتضاء لأثر ذاتيّ لهُ، فإنه لا يرجع إليهم لانقلابه بسبب صورته الخبيثة عن الخيْر إلى الشّرِّ فهو شَرّ في الحقيقة.

وإليه الإشارةَ في حديث هشام الطويل في ذكر الجهل (ثُمّ خَلَقَ الْجَهْلَ مِنَ الْبَحْرِ الأُجاج ظُلْمَانِيّاً فَقَالَ لَهُ أَدْبِرْ فَأَدْبَرَ ثُمَّ قَالَ لَهُ أَقْبِلْ فَلَمْ يُقْبِلْ فَقَالَ لَهُ اسْتَكْبَرْتَ فَلَعَنَهُ ثُمَّ جعَلَ لِلْعَقْلِ خَمْسَةً وَسَبْعِينَ جُنْداً فَلَمَّا رَأَى الْجَهْلُ مَا أَكْرَمَ الله

بِهِ الْعَقْلَ وَمَا أَعْطَاهُ أَضْمَرَ لَهُ الْعَدَاوَةَ فَقَالَ الْجَهْلُ يَا رَبِّ هَذَا خَلْقٌ مِثْلِي خَلَقْتَهُ وَكَرَّمْتَهُ وَقَوَّيْتَهُ وَأَنَا ضِدُّهُ وَلا قُوَّةَ لِي بِهِ فَأَعْطِنِي مِنَ الْجُنْدِ مِثْلَ مَا أَعْطَيْتَهُ فَقَالَ نَعَمْ فَإِنْ عَصَيْتَ بَعْدَ ذَلِكَ أَخْرَجْتُكَ وَجُنْدَكَ مِنْ رَحْمَتِي قَالَ قَدْ رَضِيتُ)الحديث، بقوله تعالى (فَإِنْ عَصَيْتَ بَعْدَ ذَلِكَ أَخْرَجْتُكَ وَجُنْدَكَ مِنْ رَحْمَتِي) وذلك لأنه عصى لعنه الله فأخرجه الله وجنده من رحمته تعالى وهو مرادنا بانْقِلابه (وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ الله شَيْئًا)فهذا هو الذي لا ينتهي إليهم.

فإن قلت: هذا من أصله شرّ فكيف استثنيتَهُ من أفراد الخير وهو ليس من أفراده.

قلتُ: إنّ الله حين خلقه جعل فيه ما به يتمكّن من الطاعة وإلاّ لما قامت الحجة عليه وهذا الذي يتمكّن به من الطاعة من أفراد الخير فلمّا لم يعمل بمقتضاه ضعف فيه حتى استولى عليه ضدّه حتى أطاعه في معصية الله تعالى فلما عصى واعتاد المعصية لعنه فانقلب شرّاً وكان خيراً فهذا الذي لا يكونون عليهم السلام منتهاه وأشار سبحانه إلى انقلابه بقوله تعالى (لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ)وذلك هو عدوّهم فافهم.

قال عليه السلام بأبي أنتم وأمي ونفسي كيف أصف حسن ثنائكم وأحصي جميل بلائكم.

قال الشارح المجلسي رحمه الله تعالى أي نعمكم ولا أصِلُ إليهما كمّاً وكيفاً والحال أنّ من جملتها أنّ الله أعزّنا بالإسلام إلى آخره كما يأتي.

أقول: يقول بأبي وأمي ونفسي أفديكم، حيثُ لا أقدر على وصف حسن ثنائكم، الثناء مضاف إلى المفعول يعني أنّ الله سبحانه قد أثنى عليكم في كتابه

التدويني وفي كتابه التكويني فقال في التدويني (قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا)(وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ) .

وفي احتجاج الطبرسي ﵀ سأل يحيى بن أكثم أبا الحسن العالم ﵇ عن قوله تعالى سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ فقال ﵇ (عين كبريت وعين اليمين وعين البرهوت وعين الطبرية وجمة ماسيدان وجمة إفريقية وعين باجروان (بلعوران) ونحن الكلمات التي لا تدرك فضائلنا ولا تستقصى)هـ.

أقول: يحتمل أن يكون كنّى بهذه السبعة الأعين عن السبعة الأبحر المذكورة، أن المراد منها أنّ الوجود من دونهم ينقسم باعتبار ما خلق منه كلّ نوع من طينة تخصّه، وأن الطيَن بفتح الياء باعتبار طيبها وخبثها وأغلبيّة الطيب وأغلبية الخبث، وراجحيّة الطيب في الجملة وراجحية الخبث في الجملة والتساوي أي تعادل الطينتين، وأن المخلوق من هذه السبعة الأقسام من الإنسان والملك والجان والشيطان والنبات والحيوان والمعدن والجماد والعناصر والطبائع والأفلاك والكواكب وما بين ذلك من البرازخ من أفراد المذكورين، وجُمَلهم لو اجتمعوا على إحصاء فضائل محمد وآله ﷺ لما أحصوها، وإنّما يحصي كلّ واحدٍ منها ما عنده وفيه وما يمكنه لأنّ كلّ من ذكرنا وأشرنا إليه من أشعّة أنوارهم كما مرّ عليك مراراً، والأشعّة لا تحصي من نور المنير إلاّ ما وصل إليها منه فافهم.

وإنّما ذكر ﵇ هذه العيون خاصّة لأن فيها طبائع أو خواصّ توافق كلّ واحدة بما فيها صنفاً من هذه الطيَن بفتح الياء السبعة المذكورة في التقسيم، فيكون المراد بالبحر على هذا هو مجموع العالم سواهم ﵈ والسبعة الأبحر أقسامه التي ينقسم

إليها كانقسام الشجرة إلى أغصان سبعة أو أن البحر باطن السبعة والسبعة ظواهره ومظاهره وتنزّلاته، هذا على فرض إرادة التنزل ويحتمل العكس على فرض إرادة الترّقي.

وذكر عبد الكريم الجيلاني في كتابه الإنسان الكامل هذه الأبحر السبَعة وفصّلها على طريقة الصوفيّة لأنّه من كبارهم ويريد بها أصناف الناس في طرقهم إلى الله تعالى وصفاته وأسمائه فقال (البحار السبعة أصلها بحرانِ لأن الحق تعالى لمّا نظر إلى الدّرة البيضاء صارت ماء فما كان منه مقابلاً في علم الله تعالى لنظر اللطف والرحمة صار عذباً وقدّم الله ذكر العذب في قوله (هذا عَذْبٌ فُراتٌ سائِغٌ شَرابُهُ وَهذا مِلْحٌ أُجاجٌ) لسرّ سبقِ الرحمة الغضبَ فلهذا كان الأصل بحرين عذباً ومالحاً، فبرز من العذب جدوَل إلى جانب المشرق منه واختلط بنبات الأرض فنتِنَتْ رائحتُه فصار بحراً على حدة، ثم خرج من العذب مما يلي جانب المغرب يقرب من الملح الأجاج المحيط فامتزج طعمُه فصار ممزوجاً فهو بحر على حدة، وأمّا البحر المالح فخرجت منه ثلاث جداول جدول أقام وسط الأرض فبقي على طعمه الأول مالحاً ولم يتغير فهو بحر على حدة، وجدول ذهب إلى اليمن وهو الجانب الجنوبي فغلب عليه طعم الأرض التي امتد فيها فصار حامضاً وهو بحر على حدة، وجدول ذهب إلى الشام وهو الجانب الشَمالي فغلب عليه طعم الأرض التي امتدّ فيها فصار مرّا ذُعافاً وهو بحر على حدة، وأحاط بجبل قاف والأرض جميعه بما فيه فلا يعرف له طعم يختص به ولكنه طيّب الرائحة لا يكاد من شمّه أن يبقى على حاله بل يهلك في طيب رائحته، وهذا هو البحر المحيط الذي لا يسمع له غطيط فافهم هذه الإشارات) انتهى كلامه.

وهو يريد به أن الأبحر السبعة هي هذه الأحوال التي يسير فيها العارفون على زعمه، ومنها بحر الذات وهو السابع وهذا يخالف الآية الشريفة لأن معناها أن الأبحر السبعة تنفد قبل أن تنفد كلمات الله ويلزمه أن بحر الذات لا يحيط بكلماته وقوله تعالى (أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ)يكذّبه في زعمه ثم قال في تفصيلها اعلم أن البحر العذب هو الطيب المشروب الخ، وهذا هو الأول.

وقال: وأما البحر المنتّن فهو الصعب المسلك....إلخ، ويريد به الثاني وليس بصعبٍ عليه لأنه اقتحمه.

ثم قال: وأما البحر الممزوج ذو الدرر المهروج ، ويريد به الثالث.

ثم قال: وأما البحر المالح فهو المحيط العام....إلخ، ويريد به الرابع .

ثم قال: والبحر الأحمر الذي نشره كالمسك الأذفر، ويريد به الخامس.

ثم قال: البحر الأخضر مر المذاق....إلخ، ويريد به السادس.

ثم قال: (والبحر السابع هو الأسود القاطع لا تعرف سكّانه ولا تعلم حيتانُهُ، هو مستحيل الوصول غير ممكن الحصول لأنه وراء الأطوار وآخر الأكوار والأدوار ولا نهاية لعجائبه ولا آخر لغرائبه قصر عنه المدا وطال وزاد على العجائب حتى كأنه المحال هو بحر الذات التي حارت دونه الصفات فهو المعدوم والموجود والمرسوم والمفقود، والمعلوم والمجهول والمحكوم والمنقول والمحتوم والمعقول وجوده فقدانه وفقدانُه وجدانه أوّله محيط بآخره وباطنه ستر على ظاهره لا يدرك ما فيه ولا يعلمه أحد فيستوفيه فلنقبض العنان عن الخوض فيه فإنه سلوكٌ للتّيه لأن البيان يخفيه والله يقول الحق وهو يهدي السبيل) انتهى كلامه .

فانظر إلى كلامه فقد جعله سابع الأبحر وفي هذه الكلمات المزخرفة من

الإلحاد والتناقض ما لا يعلمه إلاّ الله سبحانه، ومن اطلّع على مراده من كلامه في كتابه المشار إليه وفي رسالته في التوحيد فإنه زعم أن ذاته تعالى تُعلم ويحاط بها، وإنما الذي لا يحاط به فهو صفاته وإذا أطلق عدم الإحاطة بذاته فإنه يريد من حيث صفاتها خاصة، وإنما ذكرت كلامه وهذا الكلام مني لئلاّ يُظنّ أن المراد بالسبعة الأبحر في التأويل ما أراد لأنه لو كان كما قال لكان تعالى لا يحيط بكلماته كما قال في كتابه (لَنَفِدَ الْبَحْرُ)وقوله (ما نَفِدَتْ كَلِماتُ الله)مع أن الله يقول (أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ) وبيان رمزه الخبيث أن الكلمات قديمة كما هو مذهبه من قدم القرآن والكلام النفسي وتلك صفاته وصفاته لا يمكن الإحاطة بها، ولا فائدة في بسط الكلام في بطلان مذهبه ويكفيك في بطلان كلامه وأنه لا يقول مما يختصّون به إلاّ الباطل أنه من أعداء آل محمد ﷺ ومذهبه مذهب أعدائهم فذرهم وما يفترون فإنه قال في أول الكتاب المذكور إن مذهبنا أعني مذهب التصوّف شرطه أن يكون مبنياً على مذهب السنة والجماعة.

والحاصل أن السبعة الأبحر على ما ذكرنا أوّلاً لو كانت مداداً بل هي على ما خلقت وإلى ما تعود تنفد ولا تُدْرَكُ فضائلهم عليهم السلام ولا تُسْتَقصى كما قال الكاظم عليه السلام ليحيى بن أكثم وقد أشاروا إلى بعض البيان لمقامهم ليفهم بعض ما هم عليه شيعتهم وذلك كثير.

فمنه ما رواه في غيبة النعماني بسنده إلى إسحاق بن غالب عن أبي عبدالله عليه السلام في خطبة له يذكر فيها حال الأئمة عليهم السلام و صفاتهم فقال (إن الله تبارك وتعالى أوضح بأئمة الهدى من أهل بيت نبيه ﷺ عن دينه وأبلج بهم عن سبيل منهاجه وفتح لهم من باطن ينابيع علمه فمن عرف من أمة محمد ﷺ واجب حق إمامه وجد طعم

حلاوة إيمانه وعلم فضل طلاوة إسلامه إن الله نصب الإمام علما لخلقه وجعله حجة على أهل طاعته ألبسه الله تاج الوقار وغشاه من نور الجبار يمد بسبب من السماء لا ينقطع عنه مواده ولا ينال ما عند الله إلا بجهة أسبابه ولا يقبل الله الأعمال للعباد إلا بمعرفته فهو عالم بما يرد عليه من مشكلات الوحي ومعميات السنن ومشتبهات الدين لم يزل الله يختارهم لخلقه من ولد الحسين صلوات الله عليه من عقب كل إمام فيصطفيهم لذلك ويجتبيهم ويرضى بهم لخلقه ويرتضيهم لنفسه كلما مضى منهم إمام نصب عز وجل لخلقه من عقبه إماما علما بينا وهاديا منيرا وإماما قيما وحجة عالما أئمة من الله يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ حجج الله ودعاته ورعاته على خلقه يدين بهداهم العباد وتستهل بنورهم البلاد وتنمي ببركتهم التلاد وجعلهم الله حياة الأنام ومصابيح الظلام ودعائم الإسلام جرت بذلك فيهم مقادير الله على محتومها فالإمام هو المنتجب المرتضى والهادي المجتبى والقائم المرتجى اصطفاه الله لذلك واصطنعه على عينه في الذر حين ذرأه وفي البرية حين برأه ظلا قبل خلقه نسمة عن يمين عرشه محبوا بالحكمة في علم الغيب عنده اختاره بعلمه وانتجبه بتطهيره بقية من آدم وخيرة من ذرية نوح ومصطفى من آل إبراهيم وسلالة من إسماعيل وصفوة من عترة محمد ﷺ ولم يزل مرعيا بعين الله يحفظه بملائكته مدفوعا عنه وقوب الغواسق ونفوث كل فاسق مصروفا عنه قوارف السوء (بريئا من الآفات) مصونا من الفواحش كلها معروفا بالحلم (بالعلم) والبر في (يفاعه) منسوبا إلى العفاف والعلم والفضل عند انتهائه مسندا (مستندا) إليه أمر والده صامتا عن المنطق في حياته فإذا انقضت مدة والده انتهت به مقادير الله إلى مشيته وجاءت الإرادة من عند الله فيه إلى محبته وبلغ منتهى مدة

والده فمضى وصار أمر الله إليه من بعده وقلده الله دينه و جعله حجة على أهل عالمه وضياء لأهل دينه والقيم على عباده رضي الله به إماما لهم استحفظه علمه واستخبأه (واستحباه) حكمته واسترعاه لدينه وحباه مناهج سبله وفرائضه وحدوده فقام بالعدل فيه تحير أهل الجهل ومحير أهل الجدل بالنور الساطع والشفاء النافع بالحق الأبلج والبيان من كل مخرج على طريق المنهج الذي مضى عليه الصادقون من آبائه فليس يجهل حق هذا العالم إلا شقي ولا يجحده إلا غوي ولا يصد عنه إلا جريء على الله جل وعلا).

وروي في الأمالي ومعاني الأخبار وعيون الأخبار عن الرضا عليه السلام في الحديث الطويل في علامة الإمام إلى أن قال عليه السلام (الإمام وحيد دهره لا يدانيه أحد ولا يعادله عالم ولا يوجد منه بدل ولا له مثل ولا نظير مخصوص بالفضل كله من غير طلب منه له ولا اكتساب بل اختصاص من المفضل الوهاب ولا له مثل فمن ذا الذي يبلغ معرفة الإمام عليه السلام ويمكنه اختياره هيهات هيهات ضلت العقول وتاهت الحلوم وحارت الألباب وحسرت العيون وتصاغرت العظماء وتحيرت الحكماء وتقاصرت الحلماء وحصرت الخطباء وجهلت الألباء وكلت الشعراء وعجزت الأدباء وعييت البلغاء عن وصف شأن من شأنه أو فضيلة من فضائله فأقرت بالعجز والتقصير وكيف يوصف أو ينعت بكنهه أو يفهم شيء من أمره أو يوجد من يقوم مقامه ويغني غناه وكيف وأنى وهو بحيث النجم من أيدي المتناولين ووصف الواصفين فأين الاختيار من هذا وأين العقول من هذا و أين يوجد مثل هذا) الحديث.

وأمثال هذا من أخبارهم وأدعيتهم في الإشارة إلى مقامهم عليهم السلام كثير لا يكاد

يحصى وإنّما يذكرون من بيان مناقبهم ما تحتمله عقول البشر وأن يدركوا حقيقة ما ذكروا، بل إن كنت ممتحناً بمعرفتهم كفاك قول الحجة عليه السلام في دعاء شهر رجب الذي ذكرناهُ مراراً في قوله عليه السلام (ومقاماتك التي لا تعطيل لها في كل مكان يعرفك بها من عرفك لا فرق بينك وبينها إلا أنهم عبادك وخلقك) الدعاء، فإنه مشتمل على ما لا مزيد عليه بالنسبة إلى مقام شيعتهم، فإذا عرفتَ ما أشرنا إليه ظهر لك حقيقة قوله عليه السلام (كيف أصف حسن ثناءكم).

وقوله عليه السلام (وأحصي جميل بلائكم) لمّا كان أعظم الناس بلاءً الأنبياء ثم الأولياء ثم الأَمثَل فَالأَمثَل وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم (من حسن إيمانه وكثر عمله اشتد بلاؤه) الحديث ، وغير ذلك كانوا عليهم السلام أولى بذلك من غيرهم لأن عند الله تعالى مقامات ومراتب لا تنال إلاّ بالبلاء، وكانوا أشدّ الناس بلاءً، فقد روى في الأمالي بسنده إلى بريدة بن خُصيب الأسلمي قال (قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عهد إلي ربي تعالى عهدا فقلت يا رب بينه لي قال يا محمد اسمع علي راية الهدى وإمام أوليائي ونور من أطاعني وهو الكلمة التي ألزمتها المتقين فمن أحبه فقد أحبني ومن أبغضه فقد أبغضني فبشره بذلك قال قلت اللهم أجل واجعل ربيعه الإسلام في قلبه قال قد فعلت ثم قال إني مستخصه ببلاء لم يصب به أحد من أمتك قال قلت أخي وصاحبي قال ذلك مما قد سبق مني إنه مبتلى ومبتلى به) هـ.

وقد جرَتْ عليهم صلى الله عليهم من البلايا ما لم تجر على أحدٍ من الخلائق من أعدائهم ممّا يضيق بذكره الدفاتر، ولقد ذكر الثاني في صحيفته التي أوصى فيها معاوية يحرضه على عداوتهم وحربهم وقتل من تمكن منه منهم ومن شيعتهم وما أخبر فيها ممّا فعل بالصّدّيقة الطاهرة صلى الله عليها ولعن الله من آذاها ما لا

يكادُ يحتمل سماعه وما جرى على الحسين عليه السلام وعلى أخيه الحسن عليه السلام وعلى الأئمة صلوات الله عليهم ما كدّر صافي العيش على محبّيهم ونَغّص عليهم لذيذ حياتهم، بل كلّ مظلمة وتهضّم وإذلال وإهانةٍ جرت عليهم ولم يجر على غيرهم إلاّ تبعاً ومن بصّره الله عاين ذلك حتّى أن الصادق صلوات الله عليه ذكر أن الذنوب الكبائر المشهورة إنّما نزلت فيهم وإنّما تجري على فاعليها من غير أعدائهم على جهة التبعيّة.

ففي العلل والخصال بسنده إلى عبد الرحمن بن كثير عن أبي عبدالله عليه السلام قال (إن الكبائر سبع فينا نزلت ومنا استحلت فأولها الشرك بالله العظيم وقتل النفس التي حرم الله وأكل مال اليتيم وعقوق الوالدين وقذف المحصنات والفرار من الزحف وإنكار حقنا وأما الشرك بالله فقد أنزل الله فينا ما أنزل وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فينا ما قال فكذبوا الله وكذبوا رسوله فأشركوا بالله عز وجل وأما قتل النفس التي حرم الله فقد قتلوا الحسين بن علي عليهما السلام وأصحابه عليهم السلام وأما أكل مال اليتيم فقد ذهبوا بفيئنا الذي جعله الله لنا فأعطوه غيرنا وأما عقوق الوالدين فقد أنزل الله عز وجل في كتابه النَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْواجُهُ أُمَّهاتُهُمْ فعقوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في ذريته وعقوا أمهم خديجة في ذريتها وأما قذف المحصنة فقد قذفوا فاطمة عليها السلام على منابرهم وأما الفرار من الزحف فقد أعطوا أمير المؤمنين عليه السلام بيعتهم طائعين غير مكرهين ففروا عنه وخذلوه وأما إنكار حقنا فهذا مما لا يتنازعون فيه).

وفي مناقب ابن شهر آشوب أنّ أمير المؤمنين عليه السلام قال (بينا أنا وفاطمة والحسن والحسين عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذ التفت إلي فبكى فقلت ما يبكيك يا رسول الله قال

أبكي من ضربتك على القرن ولطم فاطمة خدها وطعن الحسن في فخذه والسم الذي يسقاه وقتل الحسين عليه السلام ورأى أمير المؤمنين في المنام قائلا يقول:

إذا ذكـر القلب رهط النـــبي
وسبـي النساء وهتك الستـر

وذبح الـبي وقتــل الوصي
وقتل الشبـيـر وسم الشبـــر

تـر قرق في العـين مـاء الفـؤاد
ويجـري على الخد منه الدرر

فيا قلـب صـبرا عـلى حـزنهم
فعند البلايا تكون العـــبـر

فإذا عرفتَ ما جرى عليهم من البلايا بغير ذَنْبٍ وقع منهم، وإنّما جرى عليهم ما جرى بما جرى به القلم ولو سألوا الله عز وجل رفعه وأرادوا دفعه رفعه الله تعالى ودفعه عنهم ولكنهم قابلوا محتوم القضاء بمحكم الرضا، وقصد أعداءهم لعنهم الله بذلك إهانتهم وإذلالهم وإطفاء نورهم (وَيَأْبَى الله إلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ) فكان ما فعلوا بهم من أعظم مناقبهم ورفع شأنهم حتّى كانت جميع العوالم تسبّح الله بنشرِ الثناء عليهم في بلاياهم ومصائبهم ولقد قلتُ في قصيدة رثيتُ بها الحسين عليه السلام:

أَمَّا ثناؤُك في بلائِك فهو لا يُحصيه كـــاتــبْ
وأرى جميع الخلـق كُلاًّ بالذي أُوتي مُخاطـــبْ

يَبدُو بنَعْيِــكَ حـين يَبْدُو وهُو حالٌ غيرُ كاذبْ
فلِذَاك قيل لكَ المحامدُ والمـَادح في المصائبْ

فمن يحصي جميل بلائهم لأنه في الحقيقة تسبيح الله وتمجيده وتحميده والثناء عليه.

وأُحبّ أن أذكر لك ما كتبتُه لقرّة العين والأخ الصفي في الدارين الآخوند الملا حسين الواعظ الكرماني بلّغه الله الأماني حين سألني عن مسائل ومنها قوله أيّده الله، وفي بعض الأخبار يومئ أن المنافقين والشياطين لعنهم الله لم يبكوا على الحسين ﵇ ، وأمّا الكافرون فقد بكوا عليه كما ورد أن النار وأهل النار بكوا على الحسين ﵇ فكيف يكون كذلك....إلخ، كتبتُ في جوابه.

أقول: الذي يدلّ عليه العقل والنقل أن جميع ما في الوجود المقيّد من كل ذي هيئةٍ وصورة مما في السماوات والأرضين وسكّان العناصر والبحار بكوا على الحسين ﵇ إلاّ أن بكاءهم على نوعيْن:

أحدهما: بمقتضى إمكان ذي الهيئة والصورة، وبهذا النوع بكى على الحسين ﵇ كل شيء حتى المنافقين والشياطين وأهل علّيّين وأهل سجّين، وهذا بكاء معنوي وهو على أصناف.

منه أن كلّ واحدٍ منهم يجد في نفسه ضعفاً عن شيء من الأشياء.

ومنه أن كلّ واحدٍ منهم يجد في نفسه رقّة لشيء من الأشياء.

ومنه أن كلّ واحدٍ منهم يجدُ في نفسِه خضوعاً لشيء من الأشياء.

ومنه أن كلّ واحدٍ منهم يجدُ في نفسِه ميلاً لشيء من الأشياء.

ومنه أن كل شيء منهم يجد في نفسه حاجة لشيء من الأشياء.

ومنه أنّ كل شيء منهم يجد في نفسه خوفاً من شيء من الأشياء.

ومنه أن كلّ شيء منهم يَجُدُ في نفسه رجاء لشيء من الأشياء.

ومنه أن كلّ شيء منهم يَجدُ في نفسه غمّا لعدم إدراك شيء من الأشياء أو لفوت شيء من الأشياء.

ومنه أن كل شيء منهم يجد في نفسه همّا عنده لأمرٍ مستقبلٍ محبوب يخاف عدم إدراكه أو بطؤ إدراكه أو محذور يخاف وقوعه وما أشبه هذه، وكل هذه وما أشبهها بُكاءٌ أو تَباكٍ لجمود عين طبيعته ويجري على كل مَن أشرنا إليه من كل ذي هيئةٍ وصورة من الخلق ومرادي بذي الهيئة والصورة ذو الإنيّة حال وجدانِه إنيّتهُ، وإلى هذا المعنى أشرت بقولي في قصيدتي المقصورة في مرثية أبي عبدالله الحسين عليه السلام قلتُ:

ما في الوجود معجمٌ لم يكن
إلاّ اعترَتْه حَيرةٌ في اسْتِوا
كلّ انكسارٍ وخضوعٍ به
وكلّ صوتٍ فهو نوحُ الهوا
أما ترى النّخلةَ في قُبّةٍ
ذاتِ انفِطارٍ وانفِراجٍ فَشا
ما سَعْفَةٌ فيها انتهتْ أُخبِرتْ
إلاّ لها حزنُ إمامي شوى
أما ترى الأثَلَ وأهدابَهُ
عند الرياح ذا حنينٍ عَلا
أما سمعتَ النَّحْلَ ذارنَّةٍ
في طيَرانه شديد البكا

والسيفُ يفري نحرَهُ باكياً
والرمحُ ينعى قائماً وانثنا
تبكيه جُرْدٌ جارياتٌ على
جُثمانِه وإنْ تَدُقُّ القَرَا
والله ما رأيتُ شيئاً بدَا
في الكون إلا ببكاء تَلا

فتأمل هذه الأبيات تعرف ما أشرنا لك إليه.

وثانيهما: بالبكاء المعروف وجريان الدموع، ويكونُ ذلك من محبيّه عليه السلام ومن مبغضيه حالة عدم التفاتِهم إلى جهة بغضِه وعداوته، فإنهم في حالة التفاتهم إلى عداوته وبغضه وما يردُ منهم من الحنقِ والغيظِ عليه وعلى أتباعه ومحبيّه لا يبكون عليه لشدة بُعد قلوبهم حينئذ عن الرحمة وقسوتها عن قبول الخير وهو تأويل قوله تعالى (ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ فَهِيَ كَالْحِجارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجارَةِ لَما يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهارُ وَإِنَّ مِنْها لَما يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْماءُ وَإِنَّ مِنْها لَما يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ الله) والبكاء على الحسين عليه السلام من خشية الله.

وأمّا في حال غفلتِهم عن شقاقهم البعيد من رحمة الله إذا ذكروا ما جرى عليه وعلى أهل بيته وأنصاره بكوا كما جرى من كثيرٍ منهم مثل خِوَلى الأصبحي لعنه الله وهو يسلب زينب عليها السلام والأطفال ويأخذ النطع سحبا من تحت سيد العابدين صلوات الله عليه وهو يبكي ولما سألته قال لعنه الله أبكي لما جرى عليكم أهل البيت وهو من المنافقين.

والحاصل كل شيء يبكي على الحسين صلوات الله عليه، تبكيه الرياح بهفيفها

والنار بتلهّبها والماء بجريانه وأمواجه وجموده والشمس والقمر والنجوم بتغيراتها من حُمرة وصفرةٍ وكسوف وخسوف والجبال بارتفاعها وانهدادها والجُدران بانفطارها وانهِدامها، والنبات بتغيّره واصفراره ويُبْسه والآفاق بتكدرها واغبرارها وحمرتها وصفرتها آه ثم آه ثمّ آه ما أدري ما أَقول وتبكيه التجارة بخسارتها وكسادها، والعيون بتكدّرها، والمعادن بفسادها، والأسعار بغلائها، والأشجار بموتها وبقِلّةِ ثمرها وبسقوط ورقها ويُبسِ أغصانها واصفرارِ وَرَقها، أما سمعتَ بكاء الأواني حين تنكسر من الصيني والخزف، ومن المعادن تبكيه بانكسارها وبصوتها حين الكسرِ، أما سمعتَ هديرَ الأطيار في الأوكار وهفيف الأشجار وأمواج البحار وبُكاءَ الأطفال الصغار، أما سمعت بُكاء الأسفار بعدم أمْنيّةِ القفار، أما سمعت الليل يبكيه بظلمته والنّهار بالإسْفار، أما رأيتَ تفتّت الأحْجارِ وغورَ البحارِ وقلة الأمطار وغلاء الأسعار وفسادَ الأفكار واختِلافَ الأنظار وقِصَر الأعمار آه ثم آه ثم آه أُجمِلُ لك الأمر بما أجمله العزيز الجبّار في كتابه قال في هذا الشأن مصرِّحاً بالبيان لمن كان لقلبه عينان (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ) فقال ﷺ في بيان أن المراد بهذه الآية ما ذكرنا في الزيارة الجامعة الصغيرة المذكورة في آخر المصباح للشيخ رحمه الله قال ﷺ (يُسَبِّحُ الله بِأَسْمَائِهِ جَمِيعُ خَلْقِهِ) يعني أنَّ كلَّ شيء يسبّح الله بالبكاءِ على سيّدِ الشهداء عليه أفضل الصلاة والسلام والثّناء وبنشر فضائله وممادحِه في مصائبه انتهى كلامي هناك ، ثم قلت بعد الأبيات المتقدّمة.

والحاصل إن هذا مجمل الجواب والبيان أنّ كل شيء يبكي عليه إلا حال التفاته إلى عداوته وبغضه فإنّه في تلك الحال مطرود من رحمة الله التي وسعت

كل شيء لأنه حين العداوة لا وُجود لأصل عداوته لعنه الله له عليه السلام فلأجل ذلك قلنا هو حينئذ في ظلمةٍ موهومةٍ لا تشمُلُها رحمة الله التي وسعت كل شيء صلى الله عليك يا أبا عبدالله بعددِ ما في علم الله هـ.

فإذا فهمتَ ما ذكرنا لَكَ عرفتَ مصابهم وعظيم رزيتهم وظهر لك ممّا ذكرنا من أنّ بُكاء الأشياء عليهم هو تسبيح الله تعالى كما سمعتَ فكيف يوصف أو يحصى جميل بلائكم من جهاتٍ شتّى.

منها أنّ الله وله الحمد إنّما ابتلاهم لرفع درجاتهم لا لتقصير وقع منهم وإنما نظر لهم أحسن ما عنده فهذا جميل لا يحصى.

ومنها أنهم قابلوا الابتلاء بكمال الرضى لعلمهم عليهم السلام بأنه أحسن لهم حينئذٍ من العافية وذلك جميل لا يُحصى.

ومنها أن أثر بلائهم ينبسط على جميع من يستمد منهم فيبعثهم على تسبيح الله وتقديسه على جهة الانقياد كما سمعت فيما ذكرنا من بكاء الخلق على مصابهم وبلائهم وذلك جميل لا يحصى.

ومنها أنّهم إنما ابتُلوا بما ابتلُوا به من جهةِ ما تحملُوا من تقْصيرات أتْباعِهِمْ من شيعتهم ومحبيهم لينجوا مِنَ النّار، فصار فعلهم سبباً لنجاة أتباعهم ولِبَعْثِ الخلق على تقديسِ الله ولرضاهم عليهم السلام بالبلاء فينالوا أعْلَى درجاتٍ عند الله تعالى ممّا أعدها للصّابرين والرَّاضين والمتحملينَ عن المُغْرَمين والمكروبين.

فهذه الأمور وأمثالها موجبات لجميلٍ لا يُحْصَى كلّ واحدٍ منهم جميلٌ لا يتناهى فكيف يحصي جميلُ بلائهمْ.

قال عليه السلام وبكم أخرجنا الله من الذلّ وفرّج عنا غمرات الكروب وأنقذنا من شفا جرف الهلكات ومن النّار

قال الشارح المجلسي رحمه الله والحال أنّ من جُملتها أن الله أعزّنا بالإسلام بهدايتكم وأخرجنا من ذلّ الكفر والعذاب في الدنيا والآخرة (وفرّج عنا غمرات الكروب) أي الغموم والشدائد الكثيرة من الكفر والظلم والجهل وغيرها، (وأنقذنا) أي خلّصنا (من شفا جرف الهلكات) أي حين كنا مشرفين على الهلاكِ من الكفر والضلال والفسق فهدانا بكم وخلّصَنا من تَبِعاتِها (ومن النار) بأصول الدين وفروعها، انتهى.

أقول: هذا الكلام مرتبط على ما قبله لأنه حال من أحواله، وإنما فَصَلْتُ بينهما تخفيفاً والشارح رحمه الله وصل بينهما لابتناء الآخر على الأوّل وهو أولى لقصر كلامه، وأنا لأجل طول الكلام كرهتُ وصله بالأول لبعده عن هذا المحل وتداركته ببيان ابتنائه على الأول لأنه حال من أحواله، والمعنى أنه عليه السلام قال (كيف أصف حسنَ ثنائكم) الذي من بعضه النعم التي وصلت إلينا من هدايتكم لنا التي بها أخرجنا الله سبحانه من هذه الأمور المذكورة، (وأحصي جميل بلاءكم) الذي لم يجر عليكم إلاّ بذنوبنا وتقصيراتِنا حين اشتريتمونا من موبقات أعمالِنا بما جرى عليكم من المحن والبلايا مع ما قصّرنا في واجبات حقوقكم.

فمن حسن ثنائكم هدايتكم لنا بإفاضة أشِعّة أنواركم على قلوبنا وبما أنعمتم به علينا من فاضل طينتكم بتعليمكم لنا معالم ديننا وتوجهكم لتسديدنا بدعائكم لإصلاحِنا وتوفيقنا لما يحبّ الله وإظهاركم لنا من علومكم أسرار التعلم (التعليم) والتمرين للمعارف الحقّة والعلوم اليقينية والأعمال الصالحة

ممّا كتمتموه عن منكريكم وزويتموه عن معاديكم بمنَعهِمْ إطاقة القبول منكم وموالاة أعدائكم ومعاداة أوليائكم، ولولا تفضّلكم علينا لم نعترف بما أنكروا ولم ننَلْ ما لم يدركوا ولم نقبل ما تركوا.

ومن جميل بلائكم فكُّ رقابنا ممّا نستوجبه بسبب قصورنا وتقصيرنا عن تمام تلقّي ما ألقيتم إلينا ممّا به تمام ديننا بما تحمّلتم من المحن والبلايا حتّى اشتريتمونا من حكم لزوم كلمة الحق من القدر المحتوم من أن مَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ، فمن حسن ثنائكم وفضلكم ومن جميل بلائكم وعفوكم وإحسانكم ما أخرجنا الله به من ذل الكفر وشقاء عداوتكم وهلاكِ بُغْضِكم ومن عذاب الدنيا من موجباتِ الحدود والقصاص باتّباعكم وضرب الجزية وشقاوة الردّة وعمى الضلالة ومن درك الشقاء عند الموت وسوء المُنقلب، ومناقشة المسألة في القبور وعذاب البرزخ وأهوال يوم القيامة والنار وبذلك من نعمكم وتفضّلكم فرّج عنّا غمرات الكروب من الهموم والغموم والشدائد في الدنيا ببركتكم وبدعائكم وعند الموت والمسألة وعذاب الدنيا والآخرة وبذلك من تفضلكم وعفوكم أنقذنا من مقتضيات نفوسنا ودواعي طبائعنا التي لولا جميلكم وعفوكم لوقعنا في هوة هلاك الدنيا والآخرة لأنا كنّا بدواعي طبائعنا ومقضيات جهالاتِنا وهوى أنفسنا مشرفين على هلاك الدنيا والآخرة فخلّصنا الله تعالى من مكاره الدنيا والآخرة بكم.

والشفا الإشراف على الشيء والجرف مثل عُسْرٍ وعُسرُ ما تجرّفته السيول وما أكلته من الأرض ومنه قوله تعالى (عَلَى شَفا جُرُفٍ هَارٍ)وفي أعلام الدين للديلمي من كتاب الحسين بن سعيد عن الصادق عليه السلام عن آبائه عليهم السلام عن رسول

الله ﷺ أنه قال لأمير المؤمنين عليه السلام (بشر شيعتك ومحبيك بخصال عشر أولها طيب مولدهم وثانيها حسن إيمانهم وثالثها حب الله لهم والرابعة الفسحة في قبورهم والخامسة نورهم يسعى بين أيديهم والسادسة نزع الفقر من بين أعينهم وغنى قلوبهم والسابعة المقت (اللعنة) من الله لأعدائهم والثامنة الأمن من البرص والجذام والتاسعة انحطاط الذنوب والسيئات عنهم والعاشرة هم معي في الجنة وأنا معهم فطُوبى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ) .

وهذا إنما هو من عطائهم وذلك قول الصادق عليه السلام (بنا عُرِف الله وبنا عُبد الله نحن الأدلاّء على الله ولولانا ما عُبِد الله)هـ.

وقوله عليه السلام (يا مفضّل إن الله خلقنا من نوره وخلق شيعتنا منّا وسائر الخلق في النار بنا يطاع الله وبنا يُعْصى يا مفضّل سبقَتْ عزيمة من الله أنه لا يتقبّل من أحدٍ إلاّ بنا ولا يعذّب أحداً إلاّ بنا فنحن باب الله وحجّته وأمناؤه في خلقه وخزانه في سمائه وأرضه حللْنَا عن اللهِ وحرَّمْنا عن الله لا نحتجبُ عن الله إذا شئنا وهو قوله تعالى وَما تَشاؤُنَ إِلاَّ أَنْ يَشاءَ الله وهو قوله ﷺ إن الله جعل قلب وليه وكرا لإرادته فإذا شاء الله شئنا) هـ.

وعن الباقر عليه السلام إلى أن قال (ونحن الذين بنا تنزل الرحمة وبنا تسقون الغيث ونحن الذين بنا يصرف عنكم العذاب فمن عرفنا ونصرنا وعرف حقنا وأخذ بأمرنا فهو منا وإلينا)هـ.

وفي تفسير علي بن إبراهيم بسنده إلى أبي الحسن الرضا عليه السلام إلى أن قال عليه السلام (نحن نور لمن تبعنا ونور لمن اقتدى بنا من رغب عنا ليس منا ومن لم يكن معنا فليس من الإسلام في شيء بنا فتح الله الدين وبنا يختمه وبنا أطعمكم الله عشب

الأرض وبنا أنزل الله عليكم قطر السماء وبنا آمنكم الله من الغرق في بحركم ومن الخسف في بركم وبنا نفعكم الله في حياتكم وفي قبوركم وفي محشركم وعند الصراط وعند الميزان وعند دخولكم الجنان)الحديث.

وبالجملة ما دلّ من آثارهم على أنّ كلّ إدراك لخير مطلوب وكلّ فوز بأمر مرغوب وكلّ تحصيلٍ لشيء محبوب وكلّ نجاةٍ من أمر محذور وكلّ سلامةٍ من جهل وغرور ومن مكروه وشرور وخلاص من سوء عواقب الأمور كلّ ذلك إنّما يحصل منهم عليهم السلام لا يكاد يحصى ولا يستقصى، اللهمّ بحقّهم عليك نَجّنا بهم من كل مكروه ومحذور ومن سوء عواقب الأمور في الدنيا والآخرة يا وَليّ الدنيا والآخرة إنّك على كل شيء قدير.

قال عليه السلام بأبي أنتم وأمّي ونفسي بموالاتكم علّمنا الله معالم دينِنا وأصلح ما كان فسد من دنيانا.

قال الشارح المجلسي رحمه الله (علّمنا الله معالم ديننا) أي الكتاب والسنّة التي يُعلم منهما ديننا أو بالعقل والنقل وإذا زار غير العالم فيقصد أنه تعالى علم هذا النوع أو الشيعة أو يعمّ العلم بحيث يشمل التّقليد أو يعمّ التعليم بما يشمل (وأصلح ما كان فسد مِن دنيانا) بعلم التّجارات وغيرها أو بأدعيتنا ببركتهم أو ببركة أدعيتهم لنا انتهى.

أقول: المراد بالموالاة المتابعة لهم في الأقوال والأعمال والمحبة وامتثال الأوامر والنواهي والتسليم لهم والردّ إليهم، والمعالم جمع معلم كمقعد بمعنى ما يستدل به، فمعلم الشيء مظنّته وما يستدل به .

يقول (بموالاتكم) أي بمحبّتكم واتّباعكم في الدين وامتثال أوامركم

ونواهيكم والأخذ عنكم في الأقوال والأعمال والأخلاق والتسليم لكم والردّ إليكم والبراءة من أعدائكم في كلّ شيء مما ذكر.

(علّمنا الله معالم ديننا) أي نوّر قلوبنا لقبول الحق منكم وعرّفنا بكم نفسه وما أراد منّا من معرفته بسبيل معرفتكم، وعرفّنا بكم وببَيانِكم آياته التي ضربَها لعباده ليستدلوا بها في الآفاق وفي أنفسهم وجعلنا بكم عَارفين بنبيّه ﷺ وبكم صلى الله عليكم، وعلمنا شرائع الدّين الذي ارتضاه بما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة وبما نشرتم لنا من علومكم وأجملتم في أصولكم وفصّلتم في أحكامكم، فمن استنبط منّا أحكامكم فبكم استنبَطَ وبنوركم نظر وبدليلكم استدَل ، ومن تلقّى منّا عن المستنبط فعن أمركم تلَقى وبهدايتكم تحرّى، فقد علّمنا الله سبحانه وله الحمد معالم ديننا بموالاتكم من معرفة آياته بما أنار بكم من عقولنا ومن أحكام دينه بما أنزل عليكم من كتابه وأنطقكم لنا بما أراده مِنّا حتّى أكمل بكم الدين وأنار بكم صُدُورَ المؤمنين وبما أشرق من أنواركم على قلوبنا من اليقين وهدى بكم الصراط المستقيم، وبموالاتكم أصلح ما كان فسد من دنيانا حتى كان طلبُنَا للدنيا وللمعيشة فيها مرضيّاً عند الله مقرِّباً إلى رضاه لما أبحتم لنا من أموالكم وعلّمتمونا طريق الاكتساب من حيث يرضى رب الأرْباب، فاتّبعنا طريق معاملتكم من حيث المجموع وتركنا ما كان عندكم من الممنوع حتى سمّيتم أتباعكم وشيعتكم لأجل ذلك أهل القنوع فكان ما ربحنا من تجارة وزراعةٍ وغير ذلك شكراً منكم لمحبّتِنا لكم فأنزل الله لكم ولأجلكم فينا هل جزاء الإحسان إلاّ الإحسان وكان ما فاتنا من تجارة وزراعة وغير ذلك كفّارةً لما قصرنا فيه من حقّكم وواجب امتثال أمركم فقد أصلح ربّنا وله الحمد

بموالاتكم ومحبّتِكم ما كان فسدَ من دُنيانا، ولقد روى ابن شاذان في مناقبه بسنده إلى ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ (من أراد التوكل على الله فليحب أهل بيتي ومن أراد أن ينجو من عذاب القبر فليحب أهل بيتي ومن أراد الحكمة فليحب أهل بيتي ومن أراد دخول الجنة بغير حساب فليحب أهل بيتي فو الله ما أحبهم أحد إلا ربح في الدنيا والآخرة).

والربح في الآخرة معلوم وأمّا الربح في الدنيا فهو ما أصاب من خير فشكراً لنعمة محبّته لهم وما أصابه من شرّ فكفّارة لذنوبه، اللهم يا مقلب القلوب والأبصار صل على محمد وآله وثبت قلبي على دينك ودين نبيك ﷺ ولا تزغ قلبي بعد إذ هديتني وهب لي من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب.

ودينه سبحانه ودين نبيه ﷺ هو حبّهم عليه وعليهم السلام ففي تفسير العياشي عن بُرَيد بن معاوية العجلي قال (كنت عند أبي جعفر عليه السلام إذ دَخَلَ عَلَيْهِ قَادِمٌ مِنْ خُرَاسَانَ مَاشِياً فَأَخْرَجَ رِجْلَيْهِ وَ قَدْ تَغَلَّفَتَا وَقَالَ أَمَا وَالله مَا جَاءنِي مِنْ حَيْثُ جِئْتُ إِلا حُبُّكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ فَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام وَالله لَوْ أَحَبَّنَا حَجَرٌ حَشَرَهُ الله مَعَنَا وَهَلِ الدِّينُ إِلا الْحُبُّ إِنَّ الله يَقُولُ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ الله فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ الله وَقَالَ يُحِبُّونَ مَنْ هاجَرَ إِلَيْهِمْ وَهَلِ الدِّينُ إِلا الْحُبُّ) هـ.

قال في العوالم بيان لعلّ الاستشهاد بالآية إمّا لأن حبهم من حبّ الله أو بيان أن الحبّ لا يتم إلاّ بالمتابعة هـ.

أقول: الظاهر أن هذا من كلام صاحب البحار.

وأقول: أمّا الوجه الأول فيمكن تصحيحه بأن يقال كما أن كل شيء من الله كذلك حبّهم من حبّ الله وهذا معنى ظاهري.

وأمّا الحقيقي فحبّهم حب الله بلا تعدد أصلاً كما دلّ عليه النقل من أحبّهم فقد أحب الله ومن أبغضهم فقد أبغض الله ومن أطاعهم فقد أطاع الله، وهو صريح في الاتّحاد لما دَلّ عليه النقل عنهم كما في الكافي والتوحيد في تفسير قوله تعالى (فَلَمَّا آسَفُونا انْتَقَمْنا مِنْهُمْ) عن الصادق عليه السلام أنه قال في هذه الآية (إنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ لا يَأْسَفُ كَأَسَفِنَا وَلَكِنَّهُ خَلَقَ أَوْلِيَاءَ لِنَفْسِهِ يَأْسَفُونَ وَيَرْضَوْنَ وَهُمْ مَخْلُوقُونَ مَرْبُوبُونَ فجعل رضاهم رضا نفسه وسخطهم سخط نفسه وذلك لأنه جعلهم الدعاة إليه والأدلاّء عليه فلذلك صاروا كذلك وليس أن ذلك يصل إلى الله كما يصل إلى خلقه ولكن هذا معنى ما قال) الحديث.

ومعنى قوله عليه السلام (وليس أن ذلك يصل إلى الله.....إلخ) أنّ الأشياء الحادثة وهي جميع ما سواه ومن جملتها الأسف والندم والغضب والحب والبغض وغير ذلك كالطاعة والمعصية والعمل وما أشبه ذلك لا يصل إلى القديم تعالى، فإن الأزل هو سبحانه لا يصل إليه غيره ولا ينزل منه شيء إلى غيره لكمال غناه وكل ما سواه فهو في رتبة الفعل والمفعول فحبّ الله لا يقع عليه ولا يصل إليه سواء اعتبرتَهُ مضافاً إلى الفاعل أم إلى المفعول، فإن اعتبرت الإضافة إلى الفاعل كان حبّه سبحانه لعبده إيصال ثوابه ورحمته ومدده وتفضّله وما أشبه ذلك إلى العبد المحبوب وكل ذلك من آثار فعله المحدَثِ فالواصل من فعله من تقريبه عبده وإثابته ورفع شأنه وغير ذلك إنما هو أثر ذلك الفعل وأين التراب ورب الأرباب، وإن اعتبرتَ الإضافة إلى المفعول فإنّما ينسب الحبّ إلى مظاهره ومقاماته التي لا تعطيل لها في كل مكانٍ وهي التي يعرفه بها من عرفه وهم عليهم السلام أركان تلك المقامات، وقد تقدّم قبل هذا أبحاث كثيرة في بيان هذا الشأن، فحبهم عين حبّ الله لأنه تعالى جعلهم محلا ومرجعاً لكل ما ينسب إليه مطلقاً فافهم.

وأمّا الوجه الثاني وهو قوله (أو بيان أن الحب لا يتم إلاّ بالمتابعة) وظاهر هذا حسن ولكن فيه أن الظاهر منه إرادة المتابعة التّامّة، فالظاهر أن الأحاديث المتكثرة تحقّق الحبّ بأدنى متابعة إذا خلص القلب عن شائبة حبّ من سواهم، نعم إن أراد بالتمام الكمال فهو كذلك حقيقةً، ففي الخصال بسنده إلى أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله ﷺ (من رزقه الله حب الأئمة من أهل بيتي فقد أصاب خير الدنيا والآخرة فلا يشكن أحد أنه في الجنة فإن في حب أهل بيتي عشرين خصلة عشر منها في الدنيا وعشر في الآخرة أما في الدنيا فالزهد والحرص على العمل والورع في الدين والرغبة في العبادة والتوبة قبل الموت والنشاط في قيام الليل واليأس مما في أيدي الناس والحفظ لأمر الله ونهيه عز وجل والتاسعة بغض الدنيا والعاشرة السخاء وأما في الآخرة فلا ينشر له ديوان ولا ينصب له ميزان ويعطى كتابه بيمينه ويكتب له براءة من النار ويبيض وجهه ويكسى من حلل الجنة ويشفع في مائة من أهل بيته وينظر الله عز وجل إليه بالرحمة ويتوج من تيجان الجنة والعاشرة يدخل الجنة بغير حساب فطوبى لمحبي أهل بيتي)هـ.

فإن قوله ﷺ (فإن في حب أهل بيتي) ظاهره أنّ هذه العشرين الخصلة لازمة لحبّ أهل بيتي إلاّ أن الأخبار الكثيرة صريحة في تحقّق الحب مع الكبائر كشرب الخمر كما في قصّة إسماعيل الحِميَرِي وغيره وحديث الصادق عليه السلام لمّا سُئل عن محب علي عليه السلام (وأنه يدخل الجنّة قال له السائل وإن زنى وإن سرق وكان في المجلس عبد الملك بن الفضل البقباق فسكت عليه السلام فلما رأى غفلة من عبد الملك قال للسائل إخفاء بحيث لا يسمع عبد الملك وإن زنى وإن سرق) ، وغير ذلك من الأحاديث التي لا تحصى ومقتضى الجمع بينها حمل هذه العشرين خصلةً على الحب الكامل.

ويحتمل أنه ﷺ أراد أنّ حبّهم داع إلى هذه الخصال أو سبباً (سبب) للتوفيق لها أو موجباً (موجب) لثوابها وإن لم توجد من المحب وليس بعزيز على الله سبحانه أن يوجب لمحب علي عليه السلام درجة تلك الخصال وإن لم تكن فيه كما دلّت عليه رواياتهم عليهم السلام، أوْ أنّ المراد بالخصال العشر معانيها الباطنة غير الظاهرة كما دلّت عليه أحاديثهم أيضاً، وإنما يذكر ظاهرها ليكون أدْعى للطاعات ومعانيها الباطنة أن المراد بالزهد ألاّ يكون بما عنده أوثق به مما عند الله كما قال الصادق عليه السلام في تفسير الزهد أو المراد بالزهد في الدنيا ترك ولاية الأول كما قال الصادق عليه السلام في قوله تعالى (بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيا)هي ولاية الأول قال والآخرة خير وأبقى هي ولاية علي بن أبي طالب عليه السلام، وباقي الخصال العشر على ما يقرب من هذا المعنى وأنا أُلَوِّحُ لَكَ في بيانِ هذا وغيره أن الدنيا المذمومة في الباطن حيثما تطلق يراد بها تلك السلطنة الأولى والآخرة يُرادُ بها الولاية الثانية، والسَّيئة يُراد بها حُبّ الأولى والحسنة حبّ الثانية وكذلك النّار والجنّة والموالاة حقيقةً هي المحبّة من جهة الأصالة والمتابعة وامتثال الأمر والنهي والتسليم والانقياد والردّ متشعبةٌ عليها ومتفرّعة منها فافهم.

قال عليه السلام وبموالاتكم تمّت الكلمة وعظمت النعمة وائتلفت الفرقة

قال الشارح المجلسي رحمه الله (وبموالاتكم تـمّت الكلمة) أي كلمة التوحيد كما قال الله تعالى (لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله حِصْنِي مَنْ دَخَلَ حِصْنِي أَمِنَ عَذَابِي) فلمّا نقل أبو الحسن علي بن موسى الرضا عليه السلام الخبر قال (ولكن بشروطها وأنا من شروطها) ، أو كلمة الإسلام، الإسلام أعني الكلِمتَيْن أو الإسلام والإيمان تجوّزاً (وعظمت

النعمة) كما قال تعالى (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً)، (وائتلفت الفرقة) فإن المؤمنين كنفس واحدةٍ سيّما الصلحاء منهم انتهى.

وقال السيد نعمت الله الجزائري رحمه الله في شرح التهذيب (تمت الكلمة) أي كلمة التوحيد والإيمان، لأن أعظم أركانه الولاية وقال الرضا عليه السلام في حديثه لعلماء نيشابور وكانوا من أهل الخلاف فالتمسوا منه عند خروجه منها أن يحدّثهم حديثاً واحداً فقال (اكتبوا حدّثني أبي موسى بن جعفر عن جدي الصادق عليه السلام عن أبيه باقر العلوم عن أبيه سيد الساجدين عن أبيه شهيد كربلاء عن أبيه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن جبريل عن ميكائيل عن إسرافيل عن اللوح عن القلم عن الله عز وجل أنه قال لا إله إلاّ الله حصني من دخله أمِنَ مِن عذابي فقالوا حسبنا يا ابن رسول الله فلمّا رجعوا قال لهم لكن بشروطها وأنا من شروطها) وقد نقل أن بعض السلاطين أمر بكتابة هذا السند بماء الذهب وأنه كان يعالج به المصروعين وكان يكتب في إناء ويمزج بماءٍ يشربه المصروع والعليل فيبرأ وإلى الآن هذا حاله، (وائتلفت الفرقة) فإن العرب قبل الإسلام كانوا متفرقين في الأهواء وكان من عاداتهم الغارات ونهب أموال بعضهم بعضاً والقتل بينهم فلمّا جاء الإسلام جمعهم على الدين وهدَرَ كلّ دم قبل الإسلام فصاروا ببركته إخواناً بعد أن كانوا أعداءً، انتهى.

أقول: قوله عليه السلام (بموالاتكم تمت الكلمة) يُراد منه أنّ الكلمة سواء يراد بها كلمة التوحيد التي يراد منها لا إله إلاّ الله أم كلمة الإسلام التي هي لا إلاّ الله محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مع عليّ ولي الله من دون بصيرة أم بدون العمل أم

كلمة الإيمان التي هي لا إله إلاّ الله محمد رسول الله ﷺ مع علي ولي الله مع البصيرة أم مع العَملِ أم الدين مطلقاً إنّما تتم بموالاتكم أي محبتكم واتّباعكم في الاعتقادات والأعمال والأقوال وامتثال أوامِركم ونواهيكم والاقتداء والائتمام بكم والأخذ عنكم والتفويض إليكم والتسليم لكم والردّ إليكم والاتكال على ولايتكم والاعتقاد بأن الأعمال لا تنفع ولا تقبل إلاّ بولايتكم ومحبتكم، والتّمام المذكور يجوز أن يراد به الاشتراط كما قال الرضا عليه السلام (بشروطها وأنا من شروطها) على إرادة الاشتراط الاصطلاحي أو الأعم فَيُراد به الجزئيّة كما ورد عنهم عليهم السلام أنهم أركان الدّين وأركان التّوحيد وأركان الإسلام وغير ذلك، ويجوز أن يُراد به الكمال فتحقق بدونها كما يظنّ ويتوهّم في الأمم السّابقة، وعلى الاشتراط المشار إليه هل هي شرط ماديّ أم شرطٌ صوري أم فيهما مَعاً، وكذا على الجزئيّة وعلى إرادة الكمال كذلك، والّذي تشهد له آثارُهُم وتقبله العقول المستنيرة بنورهم أنّ الاحتمالات التسعة كلّها صحيحة وكلها قد مرّ ذكرُها في هذا الشرح فمن ترصَّدها وجدها، فإنّ القول الّذي تحقّقَتْ به الكلمة إنّما أظهره الله فيهم وأجراهُ عليهم وأوصل ظلّ ذلك إلى مَنْ شاء بهم، وما دلّ عليه من المعاني فمن أنوارهم خلقها تعالى وبقولهم أقامها وبفاضل تأديتهم أوصلها إلى من استحقّها وما أوجده سبحانه بعمل قابلها من نورها فبدعائهم وإعانتهم باستغفارهم وتحمّلهم تقصيرات قابليها المانعة من قبولها وبهم كتب في قلوب قابليها الإيمان بها وأيّدهم بوجهٍ من الروح التي هي منه أي من فعله ومشيته التي جعلها عندهم صَلّى الله عليهم.

وأيضاً بموالاتكم عظمت النعمة أي نعمة الدين الّتي هي سعادة الدنيا

والآخرة إذ بقبولها في الأظلة طابت مواليدهم في هذه الدّنيا يعني مواليد شيعتهم بما طهّرهم به من موجبات الكفر والنفاق في مطاعم آبائهم وأمّهاتهم من تناول ما حرّم الله سبحانه ومناكحهم وملابسهم وذلك أنه إذا علم الله سبحانه أن الشخص من شيعتهم أمر عز وجل ملائكة يذودون أبوَيْه عن تناول ما نهى عنه من كل شيء يكون سببا في خبث الطينة حتى يتولّد ذلك المولود مما يحبّ سبحانه فيكون بطيب مولده يقبل ولايتهم ومحبّتهم ويهوي فؤادهُ إليهم فيميل بطينته الطيبة إلى الاقتداء بهم والتسليم لهم والردّ إليهم والأخذ عنهم ويدين الله بطاعتهم والتّفويض إليهم في كلّ ما يراد منه مما يتعلّق بأمر الدنيا والدّين وحبهم علامة طيب الولادة.

وفي المحاسن بسنده إلى الصادق عليه السلام عن آبائه عليهم السلام عن علي صلوات الله عليه قال : قال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم (ياأبا ذرّ من أحبنا أهل البيت فليحمد الله على أول النعم قال يا رسول الله وما أول النعم قال طيب الولادة إنه لا يحبنا أهل البيت إلا من طاب مولده).

وروى ابن إدريس عن السكوني قال قال أبو عبدالله عليه السلام (وَالله لا يُحِبُّنَا مِنَ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ وغيرهم من الناس إِلا أَهْلُ الْبُيُوتَاتِ وَالشَّرَفِ وَالْمَعْدِنِ والحسب الصحيح وَلا يُبْغِضُنَا مِنْ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ إِلا كُلُّ دَنَسٍ مُلْصَقٍ).

فلمّا طابت ولادتهم بما يسر لهم الله سبحانه وتعالى من مقتضيات طيب الولادة لأن علمه تعالى أولى بحقيقة التصديق أحبّوهم بجعل الله كما في قوله تعالى (وَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ)والناس هنا شيعتهم وجرى هذا الجعل على قبول تلك المقتضيات واقتضت تلك الطينة التي اقتضت حبّهم تصديقهم

والقبول منهم والائتمام بهم والتّسليم لهم والرّدّ إليهم والانقياد لهم والاعتراف بواجب حقّهم وطاعتهم بقلوبهم وألسِنتهم وجوارحهم والعقد على ولايتهم وموالاة وليّهم والبراءة من أعدائهم وأولياء أعدائهم في الدنيا والآخرة بحيث صبروا في تحمّل ذلك على شدة الفقر وضيق الدهر وكثرة الأعداء وشدائد لا تحصى ولا يزيدهم ما يصيبهم من تلك البلايا إلاّ ثباتاً في حبّهم واطمئناناً بولايتهم واستقامةً على دينهم، وكلّ هذه الخيرات إنّما نالوها بموالاتهم صلى الله عليهم، فلهذا قال عليه السلام (وعظمت النعمةُ) يعني علينا بموالاتكم والنعمة الإسلام الذي ما عليه إلاّ هم وشيعتهم لأن أساس الإسلام حبّهم، ففي آمالي الطوسي بسنده إلى جابر عن أبي جعفر عن آبائه عليهم السلام قال (لمّا قضى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مناسكه من حجة الوداع ركب راحلته وأنشأ يقول لا يدخل الجنة إلا من كان مسلما فقام إليه أبو ذر الغفاري رحمه الله فقال يا رسول الله وما الإسلام فقال صلى الله عليه وآله وسلم الإسلام عريان ولباسه التقوى وزينته الحياء وملاكه الورع وكماله الدين وثمرته العمل ولكل شيء أساس وأساس الإسلام حبنا أهل البيت) .

وفي المحاسن بسنده إلى أبي عبدالله عليه السلام قال (وَلِكُلِّ شَيْءٍ أَسَاسٌ وَأَسَاسُ الإسلام حُبُّنَا أَهْلَ الْبَيْتِ) هـ.

والنَّعمة هي العقبة الّتي اقتحمها بحبّهم وولايتهم والبراءة من أعدائهم وفي أعلام الدين للديلمي مما نقله من كتاب فرج الكروب عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى (فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَة) فقال (من انتحل ولايتنا فقد جاز العقبة فنحن تلك العقبة التي من اقتحمها نجا ثم قال مهلا أفيدك حرفا هو خير لك من الدنيا وما فيها قوله تعالى فَكُّ رَقَبَةٍ إن الله تعالى فك رقابكم من النار بولايتنا أهل البيت

وأنتم صفوة الله ولو أن الرجل منكم يأتي بذنوب مثل رمل عالج لشفعنا فيه عند الله تعالى فلكم البشرى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِماتِ الله ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) .

والنعمة هم عليهم السلام التي أنعم الله سبحانه على محبّيهم بل على جميع الخلق فكفر بها كلّ الخلق إلاّ شيعتهم ومحبيهم من الإنس والجن والملائكة والحيوانات والنباتات والمعادن والجمادات وفي قوله تعالى (أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ الله كُفْراً) في تفسير علي بن إبراهيم عن أمير المؤمنين عليه السلام قال (مَا بَالُ أَقْوَام غَيَّرُوا سُنَّةَ رَسُولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم وَ عَدَلُوا عَنْ وَصِيِّه لا يَتَخَوَّفُونَ أَنْ يَنْزِلَ بِهِمُ الْعَذَابُ ثُمَّ تَلا هَذِهِ الآيَةَ ثُمَّ قَالَ نَحْنُ النِّعْمَةُ الَّتِي أَنْعَمَ الله بِهَا عَلَى عِبَادِهِ وَبِنَا يَفُوزُ مَنْ فَازَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) هـ.

وفي القُمّي في قوله تعالى (فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ) قال أبو عبدالله عليه السلام حين سئل عنها (قال الله تعالى وتقدس فبأي النعمتين تكفران بمحمد أم بعلي صلوات الله عليهما) .

وفي الكافي مرفوعاً عنه عليه السلام فيها أ بالنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أم بالوصيّ) وفيه (تَلاَ أَبُو عَبْدِ الله عليه السلام هَذِهِ الآيَةَ فَاذْكُرُوا آلاءَ الله قَالَ أَ تَدْرِي مَا آلاءُ الله قُلْتُ لا قَالَ هِيَ أَعْظَمُ نِعَم الله عَلَى خَلْقِهِ وَهِيَ وَلايَتُنَا) هـ.

أقول: النعم الّتي أظهر الله سبحانه للأمم الماضية وأجرى عليهم آثارهَا من الأمطار والأشجار والثمار والملابس والصحة والأمن والسمع والبصر وسائر القوى الظاهرة والباطنة مما يتعلق بأحوال الدنيا والآخرة وما عرّفهم به من نفسه وما أراد منهم بأمره ونهيه مما فيه صلاحهم في الدارين وتبليغ السعادة والمراتب

العالية في النّشأتين خصوصاً النّشأة الآخرة قد عرّفهم أنبياءهم عليهم السلام عن الله تعالى ذلك وأنّها آثار نعم الله تعالى وآثار رحمته، وإن تلك النعمة العامّة والرحمة الواسعة هي محمد وآله صلى الله عليه وعليهم أجمعين وولايتهم وأن من أقام ولايتهم من طاعة الله سبحانه من تنـزيهه ووصفه بما وصف به نفسه ومن الإيمان به تعالى وكتبه ورسله واليوم الآخر بأن الإيمان به امتثال أوامره ونواهيه، والإيمان بكتبه تحمّل القيام بما فيها، والإيمان برسله معرفة حقّهم والقيام بطاعتهم فيما أمروا به ودعوا إليه، والإيمان باليوم الآخر بالاستعداد له بالأعمال الصالحات على ما أمر الله تعالى به ، وذكّروهم أوائل النعم وأواخِرها ولم يعرّفوا أحداً من رعاياهم أسباب ذلك إلاّ على جهة الإجمال كما قيل أن الألواح التي نزلت فيه التوراة على موسى على محمد وآله و عليه السلام تسعة ألواح أخرج منها سبعة وأخفى لَوْحَيْن لم يُطْلِع عليْهِما إلاّ أخاه هارون عليه السلام لأنّهما فيهما بيان الحقائق وشرح العلل والأسباب التي لا يحتملُها أكثر الخلائق، وإنما عرّفوهم من المراد من النعم ما يحتملون من آثارِها فقالوا لهم (فـاذْكُرُوا آلاءَ الله) ، ولمّا كانت هذه الأمة أصفى الأمم وأعدلها أمزجةً بيّنوا أهل العصمة عليهم السلام أن المراد منها نحنُ وولايتنا.

وقوله عليه السلام (أعظمُ نعم الله) لا يريد منه أنّهم وولايتهم بعض نعم الله فيكون لله نعم ليست إيّاهم ولا منهم ولا عنهم، بل المراد إنّهم وولايتهم أعظم نعم الله عند أكثر من عرفهم فإنّ أكثر من عرفهم إنّما يعرفون أنّ النعم غيرهم وغير ولايتهم وإن كانوا هم وولايتهم باعتبار آخر أعظمها وقد أشاروا للخصيصين من شيعتهم أنّه ليس لله على خلقه نعمٌ غيرهم وغير ما منهم وعنهم، وما كُتِب في اللّوحين لموسى وهارون عليهما السلام إنما هو بيان هذا ومثله، وأمّا ما ذكر في آية (فَبِأَيِّ

آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ)فهو خطاب للأعرابيين الإنسيّ والجنيّ بأن المراد من الآلاء هم وولايتهم ﷺ وهما يعرفان أن المراد من الآلاء معرفة التكليف والتمييز الموجب للقيام بما خُلِقا عليه من التمكين الّذي به هداية النَّجْدين وذلك جهة اليمين منهما فلم يعملا بمقتضى ما خُلِقَا عليه وله لمّا ذكرّا به من جهة الخلقة والفطرة وعملا بمقتضى هواهما وذلك جهة الشمال منهما حتى تغيّر خلق الله الأوّل ثمّ خلقهما الله سبحانه بفعلهما الخِلقة الثانية فأشار عز وجل إلى الحالين فقال في كتابه (لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيم) يعني بالفطرة والتمكين وهداية النجدين (ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ)يعني بفعلهما الذي غيّرا به خلق الله حتّى تبكّا آذان الأنعام فكانا يعرفان بالخلق الأول من الآلاءُ وبالخلق الثاني يكذّبان ، وهذه المعرفة معرفة تفصيليّة وتكذيبهما تكذيبٌ تفصيلي لم يصل إلى هذين الحالين أحد غيرهما من المكذبين من جميع الخلائق من الأولين والآخرين ، فكل جاحدٍ وظالم وفاسق وملحد وكافرٍ ومشركٍ ومجرمٍ وغاوٍ وقاسطٍ ومنكرٍ ومستهزىء وساحِرٍ ومتكبّر ومستنكف وحاسد وضالّ وناكثٍ وعادل ومارق ورجيم وغير ذلك فهو من أشياعهما وأتباعهما من الأوّلين والآخرين منهما أخذ ولهما قلّد وإيّاهما عبد ودعا، ولهذا حملا أثقالَهُما وأثقالاً مع أثقالِهِما، فكان عليهما من العذاب ضعف عذاب جميع أهل النار لأنهما في صندوقين في جوف التنّين الأسود في الفلق وهي الطبقة الثالثة السفلى من جهنم التي هي أسفل النيران وأشدها، وفي المعاني عن الصادق عليه السلام أنه سئل عن الفلق فقال (صدع في النار فيه سبعون ألف دار في كل دار سبعون ألف بيت في كل بيت سبعون ألف أَسْوَدْ في جوف كل أسود سبعون ألف جرة سم لا بد لأهل النار أن يمروا عليها).

أقول: لا بد أن يمروا عليها وهو قوله تعالى (وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وارِدُها كانَ عَلى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيًّا)وهي قد عرضتْ عليها الخلائق في التكليف وتعرض يوم القيامة فمن دخلها بالطاعة في الذر لم يعرض عليها في القيامة بل ينجّيه الله تعالى منها ببركة محمد وآل محمد ﷺ وولايتهم وطاعتهم في الذر الأول ومن لم يدخلها في الذر الأول يعرض عليها في القيامة وتأخذه وهو حصّتها من المقاسمة حين قاسمها أمير المؤمنين عليه السلام .

وأمّا الخصيصون من شيعتهم فقد عرّفوهم ذلك بإيمانهم بذلك وتصديقهم كانوا كاملين في إيمانهم لأن الله عز وجل امتحن قلوبهم للتقوى لصدقهم في حبهم لنبيّه وآله ﷺ وولايتهم لهم فاحتملوا معرفة ذلك وتحملوا مقتضاه من الأعمال وهم في الحقيقة هم الذين بموالاتهم عظمت عليهم النعمة ظاهراً وباطناً وقيمة كل امرأ منهم ما يحسنه.

وقوله عليه السلام (وائتلفت الفرقة) إنّ من المراد به أي بعض ما يراد منه أنّ الفرقة التي كانت في محبيهم لاختلافهم في الأفهام والأنظار وفي المطالب وفي العلوم وفي الأغراض وفي مطالب الدنيا بل وفي مطالب الآخرة، فإن منهم مَن مَيْله إلى الصلاة أكثر منه إلى الزكاة أو إلى الصيام وبالعكس ولذا اختلفت الروايات الواردة في الحثّ على الأعمال بتَفْضيل عملٍ لآخر على العمل الآخر وبالعكس لشخص غيره ائتلفَتْ بينهم بسياسة أوليائهم عليهم السلام، حتّى أنّهم يأتيهم المتّقي من شيعتهم يعتب على المتهتّك منهم فيقول له سايسُه وراعيه وإمامه صلوات الله عليه إن لم يقبل منهم حتّى يكونوا مثلكم لا يقبل منكم حتى تكونوا مثلنا.

وفي كنز الكراجكي لمحمد بن علي بن عثمان الكراجكي بسنده إلى زيد بن

يونس الشحّام قال (قلت لأبي الحسن موسى عليه السلام الرجل من مواليكم عاص يشرب الخمر ويرتكب الموبق من الذنب نتبرأ منه فقال تبرءوا من فعله ولا تتبرءوا من خيره وأبغضوا عمله ، فقلت يسع لنا أن نقول فاسق فاجر فقال لا الفاسق الفاجر الكافر الجاحد لنا ولأوليائنا أبى الله أن يكون ولينا فاسقا فاجرا وإن عمل ما عمل ولكنكم قولوا فاسق العمل فاجر العمل مؤمن النفس خبيث الفعل طيب الروح والبدن لا والله لا يخرج ولينا من الدنيا إلا والله ورسوله ونحن عنه راضون يحشره الله على ما فيه من الذنوب مبيضا وجهه مستورة عورته آمنة روعته لا خوف عليه ولا حزن وذلك أنه لا يخرج من الدنيا حتى يصفى من الذنوب إما بمصيبة في مال أو نفس أو ولد أو مرض وأدنى ما يصنع بولينا أن يريه الله رؤيا مهولة فيصبح حزينا لما رآه فيكون ذلك كفارة له أو خوفا يرد عليه من أهل دولة الباطل أو يشدد عليه عند الموت فيلقى الله عز وجل طاهراً من الذنوب آمنةً روعته بمحمد وأمير المؤمنين صلوات الله وسلامه عليهما وآلهما ثم يكون أمامَهُ أحد الأمرين رحمة الله الواسعة التي هي أوسع من أهل الأرض جميعاً أو شفاعة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأمير المؤمنين عليه السلام فعندها لقيهُ رحمة الله الواسعة التي كان أحقّ بها وأهلها وله إحسانها وفضلُها) هـ.

وأمثال هذا الخبر في قبول المحبيّن لهم على ما هم عليه من المعاصي كثيرة لا تكاد تحصر ممّا يدلّ على ائتلافهم على جامع المحبّة مع اختلافهم في الطاعات والمعاصي وتناكرهم لما بينهم من الذنوب الموجبة للفرقة التي لا ائتلاف لها إلا أن الأئمة عليهم السلام أرشدوا مواليهم على جامع يجمعهم فقالوا إنّ هذا الاختلاف الذي ترونه بينكم النّاشئ عن تقصيرات بعضِكم فإنّما هو من جهة الأفعال العارضة ليس من جهة

الذات وإلاّ فالذات واحدة فلا تناكر بينكم إلاّ من جهة الأعمال وهي عارضة، وإن الذي اقترف ذلك من محبيّنا يبتليه الله بمكارِهَ تكون كفارة لتلك الذنوب حتّى يلقى الله تعالى والله ورسوله ﷺ ونحن عنه راضُون فلا تنكِروا ذواتهم ونفوسهم وإن أنكرتم أفعالهم القبيحة فإنهم من جهة نفوسهم طاهرون زاكون، فإذا سمِع المحب من إمامه ومقتداه عليه السلام مثل هذا الكلام صفى قلبه على محبّهم وإن كان عاصياً لأنّه ينظر إليه من حيث وصف الإمام عليه السلام لا من حيث أفعاله القبيحة فتذهب عنه النفرة الّتي كان يجِدُها فتأتَلِفُ الفرِقة التي كانت مباينةً بينهم وذلك العاصي إنما استحق هذا التعريف من صاحب الأعراف صلوات الله عليه لأنه محبٌّ لهم وموالٍ لهم ولأوليائهم ومبغض لأعدائهم ولمن اتّبعهم وإنّما هان كلّ ذنب على محبّهم لأن حبّهم هو الدين كما تقدّم ذكره، فكان هذا المحبّ قد أتى بعملٍ لا يضرّ معه ذنبٌ وهو قوله ﷺ (حب علي حسنة لا تضر معها سيئة وبغض علي سيئة لا تنفع معها حسنة).

ومثله قوله تعالى في الحديث القدسي المذكور في حديث عبدالله بن مسعود من مناقب أبي الحسن محمد بن أحمد بن علي بن الحسين بن شاذان وقيل أن الكتاب المذكور لجده علي وفيه عن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ (لما خلق آدم ونفخ فيه من روحه عطس آدم عليه السلام فقال الحمد لله فأوحى الله تعالى إليه حمدتني عبدي وعزتي وجلالي لو لا عبدان أريد أن أخلقهما في دار الدنيا ما خلقتك يا آدم قال إلهي فيكونان مني قال نعم يا آدم ارفع رأسك وانظر فرفع رأسه فإذا مكتوب على العرش لا إله إلا الله محمد نبي الرحمة وعلي عليه السلام مقيم الحجة من عرف حق علي زكي وطاب ومن أنكر حقه لعن وخاب أقسمت بعزتي

وجلالي أن أدخل الجنة من أطاعه وإن عصاني وأقسمت بعزتي أن أدخل النار من عصاه وإن أطاعني) هـ.

ومثله قوله تعالى في القرآن (مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ★ وَمَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)، وفي تفسير القمي (قال الحسنة والله ولاية أمير المؤمنين عليه السلام والسيئة والله اتباع أعدائه).

وفي الكافي عن الصادق عليه السلام عن أبيه عن أمير المؤمنين عليه السلام في هذه الآية قال (الْحَسَنَةُ مَعْرِفَةُ الْوَلايَةِ وَحُبُّنَا أَهْلَ الْبَيْتِ وَالسَّيِّئَةُ إِنْكَارُ الْوَلايَةِ وَبُغْضُنَا أَهْلَ الْبَيْتِ ثُمَّ قَرَأَ عَلَيْهِ هَذِهِ الآيَةَ).

وفي روضة الواعظين عن الباقر عليه السلام في هذه الآية قال (الحسنة ولاية علي عليه السلام وحبه والسيئة عداوته وبغضه ولا يرفع معهما عمل) هـ.

وفي أصل سلام بن عمرة عن أبي الجارود عن أبي عبد الله الحذّاء قال (قال لي أمير المؤمنين عليه السلام (يا أبا عبدالله أ لا أخبرك بالحسنة التي من جاء بها أمن من فزع يوم القيامة والسيئة التي من جاء بها كب على وجهه في نار جهنم قلت بلى يا أمير المؤمنين قال الحسنة حبنا أهل البيت والسيئة بغضنا أهل البيت) هـ.

وهذه الأخبار وما شابهها تشعر بأنّ حبّهم عليهم السلام حسنة لا تضرّ معها سيئة وقد صرّح حديث عبدالله بن مسعود بأن الله تعالى أقسم بعزّته أنه يدخل الجنّة مَنْ أطاع علياً عليه السلام وإنْ عصاه تعالى وأنّه يدخل النار من عصى علياً وإن أطاع، وفي روايةٍ (إني أدخل الجنة مَنْ أحبَّ علياً وإن عصاني وإني أدخل النار من أبغض علياً وإن أطاعني) وقد تقدّم هذا وفيه بيان ما يرد عليه من الإشكال والجواب

عنه والإشارة إليه أنّ حبّ عليّ عليه السلام أصل الجنة وعلّتُها وبغضه أصل النار وعلّتُها ولهذا كان عليٌّ عليه السلام قسيم الجنّة لأنها خلقت من حبّه وقسيم النار لأنها خلقت من بغضه، فإذا ثبت هذان الأصلان كان كل ما سواهما من الطاعة والمعصية فروع عليهما وقد علم بالدَّليل الوجداني والعقلي والنّقلي أنّ الأصل إذا تحقّق وثبت لا ينفيه فساد الفرع وإن كان يلحقه بذهاب الفرع ضعف واختلال وكذا على رواية عبدالله بن مسعود فإنَّ طاعة عليّ عليه السلام إنما تتحقّق بطاعة الله سبحانه في الظاهر والباطن لأنّ الله تعالى إنّما دعا إلى طاعة محمد وعليّ وآلهما صلَّى الله عليهما وآلهما لأنّه تعالى إنّما أراد أن يُطاع لِيُطاعُوا فهم العلّة الغائيّة في كُلِّ ما يتعلّق بالإمكان وإنما أمر بطاعته لتتحقق الطاعة لهم، لأنّ الطاعة إنّما تكون طاعةً في نفسها إذا كانت له تعالى فلو وقعت لغيره لا له كانت معصية وشِرْكاً فأمر بطاعته لتتحقق الطّاعة لهم ، ثم إنّ طاعته التي أرادها من عباده شكراً لنعمة الإيجادِ وإفاضة النّعم التي لا تحصى، إنّما أرادها لهم بمعنى أنه أراد تعالى أن يُطاعَ بواسطة طاعتهم فأمر أنْ يُطَاعَ بالطَّاعةِ لهم، والعلّةُ في ذلك أنّه تعالى غني مطلق عن كلّ شيء فأحبَّ أن يتفضّل ويتكرّم والمحبة والفضل والكرم أمورٌ محدثة منسوبة إلى فعله وما ينسَبُ منها إلى ذاتِه فهو ذاته بلا مغايرة ولا سبيل إلى ذلك بشيء من أحوال الحوادث من معرفةٍ وإحاطةٍ وطلب ونسبةٍ وعلّيّةٍ ومعلوليّة وغير ذلك فلا كلام فيما ينسَبُ إلى الذات تعالى بحالٍ من الأحوال.

وأمّا ما وجدتَ وسمِعْتَ وفهمتَ وعَقَلْتَ وتوهّمت وتصوّرْتَ وعنَيْتَ ووصفتَ ومثلتَ فأمور حادثة بفعله وكلّ من ذلك لا بدّ في إيجاده من عللٍ أربع، أحدها العِلّة الغائيّة وهم صلّى الله عليهم تلك العلة الغائيّة ومن تلك

الأُمُورِ الطاعَةُ الّتي أرادها مِن خلقِه فإنّما أرادها لهم هذا فيما لهم بالأصالة وبواسطة رَعَايَاهم.

وأمّا ما كان للرعايا فلم يرضه ولم يقبله ولم يُجزْهُ إلا بواسطتهم لأنّه تعالى لم يَخْلُقْ كُل ما سِوَاهُمْ عليهم السلام إلاّ بواسِطَتِهِمْ ولأجلهم ولِيَنْتَفِعُوا بِهِمْ كما قال سُبحَانَهُ (وَمِنْ أَصْوافِها وَأَوْبارِها وَأَشْعارِها أَثاثاً وَمَتاعاً إِلى حِينٍ).

فإذا عرفتَ ما أشرنا إليه عرفتَ أنّ طاعتهم هي طاعة اللهِ تعالى الأصليّة لأنَ الله عزّ وجل لم يرد من خلقِه طاعةً إلاّ مُتفرِّعةً على طاعته الأصليّة فإنّه تعالى أمر الخلق بطاعتهم أوّلاً ثم أمر الخلق بأن يعرفوه بهم ويوحّدوه بهم ويؤمنوا به وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر بهم وبطاعَتِهم ويَمْتَثِلُوا أوامره ونواهيه بهم ويعبدوه بهم ويتقرّبوا إليه بهم ولم يَجْعلْ طريقاً إلى رضاهُ ومحبّته غيرهم، لأن الخلق إذا أطاعوهم فقد أطاعُوا الله لأن الله تعالى أمرهم بطاعتهم وإن عصوا الله لأنهم إذا أطاعوهم وعصوا الله فقد أطاعوا الله تعالى في أعظم مطالبه منهم وأكبرِهَا وأشرفها وأحبها وإذا عصَوهُ فيما سِوى ذلِك فإنّما عصَوْهُ فيما هُو فرع ومُكَمِّلٌ فيما أطاعُوهُ فيه وكذلك حكم معصيته مع طاعَةِ الله حَرْفاً بحَرْفٍ فافهم، فلما جمعتهم محبتهم عليهم السلام التي هي الأصل لم تؤثّر في هذا الائتِلاف فرّقَتْهُمْ بسبب تناكر الذنوب لضعف الموجب حينئذ للفرقة وهون دواعيها وكلّ ذلك بموالاتهم ومحبتهم عليهم السلام.

قال عليه السلام وبموالاتكم تقبل الطاعة المفترضة ولكم المودّة الواجبة

قال السيد نعمت الله الجزائري رحمه الله في شرح التهذيب (ولكم المودّة الواجبة)

إشارة إلى قوله عز وجل (قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى)وذلك أنهم قالوا يا رسول الله ﷺ خذ منّا على تبليغ الأحكام ما تريد من الأجرة لأنّك سلطان تحتاج إلى الأموال للجنود والعساكر وسَدِّ خلّةِ المحتاجين فنزلت هذه الآية، وقد وَفَى بها مَن أضرم النار في بيت فاطمة عليها السلام وأسقطها المحسن وأخرج علياً عليه السلام ملبّباً لَهُ إلى المسجد حتى يبايع الأول انتهى.

وقال الشارح المجلسي تغمده الله برحمته ورضوانه (وبموالاتكم تقبل الطاعة المفترضة) كما تقدّم أنّها من أصول الدين كما في الأخبار المتواترة ولا تقبل الفروع بدون الأصول (ولكم المودة الواجبة) فإنها أجر رسالة نبينا ﷺ كما قال تعالى (قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ في الْقُرْبى) وقوله تعالى (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمنُ وُدًّا)، وروي في الأخبار الكثيرة أنّها نزلت فيهم عليهم السلام والأخبار بوجوب المودة متواترة وأقلّ مراتبها أن يكونوا أحب إلينا من أنْفُسِنا وأقصاها العِشْق انتهى.

أقول: في كلامه بعض المناقشة ولا بأس بالإشارة إلى ذلك على جهة الاختصار والاقتصار لئلاّ يغفل العارف الناظر في كلامه فيعتقده على جهة الإجمال أو التفصيل اعتماداً على الشارح قدّس الله روحه لأنه من العلماء الحكماء العارفين ولا يُكْثر التأمل في كلامه منها قوله رحمه الله أنّها من أصول الدين أي الموالاة فإن أراد بالدين الإسلام ولم يكن ذلك منه على جهة الاقتباس فالمشهور أن الإمامة والولاية ليست من أصول الإسلام كما دلّت عليه أكثر الرّوايات ، منها ما رواه في الكافي كما رواه هشام صاحب الثريد قال (كنتُ أنا ومحمد بن مسلم وأبو الخطّاب مجتمعين فقال لنا أبو الخطاب ما تَقُولُونَ فِيمَنْ لَمْ يَعْرِفْ هَذَا الأَمْرَ

فَقُلْتُ مَنْ لَمْ يَعْرِفْ هَذَا الأَمْرَ فَهُوَ كَافِرٌ فَقَالَ أَبُو الْخَطَّابِ لَيْسَ بِكَافِرٍ حَتَّى تَقُومَ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ فَإِذَا قَامَتْ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ فَلَمْ يَعْرِفْ فَهُوَ كَافِرٌ فَقَالَ لَهُ مُحَمَّدُ بْنُ مُسْلِمٍ سُبْحَانَ اللهِ مَا لَهُ إِذَا لَمْ يَعْرِفْ وَلَمْ يَجْحَدْ يَكْفُرُ لَيْسَ بِكَافِرٍ إِذَا لَمْ يَجْحَدْ قَالَ فَلَمَّا حَجَجْتُ دَخَلْتُ عَلَى أَبِي عَبْدِاللهِ عليه السلام فَأَخْبَرْتُهُ بِذَلِكَ فَقَالَ إِنَّكَ قَدْ حَضَرْتَ وَغَابَا وَلَكِنْ مَوْعِدُكُمُ اللَّيْلَةَ الْجَمْرَةُ الْوُسْطَى بِمِنًى فَلَمَّا كَانَتِ اللَّيْلَةُ اجْتَمَعْنَا عِنْدَهُ وَأَبُو الْخَطَّابِ وَمُحَمَّدُ بْنُ مُسْلِمٍ فَتَنَاوَلَ وِسَادَةً فَوَضَعَهَا فِي صَدْرِهِ ثُمَّ قَالَ لَنَا مَا تَقُولُونَ فِي خَدَمِكُمْ وَنِسَائِكُمْ وَأَهْلِيكُمْ أَ لَيْسَ يَشْهَدُونَ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللهُ قُلْتُ بَلَى قَالَ أَ لَيْسَ يَشْهَدُونَ أَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم قُلْتُ بَلَى قَالَ أَ لَيْسَ يُصَلُّونَ وَيَصُومُونَ وَيَحُجُّونَ قُلْتُ بَلَى قَالَ فَيَعْرِفُونَ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ قُلْتُ لا قَالَ فَمَا هُمْ عِنْدَكُمْ قُلْتُ مَنْ لَمْ يَعْرِفْ هَذَا الأَمْرَ فَهُوَ كَافِرٌ قَالَ سُبْحَانَ اللهِ أَ مَا رَأَيْتَ أَهْلَ الطَّرِيقِ وَأَهْلَ الْمِيَاهِ قُلْتُ بَلَى قَالَ أَ لَيْسَ يُصَلُّونَ وَيَصُومُونَ وَيَحُجُّونَ أَ لَيْسَ يَشْهَدُونَ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ قُلْتُ بَلَى قَالَ فَيَعْرِفُونَ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ قُلْتُ لا قَالَ فَمَا هُمْ عِنْدَكُمْ قُلْتُ مَنْ لَمْ يَعْرِفْ هَذَا الأَمْرَ فَهُوَ كَافِرٌ قَالَ سُبْحَانَ اللهِ أَ مَا رَأَيْتَ الْكَعْبَةَ وَالطَّوَافَ وَأَهْلَ الْيَمَنِ وَتَعَلُّقَهُمْ بِأَسْتَارِ الْكَعْبَةِ قُلْتُ بَلَى قَالَ أَ لَيْسَ يَشْهَدُونَ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم وَيُصَلُّونَ وَيَصُومُونَ وَيَحُجُّونَ قُلْتُ بَلَى قَالَ فَيَعْرِفُونَ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ قُلْتُ لا قَالَ فَمَا تَقُولُونَ فِيهِمْ قُلْتُ مَنْ لَمْ يَعْرِفْ فَهُوَ كَافِرٌ قَالَ سُبْحَانَ اللهِ هَذَا قَوْلُ الْخَوَارِجِ ثُمَّ قَالَ إِنْ شِئْتُمْ أَخْبَرْتُكُمْ فَقُلْتُ أَنَا لا فَقَالَ أَمَا إِنَّهُ شَرٌّ عَلَيْكُمْ أَنْ تَقُولُوا بِشَيْءٍ مَا لَمْ تَسْمَعُوهُ مِنَّا قَالَ فَظَنَنْتُ أَنَّهُ يُدِيرُنَا عَلَى قَوْلِ مُحَمَّدِ بْنِ مُسْلِمٍ)هـ.

وأصرح منه ما رواه في روضة الكافي بسنده إلى زرارة عن أبي جعفر عليه السلام (إِنَّ

النَّاسَ لَمَّا صَنَعُوا مَا صَنَعُوا إِذْ بَايَعُوا أَبَا بَكْرٍ لَمْ يَمْنَعْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام مِنْ أَنْ يَدْعُوَ إِلَى نَفْسِهِ إِلا نَظَراً لِلنَّاسِ وَتَخَوُّفاً عَلَيْهِمْ أَنْ يَرْتَدُّوا عَنِ الإِسْلامِ فَيَعْبُدُوا الأَوْثَانَ وَلا يَشْهَدُوا أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم وَكَانَ الأَحَبَّ إِلَيْهِ أَنْ يُقِرَّهُمْ عَلَى مَا صَنَعُوا مِنْ أَنْ يَرْتَدُّوا عَنْ جَمِيعِ الإِسْلامِ وَإِنَّمَا هَلَكَ الَّذِينَ رَكِبُوا مَا رَكِبُوا فَأَمَّا مَنْ لَمْ يَصْنَعْ ذَلِكَ وَدَخَلَ فِيمَا دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ عَلَى غَيْرِ عِلْمٍ وَلا عَدَاوَةٍ لأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام فَإِنَّ ذَلِكَ لا يُكْفِرُهُ وَلا يُخْرِجُهُ مِنَ الإِسْلامِ وَلِذَلِكَ كَتَمَ عَلِيٌّ عليه السلام أَمْرَهُ وَبَايَعَ مُكْرَهاً حَيْثُ لَمْ يَجِدْ أَعْوَاناً) هـ.

وقولي أصرح منه لاشتماله على التعليل وكذلك ما رواه علي بن إبراهيم في تفسيره في قوله تعالى (ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ)بسنده الصحيح عن أبي جعفر عليه السلام قال (قلتُ له أَصْلَحَكَ اللهُ فَمَا حَالُ الْمُوَحِّدِينَ الْمُقِرِّينَ بِنُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم مِنَ الْمُسْلِمِينَ الْمُذْنِبِينَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَلَيْسَ لَهُمْ إِمَامٌ وَلا يَعْرِفُونَ وَلايَتَكُمْ فَقَالَ أَمَّا هَؤُلاءِ فَإِنَّهُمْ فِي حُفْرَتِهِمْ لا يَخْرُجُونَ مِنْهَا فَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ وَلَمْ يُظْهِرْ مِنْهُ عَدَاوَةً فَإِنَّهُ يُخَدُّ لَهُ خَدٌّ إِلَى الْجَنَّةِ الَّتِي خَلَقَهَا اللهُ فِي الْمَغْرِبِ فَيَدْخُلُ عَلَيْهِ مِنْهَا الرَّوْحُ فِي حُفْرَتِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَيَلْقَى اللهَ فَيُحَاسِبُهُ بِحَسَنَاتِهِ وَسَيِّئَاتِهِ فَإِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ فَهَؤُلاءِ مَوْقُوفُونَ لأَمْرِ اللهِ قَالَ وَكَذَلِكَ يَفْعَلُ اللهُ بِالْمُسْتَضْعَفِينَ وَالْبُلْهِ وَالأَطْفَالِ وَأَوْلادِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ فَأَمَّا النُّصَّابُ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ فَإِنَّهُمْ يُخَدُّ لَهُمْ خَدٌّ إِلَى النَّارِ الَّتِي خَلَقَهَا اللهُ فِي الْمَشْرِقِ فَيَدْخُلُ عَلَيْهِمْ مِنْهَا اللهبُ وَالشَّرَرُ وَالدُّخَانُ وَفَوْرَةُ الْحَمِيمِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ مَصِيرُهُمْ إِلَى الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَيْ أَيْنَ إِمَامُكُمُ الَّذِي اتَّخَذْتُمُوهُ دُونَ الإِمَامِ الَّذِي جَعَلَهُ اللهُ لِلنَّاسِ إِمَاماً) الحديث.

وأمثال هذه كثيرة ممّا يدلّ على أنّهم مسلمون ما لم ينكروا الولاية عن معرفة كما قال تعالى (وَمَنْ يُشاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدى)وقال (وَما كانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَداهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ ما يَتَّقُونَ).

وقيل أنها من أصول الإسلام واستدلّ القائل بأحاديث كثيرة كلّها قابلة للتأويل مثل قوله ﷺ (مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَعْرِفْ إِمَامَ زَمَانِهِ مَاتَ مِيتَةً جاهِلِيَّةً)، وهو محمول على مَن أنكر إمام زمانه بعد البيان ولا شك في كفره لأن نفي المعرفة كثيراً ما يستعمل للإنكار كما في قوله تعالى (يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَها)فإن المعرفة ضدُّها العام الإنكار وأكثر استعمالها في ذلك وقد تستعمل في كلامهم بمعنى العلم فيكون ضدها الجهل وكذلك قوله تعالى (أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ)فبيّن أن نفي المعرفة هو الإنكار ولسنا بصدد تحقيق هذه المسألة، وإنّما ذكرنا ذلك للتنبيه على عبارة الشارح لينظر فيها من له النظر.

وإن كان المراد من قوله رحمه الله على جهة الاقتباس من قوله تعالى (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلامُ)فالمراد بالإسلام هنا هو الإيمان الكامل ولا ريبَ في اعتبار الموالاة فيه وإن أراد بالدين الإسلام مطلقاً بُني الكلام على التعيين.

ومنها قوله رحمه الله (وأقلّ مراتبها أن يكونُوا أحبّ إلينا من أنفسِنا) فإن فيه أن هذه المرتبة ليست أقلّ المحبّة بل هذه من مراتبها العالية فإنّ المحبّة تصدق على العُصَاةِ من أهل الكبائر الذين يتركون أمر إمامهم عليه السلام لشهوة أنفسهم ولا يتحقّق هذا مع جعلهم أحبّ إليهم من أنفسهم وإن قال أحدهم بلسانه لأنّ صدق كونهم أحبّ إليه من نفسه لا يتحقّق مع معصيتهم في شيء مما أمروا به أو نهوا عنه بل تصدق الأقليّة على اعتقاد كونهم أئمة من الله تعالى وحججه على

عباده والميل إليهم بقلبه والبراءة من أعدائهم، بمعنى ما ذكرنا من كونهم أئمة ضلالة لا يجوز الميل إليهم في حال، نعم إذا أراد قول المحب بلسانه وأنهم خير منه في نفسه عند الله وفي الواقع من نفسه فلا بأس.

ومنها قوله رحمه الله (وأقصاها العشق) فإن هذا الأقصى أقصى صوفي إذ لا معنى للعشق إلاّ الجنون الشيطاني لا الجنون الإلهي كما زعموا فإن الله تعالى لا ينسب إليه الجنون وإنما ينسب إليه العقل، وهو هنا الحبّ وكمال الطاعة زُيّنَ لهم سوء أعمالهم.

فإن قالوا: أنه شدّة الميل إلى المحبوب في المحبة.

قلنا لهم: هل يعرف قوة ميل في الحبّ من مخلوق لشيء أقوى من ميل محمد وآله صلى الله عليه وآله وسلم في المحبّة لله عز وجل مع أنه لم يرد عنهم استعمال عشقهم لله تعالى في شيء من أخبارهم لا حقيقةً ولا مجازاً إلاّ من طرق المخالفين الذين أسّسوا ذلك مع أنّهم لا يستعملونه هم ولا غيرهم إلاّ بلحاظ النكاح، ولهذا ما يقال أعشق المال والدنيا ولا أعشق الجوهرة، وإنّما يقال أحبّ، والحاصل أن هذه عبارة صوفيّة يتعالى قدس الله سبحانه عن إطلاقها له ويكرم مقام محمد وأهل بيته عليه وعليهم السلام عن استعمالها لهم أو منهم، والصّوفية هم الذين قالوا فيهم الأئمة عليهم السلام بأنهم أعداؤهم كما رواه الملا أحمد الأردبيلي في حديقة الشيعة بسنده عن الرضا عليه السلام (مَنْ ذُكِرَ عِنْدَهُ الصُّوفِيَّةُ وَ لَمْ يُنْكِرْهُمْ بِلِسَانِهِ وَقَلْبِهِ فَلَيْسَ مِنَّا وَمَنْ أَنْكَرَهُمْ فَكَأَنَّمَا جَاهَدَ الْكُفَّارَ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم).

وفيه بسنده قال قال رجل للصادق عليه السلام (قَدْ ظَهَرَ فِي هَذَا الزَّمَانِ قَوْمٌ يُقَالُ لَهُمُ الصُّوفِيَّةُ فَمَا تَقُولُ فِيهِمْ قَالَ إِنَّهُمْ أَعْدَاؤُنَا فَمَنْ مَالَ فِيهِمْ فَهُوَ مِنْهُمْ وَيُحْشَرُ مَعَهُمْ

وَسَيَكُونُ أَقْوَامٌ يَدَّعُونَ حُبَّنَا وَيَمِيلُونَ إِلَيْهِمْ وَ يَتَشَبَّهُونَ بِهِمْ وَيُلَقِّبُونَ أَنْفُسَهُمْ بلقبهم وَيُأَوِّلُونَ أَقْوَالَهُمْ أَلا فَمَنْ مَالَ إِلَيْهِمْ فَلَيْسَ مِنَّا وَإِنَّا مِنْهُمْ بِرَاءٌ وَمَنْ أَنْكَرَهُمْ وَرَدَّ عَلَيْهِمْ كَانَ كَمَنْ جَاهَدَ الْكُفَّارَ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللهِ ﷺ) .

والروايات في ذمّهم والبراءة منهم ومن أقوالهم واعتقاداتهم وأعمالهم كثيرة في الكتاب المذكور وغيره.

ولا شكّ أنّ استعمال العشق فيه تعالى إنما هو منهم حتى أنه لمّا سئل الصادق عليه السلام عن ذلك قال (قلوب خلت عن ذكر الله فأذاقها الله حب غيره).

فقال عليه السلام (خلت من ذكر الله) فدلّ على أن مدّعي العشق لله تعالى إنّما يذكر غيره وهو والله كما قال عليه السلام، وقال عليه السلام (حب غيره) ولم يقل عشق غيره لأنّه عليه السلام ما أحب إجراءه على لسانه إما مطلقاً لأنه المقتدى في أعماله وأقواله أو لأنّه في صدد ما نسبوه إلى الله تعالى فكره أن يقول عشق غيره فيتوصّلون بهذا القول إلى أن يقولوا وإن كان العاشق إنّما عشق الله -تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً- ولئلاّ يتوهّم من يميل إليهم أن الإمام عليه السلام لمّا لم يتحقّق عنده صدق العاشق لله تعالى في عشقه لعدم معرفته به تعالى قال إن قلبه خلا من ذكر الله أي ما صدق في عشقه لعدم معرفته، ولذا قال عليه السلام (أذاقها الله حب غيره) فلم يذكر عليه السلام لفظ العشق في الموضعين بل قال (أذاقها الله حبّ غيره)، يعني أنه لو صدق المحب لله تعالى في حبّه لمعرفته به كان حينئذٍ ذاكراً لله تعالى فأخلى قلبه عن حبّ غيره فافهم.

فالصواب أن يقال أدنى المودّة والمحبّة أن يميل قلبه إليهم وإلى مواليهم وينصرف عن أعدائهم وأولياء أعدائهم وأعلاها أن يشغل قلبه بذكرهم وبالصلاة عليهم والتسليم لهم في كلّ شيء والتفويض إليهم في كل ما يرد عليه

ظاهراً وباطناً، والردّ إليهم والأخذ عنهم والاتّباع لهم والاقتداء بهم في كلّ شيء من الاعتقاد والمعرفة والأعمال والأقوال والأحوال كما قال الصادق صلوات الله عليه وعلى آبائه وأبنائه الطاهرين ولعنة الله على أعدائهم من الصوفيّة والمنافقين والمشركين ومن الخوارج والغلاة والكفّار من الخلق أجمعين ما معناه (فإذا انجلى ضياء المعرفة في الفؤاد أحبّ وإذا أحبّ لم يؤثر ما سوى الله عليه) ويشفع ذلك بالبراءة من أعدائهم في كلّ شيء كما أنّه يواليهم ويقتدي بهم في كل شيء فهذا أعلى المودة حتّى أنه لو نظر نظرةً حراماً فقد نقّص من مودّتهم عليهم السلام ونقّص من البراءة من أعدائهم وكيف كملت مودّته لهم وقد مالَ عنهم بأن نظر حراماً بخلاف ما أحبُّوا ومال إلى أعدائهم بأن نظر إلى حرام كما أحبوا بل أقل من ذلك كما روي عن عيسى ابن مريم على محمد وآله وعليه السلام ما معناه أنّه حذّر الحواريّين عن الزنا فقالوا يا روح الله إنّا لا نهمّ به فقال عليه السلام (ما أريد أنكم لا تهمّون به ولكن أُريدُ أن لا تجروه على خواطركم فإنّ البيوت الّتي يوقد تحتها النّار تسودّ سقوفها وإن لم تصل إليها النّار) هـ.

ولا ريب أن ذكر المعصية نقص في حقّهم وفي حقّ مودتهم إذا ذكرها على سبيل فرض الفعل لها ولو وسوسةً، ولا ينافي هذا ما ورد من أنه رفع عن هذه الأمّة فإن المراد رفع المؤاخذة عليه لا رفع أصل تأثيره بالكلية لأنه إنّما صدر عن نقص وعن غفلةٍ عن ذكر الله ولا ما ورد عنه صلى الله عليه وآله وسلم في جوابه لمن وسوسَ وقال نافقْتُ يا رسول الله قال له ذلك محض الإيمان عن أبي عبد الله عليه السلام قال (جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال يا رسول الله نافقت فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لو نافقت ما قلت أتاك الشيطان فقال من خلقك فقلت الله فقال و من خلق الله الآن حين

أخلصت الإيمان) لأن المراد بمحض الإيمان هو خوفه واضطرابه مما وقع منه فإنّه لو لم يكن ماحضاً للإيمان لمال إلى ما ناجاه به الشيطان لا أنّه كما لو لم يكن منه وإنّما لم تضرّه الوسوسة وذكر المعصية لأنه تأذى بذلك فكان ذلك التأذّي كفّارة له ولولا ذلك لحدث منه الريب باعتياد النفس عليه ويحدث من الريب الشّك ومن الشّك الكفر كما قال ﷺ (لا تَرْتَابُوا فَتَشُكُّوا وَلا تَشُكُّوا فَتَكْفُرُوا) هـ.

ومن الدليل النقلي على ما قلنا من أنّ أعلى المودة القيام بكمال الخدمة والطاعة في كل شيء ، ما في قرب الإسناد عن الصادق عليه السلام عن آبائه عليهم السلام في قوله تعالى (قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى) (لمّا نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ قام رسول الله ﷺ فقال (أيها الناس إن الله قد فرض عليكم فرضا فهل أنتم مؤدوه فلم يجبه أحد منهم فانصرف فلما كان من الغد قام فقال مثل ذلك ثم قام فيهم فقال مثل ذلك في اليوم الثالث فلم يتكلم أحد فقال ﷺ (أيها الناس إنه ليس من ذهب ولا فضة ولا مطعم ولا مشرب قالوا فألقه إذاً قال إن الله تعالى أنزل إلي قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى فقالوا أما هذه فنعم قال الصادق عليه السلام فو الله ما وفى بها إلا سبعة نفر سلمان وأبو ذر وعمار والمقداد بن الأسود الكندي وجابر بن عبد الله الأنصاري ومولى لرسول الله يقال له البت وزيد بن أرقم).

وفي المجمع عن ابن عبّاس قال لّما نزلت هذه الآية (قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ) الآية، قالوا يا رسول الله ﷺ من هؤلاء الّذين أمرنا الله بمودَّتهم قال علي وفاطمة ووُلدهما).

وعن عليّ عليه السلام (فينا في آل حم آية لا يحفظ مودّتنا إلاّ كلّ مؤمن ثمّ قرأ هذه الآية).

وعن النبي ﷺ (إن الله تعالى خلق الأنبياء من أشجار شتى وخلقت أنا وعلي من شجرة واحدة فأنا أصلها وعلي فرعها والفاطمة لقاحها والحسن والحسين ثمارها وأشياعنا أوراقها فمن تعلق بغصن من أغصانها نجا ومن زاغ هوى ولو أن عبدا عَبَدَ الله بين الصفا والمروة ألف عام ثم ألف عام ثم ألف عام حتى يصير كالشن البالي ثم لم يدرك محبتنا أكبه الله على منخريه في النار ثم تلا قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى) .

وفي الخصال عن علي عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ (مَنْ لَمْ يُحِبَّ عِتْرَتِي فَهُوَ لإِحْدَى ثَلاثٍ إِمَّا مُنَافِقٌ وَإِمَّا لِزِنْيَةٍ وَإِمَّا امْرُؤٌ حَمَلَتْ بِهِ أُمُّهُ فِي غَيْرِ طُهْرٍ)هـ.

وأمّا أن بموالاتهم تُقْبَلُ الطاعة المفترضة فهو مما لا ريب فيه وقد قطع به العقل الصحيح والنقل الصريح.

أمّا العقل فقد تقدم في كثير من أبحاث هذا الشرح أنّهم علل الأشياء وأسْبَاب وجودِها لا فرق في شيء منها بين الذوات والصفات ولا بين الأقوال والأعمال والأحوال وأنّ كُلَّ شيءً منها أَلْسِنَةُ الثناء عليهم بذكر صفات ولايتهم وآثارها، وإنّ تلك هي الأسماء الحسنى الّتي أمر الله أنْ يُدْعى بها في التّأويل وفي الباطن هم عليهم السلام تلك الأسماء الحُسْنىَ، وفي الظاهر الأسماء الحسنى هي التّسعة والتّسْعون اسماً المعروفة ومعانيها الدالّة عليها هي معانيه تعالى أي معاني أفعاله والكلّ حَمَلَةُ الثناء والتّعزيز والتّوقير فيما أشرنا إليه يظهر لمن فهم المقصود أن الأعمال صفات الولاية وآثارُها، فإذا جرت على مطابقتها وجهة امتثال مقتضاها قبلَتْ لمطابقتها للولاية وموافقتها لها لأن الصفة إذا طابقت الموصوف قُبلَتْ يعني قبَلت للوصفيّة بخلاف ما لو خالفَتْ فإنّها لا تقبل، لأنّ الصفة لا تقبل

لنفسها وإنّما تقبل للوصفيّة وإذا خالفت الموصوف لا تصلح للوصفيّة فلا تقبَل الأعمال إلاّ بولايتهم لأن الأعمال إن كانت صالحة واقعة بشروطها أي شروط الصحة والقبول وهو كونها موافقةً لأمرهم محدودةً بتَحْديدهِمْ مأخوذةً عنهم مُتَلَقّاة عنهم مشفوعة بموالاتهم وموالاة أوليائهم وبمعاداة أعدائهم وأتباعهم والبراءة منهم، فإن كانت صحيحة تامة الشروط كما قرروا عليهم السلام قُبلَتْ لأنّها حينئذٍ صفة ولايتهم وإن لم توافق مقتضى ولايتهم كما ذكرنا هنا وفيما تقدّم رُدَّتْ لعدم صلاحيتها للوصفيّة لولايتهم وعدم صلاحيّتها لنفسها للقبول لأنّها صفة فإذا لم تصلح صفةً للحق كانت صفةً لِلْبَاطِل إذ لا واسطة بينهما، والباطل ولاية أعدائهم فتردّ هذه الأعمال الباطلة بردِّ مَوصُوفها.

وأمّا النّقل فهو كثير جدّاً وقد تقدّم ما يدل على هذا، ومنه ما في أمالي الطوسي بسنده إلى علي بن الحسين عليه السلام قال رسوله الله صلى الله عليه وآله (مَا بَالُ أَقْوَام إِذَا ذُكِرَ عِنْدَهُمْ آلُ إِبْرَاهِيمَ وَآلُ عِمْرَانَ فَرِحُوا وَاسْتَبْشَرُوا وَإِذَا ذُكِرَ عِنْدَهُمْ آلُ مُحَمَّدٍ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُهُمْ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ عَبْداً جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِعَمَلِ سَبْعِينَ نَبِيّاً مَا قَبِلَ الله ذَلِكَ مِنْهُ حَتَّى يَلْقَى الله بِوَلايَتِي وَوَلايَةِ أَهْلِ بَيْتِي).

وفيه بسندِه إلى أبي حمزة الثمالي قال (قال لنا علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام أَيُّ الْبِقَاعِ أَفْضَلُ فَقُلْنَا الله وَرَسُولُهُ وَابْنُ رَسُولِهِ أَعْلَمُ فَقَالَ أَمَّا أَفْضَلُ الْبِقَاعِ مَا بَيْنَ الرُّكْنِ وَالْمَقَام وَلَوْ أَنَّ رَجُلا عُمِّرَ مَا عُمِّرَ نُوحٌ عليه السلام فِي قَوْمِهِ أَلْفَ سَنَةٍ إِلا خَمْسِينَ عَاماً يَصُومُ النَّهَارَ وَيَقُومُ اللَّيْلَ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ ثُمَّ لَقِيَ الله عَزَّ وَجَلَّ بِغَيْرِ وَلايَتِنَا لَمْ يَنْفَعْهُ ذَلِكَ شَيْئاً).

وفيه بسنده إلى أبي جعفر الباقر عليه السلام عن آبائه عليهم السلام عن علي عليه السلام عن رسول الله

ﷺ عن جبريل عليه السلام عن الله عز وجلّ (قال وعزتي وجلالي لأعذبن كل رعية في الإسلام دانت بولاية إمام جائر ليس من الله عز وجل وإن كانت الرعية في أعمالها برة تقية ولأعفون عن كل رعية دانت لولاية إمام عادل من الله تعالى وإن كانت الرعية في أعمالها ظالمة مسيئة قال عبدالله بن أبي يعفور سألت أبا عبدالله الصادق عليه السلام ما العلة أن لا دين لهؤلاء ولا عتب على هؤلاء قال لأن سيئات الإمام الجائر تغمر حسنات أوليائه وحسنات الإمام العادل تغمر سيئات أوليائه).

وأمثال هذه الأخبار بهذا المعنى كثيرة جدّاً قد بلغت حدّ التواتر معنىً.

وأما الحرفُ الثاني فكما مرّ، ولو احتمل أن تكون المودة بمعنى المحبة من الله تعالى أي أوجب الله لكم المودة على جميع خلقه وجعلها لكم في قلوب عباده كما قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا)مِنْ جهة ما جعلهم عليه السلام عليه من الصفات الحميدة الموجبة لمحبّة الخلق كما تقدّم، بمعنى أنه لا يكره أحدٌ من خلقه شيئاً من صفاتهم وأحوالهم وأعمالهم وأقوالهم واعتقاداتهم وصورهم ودينهم وسيرتهم وسجيّتهم وغير ذلك، فكل أحدٍ يودّهم ويميل إليهم حتى أعداؤهم وإنّما دعاهم إلى العداوة شدّة الحَسَدِ لهم، وهذا المعنى غير ما تقدّم من كون المودة أوجبها أجراً للرسالة لم يكن بعيداً بل هو قريبٌ مرادٌ بل يرجع سبب أجر الرسالة إلى هذا لأن الفائدة في أجر الرسالة ليجمعهم على ما به صلاحهم وهدايتهم إذ لا ينتفعون بالرسالة إلاّ مع اتّباع قرابته ويكون المعنى أسألكم على تبليغ رسالةِ ربّي إليكم ونصحي لكم وإخراجكم من الذلّ وتفريج الكروب عنكم وإنقاذكم من شفا جرف الهلكات ومن النار أجراً وهو قبول ما أتيتكم به من ربي مما فيه صلاحكم ونجاتكم، ولا يكون ذلك منكم إلاّ بمودة

أهل بيتي ليهدوكم إلى مصالح دنياكم وآخرتكم ويعينوكم على القبول بنورهم في قلوبكم وبتعليمهم إيّاكم ودعائهم لكم واستغفارهم لكم وتحملهم عنكم موبقات سيئاتكم.

ويحتمل أنْ يُراد بالمودة الواجبة مودة الله لكم أي محبّته لكم لأنكم أحبّاؤه فأوجب على نفسه تعالى محبّتكم بمعنى الوجوب في الحكمة أو بمعنى الثبوت، فإذا أوجب على نفسه في الحكمة مودّتكم ألقاها في خير البيوت وحرزها في أحصنِ المُدنِ وهي قلوب شيعتهم فمحبة الله تعالى لهم يوجدها لَهُمْ لأن هذه المحبّة والمودة حادثةٌ بحدوثهم، ولا يتحقّق الحادثُ إلاّ في الحوادث فأودعها القلوب الطاهرة وهي قلوب محبيهم وشيعتهم، وهو جعل الله القلوب والأفئدة تهوي إليهم قال تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام في الدعوة لهم (فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ)وهذا المعنى ينطبق عليه سياق الكلام وربطِه بما بعده مما عطف عليه وهو قوله عليه السلام (والدرجات الرفيعة والمقام المحمود) فإن هذه عند الله ومنه لكم وسياق قوله عليه السلام (ولكم المودةُ الواجبة) ولكم الدّرجات الرفيعة،ولكم المقام المحمود، فإنّ هذه منه تعالى لكم لأن المودة منّا والدرجات من الله فيكون لهم عليهم السلام مودتان، مودّة هي أجر الرسالة، ومودّة أرادها الله تعالى لهم عليهم السلام من خلقه في مقابلة نعمة الإيجاد، أي شكراً لها وهي صورة القبول للنعمة المبتدئة فإن ذلك من أعظم موجب الاستحقاق من فضله تعالى.

فإن قلت ما معنى مودّتين بل قل هي واحدة فمرّة تقول مودة الله التي أرادها من عباده في مقابلة نعمة الإيجاد جعلها لهم عليهم السلام في مقابلة نعمة الرسالة.

قلتُ فإذاً هي اثنتان باعتبار تثنية السّبب إلاّ أنهما لمّا كانتا متلازمتين كلّ

واحدة مبنيّة على الأخرى وكل واحدة لو انفردت كانت علة تامّة في الاستحقاق بحيث يلزم من ذلك الاستغناء عن أحدهما كانتا بالتلازم وبأنّهما معاً إنّما أريدا لأجلهم صلى الله عليهم أجمعين واتحدا باعتبار اتّحادِ المتعلَّق وباتحاد العلّة الغائيّة عليه السلام، وقولي باعتبار تثنية السبب أريد به أن سبب المحتملة هو التكليف بالتكوّن التكويني والثاني أي سبب الأدلة هو التكليف بالتكوُن التشريعي فافهم راشداً إن شاء الله تعالى.

قال عليه السلام والدرجات الرفيعة والمقام المحمود والمقام (والمكان) المعلوم عند الله عز وجل والجاه العظيم والشأن الكبير والشفاعة المقبولة.

قال الشارح المجلسي رحمه الله والمقام المحمود وهو الشفاعة أو الوسيلة والمقام (والمكان) المعلوم وهو الرتبة العظيمة أو الوسيلة كما تقدمت انتهى.

أقول: قوله عليه السلام (والدرجات الرفيعة) المراد بها مراتب القرب من الله سبحانه وأعلى مراتب القرب التي لم يصل إليها إلا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام بتوسُّطِه مقام أو أدْنى الأعلى، لأن مقام أوْ أدنى له مراتب متعددة بعدد العارفين لأنفسهمْ، فكل من عرف نفسه كما قال أمير المؤمنين عليه السلام لكميل (كشفُ سُبُحاتِ الجلال من غير إشارة)، فقد وصل إلى مقام أوْ أدنى بنسبة رتبته لأن المراد من مقام أو أدنى هو ما فوق مقام قاب قوسَيْنِ وهو اجتماع السّالك بمقام عقله وهو أولُ وجوده المقيّد وفوقه مقام أو أدْنى وهو مقام الوجود المطلق، والمراد به حال ظهوره أي ظهور وُجوده من الفعل كحال ظهوره ضرباً الذي هو مصدرٌ مِنْ ضَرَبَ الّذي هُوَ فِعْلٌ ماضٍ يعني حال اشتقاقه منه فإنّه لم يكن شيئاً قبل الاشتقاق وإنّما اخترعه الفاعل من هيئة فعله والواصل إلى هذا المقام مقام أوْ أدنى هو حينئذٍ محلّ الفعل المختص

به وهذا الفعل المختصّ بذلك الشخص رأس من رؤوس الفعل الكلّي الذي هو المشيّة وهو مقام أو أدنى بالنسبة إلى محمد ﷺ وإلى أهل بيته عليهم السلام وهذا مقام (نحن فيها هو وهو نحن وهو هو ونحن نحن) كما قال الصادق عليه السلام، وهذا هو مقام من (مقاماتك التي لا تعطيل لها في كل مكان يعرفك بها من عرفك لا فرق بينك وبينها إلا أنهم عبادك وخلقك).

وفي هذا المقام هم الفَاعِلُونَ ودُونها مقام المعاني وهم عليهم السلام في هذا المقام (بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ).

ودونها مقام الأبواب وهم عليهم السلام في هذا المقام بأمره يُؤَدُّونَ إلى مَنْ سِوَاهم.

ودونها مقام الإمام المفترض الطاعة وحجة الله في أرضه وسمائه، والمقامات في الدرجات متعددة، ولهم في كلّ رتبةٍ أعلى درجةٍ منها حتى ينتهي بهم التقريب من الله سبحانه إلى مقام أو أدنى ورسول الله ﷺ إمامهم في كلّ درجة، لكنّهم لا يتأخّرون عنه فَيُثبِت لهم ما يُثبِت له ما خلا النبوّة والأَسْبَقيّة لأنهم به صلى الله عليه وعليهم وصلوا إلى رتبته وهو قول علي عليه السلام في خطبته يوم الجمعة والغدير في هذا المعنى (علاهم بتعليته وسما بهم إلى رتبته) وقد تقدم تمام كلامه عليه السلام.

وفي بصائر الدرجات عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام قَالَ (فَضْلُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام مَا جَاءَ بِهِ محمد ﷺ آخُذُ بِهِ وَمَا نَهَى عَنْهُ أَنْتَهِي عَنْهُ وجَرَى لَهُ مِنَ الطَّاعَةِ بَعْدَ رَسُولِ الله ﷺ مثل الذي جرى لِرَسُولِ الله ﷺ وَالْفَضْلُ لِمُحَمَّدٍ ﷺ الْمُتَقَدِّمُ بَيْنَ يَدَيْهِ كَالْمُتَقَدِّمِ بَيْنَ يَدَيِ الله وَرَسُولِهِ ﷺ وَالْمُتَفَضِّلُ عَلَيْهِ كَالْمُتَفَضِّلِ عَلَى الله وعلى رَسُولِهِ ﷺ وَالرَّادُّ عَلَيْهِ فِي صَغِيرَةٍ أَوْ كَبِيرَةٍ عَلَى حَدِّ الشِّرْكِ بالله فَإِنَّ رَسُولَ الله ﷺ بَابُ الله الَّذِي لا يُؤْتَى إِلا مِنْهُ وَسَبِيلُهُ الَّذِي مَنْ سَلَكَهُ وَصَلَ إِلَى الله عَزَّ وَجَلَّ وَكَذَلِكَ كَانَ أَمِيرُ

الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام مِنْ بَعْدِهِ وَجَرَى لِلأَئِمَّةِ عليهم السلام وَاحِداً بَعْدَ وَاحِدٍ جَعَلَهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَرْكَانَ الأَرْضِ أَنْ تَمِيدَ بِأَهْلِهَا وَعُمُدَ الإِسْلامِ وَرَابِطَةً عَلَى سَبِيلِ هُدَاهُ ولا يَهْتَدِي هَادٍ إِلا بِهُدَاهُمْ وَلا يَضِلُّ خَارِجٌ مِنَ الْهُدَى إِلَا بِتَقْصِيرٍ عَنْ حَقِّهِمْ أُمَنَاءُ اللهِ عَلَى مَا أَهْبَطَ مِنْ عِلْمٍ أَوْ عُذْرٍ أَوْ نُذُرٍ وَالْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ عَلَى مَنْ فِي الأَرْضِ يَجْرِي لآخِرِهِمْ مِنَ اللهِ مِثْلُ الَّذِي جَرَى لأَوَّلِهِمْ وَلا يَصِلُ أَحَدٌ إِلَى ذَلِكَ إِلا بِعَوْنِ اللهِ) هـ.

وأمّا أنّهم ملحقون برسول الله صلى الله عليه وآله فممّا لا إشكال فيه وقد تكثّرت به الأخبار، ومما يدل على ذلك ما رواه في بصائر الدرجات بسنده إلى أَبِي عَبْدِاللهِ عليه السلام قَالَ (قَالَ اللهُ تَعَالَى الَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمانٍ أَلْحَقْنا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَما أَلَتْناهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ قَالَ الَّذِينَ آمَنُوا النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله وَأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام وَذُرِّيَّتُهُ الأَئِمَّةُ وَالأَوْصِيَاءُ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ أَلْحَقْنَا بِهِمْ وَلَمْ نَنْقُصْ ذُرِّيَّتَهُمُ مِنْ الجهَةِ الَّتِي جَاءَ بِهَا مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وآله فِي عَلِيٍّ عليه السلام وَحُجَّتُهُمْ وَاحِدَةٌ وَطَاعَتُهُمْ وَاحِدَةٌ) هـ.

يعني أنّ محمّداً صلى الله عليه وآله أتى بالحّجة المقيمة لوجوب طاعته من الله تعالى في علي وأهل بيته عليه وعليهم السلام ولم تنقص حجتّه صلى الله عليه وآله بما شرَّكَ الله سبحانه فيها عليّاً وأهل بيته عليهم السلام ولم تقصر حجّتهم وإن كانَت مقتبسة من حجّته صلى الله عليه وآله عن رتبة حجّته صلى الله عليه وآله، لأنّ ما أُوتُوا مما أُوتي كنورهم من نوره صلى الله عليه وآله وقد أخبر علي عليه السلام عن نسبة ذلك فقال (أنا من محمّد صلى الله عليه وآله كالضّوء من الضّوء).

فالضّوءُ كالسراج إذا أُشْعِلَ من السِّرَاج فإنّه وإن كان متأخّراً في الوجود عنه ومقتبساً منْهُ إلاّ أنَهُ بعد الاشتعال مُسَاوٍ له، وكذلك الأئمّة من وُلدِه عليهم السلام فَهُم بَعد أن خُلِقوا من نوره صلى الله عليه وآله كانوا في ذواتهم مثله وله الفضل عليهم بتوسُّطِه بينهم وبين الله تعالى في كلّ شيءٍ، وكل ما وصل إليهم من المدد ممّا وصل إليه وإن كان صلى الله عليه وآله

له الفضل عليهم لِسَبقِهِ عليهم في الوجود وتوسّطه بينهم وبين الله في كلّ شيء وبهذين السببين كان أعلم منهم حيث لم يصلوا إليهما، ومن دونه أمير المؤمنين عليه السلام فإنه أفضل منهم بعد رسول الله صلى الله عليه وآله لسبقه وتوسّطه كذلك، ولهذا لُقّب بأمير المؤمنين عليه السلام لأنه يميرهم العلم وهم المؤمنون ويدخل في عموم لفظ المؤمنين عليهم السلام جميع شيعتهم من النبيين والمرسلين وسائر الأولياء والمؤمنين ولكن دخولهم بالتبعيّة كلّ بنسبة رتبته، وإلى هذا أشار تعالى بقوله (وَإِذا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كانُوا بِآياتِنا لا يُوقِنُونَ)إلاّ أنه عليه السلام وإن كان القائم بذلك عن الله ورسوله إلاّ أنّه بالنسبة إلى الأئمة من ولده بلا واسطة وإلى الأنبياء والمرسلين بواسطة الأئمة عليهم السلام وإلى المؤمنين بواسطة الأنبياء والمرسلين بعد الأئمة عليهم السلام.

وفي بصائر الدرجات بسنده إلى الحرث النضري عن أبي عبد الله عليه السلام قال (سمعته يقول رسول الله صلى الله عليه وآله ونحن في الأمر والنهي والحلال والحرام نجري مجرى واحد فأما رسول الله وعلي صلى الله عليهما وآلهما فلهما فضلهما).

وفيه بسنده إلى أيوب بن الحر عن أبي عبد الله عليه السلام أو عمّن رواه عن أبي عبدالله عليه السلام (قلنا الأئمة بعضهم أعلم من بعض قال نعم وعلمهم بالحلال والحرام وتفسير القرآن واحد)هـ.

وبالجملة بقوا صلى الله عليهم يتنقّلون من الدرجات العاليات ألف دهرٍ لم يكن في الوجود غيرهم الأربعة عشر صلى الله عليهم أجمعين إلى أن وصلوا في نزول الظهور في هذه المدة إلى آخر درجةٍ فخلق الله سبحانه وله الحمد من عَرَقِ أنوارهم مائة وأربعة وعشرين ألف قطرةٍ فخلق الله من كل قطرة روح نبي

ومرسلٍ فبقوا في الأنبياء والمرسلين ألف دهرٍ إلى أن تَمَّ ما أُمِروا بتأديته إليهم ثم خلق الله سبحانه وله الحمد من أشعّة أنوار النبيين عليهم السلام أرواح المؤمنين من شيعتهم فأدّوا إلى المؤمنين ما أُمِروا بتأديته إليهم بواسطة الأنبياء وبغير واسطتهم ولهم في كلّ رتبةٍ ومقام منذ كوّنهم الله تعالى إلى أن ظهروا في هذه الدنيا درجات في أعمالهم في التأدية والإعانة والتقدير والمنع والعطاء والقبض والبسط والشفاعة والفضل والعفو والرحمة والنقمة والتسامح والاقتصاص وغير ذلك مما طوى الله سبحانه بسْط منشوره بقوله تعالى (لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ)الآيات درجات عاليات في كلّ مقام بما يليقُ به لا يصل إليها أحدٌ من خلق الله بحيث كان كلّ شيء فقد جعله الله تعالى في قبضتهم وأمرهُ بطاعتهم على جهة الإطلاق وعدم التخصيص والتقييد لا يستثنى منه إلاّ ما ذكره تعالى في قوله (وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ) وفي قوله (وَما تَشاؤُنَ إِلاَّ أَنْ يَشاءَ الله)فبيّن ما أشرنا إليه الحجة عليه السلام في قوله في دعاء شهر رجب (لا فرق بينك وبينها إلا أنهم عبادك وخلقك) إلى قوله (أعضاد وأشهاد ومناة وأذواد وحفظة ورواد فبهم ملأت سماءك وأرضك حتى ظهر أن لا إله إلا أنت)الدعاء.

وأراد عليه السلام بقوله (سماءك وأرضك) معنى غيب عالمك وشهادته ليدخل فيه كل شيء ويكفيك قوله تعالى (ما وسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن) صلّى الله عليه وآله الطاهرين هـ.

قوله عليه السلام (والمقام المحمود) مجمله ما ذكره الشارح المجلسي رحمه الله وهو قوله الشفاعة أو الوسيلة وقال في القاموس الوسيلة والواسلة والوسالة المنزلة عند الملك والدرجة والقُربة.

وفي النهاية (في حديث الأذان اللهم آتِ محمداً الوسيلة هي في الأصل ما يتوصّلُ به إلى الشيء ويتقرّب به وجمعها وسائل يقال وسل إليه وسيلةً وتوسّل والمراد به في الحديث القرب من الله تعالى وقيل هي الشفاعة يوم القيامة وقيل هي منزلة من منازل الجنّة كذا جاء في الحديث في صفته ﷺ).

وفي مجمع البحرين (قوله تعالى وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ أي القربة إلى الله عز وجل وفي الدعاء أَعْطِ مُحَمَّداً ﷺ الْوَسِيلَةَ روي أنها أعلى درجة في الجنّة لها ألف مرقاة ما بين المرقاة إلى المرقاة حضر الفرس الجواد مائة عامٍ وهي ما بين مرقاةِ جوهرٍ إلى مرقاةِ ياقوتٍ إلى مرقاةِ ذهب إلى مرقاةِ فضّةٍ فيؤتى بها يوم القيامة حتى تنصب مع درجة النبيين كالقمر بين الكواكب فلا يبقى يومئذٍ نبي ولا صديق ولا شهيد إلاّ قال طوبى لمن كانت هذه الدرجة درجته وفي حديث النبي ﷺ سلوا الله لي الوسيلة طلب ﷺ من أمّته الدعاء له هضماً لنفسِه أو لتنتفع به أمته وتثاب عليه ومع هذا فإنه يزيده رفعة بدعاء أمته كما يزيدهم بصلاتهم عليه ووَسَلتُ إلى الله تعالى بالعمل من باب وعد رغبتُ إليه وتقربتُ ومنه اشتقاق الوسيلة وهي ما يتقرّب به إلى الشيء والواسل الراغب إلى الله تعالى)انتهى.

أقول: الحديث الذي أشار إليه صاحب مجمع البحرين هو ما رواه الصدوق رحمه الله في معاني الأخبار وتمامه بعد قوله (طوبى لمن كانت هذه الدرجة درجته فيأتي النداء من عند الله عز وجل يسمع النبيين وجميع الخلق هذه درجة محمد ﷺ فَأُقبِلُ وأنا يومئذ مؤتزر بريطة من نور علي تاج الملك وإكليل الكرامة وعلي بن أبي طالب أمامي وبيده لوائي وهو لواء الحمد مكتوب عليه لا إله إلا الله المفلحون هم الفائزون بالله وإذا مررنا بالنبيين قالوا هذان ملكان كريمان مقربان لم نعرفهما

ولم نرهما وإذا مررنا بالملائكة قالوا هذان نبيان مرسلان حتى أعلو الدرجة وعلي عليه السلام يتبعني حتى إذا صرت في أعلى الدرجة منها وعلي عليه السلام أسفل مني بدرجة فلا يبقى يومئذ نبي ولا صديق ولا شهيد إلا قال طوبى لهذين العبدين ما أكرمهما على الله فيأتي النداء من قبل الله جل جلاله يسمع النبيين والصديقين والشهداء والمؤمنين هذا حبيبي محمد وهذا وليي علي طوبى لمن أحبه وويل لمن أبغضه وكذب عليه ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلا يبقى يومئذ أحد أحبك يا علي إلا استروح إلى هذا الكلام وابيض وجهه وفرح قلبه ولا يبقى أحد ممن عاداك أو نصب لك حربا أو جحد لك حقا إلا اسود وجهه واضطربت قدماه فبينا أنا كذلك إذا ملكان قد أقبلا إليَّ أما أحدهما فرضوان خازن الجنة وأما الآخر فمالك خازن النار فيدنو رضوان فيقول السلام عليك يا أحمد فأقول السلام عليك أيها الملك من أنت فما أحسن وجهك وأطيب ريحك فيقول أنا رضوان خازن الجنة وهذه مفاتيح الجنة بعث بها إليك رب العزة فخذها يا أحمد فأقول قد قبلت ذلك من ربي فله الحمد على ما فضلني به ادفعها إلى أخي علي بن أبي طالب عليه السلام ثم يرجع رضوان فيدنو مالك فيقول السلام عليك يا أحمد فأقول السلام عليك أيها الملك من أنت فما أقبح وجهك وأنكر رؤيتك فيقول أنا مالك خازن النار وهذه مقاليد النار بعث بها إليك رب العزة فخذها يا أحمد فأقول قد قبلت ذلك من ربي فله الحمد على ما فضلني به ادفعها إلى أخي علي بن أبي طالب ثم يرجع مالك فيقبل علي عليه السلام ومعه مفاتيح الجنة ومقاليد النار حتى يقف على عجزة جهنم وقد تطاير شررها وعلا زفيرها واشتد حرها وعلي عليه السلام آخذ بزمامها فتقول له جهنم جزني يا علي قد أطفأ نورك لهبي فيقول لها علي عليه السلام قري يا جهنم خذي هذا واتركي هذا خذي هذا

عدوي واتركي هذا وليي فلجهنم يومئذ أشد مطاوعة لعلي عليه السلام من غلام أحدكم لصاحبه فإن شاء يذهبها يمنة وإن شاء يذهبها يسرة ولجهنم يومئذ أشد مطاوعة لعلي فيما يأمرها به من جميع الخلائق) انتهى الحديث الشريف كما في المعاني.

أقول (المقام المحمود) المقام المحمود أو المحمود من قام فيه لأنّ كلّ من رآه حَمِدهُ وأثنى عليه وله اعتباراتِ، اعتبارٌ من جهة الفضيلة واعتبارٌ من جهة الفاضلة (الفاضلية).

فأمّا الأول فلكونه أعلى مراتب القربة إلى الله تعالى فيحمده كلّ أحدٍ ويحمد من قام فيه إذ ليس مقام أقرب منه ليستِحقّ الثناء دونه أو يساويه فيه.

وأمّا الثاني فلأنّه لمّا كان أعلى مراتب القرب إلى الله تعالى لزم أن يكون كل من دونه يحتاج إليه في كل شيء لعُلّوِه على كلِّ مقام وإحاطته بكل من دونه على جهة العلِّيّة والقيوميّة.

فعلى الأول يراد منه القرب المطلق الّذي هو مقام أو أدنى.

وعلى الثاني يراد منه مقام البابيّة المطلقة كالتوسط بين الخلق وبين الله سبحانه والتلقّي من الجناب الأعلى عزَّ وجلّ للتّأدية، والتّأدية إلى من دُونه والشفاعة للمقصّرين مِنْ أَتَبْاع صاحب المقام، ولهذا فسّر المقام المحمود بالشّفاعة أو الوسيلة لما قلنا وفسرت الوسيلة بالقرب أو الشفاعة أو منزلة في الجنةِ مخصوصة كما ذكر في حديثِ المعاني المتقدّم، وهو مقام الحكم بالحَقِّ والعدل بالقسط والقسمة بالسويّة بحسب المقتضى كما في الحديث المتقدّم (المقام المحمود حتى أقضي عليه وهو تل من مسك أذفر بحيال العرش) كما في تفسير العياشي عن عن الصادق عليه السلام ، فمعنى أنه القرب من الله تعالى أو الشَّفاعة أو الوسيلة أو منزلة من

منازِلِ الجنّة أنّ المقام المحمود مكان لما فُسِّرَ به من هذه الأمور فإنّ أعلى مراتبها ما وقع في المقام المحمود، وفي روضة الواعظين للمفيد ﵀ كذا في تفسير الأميرزا محمد القمي وفي البحار أنه للشيخ محمد بن علي بن أحمد الفارسي ﵀ وكلام الأميرزا محمد يحتمل أنه كتاب آخر غير المشهور للمفيد ﵀ ويحتمل أنه من سهو القلم وإلاّ فروضة الواعظين الموجودة للفارسي قال: قال رسول الله ﷺ (إذا قمت المقام المحمود تشفعت في أصحاب الكبائر من أمتي فيشفعني الله فيهم والله لا تشفعت فيمن آذى ذريتي).

وفيه أيضاً قال الله تعالى (عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً)قال (وقال رسول الله ﷺ المقام الذي أشفع فيه لأمتي).

وسمّى ذلك المكان بالمقام المحمود لما قلنا أوّلاً من أنه محمود والقائم فيه محمود ولأن القائم فيه يحمد أهل الطاعة ويثني عليهم كما في التوحيد عن أمير المؤمنين ﵇ في حديثٍ يقول فيه ﵇ وقد ذكر أهل المحشر (ثم يجتمعون في موطن آخر يكون فيه مقام محمد ﷺ وهو المقام المحمود فيثني على الله تبارك وتعالى بما لم يثن عليه أحد قبله ثم يثني على الملائكة كلهم فلا يبقى ملك إلا أثنى عليه محمد ﷺ ثم يثني على الرسل بما لم يثن عليهم أحد قبله ثم يثني على كل مؤمن ومؤمنة يبدأ بالصديقين والشهداء ثم بالصالحين فيحمده أهل السماوات والأرض فذلك قوله عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً فطوبى لمن كان له في ذلك المقام حظ وويل لمن لم يكن له في ذلك المقام حظ ولا نصيب)هـ.

وقول صاحب مجمع البحرين (طلب ﷺ من أمته الدعاء له هضماً لنفسه ...إلخ) أمّا التعليل الأوّل فليس بمتّجهٍ لأنّ المقام ليس مقام تصغير النفس وإنما فعل ذلك بأمرٍ من الله تعالى لأنه ﷺ لا ينطق عن الهوى.

وأما التعليل الثّاني فمتّجه صحيح وقوله (ومع هذا فإنه يزيده رفعة بدعاء أمّته) هو أيضاً صحيح لكن على معنى أنّ الزيادة لا تلحق ذاته، وإنما تلحق الملحق به كما أن الصلاة تزيد في المسجد فضلاً وتنقص في الحمام، وقد تقدّم الكلام في هذا ومن أنكر عدم انتفاعهم ﷺ بدعاء شيعتهم فقد جهل المسألة، كيف وقد قال ﷺ (تناكحوا تناسلوا فإني أُباهي بكم الأمم الماضية والقرون السالفة يوم القيامة ولو بالسقط) الحديث.

فإن قلت: ما ذكرت من الأخبار إنّما تدلّ على اختصاص المقام المحمود به ﷺ وأنت في بيان إثباته لهم ﷺ.

قلتُ: كلّ ما وصفوا بصفةٍ من الصفات الحميدة فرسول الله ﷺ إمامُهُمْ بل هو أصلهم فيها ومقتداهم فهي له وهو مأمورٌ من الله تعالى أن يؤدّيها إليهم لأنه الواسطة بينهم وبين الله تعالى ، ومن ذلك المقام المحمود فهو مقامه وأعلى مرتبة منه يختصّ بها دونهم ويليها مرتبة أمير المؤمنين ﷺ والأئمة ﷺ دون أمير المؤمنين ﷺ على مراتبهم ﷺ إلاّ أنّه ﷺ هو المدعوّ باسمه فلذا نسب المقام المحمود إليه وهم يجرون مَجراهُ في كل ما كان المقام المحمود مكاناً له من القرب والشفاعة والوسيلة والمنزلة في الجنّة إلاّ أنه ﷺ هو داعيهم وقائدهم، ففي الشفاعة يشفع بإذن الله تعالى لهم فيشفعون بإذن الله وإذن رسوله ﷺ لمن شاءوا ويُشَفِعُون من شاءوا فيمن شاءوا فنالوا الشفاعة والتشفيع به كذا في الوسيلة والقرب والمنزلة فصحّ بهذا الاعتبار نسبة المقام المحمود إليهم ﷺ.

قوله ﷺ (والمقام المعلوم) وفي بعض النسخ الصحيحة (والمكان المعلوم) والمَكان والمَقام بفتح الميم واحد لأن المَقام بفتح الميم موضع القيام إذا أُريد به

مكان الشفاعة كالمقام المحمود أو الأعم كتولّي أمر الحساب وقسمة الجنّة والنار وإنزال المستحقين منازلهم من الدارَيْنِ، وإن قرىء بضم الميم لم يتناف مع المكان أيضاً ولكنه يكون موافقاً للمنزلة في الجنّة لأنّه موضع الإقامة، فعلى الوجه الأوّل يتّحدان هذا الوجه الأول مع الوجه الأول هناك، وعلى الثاني هنا وهناك يعني المنزلة في الجنّة يتّحدان أيضاً إلاّ أن مقتضى العطف المغايرة، فيحمل هذا على المعنى الأعم أو يخصّ المتقدم بما يتعلق بيوم الحساب أو الشفاعة، وهذا بالمنزلة في الجنّة أو بالعكس، أو أن يراد بمغايرة العطف الإبهام بأن يقال هما متغايران على جهة الإبهام إن أريد بالأول الشفاعة أريد بالثاني ما يتعلق بيوم القيامة غيرها أو المنزلة في الجنة، وإن أريد بالأول المنزلة أو ما يتعلق بيوم القيامة أريد بالثاني الشفاعة أو يراد بالثاني القرب من الله سبحانه وبالأول ما سواه أو بالعكس.

وفي قوله المعلوم إشارة إلى معهود ذهني أو ذِكْرِي، فعلى الأوّل يراد بالمحمود خصوص الشفاعة وبالمعلوم ما سواه مطلقاً أو ما سواه يوم القيامة أو بالعكس، وعلى الثاني يُرَادُ بالمحمود خصوص الشفاعة أو مطلقاً وبالمعلوم نفس المقام يعني المكان المعلوم.

والحاصل أنه كما يقال أن الظاهر هو المغايرة بموجب العطف يحتمل التفسير وإن كان بعيداً ويحتمل إرادة الولاية المطلقة في الأول لأنّها السلطنة الكبرى وإرادة بعض موجباتها في الثاني، وفي معاني الأخبار والتوحيد بسنده إلى محمد بن مسلم قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول (إن لله عز وجل خلقا خلقهم من نوره ورحمة من رحمته لرحمته فهم عين الله الناظرة وأذنه السامعة ولسانه الناطق في خلقه بإذنه وأمناؤه على ما أنزل من عذر أو نذر أو حجة فبهم يمحو الله السيئات

وبهم يدفع الضيم وبهم ينزل الرحمة وبهم يحيي ميتا ويميت حيا وبهم يبتلي خلقه وبهم يقضي في خلقه قضية قلت جعلت فداك من هؤلاء قال الأوصياء)هـ.

وقوله عليه السلام (عند الله عزّ وجل) يُراد منه أنَّ هذا المقام المعلوم أعده الله لهم عليهم السلام يوم القيامة أو في الجنّة أو في المكانة والقرب منه تعالى على الاحتمالات الثلاث وعِنْدَهُ تعالى أي في ملكه ونَسَبهُ إليه إشعارا بالاختصاص التشريفي على نحو الادِّخار لَهُمْ صلى الله عليهم ويُستفاد من أخبارهم أنّ هذا المقام المشار إليه أعلى المقامات وأشرفها عنده وأحبّها إليه وهو حُمُولَة قوله تعالى (ووسعني قلب عبدي المؤمن) المعبّر عن هذا الوسع المذكور بقوله (الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى)وبقولهم عليهم السلام (نحنُ محالُ مشيّةِ الله وألْسِنَةُ إرادتِه ومعانيه) كما تقدّم في حديث جابر الجعفي عن أبي جعفر عليه السلام في قوله (يا جابر عليك بالبيان والمعاني قال فقلتُ وما البيان والمعاني قال فقال علي عليه السلام أمّا البيان فهو أن تعرف الله سبحانه ليس كمثله شيء فتعبده ولا تشرك به شيئاً وأمّا المعاني فنحن معانيه ونحن جنبه ويده ولسانه وأمره وحكمه وعلمه وحقّه إذا شِئنا شاء الله ويريد الله ما نريده فنحن المثاني الذي أعْطانا الله نبيّنا ونحن وجه الله الذي يتقلّب في الأرض بين أظهركم فمن عرفنا فأمامَهُ اليقين ومن جهِلَنا فأمامَهُ سجّين ولو شئنا خرقنا الأرض وصعدنا السّماء وإنّ إلينا إياب هذا الخلق ثم إنّ علينا حسابهم) هـ.

وقوله عليه السلام (ولو شئنا خرقنا الأرض وصعدنا السّماء) يؤيّده ما رواه المقداد بن الأسود الكندي قال (قال لي مولاي يوماً ائْتني بسيفي فأتيتُه به فوضعه على ركبتيه ثم ارتفع إلى السماء وأنا أنظر إليه حتى غاب عن عيني فلمّا قرُبَ الظهر نزل وسيفه يقطر دماً فقلت يا مولاي أين كنتَ فقال إنّ نفوساً في الملأ الأعلى

اختصمَتْ فصَعِدْتُ فطهّرتها فقلتُ يا مولاي وأمرُ الملأ الأعلى إليك فقال يا ابن الأسود أنا حجّة الله على خلقه من سمواته وأرضه وما في السماء ملكٌ يخطو قدَماً عن قَدَمٍ إلاّ بإذني وَفِيَّ يرتابُ المبطلون) هـ.

وهذا العهد الذهني أو الذكري يُعنَى به الإيماء إلى المقام الذي يقومه أو يقوم فيه مَنْ قلبُه عرش الرحمن الّذي استوى عليه برحمانيته وهو عين الله ولسانه ويده وقلبه وأمره وحكمه وجميع معانيه أي معاني أفعالِه، وكذلك هو أيضاً بيت الله وباب الله، وفي الاحتجاج للطبرسي عن الأصبغ بن نباتة قال (كنت جالسا عند أمير المؤمنين عليه السلام فجاء ابن الكواء فقال يا أمير المؤمنين من البيوت في قول الله عز وجل وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِها وَلكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوابِها قال علي عليه السلام نحن البيوت التي أمر الله بها أن تؤتى من أبوابها نحن باب الله وبيوته التي يؤتى منه فمن تابعنا وأقر بولايتنا فقد أتى البيوت من أبوابها ومن خالفنا وفضل علينا غيرنا فقد أتى البيوت من ظهورها ، بأن الله عز وجل لو شاء عرف للناس نفسه حتى يعرفوه وحده ويأتوه من بابه ولكنه جعلنا أبوابه وصراطه وبابه الذي يؤتى منه فقال فيمن عدل عن ولايتنا وفضل علينا غيرنا فإنهم عَنِ الصِّراطِ لَناكِبُونَ) هـ.

وغيره مما يدلّ على أنّهم عليهم السلام مقاماته ومعانيه وأبوابه وحججه والمقام المعلوم والمحمود لا يقومه ولا يقوم فيه إلاّ من كان كذلك لعلو رتبتِه، ولهذا قال (عند الله) تعظيماً له بكونه عنده تعالى، وإنّما قال عليه السلام (عز وجلّ) تنبيهاً على أنّه سبحانه يتعالى عن كلّ نسبةٍ وعن كلّ ما يضاف إليه من جليلٍ وحقير، لأنّ هذا المقام المشار إليه وإن كان في غاية كمال الإمكان في النّسب والإضافات من

سائر المراتب إلاّ أنّه لمّا نوَّهَ به وبشرفه وعلوّ قدره ونسبَهُ إلى العندِ الأكبر الّذي لا يتناهى في الشرف الإمكاني نَبّهَ على أنّ الخلق لا يسلم منه شيء عن نقصٍ وفقرٍ ويبلغ به في رتبة التحقّق الذاتي إلى العدم واللاّ شيء والله سبحانه يتعالى عن كلّ شيء فكلّ عظيم في جنب عظمته حقير، كما قال سيد العابدين عليه السلام (فَلَكَ الْعُلُوُّ الأَعْلَى فَوْقَ كُل عَالٍ وَالْجَلالُ الأَمْجَدُ فَوْقَ كُلِّ جَلالٍ كُلُّ جَلِيلٍ عِنْدَكَ صَغِيرٌ وَكُلُّ شَرِيفٍ فِي جَنْبِ شَرَفِكَ حَقِيرٌ).

وإن هذه المبالغات في الشّرف والعزّة يتعالى ويتقدّس سبحانه عنْها وعن كلّ شيءٍ حقير أو جليلٍ وما ينسب إليه بنفسه سبحانه فإنما هو تشريف منه لما نسبه إليه فَضْلاً وكرماً وله الحمدُ على كلِّ حالٍ، ويمكن أنْ يقال إنّ عند منصوبٌ بالمعلوم على أنّه معمولٌ له والمعنى أنّ ذلك المكان أو المقام معلومٌ عند الله تعالى أي معيّنٌ في علمه لمحمد وآله صلى الله عليه وآله وسلم أوْ أنَّ الله يعلمه أي لا يَعْلَمُ قدر ذلك المقام أو المكان إلاّ الله أو من أطلعه عليه منْ أحبّائه وأوليائه إلاّ أنّ الظاهر أن المراد بالمعلوم المعلوم عند أولي العلم به على جهة الإجمال أو التفصيل أو المعلوم بمعنى المشار إليه والمشار إليه هو المقام المحمود أو ما ذكرنا سابقاً.

وقوله عليه السلام (والجاهِ العظيم) الجاه هو الوجه وهو القدر والمنزلة والوجه الجهة ومستقبل كلّ شيء يقول لكم القدر العظيم والمنزلة يعني عند الله تعالى بمعنى أنه لا يردّ سائلاً سأله بهم لأن قدرهم عنده تعالى أعظمُ من كلّ شيء فحيث كان أكرم وأرحم منهم وأجود قبلهم في كلّ شيء، لأنّهم قبلوُه في كل شيء وهو تعالى أولى من كل شيءٍ بكلِّ خيرٍ وذلك لما خلقهم ودعاهم إلى ما أراد أجابوه كما أراد، وهو أولى بذلك الجميل من خلقه أجابهم وأجاب بهم في كلّ مراد ، وفي

مجالس المفيد بسنده إلى جابر عَنْ أَبِي جَعْفَر عليه السلام عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ عليه السلام قَالَ (قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم إِنَّهُ إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ وَسَكَنَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ مَكَثَ عَبْدٌ فِي النَّارِ سَبْعِينَ خَرِيفاً وَالْخَرِيفُ سَبْعُونَ سَنَةً ثُمَّ إِنَّهُ يَسْأَلُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ وَيُنَادِيهِ فَيَقُولُ يَا رَبِّ أَسْأَلُكَ بِحَقِّ مُحَمَّدٍ وَأَهْلِ بَيْتِهِ لَمَّا رَحِمْتَنِي قَالَ فَيُوحِي اللهُ جَلَّ جَلالُهُ إِلَى جَبْرَئِيلَ عليه السلام أَنِ اهْبِطْ إِلَى عَبْدِي فَأَخْرِجْهُ فَيَقُولُ جَبْرَئِيلُ يَا رَبِّ وَكَيْفَ لِي بِالْهُبُوطِ فِي النَّارِ فَيَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِنِّي قَدْ أَمَرْتُهَا أَنْ تَكُونَ عَلَيْكَ بَرْداً وَسَلاماً قَالَ فَيَقُولُ يَا رَبِّ فَمَا عِلْمِي بِمَوْضِعِهِ فَيَقُولُ إِنَّهُ فِي جُبٍّ مِنْ سِجِّينٍ فَيَهْبِطُ جَبْرَئِيلُ إِلَى النَّارِ فَيَجِدُهُ مَعْقُولا عَلَى وَجْهِهِ فَيُخْرِجُهُ فَيَقِفُ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ يَا عَبْدِي كَمْ لَبِثْتَ تُنَاشِدُنِي فِي النَّارِ فَيَقُولُ يَا رَبِّ مَا أُحْصِيهِ فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَمَا وَعِزَّتِي وَجَلالِي لَوْ لا مَنْ سَأَلْتَنِي بِحَقِّهِمْ عِنْدِي لأَطَلْتُ هَوَانَكَ فِي النَّارِ وَلَكِنَّهُ حَتْمٌ عَلَى نَفْسِي أَنْ لا يَسْأَلَنِي عَبْدٌ بِحَقِّ مُحَمَّدٍ وَأَهْلِ بَيْتِهِ إِلا غَفَرْتُ لَهُ مَا كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ وَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ الْيَوْمَ ثُمَّ يُؤْمَرُ إِلَى الْجَنَّةِ).

وفي مناقب ابن شاذان مرفوعاً إلى سَمَاعَةَ قَالَ: قَالَ لِي أَبُو الْحَسَنِ عليه السلام (إِذَا كَانَ لَكَ يَا سَمَاعَةُ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ حَاجَةٌ فَقُلِ اللهمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِحَقِّ مُحَمَّدٍ وَعَلِيٍّ فَإِنَّ لَهُمَا عِنْدَكَ شَأْناً مِنَ الشَّأْنِ وَقَدْراً مِنَ الْقَدْرِ فَبِحَقِّ ذَلِكَ الشَّأْنِ وَبِحَقِّ ذَلِكَ الْقَدْرِ أَنْ تُصَلِّيَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ وَأَنْ تَفْعَلَ بِي كَذَا وَكَذَا فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ لَمْ يَبْقَ مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ وَلا مُؤْمِنٌ مُمْتَحَنٌ إِلا وَهُوَ يَحْتَاجُ إِلَيْهِمَا فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ)هـ.

وإنّما استجاب الدعاء بحقّهم عليهم السلام عليه وجاههم عنده، لأنه سبحانه كما ذكرنا مراراً متعددة فيما سبق إنه إنّما خلقهم له وليس له تعالى شأن بغيرهم بالذات، وإنّما خلق جميع من سواهم من حيوان ونباتٍ ومعدنٍ وجمادٍ ومن جوهرٍ وعرضٍ

من جميع خلقه من الأسباب والمسبّبات من عين ومعنى صفةٍ وموصوف إلا لهم ﷷ وهو قول علي ﷷ (نحن صنائع ربنا والخلق بعد صنائع لنا)هـ ، يعني نحن الذين اصطنعنا الله سبحانه لنفسه وصنع جميع الخلقِ لنا فجاههم ﷷ عنده أقرب وأعظم من سؤال سائلٍ من سائرِ خلقه، فإن مطلب السّائل بحقّهم لا يخلو إمّا أن يكون منافياً لجاههم وحقّهم أو مخالفاً له، وإمّا أن يكون موافقاً لحقهم وجاههم بأن يكون من لواحق حقّهم أو توابعه، فإن كان مطلبه منافياً لحقهم كما لو سأل الله أن يجعله مثلهم أو أفضل منهم لم يصح من السائل وقوع التوسل بحقّهم لأن معنى التوسل بجاههم وحقّهم أن يجعله شافعاً له عند الله تعالى في مطلبه، والسائل من غيرهم لا يصل إلى مقام جاههم بحالٍ من الأحوال فكيف يسأل هَذا المقام فإنّه إذا سأله لم يبق ما يستشفع به إلى الله تعالى مع أنه لم يصل في أصل وجوده إلى مطلبه، فبين أصل وجوده وبين مطلبه هذا مراتب لا تحصى فهو طالب للوصول بلا سبب فقد خرّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكانٍ سحيق، ومن دون هذا وإن شاركه في ظاهر العلّة ما لو سأل الله تعالى مقام النبيين والمرسلين ما لم يكن منهم، ففي الأول لا يجوز لأحدٍ من الخلق لا نبي مرسل ولا ملك مقرّب ولا عبد مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان وإنّما ابتلي بعض النبيين ﷷ بالبلاء من الله تعالى، لأنه توقّف في ولايتهم ﷷ أي في كمال الطاعة والانقياد لهم بأن وجد في نفسه وقفة ولو للتروّي والتأمّل مثل أيّوب ﷷ عند الانبعاث للنطق شكّ وبكى فقال (خطب جليل وأمر جسيم قال الله عز وجل يا أيوب أتشك في صورة أقمته أنا إني ابتليت آدم بالبلاء فوهبته له وصفحت عنه بالتسليم عليه بإمرة المؤمنين وأنت تقول خطب جليل وأمر جسيم فو عزتي لأذيقنك من عذابي

أو تتوب إلي بالطاعة لأمير المؤمنين قال عليه السلام ثم أدركته السعادة بي يعني أنه تاب وأذعن بالطاعة لأمير المؤمنين عليه السلام)، كذا في كنز الفوائد للكراجكي وقد تقدّم الحديث بتمامه، ومثل يونس عليه السلام حين دعي إلى الإيمان والإقرار بأمير المؤمنين عليه السلام فقال كيف أؤمن أو قال كيف أقرّ بمن لم أرَهُ وجرى عليه ما سمعتَ، وقد تقدّم ذكر هذا.

ودفع الإشكال في وقوع مثل هذا من أهل العصمة عليهم السلام وجوابه ومثل هذا حال المؤمنين بالنسبة إلى الأنبياء عليهم السلام وإن كان مطلب السائل مخالفاً لحقهم عليهم السلام كما لو سأل الله تعالى بهم ما حرّم الله عليه فإنّه أي سؤاله ذلك لم يكن في سبيلهم، وإنما كان في سبيل أعدائهم فهو في دعائه يسأل الله أن ينقّص حقهم عنده تعالى والسؤال فيما رضي الله تعالى بحقهم سؤال لله تعالى أن يزيد في حقّهم وقدرهم عنده تعالى، فهو في سؤاله المحرّم غير سائل بحقّهم بل هو في سبيل أعدائهم فقد أخطأ الطريق إلى الله تعالى فأبْعِدَ من الإجابة لأنه في الحقيقة إنّما يدعو الشيطان (وَما دُعاءُ الْكافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ) وإن كان مطلبه موافقاً لحقهم عليهم السلام كما لو سأل الله تعالى تعجيل فرجهم وإهلاك أعدائهم، فإن ذلك لاحق بحقهم أو سأل الله تعالى ما أمره به أو ما ندبه إليه أوْ أباحَهُ فإنّ ذلك تابع لحقّهم والفرق بين الأول والثاني أنّ الأوّل من مكمّلات حقهم عنده تعالى، والثاني من متمّمات حق شيعتهم ومحبيهم أو مكمّلاته فمن سأل الله تعالى بحقّهم وبجاههم ما كان موافقاً لجاههم، فإنّ الله تعالى لا يردّه لحصول الرابطة وهو وصل ما أمر الله به أن يوصل فإن عرف الله تعالى كانت الإجابة على أثر الدعاء وإلاّ فإمّا أن يكون كفارة لبعض ذنوبه أو تؤخّر الإجابة إلى حين المصلحة في الدنيا أو في البرزخ أو

في القيامة ولا يرد الله تعالى داعياً بحقّهم وبجاههم إن كان صادقاً، وتفصيل هذا المقام يطول به الكلام.

والحاصل أنّ لهم جاهاً عظيماً عند الله عز وجل وهو في الباطن أن الله تعالى جعلهم وجهه الذي يتوجّه إليه الأولياء لأنّهم عليهم السلام الدليل إليه لا غيرهم وهو معنى ما أردنا بقولنا قبل والجاه هو الوجه ثم قلنا والوجه الجهة ومستقبل كل شيء وآيته الّتي أرانا الله إيّاها في الآفاق في قوله تعالى (سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ) الآية.

والمثل المضروب لذلك ولله المثل الأعلى مثل السراج، فإنّ المرئي منه هو الشعلة الظاهرة وأصلها الدخان الذي كلّسَتْه النار من الدهن فانفعل ذلك الدخان بمسّ النار أي بفعلها من الحرارة واليبوسة العرضيّين.

وأمّا النار الحقيقيّة التي هي الحرارة واليبوسة الجوهريّتان فهي غيبٌ لم تظهر بذاتها وإنما ظهرت بأثرِ فعلها وهو الشعلة المرئيّة فإنّها بحرارتها ويبوستها العرضيتين اللتين هما عبارةٌ عن فعلها أحرقت الدهن وجَفّفتْه حتى كان دخاناً فاستضاء عن فعل النار، وقد ذكر هذا المعنى الشيخ أبو علي في الإشارات حيث قال (اعلم أن استضاءة النار السائرة لما وراءها إنّما تكون إذا علقت شيئاً أرضيّاً ينفعل بالضَّوْء عنها إلى أن قال فإذا طفيت انفصلتِ النار هواءً والكثافة دخاناً) انتهى.

فالشعلة هي المرئيّة وهي الدخان المستحيل من الدهن انفعل بالضوء عن مسّ النار، وهو الوجه والجهة للنار وليس لها وجه غيره ولم يوجد شيء من الأشعّة المنبثّة في أقطار البيت إلاّ من الشعلةِ وبواسطتها، والفاعل هو النار المحتجبة بالشعلةِ عن جميع الأشعّة واقفون بباب الباب وهو الشعلة سائلون

بفقرهم من جناب النار وهو الشعلة فكل شيء من الأشعة متوجّه في جميع وجوداته ومطالبه إلى الشعلة لا لها بل للنار الفاعلة للشعلة بفعلها وللأشعّة بواسطة الشعلة، فالشعلة آيتهم ومَثلُهم عليهم السلام والأشعّة المنبسطة على سائر جُدُرِ البيت وسقفِه شيعتهم ومحبّوهم وجميع أتباع محبّيهم من الحيوانات والنباتات والجمادات، وعكوسات الأشعّة أعداؤهم واتباع أعدائهم من الحيوانات والنباتات والجمادات، وجميع الأشعّة متوقفة على الشعلة ومتقوّمة بها ومنتهية إليها ومستمدة لوجودها وبقائه منها وبواسطتها، وكذلك العكوسات بواسطة الأشعّةِ والشّعلة هي وجه النار الغائبة عن دَركِ الإحساس وهي أي الشعلة آيتهم ومثالُهمْ، والنّار الغائبة آيةُ الحقِ تعالى آيّةُ استدلالٍ عليه لا آية تكْشِفُ له، فتدبر هذا المثل الذي ضربه سبحانه آية للحقِ في الآفاق.

فهل يمكن أنْ تمد النارُ شيئاً بغير واسطة الشعلة، أو يصل شيء من الأشعة إلى النار بعملٍ أو في استمدادٍ بدون الشعلةِ، وكذلك جميع عكوسات الأشعة لا يمكن أن تستمدّ من الشعلة بدون واسطة الأشِعّة.

كذلك جميع الخلق لا يمكن أن يصل أحد من الخلق إلى الله تعالى في استمدادٍ أو وجودٍ أو بعمل بغير واسطتهم صلى الله عليهم ولا يَصِلُ من الله تعالى فيضٌ ولا إمداد إلى أحد من الخَلْقِ بغير واسطتهم فهم عليهم السلام وجه الله الذي يتوجّه إليه الأولياء (فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ الله)(كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ)(كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ وَيَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرامِ)فمَنْ سأل الله تعالى شيئاً يرضى به فكالشعاع في استمداده بواسطة الشعلة وهو مقبول ثابت، ومن سأل الله تعالى

شيئاً لا يرضى به فكالعكوسات في استمدادها بغير واسطة الأشعّة وهو مردود منفي ولو كان مقبولاً ثابتاً لكانتِ العكوسات أشعّة لا عكوساتٍ فافهم.

وبالجملة فكل شيء إنّما يتلقّى من الله تعالى بواسطتهم فيعطى لأجل عظمِ جاههم عنده لا فرق في ذلك بين الشريف والوضيع والعالي والرفيع، ولهذا كانَ جميع الأنبياء والمرسلين الّذين هم أقرب الخلق بعد النبي ﷺ وأهل بيته عليهم السلام إلى الله تعالى وأحبّهم إليه وأوجههم عنده لا ينالون مطالبهم من اللهِ تعالى إلاّ بحقهم وجاههم عليهم السلام.

ففي جامع الأخبار وأمالي الصدوق بسندِهما إلى معمر بن راشد قال (سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول أتى يهودي إلى رسول الله ﷺ فقام بين يديه يحد النظر إليه فقال يا يهودي ما حاجتك فقال أنت أفضل أم موسى بن عمران النبي كلمه الله عز وجل وأنزل عليه التوراة والعصا وفلق له البحر وأظله بالغمام فقال له النبي ﷺ إنه يكره للعبد أن يزكي نفسه ولكني أقول إن آدم لما أصاب الخطيئة كانت توبته أن قال اللهم إني أسألك بحق محمد وآل محمد لما غفرت لي فغفرها الله له وإن نوحا عليه السلام لما ركب السفينة وخاف الغرق قال اللهم إني أسألك بحق محمد وآل محمد لما أنجيتني من الغرق فأنجاه الله عز وجل وإن إبراهيم عليه السلام لما ألقي في النار قال اللهم إني أسألك بحق محمد وآل محمد لما آمنتني فجعلها بردا وسلاما وإن موسى عليه السلام لما ألقى عصاه وأوجس في نفسه خيفة قال اللهم إني أسألك بحق محمد وآل محمد لما آمنتني قال الله تعالى لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلى يا يهودي إن موسى عليه السلام لو أدركني ثم لم يؤمن بي وبنبوتي ما نفعه إيمانه شيئا ولا نفعته النبوة يا يهودي ومن ذريتي المهدي إذا خرج نزل عيسى ابن مريم عليه السلام لنصرته فقدمه

ويصلي خلفه).

وفي الاختصاص بسنده إلى المفضل بن عمر قال (قال لي أبو عبدالله عليه السلام إن الله تبارك وتعالى توحد بملكه فعرّف عباده نفسه ثم فوض إليهم أمره وأباح لهم جنته فمن أراد الله أن يطهر قلبه من الجن والإنس عرفه ولايتنا ومن أراد أن يطمس على قلبه أمسك عنه معرفتنا ثم قال عليه السلام يا مفضل والله ما استوجب آدم عليه السلام أن يخلقه الله بيده وينفخ فيه من روحه إلا بولاية علي عليه السلام وما كلم الله موسى تكليما إلا بولاية علي عليه السلام ولا أقام الله عيسى ابن مريم عليه السلام آية للعالمين إلا بالخضوع لعلي عليه السلام ثم قال أجمل الأمر ما استأهل خلق من الله النظر إليه إلا بالعبودية لنا) هـ.

أقولُ وأنْتَ إن اطّلعتَ على ما أشرنا إليه فحسن وإلاّ فعليك بالدليلين الصحيحَيْن الدليل العقلي وهو ما ذكرنا من البيان والمثل الحقّ الذي ضربه الله لذلك، والدليل النقلي وهو ما ذكرتُ لك من الأخبار وغير ما ذكرتُ ولا سيّما هذا الحديث الأخير مما ذكرت فإنه عليه السلام قال أُجْمِلُ لكَ الأمر ثم بَيَّنَ عموم هذا لجميع الخلق وهو الصادق في قوله على الله تعالى.

قوله عليه السلام (والشأن الكبير) أقول: قد تقدّم بيان الشأن وبيان الكبير وإنّما ذكرهما هُنا لأنّه عليه السلام في صددِ ما تَحقّقَ لهم بالنظر إلى كَوْنه عند الله على جهة الادِّخَار للمُجازاة لهم على صدقهم عليهم السلام معه تعالى في جميع المواطن على وفقِ ما عاهدوه عليه ممّا أراد منهم وعاهدهم عليه فأعدّ لهم هذه المراتب والمنازل والمقامات بقبولهم وطاعتهم وبحقيقة ما هم أهله حيثُ يقول تعالى (الله أَعْلَمُ

حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ).

وكان مدركنا لهذه الأشياء ووَصْفنا لها بمعونةِ ما بَيَّنُوا لنا إنَما هو بحسب حقائق ذواتِنا وما يمكن فيها لا بحسب تلك الأشياء على ما هي عليه وإنّما هو كما ظهرَتْ لنا بما يمكنُنَا، وذلك على حدِّ ما قال البُوصيري في وصف صفات النبي ﷺ في قصيدته الهمزيّه حيث يقول (إنّما مَثّلُوا صفاتِك للناسِ كما مَثّلَ النجومَ الماءُ وما أحسن ما قال في هذا المجال).

وقوله عليه السلام (والشَّفاعة المقبولة) الشّفاعة مصدر شفَع كمنَع وربّما كان استعمالها على جهة النقل فهي اسم لسؤال التجاوز والصفح عن الذنوب والجرائم، وقيل كما يشفع صاحب الشفاعة لأهل الذنوب في التجاوز عنها كذلك يشفع للمطيعين ليزيد في درجتهم في الجنّة، والمستفاد من الأدلّة العقلية والنّقلية صحة هذا القول وهو قول المعتزلة ولا ينافيه قوله رَسُولُ الله ﷺ (إِنَّمَا شَفَاعَتِي لأَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي) لأنَّ قوله ﷺ ذلك لبيانِ قبول شفاعتِهِ عِند الله تعالى حتى في الكبائر لأنّ الله تعالى قال (اشفَع تُشَفَّعْ واسأل تُعْطَ)فإذا كانت مقبولة في الكبائر ففي رفع الدرجات تقبل بطريقٍ أولى لأنّه ﷺ كثيراً ما يقول لعليّ عليه السلام ما معناه إن شيعتك معنا في الجنّة ولا رَيب أنّ شيعتهم لا يصلون إلى مجاورتهم في الجنّة بأعمالهم إذ لا يجاورونهم في الأعمال ولا يزاحمونهم فيها ولا يجاورونهم في الجنة من جهة المجاراة، وإنّما يجاورونهم من جهة الفضل وهو بالشفاعة لأنها متمّمة لنقص القابليّة لا أنّها تمام القابلية وإلاّ لصلحت لأعدائهم مع أن الله تعالى نفى ذلك إلاّ مع القابلية فأشار إلى ذلك بقوله الحق (وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ) فإذا كان المشفوع له صالحاً للشفاعة بمعنى أنه ممّن ارتضى الله دينه وهو المؤمن فإنه

صالح لسكنى دار رضى الله تعالى وهي الجنّة، إلا أنه ربّما حصل له من تقصيراته عوائق عنها فتقعد به نقصان أعماله التي هي حدود قابليته لرضى الله فتتمِّمُهَا شفاعةُ الشافع أو قعد به نقصانها عن الكمال فلم يصل إلى أعالي الدرجات فتأخذ بيده شفاعة الشافع حتى تُبلِغه بتكميل أعماله إلى أعالي الدرجات.

وفي الكافي عن الباقر عليه السلام (وَإِنَّ الشَّفَاعَةَ لَمَقْبُولَةٌ وَمَا تُقْبَلُ فِي نَاصِبٍ وَإِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيَشْفَعُ لِجَارِهِ وَمَا لَهُ حَسَنَةٌ فَيَقُولُ يَا رَبِّ جَارِي كَانَ يَكُفُّ عَنِّي الأَذَى فَيُشَفَّعُ فِيهِ فَيَقُولُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَا رَبُّكَ وَأَنَا أَحَقُّ مَنْ كَافَى عَنْكَ فَيُدْخِلُهُ الْجَنَّةَ وَمَا لَهُ مِنْ حَسَنَةٍ وَإِنَّ أَدْنَى الْمُؤْمِنِينَ شَفَاعَةً لَيَشْفَعُ لِثَلاثِينَ إِنْسَاناً فَعِنْدَ ذَلِكَ يَقُولُ أَهْلُ النَّارِ فَمَا لَنَا مِنْ شافِعِينَ وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ) هـ.

فبيّن عليه السلام مراد الله في كتابه في قوله تعالى (وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضى) بقوله عليه السلام وما (تُقْبَل في ناصب) لأنّها قبيحة في حقّهِ في الحكمة لأن مقتضى طينتِه من عمله وعمله من طينتِه خلاف مقتضى الشفاعة، كما قدمنا الكلام في معناه في قوله عليه السلام (والجاه العظيم) ولو جاز له لسقطت فائدة التكليف بالأعمال، لأن الشفاعة لا تضيق عن القبول فيمن لا عمل له ويتساوى في ذلك جميع الخلق، ولو كان ذلك جائزاً لجرى فعل الله على غير المقتضى ولو كان كذلك لكان الخلق كله نفساً واحدة لأن التعدّد إنّما حصل بتعدّد القوابل للفعل ولو انتفت فائدة تعدّد القابليات والمشخصات اتّحد تعلّق الفعل ولو اتّحد تعلّق الفعل انتفت فائدة الإيجاد الكَوْني وإن أمكن الإيجاد الإمكاني ويبطل النظام وتعالى الله عن الرضى بقبول الشفاعة للناصب علوّاً كبيراً. وما ذكر عليه السلام من ذكر الشفاعة للمؤمن لا ينافي ما نحن بصدده من أنّ لهم عليهم السلام الشفاعة المقبولة لأنّ الشفاعة لهم

وهم يشفعون لشيعتهم وشيعتهم يشفعون لمحبّيهم وأصدقائهم وجيرانهم وهو عليه السلام ذكر شفاعة المؤمنين إذا شفعوا لهم في أن يشفعوا.

وفي تفسير علي بن إبراهيم في قوله تعالى (فَما لَنا مِنْ شافِعِينَ وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ عنهما عليهما السلام والله لنشفعن في المذنبين من شيعتنا حتى يقولوا أعداؤنا إذا رأوا ذلك فَما لَنا مِنْ شافِعِينَ وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ).

وفي المحاسن عن الصادق عليه السلام (الشافعون الأئمة والصديق من المؤمنين) هـ.

لأنّهم يشفعون لشيعتهم أن اشفعوا فيمن تحبّون فإذا شفعوا فيهم وشفّعوهم كسي المؤمن حلّة الشفاعة بفضل شفاعتهم صلى الله عليهم حتى أنّه إذا أحب جرى القبول له من الله عز وجل كما أحبّ ولقد روي في المجمع عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم (إن الرجل يقول في الجنة ما فعل صديقي فلان وصديقه في الجحيم فيقول الله تعالى أخرجوا له صديقه إلى الجنة فيقول من بقي في النار فَما لَنا مِنْ شافِعِينَ وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ) هـ.

والشفاعة المقبولة يراد منها التصرّف المطلق في أمر الحساب والجنّة والنار يفعلون بولاية الله سبحانه وتوليته إياهم الولاية العامّة ما يشاءون من غير مراجعة في كلّ جزئي جزئي، لأن الله سبحانه خلقهم على أكمل مزاج يحتمله الإمكان فاقتضت حكمته الحَق أن يُشهدهم خلق كلّ شيء وينهي إليهم علم كلّ شيء ويجعلهم أولياء على كلّ شيء، ولايةً مطلقة غير مقيّدةٍ وعامّةً غير خاصّةٍ ومن ذلك أن جعل سبحانه إياب خلقه إليهم وحسابهم عليهم لما بيّنا مراراً متعددة أنه تعالى خلق كلّ شيء لهم كما تواترت به أخبارهم معنىً تواتُراً ملأ

آذان الموالي والمعادي حتى لا يجهله أحدٌ وإن كان من الناس من يردّ ذلك عداوة وحسدا، ومنهم من يردّه جهلاً منه لعدم احتماله لَهُ لأنّ عقله لم يتأدب بآدابهم ولم يتخلّق بأخلاقهم فلم يحتمل كلامهم الصعب المستصعب، لا لأنّه لم يسمع به بل كلّ مَن تتبّع آثار الفريقَيْن وجد هذا المعنى في الأحاديث من الطرفين قد ملأ الخافقين فلمّا خلقهم لهم عليهم السلام وجعلهم عليهم السلام أولياء أمور الخلق كلهم وأولى بهم من أنفسهم فوّض أمور الخلق إليهم، وليس معنى هذا التفويض رفع يده واستقلالهم بالخلق لأن هذا شرك بالله -تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً- ولكن معناه ما ذكرناه سابقاً في مواضع متعدّدة من أن معناه أن الله سبحانه خلقهم له فلم يجعل لهم مشيّة غير مشيّته ولا إرادة غير إرادته لأنه تعالى جعلهم محالّ مشيّته وألْسِنَةَ إرادته كما قال تعالى في حقهم (وَما تَشاؤُنَ) يا آل محمد (إِلاَّ أَنْ يَشاءَ الله) وكما قال في حق نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم (وَما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلكِنَّ الله رَمى)وقال في حقهم (لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ)مع أنهم عليهم السلام خلق له فهم أبداً قائمون به قيام صدورٍ لا غنى لهم عنه طرفة عينٍ أبداً فلا ينطقون إلاّ بما نطق فيهم من مشيّته ولا التفاتَ لهم إلى شيء من إِنيّاتهم ليقع منهم غير ما أراد سبحانه، فقولهم قول الله وفعلهم فعل الله وإرادتهم إرادة الله سبحانه ومن نظر في أحاديثهم وأدعيتهم وكثير منها مجمع عليه بين الفرقة المحقّة وجد ما ذكرناهُ وأعظم ممّا أشرنا إليه.

ومنه ما تقدم في حديث الوسيلة وغيره، ومنه ما رواه المفضل بن عمر قال (قلت لأبي عبدالله عليه السلام إذا كان علي عليه السلام يدخل الجنة محبه والنار عدوه فأين مالك ورضوان إذاً فقال يا مفضل أليس الخلائق كلهم يوم القيامة بأمر محمد صلى الله عليه وآله وسلم قلت

بلى قال فعلي عليه السلام يوم القيامة قسيم الجنة والنار بأمر محمد صلى الله عليه وآله وسلم ومالك ورضوان أمرهما إليه خذها يا مفضل فإنها من مكنون العلم ومخزونه) .

ومنه ما في رجال الكشّي بسنده إلى الحسن بن علي بن فضال يقول (عجلان أبو صالح ثقة قال قال له أبو عبدالله عليه السلام يا عجلان كأني أنظر إليك إلى جنبي والناس يعرضون علي) .

وفي مناقب ابن شاذان رفعه إلى جابر عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام قَالَ (يَا جَابِرُ إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ جَمَعَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ لِفَصْلِ الْخِطَابِ دُعِيَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم وَدُعِيَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام فَيُكْسَى رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم حُلَّةً خَضْرَاءَ تُضِيءُ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَيُكْسَى عَلِيٌّ عليه السلام مِثْلَهَا وَيُكْسَى رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم حُلَّةً وَرْدِيَّةً يُضِيءُ لَهَا مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَيُكْسَى عَلِيٌّ عليه السلام مِثْلَهَا ثُمَّ يَصْعَدَانِ عنْهَا ثُمَّ يُدْعَى بِنَا فَيُدْفَعُ إِلَيْنَا حِسَابُ النَّاسِ فَنَحْنُ وَاللهِ نُدْخِلُ أَهْلَ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ وَأَهْلَ النَّارِ النَّارَ ثُمَّ يُدْعَى بِالنَّبِيِّينَ عليهم السلام فَيُقَامُونَ صَفَّيْنِ عِنْدَ عَرْشِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ حَتَّى نَفْرُغَ مِنْ حِسَابِ النَّاسِ فَإِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ بَعَثَ رَبُّ الْعِزَّةِ عَلِيّاً عليه السلام فَأَنْزَلَهُمْ مَنَازِلَهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ وَزَوَّجَهُمْ فَعَلِيٌّ وَاللهِ الَّذِي يُزَوِّجُ أَهْلَ الْجَنَّةِ فِي الْجَنَّةِ وَمَا ذَاكَ إِلَى أَحَدٍ غَيْرِهِ كَرَامَةً مِنَ اللهِ عَزَّ ذِكْرُهُ وَفَضْلا فَضَّلَهُ اللهُ بِهِ وَمَنَّ بِهِ عَلَيْهِ وَهُوَ وَاللهِ يُدْخِلُ أَهْلَ النَّارِ النَّارَ وَهُوَ الَّذِي يُغْلِقُ عَلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ إِذَا دَخَلُوا فِيهَا أَبْوَابَهَا لأَنَّ أَبْوَابَ الْجَنَّةِ إِلَيْهِ وَأَبْوَابَ النَّارِ إِلَيْهِ) .

وعن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال (يا علي أنت صاحب الجنان وقاسم النيران ألا وإن مالكا ورضوان يأتياني غدا عن أمر الرحمن فيقولان لي يا محمد هذه مفاتيح الجنة والنار هبة من الله إليك فسلِّمها إلى علي بن أبي طالب فأدفعها

إليك فمفاتيح الجنة والنار يومئذ بيدك تفعل بها ما تشاء)هـ .

وفي مناقب ابن شهر آشوب قال (قال أمير المؤمنين عليه السلام فيَّ نزلت هذه الآية إِنَّ إِلَيْنا إِيابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا حِسابَهُمْ) ، وفي كنز الكراجي بإسناده إلى محمد بن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده عليه السلام في قوله عز وجل (إِنَّ إِلَيْنا إِيابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا حِسابَهُمْ قال إذا كان يوم القيامة وكلنا الله بحساب شيعتنا فما كان لله سألناه أن يهبه لنا فهو لهم وما كان لمخالفيهم فهو لهم وما كان لنا فهو لهم ثم قال هم معنا حيث كنا) هـ .

وفيه في رواية عبدالله بن سنان عن الصادق عليه السلام كمعنى ما قبله وفيه (وما كان للآدميين سألنا الله أن يعوضهم بدله فهو لهم) .

وبالجملة الأخبار في هذا المعنى من الشفاعة العامة لا تكاد تحصى وهذا لا إشكال فيه لأنّ الله سبحانه المالك لخلقه جعل أمر خلقه إليهم في أمر الدنيا والآخرة تكرمةً لهم ونظراً لمصلحة خلقِه لأنه تعالى لما كان متكرّماً عن معاناة أمور الخلائق وكان عز وجل بحالٍ من الجلال والعظمة والقهّارية لا تستطيع الخلائق ظهوره لها لأنه لو كشف حجاباً من حجب النور التي ضربها بين ظهوره وفعله وبين خلقه وهي سبعون ألف حجاب لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه، ولهذا لمّا سأله موسى عليه السلام ما سأله قال له (انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكانَهُ فَسَوْفَ تَرانِي) فأمر رجلاً من الكروبين من شيعة علي عليه السلام من الخلق الأول الذين لو قسم نور واحدٍ منهم على أهل الأرض لكفاهم فأمر ذلك الرجل منهم وكان نوره من نور الستر بقدر الدّرهم أو بقدر سم الإبرة فتقطّع

الجبل فكانت قطعة منه هباء وهو هذا الهباء الموجود الذي هو مع الكرة البخارية وهو الذي بين والأرض والسماء من الأرض مرتفعاً إلى نحو سبعة عشر فرسخاً وثلث فرسخ، كما ذكره بعض علماء الهيئة ما كان منه غليظاً كان مما يلي الأرض وكلما ارتفع كان ألْطف وبه حياة الحيوانات البريّة لأنّه معين للماسكة، وقطعة منه ساخت في البحر فكانت في الماء كما كانت الأولى في الهواء وبها بقاء حياة حيتان البحر، وقطعة ساخت في الأرض فهي تهوي حتى تقوم الساعة وبها بقاء حياة الجانّ العاتين والشياطين المتمردين، أو أنّ القطعة الثالثة كانت ربوةً باقية على وجه الأرض ونور هذا الرجل عليه السلام الذي هو من شيعة علي عليه السلام إذا نسب نور الشمس إلى نوره كان نسبة الواحد إلى ثلاث مائة ألفٍ وثلاثة وأربعين ألفاً ونسبة نور هذا الرجل عليه السلام إلى نور إمامه ووليه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صلوات الله وسلامه عليه كنسبة نورِ شعاع خرج من سمّ الإبرة إلى نور الشمس وأنوار سائر الأئمة الأحد عشر وفاطمة عليها السلام كنور عليّ عليه السلام لأن أنوارهم عليهم السلام من نوره كالضوء من الضّوء فإذا كان هذا نور رجلٍ من شيعة علي عليه السلام ونور عليّ عليه السلام محلّ مشيّته تعالى فكيف يُطيق أحد من الخلق ظهور فعله له بغير حجاب.

فلمّا علم سبحانه أن ظهور فعله بغير حجاب لا يقوم له شيء من خلقه لطفَ بهم ورحمهم فأظهر لهم من رحمته حجبا اتخذهم أعضاداً لخلقه لأنّهم أقوياء جعلهم قادرين على التلقّي من فعله لأنهم محالّ مشيّته وقادرين على الأداء إلى الخلق لمناسبتهم لهم ويقدر الخلق على التلقّي منهم لمشاركتهم لهم في البشريّة وأحكامها وكان الخلق متساوين في النسبة إلى هذه الأمور، فلهذه الأمور قلنا إنّ

أمور الخلق راجعة إليهم في أوّل خلقهم وفي الدنيا والآخرة في كل شيء.

ومن الأدلّة النقلية على أن الخلق لا تستطيع التلقّي منه تعالى، فأقام لهم محمّداً وأهل بيته صلّى الله عليه وأهل بيته لأنّ الخلق لا يقومون لشيء من ظهوراته، قول أمير المؤمنين عليه السلام في خطبته يوم الغدير والجمعة إلى أن قال (وأشهد أن محمدا عبده ورسوله استخلصه في القدم على سائر الأمم على علم منه انفرد عن التشاكل والتماثل من أبناء الجنس وانتجبه آمرا وناهيا عنه أقامه في سائر عالمه في الأداء مقامه إذ كان لا تُدْرِكُهُ الأَبْصارُ وهو يدرك الأبصار ولا تحويه خواطر الأفكار ولا تمثله غوامض الظنون في الأسرار لا إله إلا هو الملك الجبار قرن الاعتراف بنبوته بالاعتراف بلاهوتيته) .

ومن الدليل على أنّه تعالى خلقهم على أعْدلِ مزاج لأجل ما اختصّهم به ممّا حمّلهم من القيام مقامه في سائر عالمه، قوله عليه السلام بعد ذلك الكلام المتقدّم (واختصّه من تكرمتِه بما لم يلحقه فيه أحدٌ من بريّتِه فهو أهْلُ ذلك بخاصته وخلّتِه إذْ لا يختَصُّ مَنْ يَشُوبُه التغيير ولا يُخالِلُ مَنْ يلحقه التّظنينُ وأمر بالصلاة عليه مزيداً في تكرمَتِه وطريقاً للدّاعي إلى إجابته فصلّى الله عليه وآله وكرّم وشرّف وعظّم مزيدا لا يلحقه التفنيد ولا ينقطع على التأبيد وإنّ الله تعالى اختصّ لنفسه من بعد نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم من بريّته خاصّةً علاّهم بتعليته وسما بهم إلى رتبته وجعلهم الدعاة بالحق إليه والأدلاّء بالإرشاد عليه لِقَرْنٍ قَرْن وزمنٍ زمن أنْشأهم في القِدَم قبل كلّ شيءٍ مذوء ومبروء أنواراً أنطقَها بتحميدِه وألهمها شكره وتمجيده وجعلها الحجج على كلّ معترفٍ له بملكَة الربوبيّة وسلطان العبوديّة واستنطق بها الخرسات بأنواع اللغات بُخوعاً له بأنه فاطر الأرضين والسموات وأشهدهم خلقه) وفي نسخه

(خَلْقَ خَلْقِه) وهو الذي تدلّ عليه أخبارهم وكتاب الله تعالى قال ﵇ (وولاهم ما شاء من أمره جعلهم تراجمة وحيه وألسن إرادته عبيدا لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلا لِمَنِ ارْتَضى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ يحكمون بأحكامه ويسنون سنته ويعتمدون حدوده ويؤدون فروضه......إلخ).

فبيّن ﵇ أنه تعالى إنّما أقام محمداً ﷺ في سائر عالمِه في الأَداء مقامَهُ أي في أداء جميع ما أراد إيصاله إلى خلقه من خلق ورزق وحياةٍ ومماتٍ مما يتعلّق بعقولهم ونفوسهم وأجسامهم في الدنيا والآخرة لاتحاد العلّة الموجبة لذلك وهي قوله ﵇ (إذ كان لا تدركه الأبصار....إلخ) ما ذكره من العلل وبيّن ﵇ أنّهم يجري لهم من الله تعالى ما يجري لرسوله ﷺ وإنّ الله اختص لنفسه من بعد نبيّه ﷺ ...إلخ.

وبيّن أنّه سيّدهم وبه تشرّفوا ولأجله ألحقهم الله به بقوله ﷺ (من بريتِه خاصّة علاّهم بتعليتِه وسما بهم إلى رتبته ...إلخ.

وبيّن ﵇ أنّهم ﵈ ينطقون بما يُلهِمُهم الله بقوله ﵇ أنواراً أنطقها ... إلخ).

وأنّهم الحجج على جميع خلقه بقوله (وجعلها الحجج على كل معترف له ...إلخ).

وبيّن ﵇ أنّ الله تعالى إنّما جعل من سواهم من الإنس والجنّ والملائكة والحيوانات والنبات والمعادن والجمادات معترفين بربوبيّته مقرّين له بالعبوديّة في قوله تعالى (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ) وحمدهُ تعالى هو ما أظهره لخلقه وفيهم من أنوار محمدٍ وأهل بيته ﷺ وفيوضات جودهم وتعليمهم تسبيح الله

وتحميده وتمجيده وكيفيّة عبادته ودينه الذي يرضاه من خلقه من كلّ شيء بحسبه، فإن كلّ ذلك فروعهم وأسماؤهم وأسماء الله تعالى لسائر خلقه التي يدعونه بها كما أمر بقوله عليه السلام (واستنطق بها الخَرِسات بأنواع اللغات بُخوعاً له بأنّه فاطر الأرضين والسماوات) فكلّ شيء يدعو الله تعالى بها وهي أسماؤهم وعلومهم وفروعهم وتعليماتهم وعباداتهم بالخلق وعبادات الخلق بهم.

وبيّن عليه السلام أن الله تعالى أشهدهم خلقَ أنفسهم وخلق السماوات والأرض وخَلْقَ كل شيء من خلقه وأطلعهم على علم جميع ذلك لما أراده منهم من القيام في الأداء إلى سائر عالمه مقامه وأنّه تعالى حيث اقتضت الحكمة كما أشرنا إليه من اتّخاذهم أعضاداً لخلقه فيما أراد من الخلق لعلمه تعالى بأنّهم لا يقدرون على شيء بغير واسطتهم عليهم السلام، وبواسطتهم كلّ مَن اقتدى بهم وجعلهم أئمّته إلى الله تعالى يقدر على ما أراد الله تعالى منه وهو عليه السلام يشير بهذا البيان أنّه مراد الله تعالى حيث نفاه من أعدائهم لأنّهم مضلّون لأنفسهم ولمن اقتدى بهم، فأثبتَهُ تعالى لهم عليهم السلام بالمفهوم لأنّهم الهادون لأنفسهم ولمن اقتدى بهم وسلّم لهم ليكون عند من أراد الله تعالى هدايته معلوماً وليسلمَ بتعميته عن تغيير الأعداء والخصوم وذلك في قوله تعالى (ما أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّماواتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَما كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً)، فالمفهوم أنهم عليهم السلام أشهدهم خلق السماوات والأرض أي وما فيهن وما بينهنّ وما فوقهنّ وما تحتهن وأشهدهم خلق أنفسهم فعرفوا الله حيث عرفوا أنفسهم بتعريف الله تعالى تعريف الحضور والعيان واتّخذهم أعضاداً لخلقه، كما بيّنّا سابقاً في كون علل الإيجاد الأربع إنّما تمت وتقوّمت بهم

أو منهم أو عنهم فراجع، لأنهم الهادون لأنفسهم ولمن اقتدى بهم وسلّم لهم وردّ إليهم ووالاهم ووالى وليّهم وأطاعهم وتبرّأ من أعدائهم وأولياءِ أعدائهم وعصاهم فقال ﷺ في بيان هذا كله (وأشهدهم خلقه) على إرادة أنه تعالى أشهدهم إيجاد جميع ما أحدث أو الخلق بمعنى المخلوق والمراد كالأول، وعلى النسخة الثانية وهي (وأشهدهم خلق خلقِه) المعنى ظاهر، قال ﷺ (وولاّهم ما شاء من أمره) إشارة إلى أنه تعالى أنهى إليهم علم خلقه.

قال ﷺ (وجعلهم تراجم وحيه وألْسُنَ إرادته) إشارة إلى أنهم ﷺ لا ينطقون عن الهوى بل كما قال الله تعالى في شأنهم (وَما تَشاؤُنَ إِلاَّ أَنْ يَشاءَ الله) وبيّن ﷺ أنّهم لا يعملون ولا ينطقون بعمل ولا حال ولا قول إلاّ بأمره ووحيه وأنهم ليس لهم شيء من ذلك في جميع أحوالهم، فإنّهم لو فعلوا شيئاً كثيراً أو قليلاً غير ما أمرهم به لكانوا قد سبقوه بالقول وقد أخبر تعالى بأنهم (لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ) فبيّن ﷺ ذلك بما بيّنه سبحانه له ﷺ ولهم صلّى الله عليه وعليهم ولعباده من ذلك فقال ﷺ (عبيداً لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُون...إلخ).

ثم بين ﷺ أنّ هذه الأمور ممّا بيّنها الله لعباده إنّما بيّنها لهم بعد أن أسبغ عليهم نعمه ظاهرةً وهم الحجج عليه وباطنة وهي العقول التي أثبتها فيهم لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ، فقال ﷺ (ولم يدع الخلق في بهماء صماء ولا في عمياء بكماء بل جعل لهم عقولا مازجت شواهدهم وتفرقت في هياكلهم وحققها في نفوسهم واستعبد لها حواسهم فقرر بها على أسماع ونواظر وأفكار وخواطر ألزمهم بها حجته وأراهم بها محجته وأنطقهم عما تشهد به بألسنة ذربة

بما قام فيها من قدرته وحكمته وبيَّن عندهم بها لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ الله لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ بصير وشاهد خبير) انتهى كلامه ﷺ وعلى ذرّيّته المعصومين.

ومن الدليل على أنّه لو كشف حجاباً من الحجب .....إلخ، ما رواه ابن أبي جمهور الإحسائي في كتابه المسمى بالمجلي ورواه غيره أيضاً عن النبي ﷺ على اختلاف في ألفاظ الروايات والمعنى قال ﷺ (إن لله سبعين ألف حجاب) وفي رواية (سبعمائة) وفي أخرى (سبعين من نور وظلمة لو كشف حجاب منها لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه).

أقول والمعنى الذي دلّت عليه هذه الروايات صحيح تشهد له العقول السليمة التي أراها الله سبحانه آياته في الآفاق وفي أنفسها وبيانه يطول فيه الكلام، وقد أشرنا إليه فيما تقدّم ودليل قولنا في قصّة موسى عليه السلام ما رواه ابن إدريس في مستطرفات السرائر عن بصائر الدرجات قال سئل الصادق عليه السلام عن الكروبيّين فقال (قوم من شيعتنا من الخلق الأول جعلهم الله خلف العرش لو قسم نور واحد منهم على أهل الأرض لكفاهم ثم قال إن موسى عليه السلام لما سأل ربه ما سأل أمر رجلا من الكروبيين فتجلى للجبل فجعله دكا) هـ.

وروي أن النور الذي تجلّى لموسى عليه السلام من نور العظمة بمقدار الدرهم، وروي بقدر سمّ الإبرة، ومأخذ بيان نسبة عدد نوره إلى نور الشمس من صحيحة علي بن عاصم المروي فيما يدّعون هؤلاء من رؤية الحق تعالى يوم القيامة، والدليل

على أنّهم ﷺ الحجب ما رواه الشيخ رحمه الله في آخر المصباح في زيارتهم ﷺ في رجب قال ﷺ (الحمد لله الذي أشهدنا مشهد أوليائه في رجب وأوجب علينا من حقهم ما قد وجب وصلى الله على محمد المنتجب وعلى أوصيائه الحجب) الدعاء.

وعلى أنّه تعالى اتخذهم أعضاداً يعني لخلقه ما في دعاء رجب للحجة ﷺ قال ﷺ (بدؤها منك وعودها إليك أعضاد وأشهاد ومناة وأذواد وحفظة ورواد) وقد تقدم في مواضع متعدّدة وعلى أنّهم أقوياءُ جعلهم قادرين على التلقّي من فعله ما ذكره ﷺ في خطبته المذكورة قبل هذا وقوله تعالى(ووسعني قلب عبدي المؤمن) وقوله تعالى (وَسِراجاً مُنِيراً)وقوله تعالى (وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ)(الله أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ) والأحاديث في ذلك لا تحصى.

فإذا عرفت ما أشرنا إليه ولوّحنا وما بيّنا فيما تقدم وصرّحنا عرفت أن جميع ما خلق الله تعالى من جميع خلقه ترجع أمورهم إليهم ﷺ بإذن الله تعالى أوّلاً وآخراً وظاهراً وباطناً في العالم الأول وفي الدنيا وفي البرزخ وفي الآخرة وإلى الله ترجع الأمور وهي بالله تعالى وبقدره وبقضائه الجاريَيْنِ على وجه الحكمة ووضع الأشياء في أكملِ مواضعِها ترجع الأمور إليهم لأنّه تعالى لعظيم لطفه ورحمته بعباده أجرى ذلك وهو الحكيم الخبير وإليه يرجع الأمر كله وهو على

كل شيءٍ قدير.

قال عليه السلام ربّنا آمنّا بما أنزلت واتّبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنّك أنت الوهّاب.

قال الشارح المجلسي رحمه الله (ربّنا لا تزغ) أي لا تُمِلْ قلوبنا إلى الباطل بعد معرفة الحق من (لدنك رحمة) كاملةً وهي الهداية الخاصة والكمالات انتهى.

وقال السيّد نعمت الله في شرح التهذيب (رَبَّنا آمَنَّا بِما أَنْزَلْتَ) الآية،كلام النجاشي وأصحابه الذين أسلموا معه من الحَبشةِ (بما أنزلتَ) أي بالقرآن وأنه كلام الله حق لا ريب فيه (فاكتبنا) أي فاجعلنا بمنزلة ما قد كُتِبَ ودُوِّنَ وقيل (فاكتبنا) في أمّ الكتاب وهو اللوح المحفوظ (مع الشاهدين) أي مع محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأمّته الّذين يشهدون بالحق عن ابن عبّاسٍ، وقيل مع الذين يشهدون بالإيمانِ وقيل مع الذين يشهدون بتصديق نبيّك (ربّنا لا تزغ قلوبنا....إلخ) ، حكاية عن قول الراسخين في الآية السابقة وهي قوله تعالى (وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ) وذكر أرباب التفسير في تأويله وجوها:

الأول: أن معناه لا تمنعنا أَلْطافَك فتميل قلوبنا عن الإيمان بعد الاهتداء إليه وهذا دعاء للتثبّت على الهداية والإمداد بالألطاف فكأنهم قالوا لا تخلّ بيننا وبين نفوسنا بِمنْعِك التوفيقَ والألطاف فتـزيغَ تضلّ، وإنّما يمنع ذلك بسبب ما يكتسِبُهُ العبد من المعصية ويفرّط فيه من التوبة كما قال سبحانه (فلمّا زاغوا أزاغ

الله قلوبهم).

الثاني أن معناه لا تُكَلِّفْنا من الشدائِد ما يصعبُ علينا فعله وتركه فتزيغ قلوبنا بعد الهداية ونظيره (فلما كتب عليهم القتال تولّوا).

الثالث أن المراد لا تزغ قلوبنا عن ثوابك ورحمتك وهو ما ذكره الله تعالى من الشرح والسّعة بقوله (يشرح صدره للإسلام) وضدّ هذا الشرح وهو الحرج والضيق اللذانِ يقعانِ بالكفّار عقوبة ومن ذلك التّطهير الذي يفعله في قلوب المؤمنين ويمنعه الكافرين كما قال (أولئك الذين لم يرد الله أن يُطهِّر قلوبهم).

ومن ذلك كتابة الإيمان في قلوب المؤمنين كما قال (أولئك كتب في قلوبهم الإيمان) وضدّه هذه الكتابة هي سمات الكفر في قلوب الكافرين فكأنهم سألوا الله ألاّ تزيغ قلوبهم عن هذا الثواب إلى ضدّه من العقاب.

الرابع أنها محمولة على الدعاء بأن لا يزيغ القلوب عن اليقين والإيمان ولا يقتضي ذلك أنه تعالى سُئِل عمّا لو لا المسألةُ لجاز أن يفعَلُه لأنه غير ممتنعٍ أن يدعوه على سبيل الانقطاع إليه والافتقار إلى ما عنده بأن يفعل ما يعلم أنّه يفَعله وبأن لا يفعل ما يعلم أنه واجب أن لا يفعله إذا تعلّقَ ذلِكَ ضربٌ من المصلحة كما قال سبحانه (ربِّ احكم بالحقّ) وقال (رَبنا احْكُمْ بالحقّ وأنت خير الحاكمين) وقال (ربّنا وآتنا ما وعدتَنا على رُسِلك) وقال حاكِياً عن إبراهيم عليه السلام (ولا تُخْزِني يوم يبعثون) (من لدنك رحمة) أي من عندِك لُطْفاً نتوصّل به إلى الثّباتِ على الإيمان إنّكَ أنتَ المُعْطي للنّعْمَةِ) انتهى.

أقول: قوله (ربّنا آمنّا بما أنزلت) يراد به ما أنزل من الكتب على أنبيائه ورُسله من الكتب خصوصاً ما أنزل على محمد صلى الله عليه وآله وسلم وذلك من قوله تعالى (وَقُولُوا آمَنَّا

بِاللهِ وَما أُنْزِلَ إِلَيْنا وَما أُنْزِلَ إِلى إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْباطِ وَما أُوتِيَ مُوسى وَعِيسى وَما أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ)، وذلك لمّا قالت اليهود كونوا هوداً وقالت النصارى كونوا نصارى حكى الله تعالى قولهم فقال (وَقالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصارى تَهْتَدُوا) قال لنبيّه ﷺ قل لهم (بَلْ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً) الآية ، ثم أمرهم فقال (قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ) الآية، أي (قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ) أنه إله واحد لا شريك له ولا ولد كما قالت اليهود في عزير والنصارى في عيسى عليه السلام (وَما أُنْزِلَ إِلَيْنا) يعني القرآن (وَما أُنْزِلَ إِلى إِبْراهِيمَ) من الصحف (وَإِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْباطِ) وهم أسباط يعقوب يعني ذراري أبنائه الاثني عشر من الصحف (وَما أُوتِيَ مُوسى) من التوراة (وَعِيسى) من الإنجيل (وَما أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ) من الكتب والوحي والإلهام في اليقظة والمنام (لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ) فنقول نؤمن ببعضٍ ونكفر ببعضٍ بل نؤمن بجميعهم وبجميع ما أنزل الله تعالى إليهم (وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ) منقادون لما أمر به ونهى عنه.

وروى الكليني بسنده إلى سلام بن عمرة عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله عز وجل (قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَما أُنْزِلَ إِلَيْنا) قال (إنما عني بذلك عليّاً وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام وجرت بعدهم في الأئمة عليهم السلام ثم رجع القول من الله في الناس ثم قال (فَإِنْ آمَنُوا) يعني الناس (بِمِثْلِ ما آمَنْتُمْ بِهِ) يعني علياً وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما هُمْ فِي شِقاقٍ ومنازعة ومحاربة لك يا

محمد ﷺ (فَسَيَكْفِيكَهُمُ الله وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) .

أقول: وجرت في شيعتهم وأتباعهم بالتبعيّة فيكون معنى أنزل إلينا أي إلى نبينا وأهل بيته صلى الله عليهم أجمعين أو أنزل إلينا منهم عليهم السلام وبواسطتهم فإنّا مخاطبون بالقرآن بهم يعني أنهم يخاطبوننا بمرادات الله سبحانه منّا فيه عنهم، وكان ممّا نزل عليهم في القرآن ما دلّ عليه بظاهره وبظاهر ظاهره وبظاهر ظاهر ظاهره وهكذا وبباطنه وبباطن باطنه وبباطن باطن باطنه وهكذا وبتأويل وهو كذلك أي كالظاهر في ظهوره وبُطونه ومن ظاهر ظاهره في قوله تعالى (وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ) أي من محمد ﷺ في الباطن (ما هُوَ شِفاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ) بمعنى قصرِ ما ومدّها أي مَدٍّ ما فعلى قصرها المنزل من محمد عليٌّ صلى الله عليهما وآلهما و (هُوَ شِفاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ) لأنه بابٌ باطنه فيه الرحمة ولذا قال (هُوَ شِفاءٌ) أي بذاته شفاء (ورحمة) أو بذات ولايته عليه السلام وعلى مدِّها يعني يراد بالمنزل ماءٌ وهو الماء الذي به حياة كل شيء وهو ولايته وعلمه (وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَساراً) يعني ما يزيد معنى (ما) على إرادة القصر ومعناها على إرادة المدّ لا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ أي الظالمين آل محمد حقهم عليهم السلام إلاّ خساراً.

والمراد بهذا الحق الحقّ العامّ وهو كلّ مرادٍ لله تعالى على جهة العموم ومرادنا بإرادة المدّ أنا نريد منه معنى ما الممدود فإنه يكون حينئذٍ ماء أي ماء الوجود وماء الرحمة وماء العلم ولا نريد أنه يقرأ ممدوداً لأنه غير جائز بل هو مقصور اللفظ على الإرادتين وهو من ظاهر الظاهر فإنّه يؤخذ المعنى من مادّة الكلمة سواء تغيّرت عليه الصورة أم لا، وسواء ارتبطت الكلمة بغيرها أمْ لا، يعني أنّه عليه السلام لا يزيد أعداءه لأجل عداوته إلاّ خساراً وبورا أو لا تزيد على إرادة معنى المدّ

ولايته أعداءه لإنكارهم لها إلاّ خساراً، وهو المراد بأن ظاهره من قبله العذاب لأن العذاب إنّما لزمهم بإنكاره وإنكار ولايته فكان ذلك ظاهره من قبله أي من جهته مما يلي النار فجهته ممّا يلي الجنّة حبّه وطاعته وجهته مما يلي النار بغضه ومعصيته، ويشير إلى أنّ المُنزل علي عليه السلام قوله تعالى (فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنا)وهو في الباطن علي عليه السلام وإلى كونه منزلاً من محمد صلى الله عليه وآله وسلم قوله عليه السلام (أنا من محمد كالضوء من الضوء) .

وفي تفسير القمي (النور أمير المؤمنين عليه السلام) .

وفي الكافي عن الكاظم عليه السلام (الإِمَامَةُ هِيَ النُّورُ وَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنا قَالَ النُّورُ هُوَ الإِمَامُ عليه السلام) .

وعن الباقر عليه السلام أنه سئل عن هذه الآية فقال (النُّورُ وَاللهِ الأَئِمَّةُ عليهم السلام لَنُورُ الإِمَامِ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ أَنْوَرُ مِنَ الشَّمْسِ الْمُضِيئَةِ بِالنَّهَارِ وَهُمُ الَّذِينَ يُنَوِّرُونَ قُلُوبَ الْمُؤْمِنِينَ وَيَحْجُبُ اللهُ نُورَهُمْ عَمَّنْ يَشَاءُ فَتُظْلَمُ قُلُوبُهُمْ وَيَغْشَاهُمْ بِهَا) انتهـى.

فعلى ما لوّحنا لك يكون من معاني قوله عليه السلام (ربنّا آمنّا بما أنزلت) من جميع الكتب على جميع رسلك أو بما أنزلت عليهم من ملائكتك فيما أردت من أوامرك ونواهيك أو بما أنزلت من إلهامك ووحيك أو بما أنزلتَ من حججك وآياتك أو بما أنزلت من آيات توحيدك أو بما أنزلت من أنوار ظهوراتك في مواقع نجوم علاماتِك ومقاماتك التي مَلأتَ بها أقطار سمواتِك وأراضِيك أو بخصوص ما أنزلتَ إلى نبيّك صلى الله عليه وآله وسلم من كتابك ووحيك وإلهامك أو من أوصيائه الذين شددت بهم أزره وقوّيْتَ بهم ظهره وأشركتَهُمْ في أمْره أو من خصوص ما يتعلّق بقضيّته يوم الغدير، والمفهوم من المقام المتبادر إلى الأفهام أن قوله عليه السلام (ربنا آمنا بما أنزلت)

يريد به العموم بداعي الخصوص، يعني نقول كما قالت الحواريّون ونريد به جميع ما أنزل الله على رسوله محمد ﷺ بداعي خصوص ما أنزل مما يتعلّق بقضيّة يوم الغدير مما أنزل في أمر الولاية وتعيين من عيَّنه الله تعالى لها من علي عليه السلام والأئمّة من ذرّيّته عليهم السلام والنصِّ على نصبهم لها وأخذِ البيعة لهم عن الله تعالى وعن رسوله ﷺ من جميع الخلائِق ممنْ حضر ومَنْ لم يحضر من وُلِدَ وممّن لم يولد من جميع الخلائق إلى يوم القيامة.

وقوله عليه السلام (واتبعنا الرّسول) فيما دعى إليه وأمر به من توحيد الله ومعرفته ومعرفة ما وصف به نفسه لنا ومن الإيمان به وبملائكته وكتبه ورسله وبأوصيائهم على محمد وآله صلى الله عليهم أجمعين وباليوم الآخر وبتصديقه فيما جاء به من أحوال النشأتين ومن الدين الإسلام والإيمان وغير ذلك من مرادات اللهِ من عباده التي هي آثار الولاية وصفاتها وفروعها ومن الأمر بقبولها ومن بيان حقيقتها وأنها الدين وأن لا دينَ إلاّ بها وبيان أهْلها القُوَّام بها وبيان وجوب طاعتهم وأنهم معيّنون لتحمل الولاية وتأدية أحكامها إلى الرّعيّة من الله سبحانه وأنه يجب متابعتهم والأخذ عنهم والتسليم لهم وأنّهم أولى بالخلق من أنْفُسِهم وأنه لا يجوز أن يتقدمهم أحد بعد رسول الله ﷺ ولا يتأخّر عنهم متأخّر وأنّ اللازم لهم لاحق والمتقدّم لهم مارق والمُتأخّر عنْهُمْ زاهق وهو عهد منّا أخذه الله سبحانه فأعطيناه العهد من أنفُسنا بذلك إنّا آمنّا بما أنزل واتَّبعْنا الرّسول في جميع ما أمر، ومن جملة ذلك أنه ﷺ أمرنا باتّباعهم عليهم السلام في جميع ما أمروا فيكون المعنى آمنّا بما أنزلت واتَبعنا الرسول وآل الرسول في جميع أوامرهم ونواهيهم وإراداتهم، وهذا هو المراد من الآية ومن المذكور في الزيارة، وإنّما لم

يصرَّحْ به في القرآن لئلاّ يسقطه أعداؤهم، وفي الزيارة ليبيّن أنّ المراد به ما أريد في الآية من إرادة العموم وخصوص أحكام هذه الأمّة وخصوص أحكام الولاية وخصوص أحكام إرادة أهلها المخصوصين عليهم السلام.

وقوله عليه السلام (فاكتبنا مع الشاهدين) يراد منه أنّا نسألك بكرمك ونعمك اللّذَيْن ابتدأتَنا بهما رحمة منك لنا من غير استحقاق لذلك إلاّ كرماً وجوداً منك حتى جعلتنا من الموالين لأوليائك وأولياء أوليائك والمعادين لأعدائك وأعداء أوليائك وأتباعهم وما كنّا لنهتدي لهذا لولا أن هديتنا وحبّبْتَ إلينا الإيمان بك وبكتبك وملائكتك ورسلك وأوصياء رسلك صلى الله على محمد وآله وعليهم أجمعين وبما جاءوا به منك وأخبروا عنك خصوصاً نبيّنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأوصياؤه صلى الله عليه وعليهم والقبول منهم والتسليم لهم والائتمام بهم والرضا بهم أئمة وسادة وقادة في الدنيا والآخرة، وزيّنت ذلك في قلوبنا وكرّهتَ إلينا أعداءهم والميل إليهم والبراءة منهم ومن أشياعهم وأتباعهم ومن اعتقاداتهم وأعمالهم وأقوالهم ودينهم وسنتّهم وجميع فروعهم فضلاً منك علينا وجعلتنا بما تفضّلت به علينا ووفّقْتنا له من طاعتك في اتّباع أوليائِك وفي مجانبة أعدائهم بقلوبنا وبما نستطيع بتوفيقك بألْسِنَتِنا وأعمالِنا مؤمنين بما أنزلت مصدّقين لما قلتَ مسلّمين لأمرك ومتّبعين لأوليائك وموالين لهم ولأوليائهم ومعادين لأعدائهم ومن تبعهم في معاداة أوليائك ورضي بذلك من الجن والإنس، نسألك بكرمك ونعمك وتفضلك علينا بذلك وبأوليائك الأبرار وبموالاتهم وبالبراءة من أعدائهم وبك يا الله فليس يعدلكَ شيْء أن تُصلّي على محمد وآله الطاهرين وأن

تُضاَعِفَ اللعن على أعدائهم وظالميهم ومن رضى بذلك أجمعين، وأن تكتُبنَا مع الشاهدين لك بذلك بما ابتدأتهم به من فضلك وأسبغتَ عليهم من نعمك وأمددتَهم بتوفيقك وقويّتهم على طاعتك ورفعتَ عنهم ثقل العمل بحقيقة ما هم أهله من عنايتك وفضلك حتى كشفتَ لهم عن بصائرهم غشاوات طبائعهم وصوارف لطخ أعدائهم وأعدائك في أوليائك عليهم السلام بما تفضّلتَ به عليهم ووفّقتهم له من مراضيك فعاينوا حقائق ما أردت منهم وندبْتهم إليه وأوقفتهم عليه وأَرَيْتَهُمْ إيّاه لما سبق لهم من الهدى فشهدوا لك بما أبصروا ورأوا بتبصيرك وإراءتك من أركان الإيمان وشعبه وبتوفيقك لهم للقيام بموجبه فاكتبنا معهم بأن توفّقنا لما وفّقتَهم له وتعينَنا على ما أعنتَهُمْ عليه وتتمّم لنا نقص ما يوصل إلى ما وصلوا إليه فإن ذلك عليك سهل يسير وأنت على كل شيء قدير.

ومعنى هذه الكتابة بالعبارة الظاهرة التي يكون معناها مشرعةً لكل خائض هو ما ذكره السيّد الأوّاه السيّد نعمت الله رحمه الله فيما تقدم من كلامه في بيان ذلك.

وأمّا حقيقة هذه الكتابة فإنها من المكتوم من أسرار العلوم التي لا تُسَطَّر في كتاب ولا تذكر في جواب ولا تسمع من خطاب إلاّ إذا كان من المعصوم صلوات الله عليه، فإنّ ما كتبتُ لك في هذا الشرح فإنه من كلامهم عليهم السلام، ولكن لا يعرف ذلك كل أحد إلاّ من علّموه وسلكوا به تلك المسالك لأن أمثال هذه الأمور لا تذكر في السطور إلاّ تلويحاً ورمزاً منهم عليهم السلام لأرباب القلوب التي في الصدور، وقد قال جعفر بن محمد صلوات الله عليهما (ما كلّ ما يعلم يقال ولا

كلّ ما يقال حان وقته ولا كلّ ما حان وقته حضر أهله) انتهى.

إلاّ أن السّائل مِنّي لشرح هذه الزيارة الشريفة السيد حسين بن السيد محمد قاسم الحسيني الأشكوري الجيلاني أصلاً الرشتي مسكناً تغمّده الله برحمته وأسكنه بحبوحة جنّته التمس منّي أن أكتب في هذا الشرح الحقائق والأسرار والبواطن المستورة فأجبته بعد الالتماس الشديد إلى ذلك فكتبتُ فيه من أوله إلى آخره على نحو ما طلب ولم أترك إلاّ ما أعلم أنه لا يجوز بيانه ولا كتابته ولا إجابة السائل، وكم من خبايا في زوايا ، وبيان معنى هذه الكتابة المذكورة على الحقيقة من تلك الأسرار المكتومة حتّى أنّ أهل العصمة عليهم السلام إنما يذكرونها للخصيصين من شيعتهم تلويحاً ورمزاً قد ألبَسُوه ثوباً من القشر يستر لبّه عن الجهّال ، والخصيصون من شيعتهم يعرفون لغتهم فيفهمونه، وأما الخواصّ من شيعتهم فإنهم لا يفهمون مراد أئمتهم عليهم السلام إلاّ المراد من القشر، وهذه وأمثالها كثيرة لا تراها الناس والمعصوم عليه السلام يخبر عنها والقرآن ينطق بها فأين القلم وأين اللوح وأين الجنّة وأين النار التي قال (لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ) وأين الأرواح وأين الحوض وأين الصراط وأين الميزان وأين سدرة المنتهى وأين شجرة طوبى وأين البيت المعمور، وإن الصادق عليه السلام أخبر أنه صلى الله عليه وآله إنّما أسري به من هذه إلى هذه وأشار إلى السماء يعني من المسجد الحرام إلى السماء وقال بينهما حرم، والله تعالى أخبر أنه أسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وقال صلى الله عليه وآله فقال لي يعني جبرائيل عليه السلام (أتدري أين صليت فقلت لا قال صليت في بيت لحم بناحية بيت المقدس حيث ولد عيسى ابن مريم عليه السلام ثم ركبت فمضينا حتى انتهينا

إلى بيت المقدس فربطت البراق بالحلقة التي كانت الأنبياء تربط بها) الحديث.

والصادق عليه السلام لمّا قيل له والمسجد الأقصى فقال (ذاك في السماء إليه أسرى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم) وهو أعلم بما قال جده صلى الله عليه وآله وسلم في قوله (فربطتُ البراق بالحلقة التي كانت الأنبياء تربط بها) والأنبياء ما ربطت دوابّهم في السماء والصادق عليه السلام أخبر أنه إنما أسري به صلى الله عليه وآله وسلم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وهو في السماء فأين هذا المسجد الذي في السماء ولم يمض إلى بيت المقدس لأنه عليه السلام لما قيل له إنّ الناس يقولون أنه بيت المقدس أنكر عليهم ذلك فقال مسجد الكوفة أفضل منه وهو صلى الله عليه وآله وسلم قال إني مضيتُ إلى بيت المقدس، فانظر رحمك الله في كمال هذا الاختلاف والتنافي الذي هو في كمال التوافق والاتحاد.

وبالجملة لو تتبّعتَ ما ورد عنهم عليهم السلام وتأملتَ فيه ظهر لك أن عامة الناس لا يعرفون شيئاً من كلامهم على الحقيقة ولا يعرفه إلاّ من هو كالكبريت الأحمر والغراب الأعصم في القلّة والندرة، وأنا جرياً على ما التزمتُ للسيد المرحوم لا بدّ وأن أشير إلى هذه الكتابة على جهة الاختصار لأن بيانه يستلزم تطويلاً كثيراً فإن هذَّبت العبارة وتركتُ الترداد والتكرار لم يفهم مرادي أحدٌ قطّ لغرابة هذا المعنى وعدم الأنس به لكلّ أحد وإن جريتُ على عادتي من تكرير العبارة والترديد لأجل التفهيم لزم التطويل المملّ فأنا أشير إلى ذلك بالعبارة المعتادة المكررة ليكون أسهل في التذكرة.

فأقول: إنّ الكتابة في لغة أهل العصمة صلّى الله عليهم عبارة عن إثبات المكتوب في رَقِّه اللائق به وإظهاره في ذلك فكتابة شَبَحِك إظهاره في المِرآة بمقابلتك لها وكتابة خيالك عبارة عن نقش صورتك الخياليّة في خيال من

تصوّرك في غيبتك عنه ورقّ الشّبح وجه المرآة ووجه الماء وأمثال ذلك من الأشياء الصيقلة عند مقابلتك لذلك الصيقل ورق صورتك الخياليّة مِرآةُ خيال من تخيّلكَ في غيبتك عند التفاته بمرآة خياله إلى مثالِك المنقوش في روح مكان رؤيته لك وزمانها فإن ذلك الرجل لمّا رآك يوم السبت في المسجد تصلي أقام مثالك في ذلك المكان يوم السبت يصلّي إلى يوم القيامة، فكلّما التفتَ من رآك إلى ذلك المكان المعيّن في ذلك الوقت المعيّن بخياله وجد مثالك يصلّي في المسجد يوم السبت لا يرى ذلك المثال أحدٌ إلاّ مَنْ رآك في المسجد يوم السبّت وكل من رآك هناك في ذلك الوقت لا يرى مثالك إلاّ في ذلك المكان في ذلك الوقت ولا يراه في ذلك العمل يعني أنه يصلي.

والعّلةُ في ذلك أنّ الله سبحانه أمر القلم فكتب بمدادٍ من صِفتِك وعملك ومدادٍ من ذلك المكان وذلك الوقت صورة مثالك فهو باق إلى يوم القيامة يعمل بذلك العمل الذي أنت عملته ويرجع إليك ثمرته من خير أو شرّ، فإذا كان يوم القيامة حضرك مثالك بمكانه ووقته وألْبَسَتْك الملائكة ذلك المثال كما تلبس الثوب هذا إذا كان خيراً أو شرّاً ولم يتب عنه توبة مقبولة، وإن كان شرّاً وتاب منه توبة مقبولة مُحيت تلك الصورة من المكان والوقت فلا تجد الملائكة شيئاً لك يأتونك به، ولم يكن له وجود في خيال مَنْ رآك في الدّنيا عاملاً لك به لأن الخيال مرآة والمرآة لا تنطبع فيها الصورة إلاّ مع مقابلة الشيء لتنتزع منها الصورة

المنطبعة فإذا لم تقابل شيئاً لك لم ينطبع فيها لك منه شيء.

بقي هنا دقيقة يجب التنبيه عليها وهي جواب سؤال يَرِد هنا وهو أنه قد دلّت الأدلّة النقلية والوجدانية والعقلية على أنّ التّائب يرى مثاله يعصى وإنْ كان تائباً فإنّ السّارق إذا تاب كل من رآه يسرق إذا الْتفتَ إلى مثالِه رآه يسرق وإن تاب.

والجواب أنّ المثال في نفسه لا يضمحل من الوجود لأنه مكتوب في اللّوح المحفوظ وما كُتِبَ في اللوح المحفوظ لا يضمحلّ لأن معنى كونه محفوظاً أنَّ ما كُتِبَ فيه محفوظ من المحو وإنّما المراد بقولنا إنه إذا تابَ مُحِيَتْ تلك الصّورة ، إن الصورة التي هي المثال كانت مقابلةً للسارق بوجهها معلقةً هي بمشخصاتها من المكان والوقت وغيرهما به لازمةً له فإذا التفَتَ من رآه إليها رآها مرتبطةً بالسارق حاضرةً معه عند من رآه فهو بها يَسْرِق أيْنما كان وإذا تاب ألبسَتْه الملائكة بأمر الله تعالى ثوباً من رحمته يواري سَوْءتَهُ فيحول هذا الثوب بين الصورة وبين وجهها منه فتصرف الملائكة بأمر الله وجه الصورة عن جهته المتجددة بالتوبة وتبقى في محَلِّها من لوح الثرى متوجهة بوجهها إلى أصل مبدئها التي تفرّعت منه متعلّقة به، لأنّها من سنخِه لحقت هذا الشخص باللطخ ثم خلعها بتوبته التي هي من حقيقته فلمّا خلعها وهي مثال، والمثال صفة لا تقوم بغير الموصوف لحقت بأصلها ومبدئها التي هي فرعه ومن لطخه لعنه الله وانقطعت علاقتها بذلك الرجل وكان المؤمن بطيب قلبه وطهارته إذا نظر إلى العاصي أنْكَرَهُ واسْتَوْحَشَ

من اللباس المنهي عنه لأنه لا يستر عورته كما قال الشاعر:

ثـوبُ الريا يَشُفُّ عَـمَّا تحْتَهُ

فإذا التحَفْتَ به فإنّك عاري

وإذا نُظِرَ إليه بعد التوبة النصوح مع علمه بها أنِس به لأنّه يراه مَسْتُورَ العورة بلباسِ التّقوى ولم يَرَ ذلك المثال القبيح متوجّهاً إليه بل يرى بينهما حاجزاً من توفيق الله ورضاه، وذلك المثال غير منسوب إليه الآن لأنه الآن في عليّين مع الأبرار وحين باشر المعصية كان في نزوله بذلِك اللطخ إلى سجين مع الفجّار فلمّا تاب وتبرّأ من تلك الصورة بقيت في سجين متوجهةً إلى موصوفها من الفجار بواسطة لطخه الذي هو سببُهَا في الرجل قبل أن يتوب فخلع اللطخ بالتوبة فلحقت اللطخ بأصله لأنّها متعلقة به وهو متعلّق بالأصل، فإذا كان يوم القيامة محيت من ذلك المكان والوقت المنسوبين إليه فتراها هي والوقت والمكان منسوباتٍ إلى ذي اللطخ الذي كان منه، وهذا معنى قولنا محيت ...إلخ ، ومعنى ما روي أنه إذا تاب ستر الله عليه ففي الكافي بسنده إلى ابن وهب قال سمعت أبا عبدالله عليه السلام (يَقُولُ إِذَا تَابَ الْعَبْدُ تَوْبَةً نَصُوحاً أَحَبَّهُ الله فَسَتَرَ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فَقُلْتُ وَكَيْفَ يَسْتُرُ عَلَيْهِ قَالَ يُنْسِي مَلَكَيْهِ مَا كَتَبَا عَلَيْهِ مِنَ الذُّنُوبِ وَيُوحِي إِلَى جَوَارِحِهِ اكْتُمِي عَلَيْهِ ذُنُوبَهُ وَيُوحِي إِلَى بِقَاعِ الأَرْضِ اكْتُمِي مَا كَانَ يَعْمَلُ عَلَيْكِ مِنَ الذُّنُوبِ فَيَلْقَى الله حِينَ يَلْقَاهُ وَلَيْسَ شَيْءٌ يَشْهَدُ عَلَيْهِ بِشَيْءٍ مِنَ الذنُوبِ) .

وفيه بسنده إلى ابن وهب قال سمعتُ أبا عبدالله عليه السلام (يَقُولُ إِذَا تَابَ الْعَبْدُ تَوْبَةً نَصُوحاً أَحَبَّهُ الله فَسَتَرَ عَلَيْهِ فَقُلْتُ وَكَيْفَ يَسْتُرُ عَلَيْهِ قَالَ يُنْسِي مَلَكَيْهِ مَا كَانَا

يَكْتُبَانِ عَلَيْهِ وَيُوحِي اللهُ إِلَى جَوَارِحِهِ وَإِلَى بِقَاعِ الأَرْضِ أَنِ اكْتُمِي عَلَيْهِ ذُنُوبَهُ فَيَلْقَى اللهَ عَزَّ وَجَلَّ حِينَ يَلْقَاهُ وَلَيْسَ شَيْءٌ يَشْهَدُ عَلَيْهِ بِشَيْءٍ مِنَ الذُّنُوبِ) انتهى.

فقد ظهر لك بما ذكرنا وبما قدّمنا سابقاً أنّ الخيال إنّما تحصل فيه الصور بالانطباع لأنه مرآة، فإذا قابل الشاخص انطبعت فيه صورته وأنّ مثال الشخص الذي رأيتَهُ يُصَلّي في المسجد لا تنطبع صورته في خيالك حتّى تلتفِتَ إلى مكان الرؤية ووقتها، فإذَا الْتفتَّ إليه في ذلك المكان في ذلك الوقت رأيته فيهما وانطبعت صورته في خيالك في ذلك الوقت الّذي رأيت شخصه أي موصوفه فيه يعمل ذلك العمل كما في المثال المذكور أوّلاً، فإنّك كلّما التفتَّ إليه في وقتٍ رأيته يصلّي في المسجد يوم السبت ولو بعد خمسين سنة فإنّكَ ترَاهُ في المكان في الوقت الأول لأنَّ وقْت رؤية المثال إذا التفتَ إليه خيالك في الدهر لا في الزّمانِ لأنَّ الزمان سَيّالٌ لا يَجْتَمِعُ جزآن منه في حالٍ بل كلّما وُجد جُزْءٌ مضى ما قبله فلا يجْتمِعَان، ومُرادي بأنَّ الأوَّل يمضي أنّه يخرج من رتبة ظرفيّة الأجسام إلى الدَّهرِ لا أنّه يفنى بل هو في اللَّوْح المحفوظ، وأنّ ذلك المثال كتبَهُ القلم في ذلك الكتاب بإذن الله وأمْرِه وهذه دَفَّةٌ من اللوح المحفوظ هذا كلّه في إدراكِك مِثالُهُ إذا غاب عنك.

وأمّا إذا كان حاضراً بين يديك فإن القلم بأمر الله تعالى كتبَهُ في هذا المكان بمداد من كون جسمه فيه ومن هيئاته حينئذٍ في ذلك الوقت فهو حينئذٍ مكتوبٌ في دَفةٍ من اللّوح المحفوظ وإليه الإشارة بقوله تعالى جواب قول منكري البعث (أَ إِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً ذلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ) قال (قَدْ عَلِمْنا ما تَنْقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنا كِتابٌ حَفِيظٌ)وهذا الذي أشار إليه الصادق عليه السلام في قوله (تبقى طينته التي خُلِقَ منها في قبره مستديرةً)انتهى، وذلك لأن صورة جسده التي كان بها في

الدنيا تذهب من جسده في قبره وتلحق بعالم الأشباح وتبقى مادّته الأصليّة التي خلق منها في قبره مستديرة، يعني أن الكتاب الحفيظ لا تخرج منه بل هو حافظ لها إلى أن تُعَاد منها كما خلق منها أوّل مرة، ومعنى مستديرة أنّها مترتّبة في أصل رسم الكتاب الحفيظ كترتّبها في الوجود الكوني، بل قد تكون أصح ترتيباً لاحتمال أنّه قد يختلف في الوجود بسبب غَلَبَة بعض القوى على بعض فيحصل لبعضها من بعضٍ أو من لوازم بَعْضٍ قسرٌ يمنعُها عن كمال الترتيب لوجود تلازم بعضها ببعض أو بلواحق بعضٍ ولوازمه أو بلواحقه ولوازمه فإذا زالتِ المقارنَات والتّلازم أَلَّفتْهَا الطبيعة على مقتضياتها ودواعيها وتقاربها وتشَابُهِهَا وتنَاسُبِها، والطبيعة لا يجري عليها الغلط فتكون مستديرة لأن الاستدارة أكمل الهيئات لتساوي أبعاد أجزاء محيطها وسطحها إلى مركزها.

فإذا فهمتَ هذا عرفتَ أنّ الموجود بين هاتين الدّفّتين هو المكتوب بالقلم بأمر الله تعالى دفّة الذوات ودفّة الصفات وكل شيء يكتب بمداد منه لأنه مادّته والشيء إنما يكتَبُ بمادته كالسرير، فإن النجّار بإذن الله تعالى كتبه بمادته وصورته أي بمداد من الخشب ومداد من الهيئة الخاصة به، فافهم هذه العبارات المكررة المرددة للتفهيم.

ومعنى قوله عليه السلام (فاكتبنا مع الشاهدين) يعني أنه يسأله أن يكتبه بهذا المداد في هذه الدفّة التي كتب فيها الشاهدين له بالحق بمداد من ذواتهم وأعمالهم واعتقاداتهم وأقوالهم.

فإذا عرفتَ هذه الكتابة مما بيّنتُ لك عرفت معنى أنّ القلم كتبَ في اللوح ما كان وما يكون إلى يوم القيامة وعرفتَ معنى (أنّ الله تعالى لمّا خلق العقل قال له

أدبر فأدْبَر ثم قال له أقبل فأقْبلَ فقال له وعزّتي وجلالي ما خلقتُ خلقا هو أحب إلي منك) الحديث.

فافهم راشِداً موفّقاً وقد قال الشاعر ونعم ما قال:

ومن حضر السماع بغير قلب

ولم يطرب فلا يلم المغني

وقوله عليه السلام (ربنّا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا) أي لا تمل قلوبنا عن الهداية التي دللتنا عليها من دينك الذي ارتضيته، وفي التهذيب في الدعاء بعد صلاة الغدير عن الصادق عليه السلام (رَبَّنَا إِنَّكَ أَمَرْتَنَا بِطَاعَةِ وُلاةِ أَمْرِكَ وَأَمَرْتَنَا أَنْ نَكُونَ مَعَ الصَّادِقِينَ فَقُلْتَ أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ وَقُلْتَ اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ فَسَمِعْنَا وَأَطَعْنَا رَبَّنَا فَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ مُصَدِّقِينَ لأَوْلِيَائِكَ وَلا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ) وهذا يشعر بأن الدعاء بعدم إزاغة القلوب إنّما هو عن ولايتهم وهو كذلك إن أريد بالولاية أمرهم الذي أقامهم الله تعالى له وفيه وبه وأقام به جميع خلقه بواسطتهم عليهم السلام، وأمّا إذا أريد بالولاية خصوص المحبة، فإن أريد بالمحبّة الكليّة فكذلك لأنها في الحقيقة جميع ما أمر الله به ونهى عنه وأحب وكره وما بين ذلك، وإن أريد بها المعنى الخاص الذي هو خصوص ميل القلب إليهم وتولّيهم والبراءة من أعدائهم فالدعاء بعدم إزاغة القلوب أعمّ لأن الأعمال والاتّباع لهم والصدق مع الله في كل المواطن لا يدخل فيها إلاّ على الإرادة الأولى والدعاء إنما هو بالثبات على كلّ حقّ لله ولهم وقد تقدّم مراراً أن الولاية هي ولاية الله والمراد بها الأمر الكلي العام الشامل لكل ما أمر الله تعالى لأنه

سبحانه هو الولي على جميع خلقه.

فتأفل ما هذه الولاية لتعلم أنَّ كل ما أمَرَ وأحَبَّ منها وأنّ الفائض منها أربعة أنهار أفاضها على الخلائق نهر الخلق ونهر الرزق ونهر الممات ونهر الحياة وما يُناط بكل واحدٍ منها، ومنها هداية النّجدين توفيقاً لهم ومنها تعليمهم كيفية القبول لما أراد منهم القبول لشيء من تلك الأربعة وما يُناط بكل واحدٍ منها وإعطائهم شرائط الاستطاعة لما أراد منهم (من صحة الخلقة وتخلية السرب والمهلة في الوقت والزاد والراحلة والسبب المهيج للفاعل على فعله) كما قال الصادق عليه السلام.

وذكر في حقيقته داعي الطاعة ليبعثه على فعلها تحنّناً منه وفضلاً وألزمه بمقتضى نفسِه وإنيته داعي المعصية ليتمكّن من فعلها اختباراً له وعدلاً لأنه لا يحب الطاعة بإكراهٍ فخلق له من حقيقته منه تعالى عقلاً منيراً يدعوه إلى طاعة الله تعالى وأيّده بروح منه ملكٍ مسددٍ يؤيّده ويعصمه مما لا يحبّ الله سبحانه وجعل له من حقيقته من نفسه نفساً أمّارة بالسوء وداعيةً إلى معصية الله تعالى، وأثبت لها التسلّط على استخدام الآلة التي خلقها للعقل لأجل الطاعة في ما تحبُّ من معصية الله وقيّض لها شيطاناً جعله لها قريناً يعينها على مقاومة العقل وصَدِّهِ عمّا يريد من طاعة الله سبحانه فإذا أجاب المرء داعي عقله قام الملك وجنوده في جهادِ شيطان النفس وجنوده حتى يهزمه ويقتل جنوده وتذل النفس وتنقاد مع العقل إلى طاعة الله تعالى كارهة وهكذا حتى تكون ملهمةً فإن عمل المرء بمقتضى داعي النفس قويَتْ على المعصية وأسعدها الشيطان وتنحّى الملكُ الخاصُّ بتلك الجهة، وإن عمل بمقتضى داعي العقل مرة بعد أخرى كانت الملهمة لَوّامَةً وهكذا ثم تكون مطمئنّة فتكون أختاً للعقل طالبةً لما يطلب العقل من الطاعة وهي الكلب

المعلّم الذي علّمه العقل ممّا علّمه الله فيصطاد بها قُوتَهُ أي قُوتَ مركبه، فإنّ العقل إنّما يدعو إلى طلب الحلال والأكل الحلال والنكاح الحلال لِقُوتِ مركبه الذي يستعمله للركوب وحمل الأثقال فإن البدن لا يستغني العقل عن إصلاحه ليستعمله في سيره إلى ربّه ولا يمكنه إلاّ بالنفس المطمئنّة (وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ).

والحاصل هذه تلويحات وبيانها من العقل والنقل طويل، والمراد بيان معنى السؤال بعدم إزاغة القلب وهو أنّه إذا حصل العقل الشرعي وهو العقل المكتسب من الطاعات والأعمال الصالحات على ما أمروا به سادات البريات صلى الله على محمد وآله الطاهرين استقام على الولاية وفروعها مما أمر الله به ودلّ عليه من صحيح الاعتقادات وخالص الأعمال الصالحات، وإذا استقام على الطريقة عرّفه الله نفسه وعرّفه نبيّه وأوصياءه ﷺ ووفّقه لطاعته وعصمه عن معصيته فيطلعه الله تعالى بحقيقة ما هو أهله على باب من أبواب غيوبه فرأى رأي العين أن كلّ ما سوى الله فهو قائم بفعل الله سبحانه قيام صدور أقامه وأقام كونه وعينه بما يُمده به من إمداده المتجدد تجدّداً سيَّالاً فيرى عياناً أنه إنما هو هو بذلك المدد الحادث المتجدّد، وذلك المدد الحادث إنما هو شيء بفعل الله لا من شيء فهو من جهة الفعل دائم الفيض، ومن جهة القابل إنّما يتحقّق بدوام القبول جارياً من جهته كجريان المدد من جهة فعل الله تعالى وهو شيء اشترك فيه جميع الخلق، فالراسخون في العلم العالمون بتأويل القرآن عن الله تعالى حين قالوا آمنّا به بمحكمه ومتشابهه وأنه كلّه من المحكم والمتشابه من عند ربّنا وبذلك ذكروا الله سبحانه وتذكّروا بما آتاهم من الحكمة، علموا بأنّ هذا الإيمان الّذي اعترفوا به وأنه دين الله سبحانه صفة والموصوف لا قِوام له إلاّ بمدد الله ولا ينتفعون بذلك

المدد إلا بقبوله ولا قبول له أعظم من مشاهدتهم في كلّ شيء أنه من الله وبيده وحين أجراه عليهم لم يخلّه من يده إذ لو خلاّه من يده لم يكن شيئاً إذ لا شيء إلاّ بالله وأعلمهم أن حفظ المدد عليهم إنما هو باعترافهم أنه من الله وبالله وبالسؤال من الله بقلوبهم وبأقوالهم وبأعمالهم والصفة مع مشاركتها للموصوف في الحاجة إلى الله تعالى محتاجة إلى الموصوف وذلك بجَعْلِ الله سبحانه فهي في الظاهر أولى من الموصوف بالحاجة، ولمّا كان باب الإيمان من الله سبحانه إليهم في المدد ومنهم إلى الله عز وجل في القبول هي القلوب لأنها سبب طلب الإيمان والهداية والثبات عليهما وسبب الميل عن الإيمان والهداية إلى الكفر والضلالة سألوا الله تعالى أن يثبت قلوبَهُمْ على الإيمان والهداية وأن لا يزيغَها ويميلها إلى الباطل والكفر بعد الهداية إلى الإيمان لعلمهم بأن القلوب تزيغ عما كانت عليه من الإيمان .

فإن قلتَ: إذا هداهم للإيمان فكيف يميله قبل أن يميلوا وقد قال تعالى (إِنَّ الله لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ).

قلتُ: إنّ القلوبَ إنّما لم تغيّر ما دام الله سبحانه حافظاً لها عن التغيّر ولم يكن يحفظها إلا بقبولها لحفظه ولا قبول لها لحفظه إلاّ بالاعتراف له بأن ذلك من فضله الابتدائي بغير استحقاق من العباد وبالسؤال من كرمه وفضله الثبات كما فعل الراسخون في العلم، فإنّهم في استحقاق الثبات بحقيقة ما هم أهله أولى ولكن لعلمهم بالله سبحانه سألوه لأنّهم يعلمون أنّ ذلك عنده ولا ينال ما عنده إلا بطاعته وسؤاله والتضرع إليه.

فإن قلت: إذا كان الفيض دائم الظهور والمؤمن دائم الطاعة والطاعة هي القبول لذلك المدد ولذلك الثبات على الإيمان لأنه بالمدد فقد تمّت العلةّ من جهة

الفاعل ومن جهة القابل وإذا وجدت العلّة التامّة امتنع تخلّف المعلول.

قلتُ: إذا تمّت علّة القبول من قبل العبد لم يلزم من ذلك تمام العلة من قبل الربّ لأن المدد ليس وجوده علّة تامة ولا القبول لأنّ العلل أربع، العلّة الفاعلية والعلّة المادية وهي هنا المدد المشار إليه، والعلّة الصورية وهي القبول، والعلّة الغائيّة وهي نفع العِباد وانتفاعهم أي نفع بعضهم بعضاً، وأمّا العلّة الفاعلية فهي فعله تعالى وفعله مشيّته وإرادته فإذا لم يشأ ولم يرد كيف ينفع القبول لأن القبول حينئذٍ لا لشيء فليس بقبول، وأيضا مراداً بقولنا إن العلة الفاعلية فعله نريد به فعله في المراتب السبع، فعل الكون بالمشية وفعل العين بالإرادة وفعل الحدود والهندسة بالقدر وفعل التمام بالقضاء وفعل الإذن بالرخصة في جميع مراتب الظهور، فإنّ الشيء إذا تمت أسبابه توقّف على سبب الرخصة فإذا أذن الله سبحانه له في الظهور ظهر وفعل الأجل بمعنى أنه لا يظهر إلاّ في الوقت المقدّر لظهوره ولا يفنى إلاّ في الوقت المقدر لفنائه وفعل الكتاب بأن يكتبه في الألواح بجميع أسبابه وهو قول الصادق عليه السلام (لا يَكُونُ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ إِلا بِهَذِهِ الْخِصَالِ السَّبْعِ بِمَشِيئَةٍ وَإِرَادَةٍ وَقَدَرٍ وَقَضَاءٍ وَإِذْنٍ وَكِتَابٍ وَأَجَلٍ فَمَنْ زَعَمَ أَنَّهُ يَقْدِرُ عَلَى نَقْص وَاحِدَةٍ فَقَدْ كَفَرَ) انتهى.

وفي رواية على نقض بالضاد المعجمة، وفي رواية فقد أشرك، والعلة فيما قلنا من أن العلّة الفاعلية لم تتم أن الحادث إذا استوجب شيئاً فذلك الشيء عند الله تعالى وله وملكه وهو بالخيار إن شاء أعطى وإن شاء منع إذ لا يجب عليه شيء ولا يحكم عليه، وإن كان سبحانه أجرى عادته أنه لا يمنع الخير ويعطي من سأله ومن لا يسأله تفضّلاً منه وكرماً، وإذا سمعتَ العلماء يقولون يجب على

الله سبحانه اللطف بعباده فيراد منه أنه يجب عليه في الحكمة لا وجوب تسلّطٍ لأنه تعالى يحكم ولا يحكم عليه قال الله تعالى (وَلَئِنْ شِئْنا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ)مع أنه تعالى لا يفعل ذلك بنبيّه ﷺ أبداً ولكنه على كل شيء قدير إلاّ أنّه أجرى عادته على الإحسان والجميل فلا يفعل إلاّ ما هو الصلاح بعباده وما هو إلا لطف بهم .

وفي الحديث في التوحيد قال الرضا عليه السلام في الردّ على سليمان المروزي في قوله (إنّ إرادة الله علمه قال عليه السلام وما الدليل على أن إرادته علمه وقد يعلم ما لا يريده أبدا وذلك قوله عز وجل وَلَئِنْ شِئْنا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ فهو يعلم كيف يذهب به وهو لا يذهب به) .

فقوله عليه السلام (فهو يعلم كيف يذهب به) يشير به أنّه قادر عليه لأنّه ممكنٌ له ولَوْ كان واجباً عليه لما جازَ أنْ يقال (وَ لَئِنْ شِئْنا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ) لأنّ قوله هذا معناه أنّا إنّما أبقينا ما أوحينا إليك عندك تفضّلاً منّا عليك وليس بلازمٍ علينا ولو شئنا لذهَبْنا به، وهذا صريح بأنه ما يجب عليه وإنّما أوجبه على نفسه من الإيفاء بعهده وإتمام وعده قال تعالى (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وَلَنْ يُخْلِفَ الله وَعْدَهُ) ، وما ذكره السيد نعمت الله الجزائري في الكلام الّذي نقله عن بعض المفسرين كما تقدم وهو لا يقتضي ذلك أنّه تعالى سُئِل عَمّا لوْلاَ المسألة لجازَ أنْ يفعلَهُ لأنه غير ممتنع أنْ يدعوَهُ على سبيل الانقطاع إليه ......إلخ ، يدلّ بأن الراسخين لم يدعوا الله سبحانه بأن لا تزيغ قلوبهم خوفاً من أنّها يجوز عليها ويمكن وقوع الزّيغ من قلوبهم لأنّهم معصومون آمنون من زيغ قلوبهم وميلِها عن الحق، وإنّما دعوه انقطاعاً إليه بمعنى أنّ كلّ شيء

فإنّما ثباتُه به وتبرّء من الحول والقوّة.

والمعروف من القرآن ومن أحاديث أهل العصمة عليهم السلام ومن الدليل العقلي الّذي هو التوحيد الحقّ أن الراسخين إنما دعوه خوفاً من زيغ قلوبهم وأنّ القلوب تزيغ إلاّ أن يثبّتها الله تعالى ولا يثبتها إلاّ بالدعاء والانقطاع إليه والتضرّع عنده كما في دعاء الوتر (وَلا يُنْجِي مِنْكَ إلا التَّضَرُّعُ إِلَيْكَ)، فإنّ ما يدّعونه لو كان موجوداً لكان في حق سيّد المرسلين محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالطريق الأولى، وقد أخبر عن نفسه كما في خطبة يوم الغدير بأنّه يفعل ذلك خوفاً حقيقيّاً لا مجرّد انقطاع فقال صلى الله عليه وآله وسلم (خوفا ألاّ أفعل فتحِل عليَّ منه قارعةٌ لا يدفعُها عنّي أحَدٌ وإنْ عظمتً حيلتُهُ)(لأنّه الله الذي لا يُؤمَنُ مكرهُ ولا يُخافُ جَورُهُ)وقال صلى الله عليه وآله وسلم (ولو عصيتُ لهوَيْتُ)، وفي الكتاب العزيز (عِبادٌ مُكْرَمُونَ) إلى قوله تعالى (وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلهٌ مِنْ دُونِهِ فَذلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ) .

وفي الكافي عن الصادق عليه السلام ما معناه أنّ النبي إلياس سجد وتضرعّ إلى الله تعالى فأوحى الله إليه ارفع رأسك فإنّي لا أُعَذّبُك فقال يا ربّ إن قلت لا أُعَذِّبُك ثم عذّبْتَني ألستُ عبدك فقال الله تعالى أنّى إذا وعدت لا أخلفُ الميعاد انتهى، نقلته بالمعنى الّذي حضرني.

والحاصل أنّ خوف محمد صلى الله عليه وآله وسلم أشدّ مِن خوف جميع الخلق ومن دونه أهل بيته عليهم السلام ومِنْ دونهم الأنبياء والمرسلُون وهكذا الملائكة والمؤمنون ولو كان خوفهم للانقطاع لم يكن خوفاً بل هو أنس بالله تعالى ولو كان كذلك كانت دموعه في بكائه من خشية الله باردةً والأمر على العكس بل كما قال تعالى (يَخافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَ يَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ)ولقد كانوا أحقّ بالخوف من مقام ربهم من جميع

الخلق وليس إلاّ للخوف من مَكْرِهِ تعالى كما قال ﷺ لأنه الله الذي لا يُؤمَنُ مكرهُ وإذا تتبّعتَ أخبارهم وأدعيتهم ظهر لك أن خوفهم عليهم السلام خوفٌ حقيقي وأنهم مستجابوا الدعوة ووعدهم الله النجاة من عذابه ودائماً يتضرّعون إليه ويعلمون أنّه لا ينجيهم من مكره شيء إلاّ فضله ورحمته الابتدائيّانِ وأنه تعالى لو قاصّهم لم يكن لهم ما يستحقون به أدنى شيء من رحمته وفضله، تدبّر كلام سيّد العابدين عليه السلام في دعائه في سجود الشكر بعد الثماني من صلاة الليل، وقد ذكرناه فيما تقدم وهو (إلهي وعزّتك وجلالك وعظمتك لو إني منذ بدعت فطرتي من أول الدهر عبدتك دوام خلود ربوبيتك بكل شعرة في كل طرفة عين سرمد الأبد بحمد الخلائق وشكرهم أجمعين) إلى آخر الدعاء ، يظهر لك أنّهم خائفون وجلون لأنهم لا عمل لهم يقرّبهم عن استحقاق وأنّهم دعوه من الفضل والتكرم والرحمة، وإذا كان هذا حالهم أنه لو عاقبهم بكل عقوبةٍ مع ما هم عليه لكان ذلك بعدله تعالى قليلا في كثير ما يستوجبون من عقوبته كما في الدعاء المذكور، وليس هذا الذي فعلوه للانقطاع خاصّةً أو لتعليم الرعيّة لأنه لو كان كذلك لكان إمَّا لأنّهم أربابٌ غير محتاجين إلى رب - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، وأمّا لأنّ لهم عليه جزاءً يستحقونه من أعمالهم بدون فضله، فحينئذٍ لو قال قائلهم لا أريد فضلَك ورحمتك وإنّما أُرِيدُ حقّي الّذي عملتُه من نفسي ولا شكّ في أنّ من قال ذلك فهو كمن قال إنّي إلهٌ من دُونه لأنّه ادّعى أنّ أعماله الصالحة ليست من نعم الله بل هي منه ولا شك في كون هذا شركاً بالله تعالى وإن وجد وعلم أنّها كلّها من الله تعالى فلا استحقاق له في شيء فلا نجاة له إلاّ بسؤاله والتضرعِ إليه وكلّها نعمه تعالى، وإنّما رضي من عبده بالاعتراف بالتقصير، وأنّ ما وفّقه لهُ من الأعمال فهو مما يجب عليه

شكرها لأنّها نعم متجددة من كرمه تعالى فأين الاستحقاق للثبات على الإيمان وحفظ القلب عن الميل عن الهداية إلى الضلالة وكلّ ذلك نعمه تعالى ، وقال علي عليه السلام في خطبته يوم عيد الأضحى كما رواه الشيخ رحمه الله في المصباح (فَوَ اللهِ لَوْ حَنَنْتُمْ حَنِينَ الْوَالِهِ الْمِعْجَالِ وَدَعَوْتُمْ دُعَاءَ الْحَمَامِ وَجَأَرْتُمْ جُؤَارَ مُتَبَتِّلِي الرُّهْبَانِ وَخَرَجْتُمْ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ الْتِمَاسَ الْقُرْبَةِ إِلَيْهِ فِي ارْتِفَاعِ دَرَجَةٍ عِنْدَهُ أَوْ غُفْرَانِ سَيِّئَةٍ أَحْصَتْهَا كَتَبَتُهُ وَحَفِظَتْهَا رُسُلُهُ لَكَانَ قَلِيلا فِيمَا تَرْجُونَ مِنْ ثَوَابِهِ وَتَخْشَوْنَ مِنْ عِقَابِهِ وَتَاللهِ لَوِ انْمَاثَتْ قُلُوبُكُمْ انْمِيَاثاً وَسَالَتْ مِنْ رَهْبَةِ اللهِ عُيُونُكُمْ دَماً ثُمَّ عُمِّرْتُمْ عُمُرَ الدُّنْيَا عَلَى أَفْضَلِ اجْتِهَادٍ وَعَمَلٍ مَا جَزَتْ أَعْمَالُكُمْ حَقَّ نِعْمَةِ اللهِ عَلَيْكُمْ وَلا اسْتَحْقَقْتُمُ الْجَنَّةَ بِسِوَى رَحْمَةِ اللهِ وَمَنِّهِ عَلَيْكُمْ) انتهى.

فتأمّل قوله عليه السلام إنكم لو قمتم بهذه الأعمال التي أشار إليها مدّة عمر الدنيا على أفضل اجتهاد وعملٍ ما قابلت حقّ نعمه الله عليكم..... إلخ ، مع أنّ هذه التي أشار إليها عليه السلام لا يمكن وقوعها من مكلّفٍ ولا سيما الأعمال التي أشار إليها زين العابدين عليه السلام في الدعاء المشار إليه سابقاً فإنّ فيه (ولو أنّني يا إلهي كربتُ معادن حديد الدنيا بأنيابي وحَرثتُ أرضها بأشفارِ عَيني وبكيتُ من خشيتك مثل بحور السموات والأرض دماً وصديداً لكان ذلك قليلاً في كثير ما يجب من حقِك عَلَيّ... الخ).

فإن هذا لا يمكن وقوعه من المكلّف ومع هذا بيّن عليه السلام أني لو فعلتُ هذا كنتُ مقِصّراً في واجب حقك عليّ ولو عذّبتني بأنواع عذاب الخلائق على التقصير الذي كان مني لكان تعذيبك إياي بعذاب الخلائق كلهم بعدلِك إن لم تتجاوز عنّي قليلاً في كثير ما أستوجب من عقوبتك على تقصيري في حقك

مع تلك العبادة.

فإذا تدبّرت ما ذكرنا لك وأشرنا إليه ظهر لكَ أنّ الراسخين في العلم أشدّ خوفاً من جميع الخلائق من أن يزيغ قلوبهم عن الهدى بعد إذ هداهم وإن كان ممّا أنعم عليهم أن تفضّل عليهم بالرجاء فيه وحسن الظن بقدر ما ألبسهم من الخوف، فإنّ المؤمن لا يستقيم إيمانه حتى يعتدل خوفه ورجاؤه لأنهما جناحان له يطير بهما إلى الله تعالى ولا يطير الطائر حتى تعتدل جناحاهُ فافهم.

وأمّا قول السيد نعمة الله رحمه الله إن سؤالهم انقطاع إليه تعالى فهو من الحق أيضاً ونقول به ونقول أيضاً أن الانقطاع من الخوف ولا يلزم مما ذكرنا أن تكون أعمالهم غير خالصة لوجهه تعالى لأنّها راجعةٌ إلى حظوظ النفس والمشهور عند المتقدّمين بطلان العمل بذلك.

لأنّا نقول: إنّ ما أشرنا إليه هو حقيقة الإخلاص لأن الإخلاص إيقاع العمل لمحض التقرّب إليه خاصّة، ولا شك أنّهم إنما سألوه أن يثبّت قلوبهم على ما يقربهم إليه ولا يميلَها إلى ما يبعّدُهم منه ومن هنا نشأ الخوف الشديد لهم لعلمهم بذلك حتى كان أمير المؤمنين صلوات الله عليه لمّا قرأ بعد ركعتي الافتتاح قبل صلاة الليل (إلهي كم من مُوبقةٍ حلمت عن مقابلتها بنقمتِك وكم من جريرة تكرمت عن كشفها بكرمك) الدعاء، خرّ مغشيّاً عليه وأخبرهم أبو الدرداء أنه عليه السلام قضى نحبه فرشّوا عليه الماء حتى أفاق وأخبروا أبا الدرداء أنّ هذه عادته عليه السلام مع أنه عليه السلام أخبر أنّه ما عبد الله خوفاً من ناره ولا طمعاً في جنته ولكن رآه أهلاً للعبادة فعبده، فما هذا الخوف الشديد إلاّ لأنّه يعمل للتقريب ويخاف التبعيد كيف لا يكون كذلك والله تعالى أنزل في كتابه على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم (أَ فَأَمِنُوا مَكْرَ الله

فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ الله إِلاَّ الْقَوْمُ الْخاسِرُونَ﴾ فافهم وفّقك لحقائق الأمور وصحيح الاعتقادات.

وقوله عليه السلام (وهب لنا من لدنك رحمة إنّك أنت الوهّاب) يُشير به إلى أنّ الثبات على الهداية إنّما هو برحمةٍ منك تَهَبُهَا من تشاءُ وقوله عليه السلام (وهب لنا) نبّه بذكر الهبة على الفضل الابتدائي لا عن استحقاقٍ فإنّ الاستحقاق ليس هبة وإنما هو طلب حقٍّ، وقوله (من لدنك) ولم يقل من عندك أشار به إلى أنّها ابتدائيّة لأنّ لدن وإن كان بمعنى عند إلاّ أنّها أخصّ من عند لاحتمال كون عند بمعنى في ملكك وهو صادق على القريب منه والبعيد والمحبوب والمبغوض، ولدن لمّا كانت تفيد القرب اختص استعمالها في القريب والمحبوب أما تسمعهم يقولون لمن له علم غير مكتسب من غيره يقولون علمه لدنّي ولا يقولون عندِيٌّ ولو كان الثّبات على ما وفّق من الإيمان ليس نعمة جديدة ورحمة ابتدائيّة لما قال (من لدنك) لأنّ معنى مِنْ لدنك أنّه جديدُ الحدوث لم يجعله لهم قبل السؤال ولم يستحقّوه بالسؤال ولهذا ذكر (إنك أنت الوهاب) أي المبتدأ بالنعم قبل استحقاقها لأن السؤال وإن كان من أفضل القَوابل إلاّ أنه غير مقتضٍ للإجابة لذاته ولو كان مقتضياً للإجابة لما كانت الإجابة رحمة ولمّا كانت الإجابةً رحمة دلت على أن مقتضى الإجابة إنما هو الجود والكرم الذي نبّه عليه بقوله (إنّكَ أنْتَ الوهّاب).

نعم السؤال شرط لوجود العطيّة إذا أجراها المتفضِّل على مقتضى الأسباب فكان السؤال مقتضِياً بالإجابة لا لذاته والإجابة من الكرم المطلق ثم إذا اقتضى بالإجابة فإنما هو مقتضى بها للظهور لا للإيجادِ لأن ظهور هذه العطيّة إذا جُعِل السؤال لها سَبباً متوقفاً عليه ولو لم يجعل سبباً لم يتوقف عليه والمعطي سبحانه

سبب من لا سبب له وسبب كل ذي سبب ومسبب الأسباب من غير سبب فهو يفعل ما يشاء ولي في بيان هذا الحرف سِبَاحَةٌ طويلة أقِفُ بها على ساحِلِ القُطبيّة ولكن لا يقتضي المقام بيان كله.

فإن قلتَ: هذه دعوى فلا بدّ في تصديقها من المشاهدة.

قلتُ: إن افتريتُه فعليَّ اجرامي وأنا بريء مما تجرمون وأيضاً من أهل القابلية لما أشرنا إليه ظهر لك مما ذكرتُ في هذا الشرح وكرّرتُ تصديق هذه الدعوى وإلى الله ترجع الأمور ورحمة الله تعالى حقيقة لا مجازٌ لأنّه تعالى إنّما خلق جميع الخلق بالرحمة وقد سمى نفسه بالرحمن قبل خلقه فقال (الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى) وإنّما خلق جميع خلقه بفاضل تلك الرحمة وسمّاها رحمة، وكلام علماء الأصول في هذه المسألة غير محقق فقولهم إنّ المجاز لا يستلزم الحقيقة لما تورّطوا بقولهم إنّ الحقيقة استعمال اللفظ فيما وضع له أوّلاً والمجاز استعماله ثانياً ووجدوا اسم الرحمن غير مسبوق بوضع قبله قالوا إنّ المجاز لا يستلزم الحقيقة.

فنقول إذا لم يستلزم لم يكن مجازاً إذ معنى المجاز الطريق إلى الحقيقة فإذا وضع لفظ على شيء لم يستعمل فيما قبله فإن كان يجوز أن يكون مجازاً لم توجد حقيقة.

فإن قلت: بلى توجد بدليل أنّ الرحمة حقيقة رقّة القلب.

قلتُ: هذا مصادرة فمن أين علم أنَّ حقيقتها رقّة القلب فلعلّ حقيقتها معنى آخر بدليل أن الله تعالى سمّى نفسه بالرحمن وسمّى الرحمة باسمها وخلق خلقه بها ولم يوجد قلبٌ ولم تخلق له رقّة، ولعلّ هذه الرقّة إنّما سمّيت رحمة مجازاً، لأنّ الله سبحانه لمّا خلق الرحمة وسمّاها بهذا الاسم وخلق الخلق آيات لما هنالك فقال (سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ) فكان ما في الأنفس آية ودليلاً لما في الغيب والآية والدليل ليسا ذاتين، وإنما هما صفتان والصفة مجاز الموصوف

وهو حقيقتها، ولمّا كان الآية والدليل مثلاً وصفة للمستدل عليه وللموصوف وجب في الحكمة أن يكون فيه ما يشابه الحقيقة التي في الموصوف والمستدل عليه فوضع تعالى ما يشابه أصله ليمكن الاستدلال به، مثلاً لو أنّك لم تر الفرس الحيوان الصاهل وطلبتَ مني بيانه وتمثيله ونقشتُ لك في القرطاس صورة فرس وهذه الصورة هي مثال الحيوان المعلوم ولها يدانِ ورجلان مثل الحيوانِ فيداها أي الصورة ورجلاها حقيقةٌ فيها، وإن كانتا مجازاً بالنسبة إلى الحيوان فكذلك خلق الله الرحمة وسمّاها باسمها ووصفَ نفسَه بها قبل أن يخلق الخلق والقلوب والرقّة لأنّ المخلوق فرع عن صفات فعل الخالق، فإن كان في الأصل صفة وأراد الفاعل أن يجعل في الفرع نظير صفة الأصل صنعها مناسبة للفرع بقدر إمكانه وسمّاها باسم صفة الأصل فليس لك إن كنت تفهم أن صفة الفرع كانت بعد صفة الأصل وسمّيت باسمها وجعلت نظيرها أن تسمّي صفة الفرع حقيقة وصفة الأصل مجازاً مع أن الحقيقة ذَكَر والمجاز أُنثى وتنسبون الذكر إليكم والأنثى له تعالى (أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثى تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزى) والمعلوم عند جميع العقلاء أنه تعالى إنّما خلق للأجسام آلاتٍ ليستعملها فيما يراد منه لأنّه لا يمكنه العمل بدون الآلاتِ بخلاف الصّانع فإنه تعالى يفعل بغير آلةٍ، فلمّا خلق الأجسام والنفوس المحتاجة في عملها إلى الأجسام وأراد منها عمل ما كلّفهَا به خلقَ لها آلةً تعمل بها ما أراد منها وسمّاها لها بأسماءٍ اشتقّها من أسمائه تعالى ليستدلّ بالأسماء ليعرفوه بها من غير تشبيه كما خلق للخلق علماً ليعرفوا به علمه تعالى بمعنى أنه عالم لأنّه خلق العلم والجاهل لا يصنع العلم وليس علم الخلق حقيقة وعلمه مجازاً لأن العلم حقيقةٌ في صورة المعلوم عندنا ولا نعرف علماً إلاّ أنّه صورة ومقترن بالمعلوم وعلمه تعالى إن كان صفةً للمعلوم وصورةً له فهو

حادث، وإن كان مقترناً به فهو حادث للإجماع من جميع العُقلاء من الحكماء والمتكلمين وغيرهم من المِلّيّين وغيرهم ، أنّ الاقتران صفة الحدوث ولا يقع إلاّ بين حادثين وإن لم يكن صفةً للمعلوم ولا مقترناً به فليس علماً لأن العلم لا يكون إلاّ صفة ومقترناً، ولمّا ثبت أنه تعالى عالم لأنّه خلق العلم وصنع الصنع المحكم المتقن ولا يكون هكذا إلاّ العالم، ولمّا ثبت أنّ العلم حقيقة أنه صورة المعلوم ومقترن به وهاتان لا يجوز أن يوصف الله تعالى بهما وجب أن تحكموا بأنّ علمه مَجازٌ لا حقيقة لأنكم لا تعرفون من العلم إلاّ ما لا يجوز على الله تعالى كما قلتم أنّا لا نعرف من الرحمة إلا رقّة القلب وهي غير جائزة على الله تعالى فرحمته مجاز فقولوا أيضاً علمه مجاز كذلك، وإن قلتم أن علمه مجاز فقولوا أيضاً بذلك في قدرته وسمعه وبصره وحياته وإدراكه وغير ذلك، مع أنكم تقولون هي عين ذاته فتكون ذاته مجازاً وذواتكم حقيقة لأنكم لا تعرفون من الذات إلاّ ما هو مثلكم ولهذا قال الصادق عليه السلام (كلّ ما ميّزتموه بأوهامكم في أدقِّ معانيه فهو مثلكم مخلوق مردود عليكم).

وإن قلتم: إنّ علمه لا نعرف حقيقته ولا كيفيّته فكذلك قولوا رحمته لا نعرف حقيقتها وكيفيتها فكما أنّكم لا تحكمون بكون علمه مجازاً لعدم معرفتكم بحقيقته والأصل في الاستعمالِ الحقيقة فكذلك لا تحكمون بكون رحمته مجازاً لعدم معرفتكم بحقيقتها والأصل في الاستعمال الحقيقة، كيف وقد استعمل الرحمن قبل المجاز وقبل خلق أهله.

فإن قلتم فإذاً تكون رحمتنا مجازاً والمجاز مسبوق بالحقيقة ولا يُعقل ذلك.

قلتُ: إذا لم تعقلوا ذلك فقولوا رحمتُنا حقيقة ورحمة الله تعالى حقيقة، وحقيقتُنا بنسبة حالنا كما مثّلنَا بالفرس، فإن يديها حقيقة فيها وصورتها المنقوشة في

القرطاس يداها حقيقةٌ فيها وإن كانتا مجازاً بالنسبة إلى الفرس الحيوان فافهم.

فإنْ فهمتَ فحسن وإلاّ فقد بيّنتُ لكل من لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَ هُوَ شَهِيدٌ ببيانٍ يفهمه إلاّ ثلاثة رجالٍ، رجل معاند مكابرٌ لعقلِه، ورجل لا يفهم العلم وإنما هو كالطير المعلّم ينطق بما لا يفهم، ورجل جامِدٌ جمَدَتْ طبيعته على ما سمع بحيث إذا سمع شيئاً غير ما سمع لا يلتَفِتُ إليه ولا ينظر فيه لأنّه لا يريد العلم وإنّما يريد الصورة فإذا حفظ الصورة جمَد عليها إذا سلِمَ من الردّ عليه من العوامّ أو ما يستلزم ذلك.

فإن قلت: قد قام الإجماع على أن رحمتنا حقيقة وأنها لا تجوز على الله.

قلتُ: إن قام على أن رحمة الخلق حقيقةٌ لم يقم على أنّ رحمة الله مَجازٌ وإن كان فرّعوا على كون رحمتهم حقيقة وأنها غير رحمة الله ولا يلزم من المغايرة كونها في حقِّه تعالى مجازاً، كما أنه لا يلزم من كون علمنا حقيقة وقدرتنا وسمعنا وبصرنا وأنه غير ما في الله تعالى كون علم الله وقدرته وسمعه وبصره مجازاً لجواز أن يكون هذا حقيقة وهذا حقيقة كما أنّ ذاتنا حقيقة وذاته حقيقة، وأنا شيء وهو شيء وكلٌّ حقيقة وكلٌّ مُغاير للآخر فافهم.

قال عليه السلام سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا

قال الشارح المجلسي رحمه الله (سبحان ربّنا) أي أنزّهه تنزيهاً عما لا يليقُ بذاته وصفاته وأفعالِه إن كان أي أنّه مخفّفةً من المثقلة (وعد ربنا لمفعُولاً) في إجابة الدعوات فكيف يخلف وعده انتهى.

وقال السيد نعمة الله (إن كان وعد ربّنا لمفعُولاً) إنْ هنا مخفّفة من المثقلة ويندرج في قوله (وعد ربّنا) إجابة الدعوات لأنّه قال (ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُم) انتهى.

أقول: تذكّر ما اعترفَ به من الإيمان وتذكّر أنّ الثبات ليس في أيدينا وإنّما هو في يد الله سبحانه وأنه لا حول ولا قوّة إلاّ بالله العلي العظيم لا حول لنا عن الانقلاب إلى الضلالة ولا قوة لنا على الثبات إلى الهداية إلاّ بالله المتعالي عن الجور والظلم وعن البخل ، لأنه المتفضّل بمبتدءات النعم الجزيلة، وعن تغيير عادته من الجميل والإحسان والتفضل والامتنان ، وعن أنْ يخيب رجاء راجيه وعن ألا يكون مع حسن ظنّ عبده به وعن أن يضيع عملنا بزيارتهم ومحبّتهم والتسليم لهم والردّ إليهم وبتوجُّهِنا إليه تعالى بهم وتقرّبنا بمحبّتهم واتكالِنا على ولايتهم لأمره لنا بذلك العظيم الذي لا يوصف ولا يعرف ولا يكيّف ، وتذكّر ما وصفهم عليهم السلام به من الأوصاف التي لا تثبت عليها أحكام الإقرار إلاّ مَعَ المُوافَاة بأنْ تذعن القلوب والأركان واللّسان ، كُل واحدٍ منها بالقيام بما يراد منه.

فلمّا قال ما ذكر ولم تَحْصل بالموافاة فقد خالف اللّسانُ والقلبُ والأركان وكان القول بدعوى الموالاة والمحبّة التي لا تحصل إلاّ بالعمل وأقلّه البعض كما قال تعالى (فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا كُفْرانَ لِسَعْيِهِ وَ إِنَّا لَهُ كاتِبُونَ) وأكمله القيام بالكلّ عند الله إعراضاً وكان الإعراضُ تكذيباً وكان التكذيبُ استهزاءً، وهذه أمور لازمةٌ من قوله تعالى (وَما تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آياتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْباءُ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ)والآية التي أتته ما علّمه الله من أنَ من ادّعى ولايتهم وخالفهم فقد

أعرض عما يعلم.

كما في الحديث القدسي ما معناه (قال الله يا موسى كذب من زعم أنه يحبّني وإذا جاء الليل نام عنّي وهل رأيت مُحِبّاً ينام عن حبيبه) انتهى.

وإذا أعرض فقد كذّبَ ولذا قال تعالى (كذب مَن زعم أنه يحبّني)...إلخ، وإذا كذّبَ فقد استهزأ كما في الآيتين المتقدّمتَيْن، فلمّا وجد ذلك من نفسه وهو يعلم أن ما قاله في الثناء عليهم عليهم السلام إذا كان مع الموافاة أفضل العبادات لله تعالى وأكمل ما يذكر به الله ويسبّح ويهلّل، وبدون الموافاة قد يكون كما في الآيتين، فلمّا استشعر ذلك نزّه الله تعالى عمّا ادّعاه من الطاعة وأنه ربّما كان عاصياً بترك الموافاة فقال (سبحان ربنّا إن كان وعدُ ربنّا لمفعولاً) ، وربّما رجا من الله تعالى القبول لهذا العمل القليل كان لهم عليهم السلام لأنّ ولايتهم تُتَمِّم ما نقص من الأعمال كما دلّت عليه أخبارهم فقال (أنّه كان وعدُ ربّنا لمفعولاً) لا يخلفُهُ لأنّ الوعد يستعمل في القول بفعل الثواب والوعيد في القول بفعل العقاب، وقد يستعمل القول بفعل العقاب في الوعد إذا كان إتمامه فيه مصلحة أخرى كما قال تعالى (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وَلَنْ يُخْلِفَ الله وَعْدَهُ)وكان وعده قد وقع موقع وعيده، إلاّ أنّه لما كان فيه نصرة نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم أتى بما يليق بنبيّه صلى الله عليه وآله وسلم لأنّه فعل ذلك ترجيحاً لجهته فكأن الكلام (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ) تكذيباً لك ولنبوّتك ولسوف أصدِّقُك وأنْزِلُ بهم ما استعجلوا به فكأنّ المقام وعيداً من جهةٍ ووعداً من جهةٍ، فرجح جانب نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم فقال (إن كان وعد ربّنا لمفعولاً) بلحاظ إرادة الوعدِ من هذا الوعد، لأن الله تعالى وعد القبول لأقلّ الأعمال مع ولايتهم لأنها تُتَمّم ما نقص وتقوم مقام ما فقد لاشتمالها على محبّتهم ولو خاصّة بالقلب بدون عمل الأركان بلحاظ إرادة

الوعيد من هذا الوعد لأنّ مَنْ قال بلسانه ولم يعمل بأركانه فقد نقّص حقّهم كما قال عليه السلام (أَنَّ وَلايَتَنَا لا تُنَالُ إلاَّ بِالْوَرَعِ)فذكر ذنوبه وتقصيراته، إمّا بسبب هذه الدّعاوى التي لم يشفعها بالموافاة أو مطلقاً وهذا اللحاظ بقرينة قوله يا وليّ الله إنّ بيني وبين الله ذنوباً....إلخ.

وهذه القرينة مرجّحةٌ لِلّحاظ الثاني ويرجّح الأوّل وهو إرادة الوعد من هذا الوعد أنه صدّره بأن المخفّفة من الثقيلة وهي للتأكيد ودخول لام التأكيد في خبرها وإن كان أتى بها للفرق ، لكنّها مع ذلك تفيد التأكيد لأنها إذا خفّفت وأُتي لها باللام للفرق بينها وبين الشرطيّة لم يؤت للفرق إلاّ بلامها التي تدخل وإن كانت مشدّدة للتأكيد وأنّه أتى بلفظ الوعد واستعماله في الوعيد بعيد.

وعلى فرض الوجه الثاني فإنّما لوحظ به مصلحة الآخر ، والآخر هنا الأئمّة عليهم السلام فإنهم لا يحبّون المعصية والتقصير من شيعتهم ومحبّيهم، وإذا وقع من مُحِبِّهم تحمّلوا تَبِعاتِهِ واستغفروا له وشفعوا فيه، بحيث لا يشمت بهم أعداؤهم.

وفي تفسير العياشي عن كرّام قال (سمعتُ أبا عبدالله عليه السلام يقول إذا كان يوم القيامة أقبل سبع قباب من نور يواقيت خضر وبيض في كل قبة إمام دهره قد احتف به أهل دهره بَرُّها وفاجِرُها حتى يقفون بباب الجنة فيطلع أولها صاحب قبة اطلاعة فيميز أهل ولايته وعدوه ثم يقبل على عدوه فيقول أنتم الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنالُهُمُ الله بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ اليوم لأصحابه فيسود وجه الظالم فيميز أصحابه إلى الجنة وهم يقولون رَبَّنا لا تَجْعَلْنا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ فإذا نظر أهل قبة الثانية إلى قلة من يدخل الجنة وكثرة من يدخل النار خافوا أن لا يدخلوها وذلك قوله لَمْ يَدْخُلُوها وَهُمْ يَطْمَعُونَ ★ وَإِذا صُرِفَتْ أَبْصارُهُمْ تِلْقاءَ

أَصْحابِ النَّارِ قالُوا) تَعَوُّذاً بالله (رَبَّنا لا تَجْعَلْنا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ).

وفي الجوامع عن الصادق عليه السلام (الأعراف كثبان بين الجنة والنار فيوقف عليها كل نبي وكل خليفة نبي مع المذنبين من أهل زمانه كما يقف صاحب الجيش مع الضعفاء من جنده وقد سبق المحسنون إلى الجنة فيقول ذلك الخليفة للمذنبين الواقفين معه انظروا إلى إخوانكم المحسنين قدسبقوا إلى الجنة فيسلم المذنبون عليهم وذلك قوله وَنادَوْا أَصْحابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ ثم أخبر سبحانه أنهم لَمْ يَدْخُلُوها وَهُمْ يَطْمَعُونَ يعني هؤلاء المذنبين لم يدخلوا الجنة وهم يطمعون أن يدخلهم الله إياها بشفاعة النبي والإمام و ينظر هؤلاء المذنبون إلى أهل النار ويقولون رَبَّنا لا تَجْعَلْنا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ثم ينادي أصحاب الأعراف وهم الأنبياء والخلفاء أهل النار مقرعين لهم ما أَغْنى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَما كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ به -أهؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ يعني أهؤلاء المستضعفين الذين كنتم تحقرونهم وتستطيلون بدنياكم عليهم ثم يقولون لهؤلاء المستضعفين عن أمر من الله لهم بذلك ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ) أي لا خائفين ولا محزونين) ومثله ما في تفسير علي بن إبراهيم على اختلافٍ في بعض الكلمات لفظاً وأمثال هذه كثيرة.

وفي دعاء الحجة عليه السلام قال رضي الدين بن طاوس قدّس الله سرّه (سمعتُ القائم عليه السلام بسرّ من رأى يدعو من وراء الحائط وأنا أسمعه ولا أراه وهو يقول اللهم إن شيعتنا منا خلقوا من فاضل طينتنا وعجنوا بماء ولايتنا اللهم اغفر لهم من الذنوب ما فعلوه اتكالا على حبنا وولائنا يوم القيامة ولا تؤاخذهم بما اقترفوه من السيئات إكراما لنا ولا تقاصهم يوم القيامة مقابل أعدائنا فإن

خففت موازينهم فثقلها بفاضل حسناتنا) انتهى.

وكلّ هذه وما أشبهها مُؤَيّد للأول، فعلى الثاني يكون قوله فيما بعده يا ولي الله استشفاعاً في التقصيرات الخاصّة، وهي ما تضمّنها قوله في سائر هذه الزيارة مثل قوله (مطيع لكم آخذ بقولكم) فإنه لا يصدق الطاعة والأخذ بالقول مع المخالفة، وعلى الأولى استشفاع في الأعمّ وفي الثبات على ما هُدِيَ له من المحبّة والولاية والمتابعة ولو في الأغلب أو بالقلب والتسليم لهم كذلك والموالاة لهم ولوليّهم والبراءة من أعدائهم ومن أشياعهم وأتباعهم ولو بالقلب.

قال عليه السلام يا ولي الله إن بيني وبين الله عز وجل
ذنوبا لا يأتي عليها إلا رضاكم

قال الشارح المجلسي رحمه الله (يا وليّ الله) المخاطب هو الإمام الحاضر الذي يزوره أو يقصده بالزيارة أو الجميع لشمول الجنس له ويؤيّده الإتيان بالجمع بعده لا يأتي عليها أي لا يهلكها أوْ لا يمحوها إلاّ رضاكم عنّي مطلقاً أو بالشّفاعة انتهى.

أقول: قوله عليه السلام (يا وليّ الله) إن عيّن بالقصد أو الإشارة أو الحضور عند قبره الشريف، فإن الحضور معيّن سواء خاطبه بالمفرد أم بالجمع، ولكن إذا خاطبه بالجمع كان الحاضر عليه السلام سابقاً في الخاطر لمكان الحضور وما سواه منهم عليهم السلام إن قصدهم مع الحاضر كانوا بعده في الحضور الذهني وإن لم يقصد غيره تعيّن في القصد وكان الجمع للتعظيم والإشارة والقصد كالحضور في حكم أوّل الخطور بالبال، ولكن يحتاجان إلى تأكّد إقبال وتوجّه لأنّ الحضور يُعينه على التعيين البصري والمشاهدة للحضرة والقبر الشريف، واطلاق الشارح رحمه الله بقوله (أو

الجميع) تسامح أو الإرادة التّنبيه على خصوص صحّة التوجّه إليهم عليهم السلام جميعاً عند زيارة أحدهم، وحينئذٍ يكون الحال كما قلنا، فإنّ الزائر إذا توجّه إليهم جميعاً بالزيارة والخطاب وهو عند قبر أحدهم كان الحاضر سابقاً في الحضور في ذهن الزائر وإذا قصد خطاب الجميع كانوا مخاطبين بواسطة خطاب الحاضر فهو المخاطب وهم تبع له في الخطاب أو هو أمامهم بفتح الهمزة وبكسرها في مخاطبة الزائر وهذا ظاهر.

قوله عليه السلام (يا وليّ الله) قد يستعمل بمعنى أنّ الله تعالى تولاّه وتكفّل به في مصالح نشأتيه، كما قال تعالى (اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ)وقد يستعمل بمعنى أنّ الله ولاّه أي وجّهه إلى جهته التي خلق لها من مقامه من الله ورتبته في الجنّة أو جهات ما أراد منه من رفع الحجب عن قلبه حتى يشاهد من ملكوت الله تعالى في خلقه ما كتب له في ألواح قدرِه، وقد يُستعمل بمعنى أنّ الله تعالى ولاّه واسترعاه من عباده ما يحتمله من التأدية عنه تعالى إليهم، وذلك كسائر الأنبياء والأولياء من خلفائهم عليهم أجمعين السلام، وقد يُستعمل بمعنى الحامل للواء الحمد وهو لواء الولاية المطلقة العامة كما تقدّم، يعني أنه عز وجل خلق هذا الولي له تعالى خاصّة وخلق له جميع خلقه فلمّا خلقه أشهده خلق نفسه وأنهى إليه علمها، وحين خلق الخلق من الإنس والجن والملائكة والحيوانات والشياطين والنبات والمعدن والجماد والسماوات والأرضين وسائر الأفلاك في مشاهد متعددة وأوقات متجدّدة وهي ألفُ ألفِ دهرٍ ، كل نوع وجنس وصنف وشخصٍ في مكان حدوده ووقتِ وجوده، أشهدهم كل شيء

منها وأنهى إليهم علمه والقيام به وتربيته بأن يؤدّي إليه ما كتب عز وجل له من خلق ورزق وحياة ومماتٍ وما يلحق بذلك من كل ما يتعلق بتربيته في النشأتين، فهم يؤدّون إلى رعاياهم التي استرعاهم الله إيّاها بأنفسهم وبوسائط من كلّ نوع إلى ما يشاكله على حسب ما علّمهم الله وهذا هو الوليّ المطلق ، والولاية العامّة المطلقةَ مختصّة بهم من بَعْدِ الله تعالى وما سواهم من جميع الخلق فولايتهم خاصّة وإليه الإشارة بقوله تعالى (تَعْلَمُ ما فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ ما فِي نَفْسِكَ)، وصاحب هذه الولاية المطلقة هو المرادُ هنا في قوله عليه السلام يا وليّ الله.

وقوله عليه السلام (إن بيني وبين الله ذنوبا) يراد منه أني في حالةِ طاعتي أنا مقصّر عاصٍ، ففي حالةِ عصياني كيف لا أكون عاصياً كما في المناجاة الملحقة بدعاء الحسين عليه السلام على ما نقله بعضهم، وإلاّ فقد قيل أنّ هذه المناجاة ملصقةٌ به وأنّها من كلام ابن عطاء الله، وقيل هي من كلام الحسين عليه السلام وزاد فيها ابن عطاء الله وفي أوّل المناجاة (إلهي من كانت محاسنه مساوي فكيف لا تكون مساويه مساوي ومن كانت حقائقه دعاوي فكيف لا تكون دعاويه دعاوي) .

وما تقدم من دعاء علي بن أبي طالب عليه السلام وخُطبته ودُعاء عليّ بن الحسين عليه السلام بعد الثماني من صلاة الليل فإنّما يشعران هما وغيرهما أن العبد في جميع أحواله مُقَصِّر ليس له طريق إلى استحقاق رحمة الله واستيهال عفو الله وفضله إلاّ بفضل الله وعفوه ومنّه وكرمه ورحمته يمنّ بها على من يشاءُ من عباده هذا في حقّ من يقوم بظاهر أوامر الله تعالى ونواهيه في جميع أحواله.

وقد نقل بعض العلماء الأخيار من أهل البحرين أنه وجد بخطِّ الشيخ حسين بن محمد بن جعفر الماحوزي السّاكن القطيف وأظنه نقله من أشعار

بعض العرفاء أو المتصوّفة بيتين وهما:

لو أقسم المرء بالرحمن خالقه

بأن بعض الورى لا شيء ما حنثا

لو كان شيئا فغير الله خالقه

الله أكرم من أن يخلق العبثا

ومعناهما لو أقسم المرءُ بالله بأنّ بعض الورى والمراد الكل لا شيء يعني لا حقيقة له من ذاته ولا شيئيّة، وإنّما شيئيّته في الحقيقة من شيئية غيره أي بشيئية غيره ما حنث ولا كفارة عليه، لأن يمينه صادقة لأنه أي المخلوق لو كان شيئاً لكان خالقه غير الله لأنّه إذا كان شيئا لم يكن لله فيه صنع إلاّ التصوير كصنع البنّاء للجدار فإنّ التراب والماء اللذَين عمل منهما الطين صنعُ غيره، وكذلك الحجارة فليس له عمل إلاّ الهيئة وكذلك جميع العاملين الصانعين ما خلا الله تعالى فإنهم إنما يعملون في صنع غيرهم، ولو كان الله تعالى يصنع في صنع غيره لكان عابثاً لأن ذلك الغير الذي صنع الأصل وأحدث المادة يصنع الصورة فيكون صنع الصانع بعده عبثاً، والاستشهاد من هذيْن البيتين أنّ كُلَ ما سِوى الله لا إنية له من ذاته ولا حقيقة فكلُّ من وجد لهُ إنية فهو عاصٍ بل جاحدٌ وما أحْسن ما قال شاعرُهم في هذا المعنى:

أقول وما أذنبتُ قالَتْ مجيبةً

وجودُكَ ذَنْبٌ لا يقاسُ به ذَنْبُ

فإذا كان وجْدانُه لوجوده ذنباً لا يعدلهُ شيء من الذنوب، لأنَّ كل ذَنْب فإثباتُه وثبوتُه وتحققه إنّما يكون مبنياً على وجدانِ وجوده، فإذا كان الأمرُ كذلك بأن وجد

له وُجوداً فقد عصى بنسبة وجدانه لأنه حينئذٍ مدّع للاستقلال والاستغناء وكفى بذلك ذنْباً لو كان يعلم لأنكره وتبرّأ منه (لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِراراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً) ولا يكادُ ينفكّ من هذا في حالٍ هذا مع قيامه بما يراد منه.

وأمّا من كان مقصِّراً فيما يراد منه من ظاهر التكليف فلا تسأل عن حاله.

وقوله عليه السلام (إن بيني وبين الله ذُنوباً) مَعَ أن بَيْنَهُ وبَيْن الآدميّينَ ذُنوباً، ولكن حقوق الخلق لا تكون حقوقاً إلاّ بحقوق الله فكلُّ حق للخلق فهو حق للهِ وليس كلّ حقٍ لله حقا لِلنّاسِ، فلذا قال (إنّ بيني وبين الله عز وجلّ ذنوباً) على أنَّ مَنْ أصْلَحَ حاله مع الله تعالى فإنّ تبعات الخلق تمحوها شفاعتهم عليهم السلام ويُعَوَّضون عن حقوقهم من فضل الله، فيؤول الأمر إلى أنّ التبعات والحقوق لله تعالى فإن العباد ملكه وحقّ المملوك للمالك فإذا شاء أسقط حقّ عبده عن عبده وعَوّض عبدَهُ عمّا أسْقطَ من حقه.

وقوله عليه السلام (لا يأتي عليها إلاّ رضاكم) يراد منه أن تلك الذنوب التي كانت بيني وبين الله لا يمحوها ويُسْقِطها من اعتبارها ونسبتها إليّ لا بمعنى يهلِكها ويمحوها من الوجود العلمي الإمكاني، لأن هذا العلم الإمكاني الذي هو الوجود الراجح الذي تقوّمت به مشيّة الله تعالى تقوّم ظهور وتقوّم بها تقوّم تحقّق هو خزانةُ ملكِ الله تعالى ولا يخرج عن ملكه ما دخل فيه.

نعم قد يمحوها من الكوني وهو ما نُقِشَ بين دفّتي الكتاب الحفيظ وترتفع إلى أصلها في الوجود الإمكاني ، وقد يمحوها بمعنى يمحو تعلّقها بمن عملها كما مثّلنا سابقاً بأن مثال السّارق الذي رأيته يسرق إذا تاب كان كلّما ذكرتَ تلك الحال منه بحضوره أو بذكره منك أو من غيره بلسانٍ أو بذهنٍ رأيتَ المثالَ يسرق

ولكن ترى بينهما حجاباً وذلك لأنّ التوبة حالت بينه وبين المثال فقطعتِ الربط والاتّصال بينهما وترى المثالَ مُتخَلِّفاً عنه غير لاحقٍ به ولازمٍ لَهُ ولا منسوبٍ إليه، لأنّ المؤمن لمّا سار به نَهرُ الزمان إلى الوقت الذي رأيته به بعد التوبة بقي المثال في وقتِ وجوده ووجهه مقابلٌ للمؤمن لا لذاته بل للحال الّتي تولّد المثال فيها وتلك الحال لمّا تاب حالت التوبة بينه وبينها فبقيت ملقاة على وجهها في المكان الذي وقعت السرقة فيه وزمانها والمثال متلِّبسٌ بها ، ولمّا سار نَهرُ الزمان بسفينةِ المؤمن تجاوز عن المثال ومكانِه وزمانِه وكان المثال بدناً لا روح فيه وإنما يسير مع السارق حيث ما سار نَهرُ الزمان بسفينته لأنه كان متعلّقاً به ولازماً له لم يحُلْ بينهما حائل فهو متّصل به فينجذِبُ معه أينما كان فيثقل الشَّخص بالأمثال القبيحة فلا يصعد إلى عليين بل ينزل إلى درَكاتِ أعمالِه لأن الجذب في الحقيقة للأمثال وإن كانت هي لازمة للذوات، وإنّما قلنا إن المثال القبيح ينجذب مع صاحبه لأنه صفة والصفة تابعةٌ للموصوف، ولأنّها إنّما حدثت بميله إليها فهي منسوبة إليه فيقال إنها تتبعه بمعنى أنّها لازمةٌ له كما قال تعالى (وَ لَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ)وقال تعالى (سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ)وإلاّ ففي الحقيقة هو تابع لأمثاله بمعنى أنّ مصيره ومَردهُ إلى محلّ أمثالِه، ألا تَرى أنّ زيداً من حيثُ هو فاعل قام في قولك (قام زيدٌ) تابع في الحقيقة من جهة الرتبة والمصير للقيام فيما تترتّب عليه من الأحكام، وإن كان القيام ناشئاً من فعل زيدٍ فظهر لك ممّا لوَّحنا لك أن المثال الحسن في الدّفة العليا من الكتاب الحفيظ وهو كتاب الأبرار في علّيين، وأن المثال القبيح في الدفّة السُفلى من الكتاب الحفيظ وهو كتاب الفجار في سجّين، وأن المثال حسنا كان أو قبيحاً إن تركه صاحبه وعمل بخلافه تخلّف عنه في مكانه ورتبته ولحقه حكم

الثاني الحادث بالعمل الثاني، وإن لم يتركه كان تابعاً له أي للمثال في رتبته، فالمثال وإن كان لازماً لكنّه يجرّ صاحبه إلى مقامه كما أنه لازم لصاحبه إلاّ إذا طرأ عليه آخر يحول بينهما فتنقطع الرابطة، وإلى معنى هذا الانجذاب والتبعية أشار أبو جعفر عليه السلام كما في الكافي (أُتِيَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام بِقَوْمٍ لُصُوصٍ قَدْ سَرَقُوا فَقَطَعَ أَيْدِيَهُمْ مِنْ نِصْفِ الْكَفِّ وَتَرَكَ الإِبْهَامَ وَلَمْ يَقْطَعْهَا وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوا دَارَ الضِّيَافَةِ وَأَمَرَ بِأَيْدِيهِمْ أَنْ تُعَالَجَ فَأَطْعَمَهُمُ السَّمْنَ وَالْعَسَلَ وَاللَّحْمَ حَتَّى بَرِءُوا فَدَعَاهُمْ وَقَالَ يَا هَؤُلاءِ إِنَّ أَيْدِيَكُمْ قَدْ سَبَقَتْ إِلَى النَّارِ فَإِنْ تُبْتُمْ وَعَلِمَ اللهُ مِنْكُمْ صِدْقَ النِّيَّةِ تَابَ اللهُ عَلَيْكُمْ وَجَرَرْتُمْ أَيْدِيَكُمْ إِلَى الْجَنَّةِ وَإِنْ لَمْ تُقْلِعُوا وَلَمْ تَنْتَهُوا عَمَّا أَنْتُمْ عَلَيْهِ جَرَّتْكُمْ أَيْدِيكُمْ إِلَى النَّارِ) هـ.

فقولنا فيما قبل فوجهه أي المثال مقابل للمؤمن لا لذاته بل للحال التي تولّد المثال فيها، أُريدُ أنّه إذا تابَ قد يُمْحَى المثال من الوجود الكوني عند مَنْ علِمَهُ وقد يبْقى وإذا بقي فبقاؤه إنّما هو بتلك الحال، وتلك الحال بعد الترك ارْتفعَتْ في مكانِ العمل وزمانه فهي في عالم الأشباح الخالية بلا أرواح فإن كانت الحالة قبيحة سقطت إلى الريح العقيم بعد التوبة.

وأمّا إذا لم يَتُبْ كانَتْ حالَتُهُ مُصاحبةً له فمن رآه رآه مُتَلَّبِساً بها حتىّ يردّ على الله تعالى بأحد الحالَيْن.

فمعنى قوله عليه السلام (لا يأتي عليها) بمعنى لا يهلكها ويفنيها ويمحوها إلاّ (رضاكم) ما ذكرنا من أحد الوجهين، إمّا محو كونها كما في بعض الذنوب بأن ينسي الله تعالى الملائكة والأرض والوقت ذلك ، والنّسْيان محو الصورة من الحافظة وهي هنا نفوسُ الملائكة والناس وألواح المكان والزمان المعبّر عنها

بالكتاب الحفيظ ، فإنَّ تلك من ألواح اللَّوْحِ المحفوظ، وإمّا قطع الرَّبْط والتعلّق بينهما فافهم.

قوله عليه السلام (إلاّ رضاكم) يراد أنّ غير رضاهم كالتّوبة لو كفّرَتْ بعضاً ما كفّرَتْ آخر لعدم شمولها لكلّ شيء إذ بعض الذنوب لا يَشْعر بها المرء، والتوبةُ إنّما تقع على ما يُشْعِرُ به مجملاً أوْ مُفَصَّلاً.

وأمّا رضاهم فهو يأتي على كُلّ شيء إذ لا يمكن أن يقع شيء من الذّنوبِ وهم لا يعلمونه لأنّ الأعمال تُعْرَضُ عليهم وقد أطلعهم الله على ما في اللوح المحفوظ، وكذلك القرآن فإنه تفصيل كلِّ شيء وقد أعطاهم الله تعالى عموداً من نورٍ يرون فيه جميع أعمال الخلائق ولأنه لا يكون ذنبٌ إلاّ ما كان مخالِفاً لأمر الله وإرادته ظاهراً أو باطِناً ، ولا إرادة لله ولا أمر إلاّ بهم عليهم السلام لأنّهم محالّ مشيّته وألْسُنُ إرادته وخزنَةُ أمرِه ونَهْيه فلا يمحو جميع الذنوب إلاّ رضاهم.

فإن قلت: لم قال عليه السلام (إلاّ رضاكم) ولم يذكر رضا الله تعالى وذكر رضا الله أولى في العموم، فإنّ شفاعتهم لا تنْفع إلا من رضي الله دينه كما قال تعالى (وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضى)وبدون رضاه لا تنفع الشفاعة عنده ولهذا قال تعالى لنبيّه صلى الله عليه وآله وسلم (اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُم سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ الله لَهُمْ)ولو أذِنَ الله لهم بالاستغفار غفر الله لهم باستغفاره صلى الله عليه وآله وسلم، فَالأَوْلى أن يقال لا يأتي عليها إلاّ رضا الله أو يُقال إلاّ رضا الله ورضاكم.

قلتُ: هذا مبني على أحد وجوهٍ بل كلّها مرادةٌ.

أحدها : أن يكون المراد برضاهم رضا الله، إمّا على اعتبار المساواة في جميع ما يترتّب على الرضا من الأحكام مطلقاً أو في خصوص غفران الذنوب، وإمّا على

اعتبار اتّحاد رضا الله ورضاهم في الجعل بأن جعل تعالى رضاهم رضاه وغضبهم غضبهُ وطاعتهم طاعته ومعصيتهم معصيته.

وثانيها : أنْ يكون المراد أنّ الله تعالى جعل رضاه في رضاهم وسخطه في سَخَطهم كما جعل أمرَهُ ونَهْيَه في قلوبهم، فعلى هذا يكون رضاه في الذات غير رضاهم وفي المتعلّق هو رضاهم، بمعنى أنّ رضاه لا يكون له محل يتعلّق به بحيث يكون مرضيّاً لله تعالى إلاّ بواسطة رضاهم بأن يكون ذلك المحل مرضيّاً لهم فيكون رضا الله في رضاهم على جهة الظرفيّة باعتبار تعلّقِه بالمرضيّ كالنفس في الجسد، بمعنى أنّ النفس وإن كانت هي المؤثّرة ولكن لا يتحقّق تأثيرُها إلاّ بالجسم فتقول عملته بيدي والعامل هو النفس ولكن لا يتحقّق عمَلُها في الأجسام إلاّ بواسطة الجسم، فإذا كان كذلك نسب العمل إلى الجسم لا إلى النفس لأنها لا تباشر الأعمال الجسمانيّة إلاّ بواسطة الجسم.

وثالثها : أن يكون المراد أنّ الله تعالى جعل رضاهم شرطاً لرضاه تعالى شرط صحةٍ ، بمعنى أنه متمِمٌ لرضاه تعالى ، أو شرطَ ظهورٍ بمعنى أنه قابل لرضاه ورضاه مقبول ، فعلى الأوّل يكون رضاهم ركناً لرضاه بنحو ما يشير إليه الحجة عجل الله تعالى فرجه في دعاء شهر رجب (فجعلتهم معادن لكلماتك وأركانا لتوحيدك وآياتك ومقاماتك التي لا تعطيل لها في كل مكان) ، على معنى أنّ حقائقهم معانيه أي معاني أفعاله فيكون رضاهم جزءاً متمِّماً واعتبر دون رضاه لأنه السبب القريب منّا والواسطةُ بيننا، وعلى الثاني أنّ رضاه تعالى مقبول ورضاهم قابل له فهو الصورة ورضاه تعالى مادّة والحكم يتبع الصورة ، وما يتبع

الحكم تابع له بواسطتها فلذا اعتبر رضاهم.

ورابعها : أنّ شؤونه تعالى لذواتها منحصرة فيهم لأنّه تعالى اصطنعهم له ، وإنّما اصطنَعَ ما سواهم لهم فانحصرت معانيه أي معاني أفعاله فيهم فرِضاهُ الذي يكون منشأ ومستنداً للأمور بدءاً وعوداً حادِثٌ ، وجميع صفاته الحسنى أي صفات أفعاله من الكرم والرّضَى والفضل والرحمة وغير ذلك، فهم معانيها في مقام الأسماء وهم أسماؤها وأركانها في مقام الأمثال العليا بمعنى أنهم عليهم السلام بظاهرهم أسماء لتلك الأمثال والمقامات التي لا تعطيل لها في حالٍ، وأنّهم بباطنهم أركان لها وأبْدالٌ فليس له تعالى رضاً غير ذاته المقدّسة إلاّ هم أو ما تقوَّمَ بهم أوْ عنهم، يعني أن الرضا الذاتي القديم ليس شيئاً غير ذاته تعالى ولا كيف لذلك ولا يعلمه إلاّ هو سبحانه، والرّضى ثلاثة أقسام:

رضاً تقوّم بهم تقوُّمٍ ظهورٍ وهو فعله الراجِح الوجود، وهو قولنا أوْ ما تَقوَّمَ بهم.

ورضاً هو حقيقتُهمْ.

ورضاً تقوَّم عنهم تَقوُّمَ صدورٍ وتحقُّقٍ.

فذاته تعالى لا تنسب إلى شيء ولا ينسب إليها شيء وما سوى ذاته فما هو فعله ومشيّته وإرادته فهم محالُهُ وبهم تَقوّم تقوّمَ ظهُورٍ، وما هو ذاتهم فهو ذاتهم وظاهرٌ أنّ الله تعالى أقامهم بهمْ وما هو عنهم فما يفعلونه بأمره لا يسبقونه بالقول، يعني أنهم لا وجود لهم ولا شيئيَّة لهم إلاّ بما أعطاهم من ذواتهم، فكان الاعتبار في مقام النّسبيّةِ والمنسوبيّة إنّما هو برضاهم وهم رضا الله تعالى وهم برضا الله قائمون وهم عن رضا الله يفعلون ويرضون كما قال سيدُ الشهداء صلوات الله

عليه ولعنة الله على قاتليه وظالميه في قوله عليه السلام لعبدالله بن عمرو وهو عليه السلام متوجّه إلى العراق قال عليه السلام بعد كلام طويل (يا عبدالله خط الموت على ولد آدم مخط القلادة على جيد الفتاة وما أولهني إلى لقاء أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف وخُيِّرَ لي مصرع أنا لاقيه كأني بأوصالي تتقطعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلاء فيملأن مني أكراشا جوفا وأجربة سغبا لا محيص عن يوم خط بالقلم رضا الله رضانا أهل البيت نصبر على بلائه ويوفينا أجر الصابرين لن تشذ عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لحمته وهي مجموعة له في حظيرة القدس تقر بهم عينه وينجز بهم وعده من كان باذلا فينا مهجته وموطناً على لقاء الله نفسه فليرحل معنا فإنني راحل مصبحا إن شاء الله تعالى) هـ .

قوله عليه السلام (فيملأن مني ..إلخ) كناية عما صنعوا به أعداؤه لعنهم الله.

وقوله عليه السلام (أكراشاً ..إلخ) لبيان شدّة حِقدهم وعداوتهم كالجائع الذي حين وجد الأكل لا يظنّ أنه يشبع لشدة حرصه ، ولُحمة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بضم اللام قرابته صلى الله عليه وآله وسلم، والمراد بهم المعصومون الثلاثة عشر عليه وعليهم السلام (وحظيرة القدس) الجنّتان المدهامّتان عند مسجد الكوفة وذلك عند رجعته وأهل بيته عليهم السلام في آخر الرجعات التي يقتل فيها إبليس لعنه الله والاستشهاد من كلامه عليه السلام قوله الحق (رضا الله رضانا أهل البيت) ، فإنه عليه السلام أخبر بالاتّحاد وذلك كسائر ما أراد من خلقه مثل (من أطاعهم فقد أطاع الله ومن عصاهم فقد عصى الله) ومثل قولهم عليهم السلام (طاعتنا طاعة الله ومعصيتُنا معصية الله)وما أشبه ذلك.

وخامسُهَا : إنّما خصّ رضاهم باللّفظ وإن كان يريد أنّه هو رضا الله أو ملازم لرضا الله أو محلّ له أو غير ذلك لبيان الانقطاع إليهم وللأخبار عن إخلاص

القلب وعن الاستهلاك والاضمحلال لوجوده في وجودهم وطاعتهم وأمرهم ونهيهم نظير ما تقدّم في هذه الزيارة الشريفة من قوله عليه السلام (ومُفَوِّض في ذلك كلّه إليكم) وفي الزيارة الجامعة الصغيرة في خصوص شهر رجب كما في مصباح الشيخ رحمه الله قال عليه السلام (أنا سائلكم وآملكم فيما إليكم فيه التفويض وعليكم التعويض فبكم يجبر المهيض ويشفى المريض وعندكم ما تزداد الأرحام وما تغيض) ...إلخ. وكلّ هذا ومثله لبيان ما انطوى عليه القلب من الانقطاع إليهم، وقد تقدّم بيان التفويض والمراد به التفويض الحقّ أي التعليم لما شاء من العلوم والأحكام والأوامر والنواهي والأفعال، ممّا هو مقتضى الولاية المطلقة وكلّ ما وصل إليهم منه تعالى فهو قائمٌ بفعله قيام صدور كقيام صورتك في المرآة بك فإنها قائمة بمقابلِتك لها قيام صدورٍ إذ ليست شيئاً إلا بمقابلتك، وكذلك جميع ما ينسب إليهم منه تعالى لا التفويض الذي هو كناية عن الاستقلال فإنه شركٌ بالله العظيم.

وقوله (وعليكم التعويض) يراد منه ما ذكرنا مراراً أنّهم أبواب الله تعالى لا يصل إلى أحدٍ من الخلق شيء من الله تعالى إلاّ بواسطتهم.

وقوله (يجبر المهيض) المهيض هو كسر العظم ثانياً بعد أن جبر عن كسرٍ أوّل، فإنّ جبرَهُ صعب لا يكاد يستقيم على ما ينبغي .

وقوله (وعندكم ما تزداد الأرحام وما تغيض) إذا أجرى تعالى صنعه على الأسباب فإذا أتى المرأة الحيض في حملها كما هو المشهور الصحيح زادت مدة الحمل بقدر ما تراه في حملها من المحيض، ولذا قال الأكثر أكثر الحمل سنة لأنّ مدة الحمل تسعة أشهر فيحتمل أن يأتيها في كل شهر عشرة أيّام فتزيد تسعون يوماً وهي ثلاثة أشهر ونقصان المدة عن التسعة لجواز صلاح الغذاء للجنين

وقوة قابليّته وهاضمته وكثرة غذائه من أمّه فيشبّ في الستّة الأشهر أو السبعة أو غيرهما كما يشبّ غيره في التسعة، وإذا كان كذلك لو بقي يوماً قتل أمّه ولأسباب يطول ذكرها وأعظمها أن لكلّ شيء أجلاً في البقاء والظهور والخروج والفناء لا يزيد ولا ينقص لكل أجل كتاب.

قال عليه السلام فبحق من ائتمنكم على سره واسترعاكم أمر خلقه وقرن طاعتكم بطاعته لما استوهبتم ذنوبي وكنتم شفعائي

قال الشارح المجلسي رحمه الله (فبحقّ من ائتمنكم على سرّه) من العلوم اللّدنيّة والمكاشفات الغيبيّة والحقائق الإلهيّة، (واسترعاكم أمْرَ خلقِه) أي جعلكم أئمّة ورعاة لأمور الخلائِق من العقائِد والأعمالِ، (وقرن طاعتكم بطاعته) بقوله تعالى (أَطِيعُوا الله وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ)ويفهم من المقارنة أنه لا يقبل واحدة منها بدون البقيّة بل الجميع واحد كما قال تعالى (مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ الله)انتهى.

أقول: يعني أسألكم وأتوجّه إليكم بحَقِّ مَنْ ائتمنَكم عَلى سرّه عليكم، فإنَّ له تعالى على كُلّ أحدٍ من الخَلْق حقُّ الإيجاد وإفاضة النّعم الَّتي لا تُحْصَى ، ولا يقومُ بِحَقِّها أحدٌ إلاّ بالاعتراف بالعَجْزِ والتَقصير عن أداء شكرِ أقلِّها فأتوجَّهُ إليكم بذلك الحقّ الذي أعْظَمُهُ أنّه تعالى ائْتَمنكم على سرِّه، وهذا السِرُّ سرُّ الخليقةِ وهو مجموع أحكام مُقْتَضَيات أفرادِ الوجود ومجموع مقتضيات أحكامها من الأجناس والأنواع والأصْنَافِ والأفرادِ من حيَوانٍ وغيره، وذلك السرُّ من حكم ومحكوم عليه من عوالم الغيوب وعوالم الشّهادة، والإشارة إلى بيان هذا السرً المشار إليه على نحو الإجمال تلويحاً إذْ لَا يعرفه تفصيلاً إلاّ من ائتمنه الله تعالى إيّاه، هو أنّ الله تعالى قال (كنت كنزا مخفيا فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق

لكي أعرف) فأشار تعالى إلى ثلاث رتب.

الأوُلى : مقام الكنز المخفي وهو مقام الذّات البحت المعبّر عنه باللاتعيّن ويعرف بما وصف نفسه به من صنعه وذلك صفةُ استدلالٍ عليه لا صفة تكشفُ له ولا سبيل لأحدٍ من الخلق إليه إلاّ بذلك، وإن اختلفَتْ مراتبُ وصفِه نفسه لخلقه بتفاوتٍ لا يتناهى في الكم والكيف والعدد وهذا أعلى مراتب السرِّ الذي ائتمنَهُ ولا يتحوّل سبحانه عن هذه الحال وإنّما يظهر لمن أراد أن يظهر له به وبما شاء من آياته.

والثانية : مقام فأحببتُ أن أُعرف وهو مقامُ مشيّته وإرادته وإبداعه وفعله ، وهو الوجودُ الراجح الذي لا أوّل له في الإمكان، خلقه تعالى بنفسِه وأقامَهُ بنفسِهِ وفي الدعاء (وباسمك الذي استقرّ في ظلِّك فلا يخرج منك إلى غيرك)فهو اسمه تعالى وهو ظلّه الّذي أقامَهُ فيه يعني أقامه بنفسه.

واعلم أنّ للعرش الّذي استوى عليه الرحمن برحمانيّته فأعطى كلّ ذي حقٍّ حقَّهُ إطلاقاتٍ عندهم عليهم السلام وأعلى ما يطلق هذا الاسم عليه هذا المقام ونسبة هذا إلى الحقيقة المحمدية والولاية المطلقة كنسبة الكسر إلى الانكِسَار وهم عليهم السلام محالُّ هذا، كما أنّ الانكسَار محلّ الكسر وقد ائتمنهم على هذا السرِّ وهو أمْرُ الله الّذي به يعملون، فلمّا كان الصنع والعمل وكلّ شيءٍ من عين أو معنى حركةٍ أو سكون لا يكون إلا بأمر الله الذي هو فعلُه ومشيّته وكانوا محلَّ ذلك كلّه في رتبة الأكوان كما قال تعالى (ووسعني قلب عبدي المؤمن) ائتمنهم عليه أي على حفظه والقيام بموجبه وتأديَةِ أحكامِه وآثارِه إلى مستحقّيها وقابليها ، وقوّاهم به على تحمّله فليس لهم عملٌ بغيره لا من أنفسهم ولا من غيرهم من الخلق، ولا يكلّفهم إلاّ به قال

الله تعالى (ما وسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن) فقلبُ المؤمن وسِعَه أي وسِع فعله فقال الله (لاَ يُكَلِّفُ الله نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا) فحصر تكليفهم عليهم السلام في فعله تعالى وأمره، وهذا هو السرُّ في تقديم الجار على العامل في قوله تعالى (وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ) وهذا كمال الائتمان لهذا السرّ الّذي هو منشأ كلّ شأنٍ.

والثالثة: مقام فخلقْتُ الخلق لكي أعرف فخلقهم صلّى الله عليهم وأشهدَهُم خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ، فبذلك عرفوهُ ووحدّوه وهلّلوه وسبّحوه وحمِدوه وكبّروه ثم خلق الخلق على ترتيب قابليّاتِهم للوجود، وكلّما خلق شيئاً أشهدهم خلقَهُ وأنهى علمه إليهم أي أنهى علمه تعالى بذلك الشّيء إليهم أوْ أنهى علم ذلك الشيء إليهم، فعلى جعل الضمير في علمه عائداً إليه تعالى يرادُ بهذا العلم العلم الكوني والإرادي والقدري والقضائي والإذنيّ والأجلي والكتابي كلّما نزل المُشاءُ إلى مقام أنهى تعالى علمه به إليهم وهكذا، وهذا العلم هو المستثنى في قوله تعالى (وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِما شاءَ)، فإن المستثنى منه على الظاهر ليس هو العلم الذاتي فإن العلم الذاتي هو ذاته تعالى ولا يصحّ أن يقال ولا يحيطون بشيء من ذاته إلاّ بما شاء والأصل في الاستثناء الاستثناء المتصل لأنه لإخراج ما لولاه لدخل في المستثنى منه والمنقطع ليس هذا سبيله على الظاهر، وإنما قلتُ على الظاهر ليس هو العلم الذاتي لاحتمال المنقطع وإن كان مرجوحاً، لأن المستثنى وإن لم يدخل في المستثنى منه بالأصالة لكنه يحتمل دخوله بالتبعية، فإن بعض المخاطبين من يحتمل غير المتعارف فالمتكلّم قد يجوّز في مخاطبه ذلك فيستثنى المنقطع وقد يكون المتكلم يريد تنبيه المخاطب على معنى الشمول في المستثنى منه إذا استثنى المنقطع، فإذا قال قام القوم إلاّ حماراً، يريد تنبيه المخاطب على أن

جميع القوم قاموا ولو أراد المجاز وأنه إنما قام بعضهم لما استثنى منهم ما ليسَ منهم ، فلمّا استثنى ما ليس منهم كان كالنّصّ على العموم ولو لغرضٍ له من الأغراض وقد يلاحظ جانب اللفظ، فعلى هذا يجوز أن يراد بالعلم المستثنى منه العلم الذّاتي والمستثنى العلم الحادث المُشاء، فقد يتوهّم المخاطب أنّه تعالى حين سمّى نفسه علماً وكان له علم بالكائنات حادث لعلّه عنى مطلق ما يسمى علماً ولو باللفظ، فيكون العلم الحادث غير مُحاطٍ به فأبان تعالى بأن الحادث المشاء أي الّذي يدخُلُ في حيطةِ مَشيّتِه يحيطون به وربّما يُحتمل هنا قسماً ثالثاً، وذلك أن يقال بأنه على فرض المنقطِع يكون المستثنى منه قديماً والمستثنى حادثاً، وعلى فرض المتّصل يكونان معاً حادثيْن، وعلى فرض القسم الثالث يكون لا متّصلاً لأنّه استثناء ما لولاه لدخل في المستثنى منه لأنه مغاير للمستثنى منه لأن العلم المستثنى منه إمكاني راجح الوجود وإن كان حادثاً، لكن الله سبحانه أحدثه بنفسه لا بشيء آخر والمستثنى تكويني جائز الوجود أحدثه الله بفعله لا بنفسه كالأوّل، وإنّما أحدثه الله تعالى بالأوّل فهو غيره باعتبارٍ بحيث لا يصدق عليه إلاّ بظاهر اللّفظ خاصّة لأنه من الأوّل كالنور من الشمس فأولى فيه أن يكون الاستثناء منقطعاً وباعتبار أنّهما معاً داخلان في مسمى العلم حقيقة قد اشتركا فيه وفي الحدوث فيكون منقطعاً.

فإذا قلنا بالقسم الثالث نريد أنه بين اعتبارين متصادميْنِ يصدق بأحدهما أنهما من جنس واحدٍ وبأحدهما أنّهما من جنسين فهو ذو وجهين.

فإن قلتَ هو متّصل صدقتَ، وإن قلتَ هو منفصِل صدقتَ، وإن قلت لا متّصل ولا منفصل صدقتَ، وليس لك أن تقول الأصل فيه الاتّصال، لأنّ

الأصل إنما يتمشى في مجهول الحال، ولا أن تقول إنّهم أجمعوا على الاتّصال والانفصال، لأنهم لم يجمعوا على نفي غيرهما، وإنّما حصروا التقسيم فيهما نظراً إلى أن المستثنى من جنس المستثنى منه أو من غير جنسه، فحصرهم بَنَوهُ على هذا النظر وإذا وجد قسم لا يكون من جنسه وهو من جنسه فما يقال فيه على أن إثباتهم لشيئين لا ينفي ما عداهما ولم يقم الإجماع على النفي وإنّما قام على الإثبات واثبات الشيء لا ينفي ما عداه.

والحاصل أنا نقول ليس المراد بالمستثنى منه العلم القديم الذي هو ذاته لما يلزم ذلك من المفاسد المنافية للتوحيد فيكون المراد به العلم الحادث.

فنقول المراد بالاستثناء في الآية المتّصل، إمّا مقابلة لما قيل أنه منقطع بناء على أنّ المراد بالمستثنى منه القديم، أو لأن الأصل فيه الاتّصال بمعونة الاستعمال اللفظي فإنه كافٍ في الاتّصال، أو ترجيحاً للاجتماع في الحدوث على التفريق بالعليّة والمعلوليّة، أو لأنّ ما هو علّة بالفعل هو معلول بالقوّة فيشتركانِ، أوْ لأنّا لسنا بصدد تحقيق اللغة وإنما نحن بصدد المعنى وهو يتأدَّى على أي الاحتمالين فالاستعمال في الاتّصال أكمل وأشرف، أو لأنّ ما نُفِي عنهم عليهم السلام الإحاطة به ليس على جهة الاستمرار والدوام وإنّما هو موقّت ينتظر به وقته فيحيطون به يعني يحيطون بما حضر وقته لا أنّهم يحيطون به كله بحيث لا يبقى ما ينتظرونه ، لأنّ ذلك إنما يكون في المتناهي وهذا العلم الإمكاني وإن كان حادثاً أحدثه الله تعالى بنفسه ولم يكن معه في الأزل إذ ليس معه تعالى شيء من الحوادث إلاّ أنّه منْهُ يُمدّ الخلقَ والخلقُ أبداً محتاجون في بقائهم إلى المدد لا وجود لهم ولا بقاء بدونه، وذلك المدد ليس قديماً لأن القديم لا يستمدّ من ذاته الحادثُ ولا يجوز أن يفنى

لأنه لو فنى فإمّا أن يبقى، فإن بقي الموجود كان حينئذٍ مستغنياً والحادث لا يكون مستغنياً في حالٍ، وإمّا أن يفنَى والمسلمون كلهم أهل الشرع عليه السلام وغيرهم مجمعون على بقاء الجنة وأهلها والنار وأهلها ودوامهم لا إلى غاية ونهاية ، فثبت بأن هذا الأمر أعني الأمر الإمكاني ليس بمتناهٍ أبداً وأنّ الله سبحانه يمدّ الخلق أهل الجنّة بنعيم متجدِّدٍ لا يتناهى وأهل النار بعذاب أليم يتألّمون به متجدِّدٍ لا يتناهى ولا ينقطع ولا يؤول أمرهم وحالهم إلى النعيم كما زعمه الصوفيّة المتلوِّنون، بل كلّما طال عليهم المَدا ازدادوا تألُماً فهو تعالى يمدّ الفريقين بما يستحق كل واحد منهما من هذا الحادث الذي لا يتناهى ولا يتغايا وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

فقولنا وهذا العلم هو المستثنى في قوله تعالى (وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِما شاءَ) فما شاء من علمه يحيطون به عليه السلام لأنه أنهاه إليهم، وهو علم ما كان وما يكون على ما فصّلنا فيما تقدّم سابقاً ومعنى إِلاَّ بِما شاءَ أنّهم يحيطون من علمه بما شاء أن يحيطوا به، أو أنهم لا يحيطون بشيء مما شاء من علمه إلاّ بمشيّته فـ (ما) في هذا الوجه مصدريّة حرفيّة كما قال تعالى (عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً إِلاَّ مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ) فعلى الظاهر تكون مَن رسول بيانية والمراد به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وما علّمه الله فإن الله أمرهُ أن يعلّمه الطّيبين من أهل بيته عليهم السلام، وعلى الباطن والتّأويل أن المرتضى من محمد صلى الله عليه وآله وسلم علي وفاطمة والأحد عشر معصوماً من ذرّيتهما عليهم أجمعين السلام.

وقد أشار الهادي عليه السلام في هذه الزّيارة في قوله (وارْتضاكم لغيبه) وكذلك قوله تعالى (وَما كانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلكِنَّ اللهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشاءُ) فعلى الظاهر المجتبى من الرسلِ محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأطلعه تعالى على ما شاء من الغيب وما أطلعه عليه فإنه أمره أن يطلع عليه الطيبين من أهل بيته عليه وعليهم السلام، وعلى

الباطن والتأويل فالمجتبى من محمد ﷺ علي وفاطمة والأئمة من نسلهما عليهم السلام.

واعلم أن العلم الإمكاني الراجح الوجود هو وجود الإمكان عند وجود المشيّة بما فيه من الإمكانات الجزئيّة التي لا تتناهى، فإنّها هي والمشيّة والإرادة لم تكن في الأزل لأن الأزل ذاته تعالى وليس معه غيره وليس شيء في تلك الرتبة التي هي ذاته غيره ثم أحدث المشيّة بنفسها وأحدث بها معها الإمكان المطلق وما فيه من الإمكانات الجزئيّة الّتي لا تتناهى، فهي مع المشيّة والإرادة متساوقان في الظهور في الوجود بعد أن لم يكن شيء غير الله تعالى، وهذا الإمكان وما فيه هو خزانةُ الله الّتي لا تغيض بل تفيض، وهذا هو العلم الإمكاني الذي لا يعلمه إلا الله تعالى ولا يحيطون بشيء منه، ثم شاء أن يُكوّن منه ما شاء فما شاء كوَّنَهُ وأراد عينه فهو العلم الكوني والتكويني والعلم المشاء، والّذي يحيطون به بمشيّة الله تعالى فكلّ من اتّصف بالوجود الكوني فقد أنهى علمه إليهم صلى الله عليهم كما تقدّم وجعل تربيته إليهم في كلّ شيء وهو الذي أشار إليه بقوله (وَاسْتَرْعَاكُمْ أَمْرَ خَلْقِهِ) وقد ائتمنهم سبحانه في هذه الأسرار الثلاثة.

ففي الأولى : هم أركان مقاماته وعلاماته بل هم مقاماته وعلاماته، وفي هذه الرتبة أشار الحجة عليه السلام في دعاء شهر رجب كما تقدّم مراراً إليهم، وأشار الصادق عليه السلام إليهم بقوله (لنا مع الله حالاتٌ نحنُ فيها هو وهو نحن وهو هو ونحن نحنُ) وفي روايةٍ إلاّ أنه هو هو ونحن نحنُ هـ.

وفي الثانية : هم معانيه فهم علمه وقدرته وحكمه ويده ولسانه وعينه وقلبه وأمره وغير ذلك مما ذكروه عليهم السلام، بل هم فيها أركان مقاماته ومعنى كونهم معانيه أنّهم معاني أفعاله كالقيام والقعود والأكل والشرب والكتابة بالنسبة إلى زيد، فإن هذه معاني زيد أي معاني أفعاله، وفي الأولى هم كالقائم والقاعد والآكل

والشارب والكاتب بالنسبة إلى زيد فإنّ هذه أسماءُ فاعل، كذلك هم أسماؤه كما قال الصادق عليه السلام وهو المسمى ونحن أسماؤه.

وفي الثالثة : هم بيوته وأبوابه التي أُمر أن يؤتى منها.

وقد تقدم بيان هذه في مواضع متعددة وأنا أكرّر القول لمن أراد أن يذّكّر أوْ أراد شُكوراً، وفي كلّ مرتبةٍ من هذه الثلاث له سرٌّ غير متناهي المراتب وأعطاهم وقوّاهم بما اختارهم له وآتاهم تقواهم وائتمنهم على ذلك كلّه لعلم منه سبق فيهم فهم بأمره يعملون صلّى الله عليهم أجمعين.

وقوله عليه السلام (واسترعاكم أمر خلقِه) يعني به أنه تعالى استرعاهم أمر خلقه جعلهم قائمين برعاية الخلق فيما يتعلّق بأمر الوجود الكوني وشرعِه، وفيما يتعلّق بأمر الكون الشرعي ووجوده، وفيما يتعلّق بأمر الغيب والشهادة، وفيما يتعلّق بأمر الدنيا والآخرة، وفيما يتعلّق بأمر الجنّة والنّار، طلب تعالى منهم عليهم السلام رعاية جميع خلقه في هذه الأمور الخمسة كما قال أمير المؤمنين عليه السلام فيما تقدّم من خطبة يوم الغدير والجمعة قال في حق محمّد صلى الله عليه وآله وسلم (استخلصه في القدم على سائر الأمم على علم منه) إلى أن قال (وانتجبه آمرا وناهيا عنه أقامه في سائر عالمه في الأداء ومقامه إذ كان لا تُدْرِكُهُ الأَبْصارُ وهو يدرك الأبصار ولا تحويه خواطر الأفكار ولا تمثله غوامض الظنون في الأسرار لا إله إلا هو الملك الجبار).

وقد تقدم هذا ومثله في حقهم من خُطْبته عليه السلام فهم المُرَبُّونَ لرعيّتهم الراعُون الذين استرعاهم الله تعالى أمْر غنَمِه فإن شاؤوا فإنّما شاء.

وهنا شبهة تحتاج إلى البيان وهي أنّ الله قد يريدُ أمْراً ، فإذا أرادوا ألاّ يكون أراد سبحانه ألاّ يكون فيترُك إرادتَهُ لإرادتهم وهذا شيء كثير الوقوع كما في الشفاعات

التي تكون منهم إذ لو لا شفاعتهم لعذّبَ اللهُ ذلك الشخص لأنه يريد تعذيبَهُ فلمّا شفعوا رحمه، وكذلك في دعائهم لشيء فيستجيب الله تعالى لهم ويفعل ما سألوهُ ولو لا دعاؤهم لم يفعله، فإذا كان الأمر كذلك دلّ على أنّ لهم إرادة ومشيّة غير مشيّة الله تعالى وإرادته، وقد ذكرت في كثيرٍ من أبحاثِ هذا الشّرح أنّه تعالى إنّما خلقَهم لَهُ لا لشيء سواهُ ولا لأنْفُسهمْ وقبول الشّفاعة والدّعاء منهم يدلّ على وجود إنية لهم.

والجواب أنّ الله سبحانه خَلَقَهُمْ لَهُ خاصة كما قلنا ولكِنْ صنعه لخلقه وبخَلْقه جارٍ على حكمته وسنّته (وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ الله تَبْدِيلا) وهو أنّه أجرى عادته على أنَه يفعلَ بالقوابل وبتَوسُّطِ الأسْباب، مثلاً ينزل من السماءِ ماءً وهو سبب لإخراج الثمرات على اختلافها فيخرجُ الرمّان من شجرة بطبيعتها وبتوسّط الماء والتراب، ويخرج العنب من شجرة بطبيعتِها وبتوسّط الماء والترّاب والفاعل واحد سبحانه والفعل واحد وأصل السبب واحد وهو الماء والتراب فلو خلق بغير القابلية لكان المخلوق شيئاً واحداً ولكنه خلق الرمّان بطبيعة شجره، والعنب بطبيعة شجره، ولمّا كانتْ عَادتُه أنّه يفعل بالقوابل والطبائع كان فعله تعالى متقوما بمقوِّماته وهي هم عليهم السلام، والمقوّماتُ مقوِّمات على رتبها في كل رتبة بحسبه مثاله أنّك مدرِك ولكن تدرك الألوان والأصوات والطعوم والروائح والمجسّات في رتبتها من الأجسام بما يوافقها من مدركاتك فتدرك اللون بالبصر والصوت بالإذن والطعم باللسان والرائحة بالأنف والمجسَّة بالأنملة مثلاً وتدرك المثال بالحسّ المشترك والصور الخيالية بالخيال والنفسانية بالنفس والمعاني بالعقل والمعرفة بالفؤاد، فالفؤاد يدرك المعرفة بنفسه ولما دونه بتوسّط العقل والصور بالنفس بتوسّط العقل ويدرك المثاليّة بتوسّط ما بينه وبين مدركه وهكذا الأعْلى

يدرك ما في رتبته بنفسه وما فوقه وما تحته بتوسّط الإدراك المتوسط، فكذا ما نحن بصدده فإنّ مثالنا آيةُ بيانه ودليل برهانه فهم عليهم السلام في مقام العلامات لَيْس لهم مَشِيّة إلاّ مشيّته تعالى، وفي مقام المعاني مشيّتهم أركان مشيّته تعالى، وفي مقام الأبواب مشيّتهم وجهُ مشيّته، وفي مقام الإمام مشِيتهُمْ تابعة لمشيئتِه فمشيّتهم في الظاهِر السبب القريب ففي الأوّل لا يجدون لهم مشيةً ولا وُجوداً.

وفي الثاني: مشيته متقوّمةٌ في الصنع بمشيتهم، بمعنى أن مشيتهم في الصنع محلٌّ لمشيته ومشيّته فاعلة ومنه قوله تعالى (وَما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلكِنَّ اللهَ رَمى).

وفي الثالث: مشيتُهُ في مشيته تعالى عَضدٌ لِلمُشاءاتِ فإنّهم لا يقدرون على قبولِ مشيته تعالى بدُونِ واقٍ منهم عليه السلام وهو مشيّتهم. وفي الرّابع: لهم المشيّة التابعةُ لمشِيّتِه تعالى، فمشيّته تعالى بالنسبة إلى مراتبهم الثلاث الأواخر مرتبطةٌ بمشيّتهم فإن توجّهت مشيّتُهُ إلى مُشاءٍ فلا يتمّ تعلّقها به إلاّ مع انضمام مشيتهم معها لكونهَا ركناً أو عضداً أو تابعاً قريباً، فإن شاءوا جهةً غير تعلّق مشِيّته فإنّما شاءوا بتفويض مشيّتِه فإذا شاءوا فبمَشيّتِه شاءوا فيجب في الحكمة أن تجري مشيّته تعالى على وَفْقِ مشيّتهم، لأنّها مُتَمِّمةٌ لقابلية المشاء ولفاعليّة مشيّته تعالى، كما يتمّم البصر إدراك العقلِ للألوان ولا يجوز في الحكمة تفرّد مشيّته تعالى وإلاّ لجرى صنعه على غير مقتضى القوابل، إذ مُقتضاها توسّط المتمّمات لها من المشخّصات ومن توسط أسباب المقبول، وإذا شاء الله تعالى عذاب شخصٍ بمقتضى ذنبه وشاءوا الشفاعة له وشفعُوا قبل شفاعتهم وشاء ما شاءوا، لأنّ الذنب الّذي اقتضى أن يشاء الله تعالى تعذيبَهُ عليه إنّما هو تقصير فيما جعل لهم من حق الولاية والمحبّة لا أنّه تعالى يتشفّى بتعذيبِ من عصاه إذ لا حاجة له

إلى شيء ولا يهيجه شيء وإنّما هو في الحقيقة أَخْذٌ بحقِّهم أو لِحقِّهم، فإذا شفعوا فبمشيّته شفعوا ولحقِّهم أسقطوا، فكان مقتضى حال ذلك الشخص مع ضميمة شفاعتهم عليهم السلام العفو عنه والتفضّل عليه بالرحمة لأنّ مَعَصيته مع الشفاعة تتبدّل طاعة كما قال تعالى (فَأُوْلئِكَ يُبَدِّلُ الله سَيِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ) وما مثال هذا الشخص في ذنبه إلاّ كرجل في ثوبه الساتر له الذي يريد الصلاة فيه قطرة بولٍ فإنّ مقتضى حكم الله ومشيّته منعه من الدخول في الصلاة فلمّا غُمِسَ في الفراتِ بثوبه كان مقتضى حكم الله ومشيته الإذن له بالدخول في الصلاة لأن نجاسة ثوبه من قطرة البول ومن غيرها بُدِلّتْ طهارةً فلم تكن لهم مشيّة إلاّ مشيّة الله تعالى أو عن مشيته أوْ بها فمع اتّحادِ المشيّة من الله تعالى ومنهم كما في المقام الأول فلا كلام ومع اعتبار التعدّد أو المغايرة فلأنه تعالى أولى منهم بالكرم والفضل فكما كانوا يتركون ما يريدون من شهوات أنفسهم ومقتضى أنيّاتهم لما يريد سبحانه كان تعالى أولى بذلك فيترك ما يريد لما يريدون على أنه إنّما أراد لهم خاصّة والله غني حميد.ولأجل هذا ورد في أخبارهم عليهم السلام (إذا شئنا شاء الله) (وَما تَشاؤُنَ إلاّ أَنْ يَشاءَ الله) وورد (فإذا شاء الله شئنا)(هذا عَطاؤُنا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسابٍ)فلمّا أشهدهم خلق أنفسهم وأنهى إليهم علم ذلك وأشهدهم خلق جميع مخلوقاته وأنهى إليهم علم جميع خلقه وجعلهم محالّ مشيته وألْسُنَ إرادَتِه واصطنعهم لنفسه وأغناهم به تعالى عمن سواه فلا يشاءون إلاّ بمشيته أو عن مشيّته وأقدرهم على ما حملهم عليه وكان تعالى لا تدركه الأبصار ولا تمثّله الظنون استرعاهم أمر خلقه أي منهم خاصّة طلب رعاية أمر خلقه لانحصار شؤونه تعالى وحوائجميع خلقه

فيهم عليهم السلام فهم بأمره يعملون.

وقوله عليه السلام (وقَرن طاعتكم بطاعته) لمّا كان تعالى بائناً من خلقه بينونة صفةٍ لا بينونة عزلةٍ وكان مصير كلّ شيء إليه وجب في اللطف أن يميز خلقه بحدودهم التي هي غيوره كما قال الرضا عليه السلام في خطبته (كنهه تفريق بينه وبين خلقه وغيوره تحديد لما سواه)ليعرفوه تعالى بمباينته لحدود خلقه التي منها الاتّحاد والمساواة والموافقة والمخالفة والمشاركة والمضادّة والشبه والاقتران والاجتماع والمباينة والمفارقة وغير ذلك، فيعرفوه تعالى بخلافِها وخلافِ خلافها، ويلزم هذا التوحيد والتجريد الغني المطلق فآية التوحيد الانفراد بما يجوز عليه ففرق بهذا اللحاظ بين طاعته وطاعتهم فقال (وقَرَن طاعتكم بطاعته) وآية الغنى المطلق إنّما ينسب إليه ويجوز عليه غير ذاته المقدّسة فهو لأقرب خلقه إليه، وإنّما نسبه إليه وهو لهم تشريفاً لهم وتعظيماً ولأنّ ما لم يكن له باطل فلا يجعل لمن جعلهم أحبّاءهُ بالحقّ ما يكون باطلاً إذا لم ينسب إليه ما لم ينسب إليه ليكون حقّاً يليق منه تعالى لأحبّائه الحقّ فقال تعالى في آية الغني المطلق (مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ الله)فآية التوحيد أنه تعالى قرن طاعتهم بطاعته ليبين من خلقه بينونة صفةٍ لا بينونةٍ عزلةٍ لأن مقتضى بينونة الصفة تعدّد الطاعة ومقتضى بينونة العزلة عدم اقتران طاعتهم بطاعته، فافهم.

وهو الغني المطلق في توحيده المتوحد في غناه فيجب في آية غناه أن يعتبر كون المراد بتعدّد الطاعة مع اتّحادِها في الغنى المطلق ومع التوحيد والغنى المطلق أنّ الطاعة بمقتضى الغنى المطلق لا تكون طاعة إلاّ إذا نسبت إليه ليصح كونها طاعةً

تعود إلى من شاء وأحبَّ.

فقوله عليه السلام (وقرن طاعتكم بطاعته) مع أنّه قال قبل هذا من أطاعكم فقد أطاع الله، وهو مشعر بأن طاعة الله تعالى هي نفس طاعتهم، لأنه أتى بقد الداخلة على الماضي المفيدة للتحقيق ولا شكّ أنّ من أطاعهم فإنّما أطاع الله لبيان تحقّق كونها طاعةً في نفس الأمر بإيقاعها له تعالى بتبيينهمْ مشفوعةً بولايتهم ومحبّتهم والبراءة من أعدائهم، ولا يلزم على الظاهر أنّ من أطاع الله فقد أطاعهم لما تقدم في حديث مناقب ابن شاذان من قوله تعالى في الحديث القدسي (أقسم بعزّتي وجلالي أني أدخل الجنّة من أطاع عليّاً وإن عصاني واقسم بعزتي وجلالي أني أدخل النار من عصى عليّاً وإن أطاعني)وهذا مرويّ في المتواتر معنى من الفريقين، فكانت طاعته تعالى في الظاهر قد لا تكون طاعة لهم، نعم إذا أريد بالطاعةِ الطاعة التي هي عند الله تعالى وعندهم طاعة فهي طاعة الله الناشئة عن طاعتهم، يعني على النحو الذي أطاعوا به الله سبحانه وأمروا أن يطاع به الله سبحانه وهي ما أُخذت عنهم ورضوا بها طاعة الله سبحانه ولا تكون إلاّ بطاعتهم، وإنّما سمّى تلك طاعة له تعالى على زعمهم أنّها طاعةٌ له وليست طاعةً له بل هي معصيةٌ له ولهذا يدخل صاحبها النار، وذلك لأنه تعالى أمر عباده بأن يأتوا البيوت من أبوابها وقد جعلهم عليه السلام أبوابه وأمر عبادهُ بأن يطيعوه بطاعتهم وأخبرهم بأن من أطاعني بطاعة غيرهم فقد أشرك بي فهم يطيعونَهُ بطاعة أعدائهم لعنهم الله وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً فأخبر سبحانه عن حالهم يوم القيامة فقال (وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ

إلاَّ أَنْ قالُوا وَاللهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ) فقال تعالى لنبيّه ﷺ يا محمد (انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ)، وفي الكافي عن الصادق عليه السلام في كلام له يعرّض بالمرجئة بعد أن تركهم ومضى فلمّا خرج من المسجد قال لي (يَا أَبَا مُحَمَّدٍ وَاللهِ لَوْ أَنَّ إِبْلِيسَ سَجَدَ للهِ عَزَّ ذِكْرُهُ بَعْدَ الْمَعْصِيَةِ وَالتَّكَبُّرِ عُمُرَ الدُّنْيَا مَا نَفَعَهُ ذَلِكَ وَلا قَبِلَهُ اللهُ عَزَّ ذِكْرُهُ مَا لَمْ يَسْجُدْ لآدَمَ كَمَا أَمَرَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَسْجُدَ لَهُ وَكَذَلِكَ هَذِهِ الأُمَّةُ الْعَاصِيَةُ الْمَفْتُونَةُ بَعْدَ نَبِيِّهَا ﷺ وَبَعْدَ تَرْكِهِمُ الإِمَامَ الَّذِي نَصَبَهُ نَبِيُّهُمْ ﷺ لَهُمْ فَلَنْ يَقْبَلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَهُمْ عَمَلا وَلَنْ يَرْفَعَ لَهُمْ حَسَنَةً حَتَّى يَأْتُوا اللهَ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ وَيَتَوَلَّوُا الإِمَامَ الَّذِي أُمِرُوا بِوَلايَتِهِ وَيَدْخُلُوا مِنَ الْبَابِ الَّذِي فَتَحَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وَرَسُولُهُ لَهُمْ يَا أَبَا مُحَمَّدٍ إِنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَى أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ خَمْسَ فَرَائِضَ الصَّلاةَ وَالزَّكَاةَ وَالصِّيَامَ وَالْحَجَّ وَوَلايَتَنَا فَرَخَّصَ لَهُمْ فِي أَشْيَاءَ مِنَ الْفَرَائِضِ الأَرْبَعَةِ وَلَمْ يُرَخِّصْ لأَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي تَرْكِ وَلايَتِنَا لا وَاللهِ مَا فِيهَا رُخْصَةٌ)هـ .

وفيه عنه عليه السلام في حديثٍ قد تقدّم ذكره إلى أن قال عليه السلام (وَصَلَ اللهُ طَاعَةَ وَلِيِّ أَمْرِهِ بِطَاعَةِ رَسُولِهِ وَطَاعَةَ رَسُولِهِ بِطَاعَتِهِ فَمَنْ تَرَكَ طَاعَةَ وُلاةِ الأَمْرِ لَمْ يُطِعِ اللهَ وَلا رَسُولَهُ وَهُوَ الإِقْرَارُ بِمَا أُنْزِلَ مِنْ عِنْدِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ) .

ويجوز أن يكون المراد بقرْنِ طاعتهم بطاعته الاتّحاد في الظهور الكوني والمساوقة في الصدور من الفِعل، وإن وُجد التّعدّد في الوجود العلمي وأنَّ طاعتهم مترتّبة على طاعته لأنا لا نريد بهذا الترتّب العلمي التعدُّدَ في نفسه، لأنّ التّعدد في نفس الأمر يلزم منه تعدّد المَنسوب، إليه لأنّ الطّاعة وصفٌ نسبي يستلزم مطاعاً وإذا

كان غنياً لذاته لم يرد شيئاً لذاته وإنّما يريد لغيره وهم ذلك الغير لا غير.

وأيضاً الطاعة حادثة ولا تنسب إلاّ إلى حادث وهم ذلك الحادث المنسوب إليه الحادث، وإنّما نريد بالترتيب العلمي الموجب للتعدد في اللفظ أنّ هذه الطّاعة الواحدة إنّما تكون طاعة في الواقع بنسبتَيْن نسبة الإيقاع ونسبة التعيين.

أمّا نسبة الإيقاع فبأن يوقعَها المطيع لله تعالى وحده وهي النسبة الأولى في الاعتبار وهي مشتملة على ابتدائَين بينهما انتهاء.

وأمّا نسبة التعيين فبأن يأخذها وكيفيّتها عنهم بشروطها من ولايتهم ومحبّتهم والتسليم لهم والردّ إليهم ومن البراءة من أعدائهم وهي النسبة الثانية في الاعتبار وهي مشتملة على انتهائين بينهما ابتداء، فالنسبة فيها ابتداء من الله تعالى بفضله ورحمته بأن انزل تلك الطاعة في مادة النور وهذا الابتداء الأوّل من النسبة إليه تعالى والانتهاء الأوّل من النسبة إليهم أن ذلك النور الذي أنزله إليهم وأوحى إليهم علم الكيفيّة لطاعته فقدّروها بأمر الله تعالى كما شاء ورفعها المطيع الممتثل لأمرهم إلى الله تعالى بأن أوقعها له عز وجل وهذا هو الانتهاء المتوسط من النسبة إليه تعالى فقبلها لموافقتِها لإرادته ومحبته وأمره فأحياها بأن نفخ فيها روح القبول فأنزلها مِنْه تعالى إليهم، وهذا الإنزال هو الابتداء الثاني من النسبة إليه وإليهم أي وكون الإنزال إليهم هو الانتهاء الثاني من النسبة إليهم، فكانت الطاعة الحقّ منه إليهم بالفضل الابتدائي والسؤال الأوّل ثم منهم إليه تعالى بالإجابة الحقّة، ثم منه تعالى إليهم بإقامة الولاية الكبرى ورفع لواء الحمد له تعالى بهم، فمن حيث

لحاظ الابتداء والانتهاء منه إليهم ومنهم إليه ومنه إليهم.

قال عليه السلام (وَقَرَنَ طَاعَتَكُمْ بِطَاعَتِهِ) ومن حيث لحاظ أن شرط الصحة فيها أن تكون له تعالى بهم ولهم منه.

قال عليه السلام (وَقَرَنَ طَاعَتَكُمْ بِطَاعَتِهِ) فظهر اللفظ بصورة التعدّد ومن حيث إنه تعالى حصر شؤونه فيهم عليهم السلام وحصر حوائج الخلق عندهم قال تعالى (مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ)وقالوا عليهم السلام (فجعل طاعتنا طاعته تعالى ومعصيتنا معصيته)، فتقرّر المعنى واللفظ على الاتّحاد كما هو حكم الغني المطلق.

وقوله عليه السلام (لمّا استوهبتم ذنوبي وكنتم شفعائي) قال الشارح المجلسي رحمه الله (لـمّا) مشددة بمعنى (إلاّ) أي لا يقع منكم شيء إلاّ استيهاب ذنوبي منه تعالى أو مخفّفة واللام لتوكيد القسم و (ما) زائدة للتأكيد انتهى.

أقول: يعني رحمه الله بقوله لا يقع منكم شيء أنّه حيث ثبت أنّ المآب إليكم والحساب عليكم كما رواه البرقي في كتاب الآيات عن أبي عبد الله عليه السلام أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لأمير المؤمنين عليه السلام (يا علي أنت ديّان هذه الأمة والمتولي حسابهم وأنت ركن الله الأعظم يوم القيامة ألا وإن المآب إليك والحساب عليك والصراط صراطك والميزان ميزانك والموقف موقفك) هـ.

وإني أرجع إليكم وأنتم تحاسبوني فتجاوزوا عنّي ولا تناقشوني واستوهبوا ذنوبي من الله تعالى وما كان للآدميّين عليَّ فعوّضوهم عن حقوقهم فإنّ الله سبحانه قد جعل لكم الدنيا والآخرة فاشفعوا لي في حطِّ التبعات عني ورفع درجاتي، وهذا الدعاء الذي سألهم الزائر إنّما سألهم اعتماداً على ولايتهم ومحبتهم ووعدهم محبيّهم بذلك عن أمر الله تعالى بأنّ الله تعالى ملّكهم كما تقدّم وأذن لهم في

الشفاعة فيمن شاءوا وأخبروا شيعتهم بذلك ووعدوهم بالشفاعة على الله تعالى والله منجزٌ لهم ما وعدهم فأقسم محبِّهم وزائِرهم عليهم بمن ملّكهم ووعدهم وأنجز لهم وأمرهم بأن يبشروا محبّيهم بذلك، وذلك ما ذكروُه في أخبارهم مما لا يكاد يحصى، ومنه ما رواه الكراجكي في الكنز بإسناده إلى محمد بن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده عليهما السلام في قوله عز وجل إِنَّ إِلَيْنا إِيابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا حِسابَهُمْ قال (إذا كان يوم القيامة وكلنا الله بحساب شيعتنا فما كان لله سألناه أن يهبه لنا فهو لهم وما كان لمخالفيهم فهو لهم وما كان لنا فهو لهم ثم قال هُم معنا حيث كنا) .

وفيه بإسناده عن عبد الله بن سنان عن أبي عبدالله عليه السلام قال (إذا كان يوم القيامة وكلنا الله بحساب شيعتنا فما كان سألنا الله أن يهبه لنا فهو لهم وما كان للآدميين سألنا الله أن يعوضهم بدله فهو لهم وما كان لنا فهو لهم ثم قرأ إِنَّ إِلَيْنا إِيابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا حِسابَهُمْ) هـ.

وقد تقدم وأمثالها كثير، وفي مناقب ابن شاذان محمد بن احمد بإسناده إلى أبي ذر قال (نظر النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى علي بن أبي طالب عليه السلام فقال خير الأولين والآخرين من أهل السماوات والأرضين هذا سيد الصديقين وسيد الوصيين وإمام المتقين وقائد الغر المحجلين إذا كان يوم القيامة جاء على ناقة من نوق الجنة قد أضاءت القيامة من نورها على رأسه تاج مرصع بالزبرجد والياقوت فتقول الملائكة هذا ملك مقرب ويقول النبيون هذا نبي مرسل فينادي مناد من تحت بطنان العرش هذا الصديق الأكبر هذا وصي حبيب الله رب العالمين هذا علي بن أبي طالب عليه السلام فيجيء علي حتى يقف على متن جهنم فيخرج منها من يحب ويأتي أبواب

الجنة فيدخل فيها أولياءه بغير حساب) هـ.

فقوله (لما استوهبتم ذنوبي) عزيمة من السائل المتوجه إليهم المقسم عليهم بمن ائتمنهم على سره فملكهم ما شاءوا واسترعاهم أمر خلقه بحيث رجع الأمر كله إليهم وقرن طاعتهم بطاعته تعالى فينقاد لهم كل شيء، وفي ذكر هذه الأوصاف في القسم عليهم تنبيه على أن سؤاله على جهة العزيمة عليهم لأنه أراد منهم ما يقدرون عليه ووعدوا به وأمرهم الله به وأذن لهم على ما يرونه مما دلهم سبحانه عليه فيكون كالإلزام وإن كان سؤالا وهو يقتضي خلاف العزيمة لكنه لما قلنا يطالبهم بحق الوعد الذي أمرهم الله به على جهة التفضل، ولهذا أتى بـ (لما) فإنها على التشديد وإن كانت بمعنى إلا لكنها أخص منها لإرادة العزيمة على المسؤول منها وإلا قد لا يراد منها ذلك، وعلى التخفيف تكون اللام مفيدة للعزيمة لأنها مؤكدة للقسم و (ما) وإن كانت صلةً لكنها إنما زيدت لتأكيد ما أكدته اللام.

وقوله عليه السلام (وكنتم شفعائي) قد تقدم معنى ذلك وتقدم الكلام في معنى الشفاعة وبقى معنى للشفاعة ينبغي التنبيه عليه على جهة الإشارة.

فأقول إن الشفاعة التي يراد منها بذل الجاه في إسقاط حق عن مطلوب به أو رفع درجة له كثيرا ما تكون منهم عليهم السلام لشيعتهم في الدنيا بالدعاء لهم بالتوفيق للطّاعة والعمل الصّالح وبالتسديد لهم للحق والإصابة للصواب من العلوم والاعتقادات وطلب الحلال في المعاش وغير ذلك، وكلّ هذه وأمثالها من أفراد الشفاعة فإنّهم إذا أرادوا نجاة محبّهم من النار توجّهوا إلى الله تعالى واستوهبوه حقوقه التي عند محبّهم وسألوه أن يعوّض طالب الحق عندهم عن حقّه، ومثل هذا قد تكون موازين محبّهم خفيفةً لقلّة حسناته أو عدمها فيهبونه من فاضل

حسناتهم ما يثقل به موازينه وبالدعاء لهم في الدنيا والاستغفار لهم من ذنوبهم كما دلّت عليه آثارهم بأنّهم عليهم السلام تحمّلوا عن شيعتهم ومحبّيهم ذنوبهم كما في قوله تعالى (إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ).

ففي مجمع البيان وتفسير علي بن إبراهيم عن الصادق عليه السلام أنه سئل عن هذه الآية فقال (ما كان له من ذنب ولا هم بذنب و لكن الله حمله ذنوب شيعته ثم غفرها له).

وفي المجمع عنه عليه السلام أنّه سُئِل عنها فقال (والله ما كان له ذنب ولكن الله سبحانه ضمن له أن يغفر ذنوب شيعة علي عليه السلام ما تقدم من ذنبهم وما تأخر) هـ.

وإنّما فعلوا ذلك مع شيعتهم لأنّهم خلقوا من فاضل طينتهم وإنما لحقتهم الذّنوب من لطخ أعدائهم فلمّا كانوا منهم ومنسوبين إليهم في الذوات والصفات والاعتقادات والأعمال والأقوال حتى أنّ أعدائهم عادوا شيعتهم وسعوا إليهم بكل مكروه بغير سببٍ سوى انتسابهم للأئمة عليهم السلام ومتابعتهم لهم وجب عليهم صلى الله عليهم اعانتهم ونصرتهم ونجاتهم بكلّ وجهٍ من الدعاء والعناية بهم وتحمّل الذنوب عنهم والشفاعة لهم في الدنيا والآخرة، وقد مضى كثير من أخبارهم يدلّ على هذا المعنى المشار إليه ومن ذلك ما رواه في البحار من كتاب رياض الجنان لفضل الله بن محمود الفارسي روى المفضل بن عمر عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال (إن أمرنا صعب مستصعب لا يحتمله إلا صدور مشرقة وقلوب منيرة وأفئدة سليمة وأخلاق حسنة لأن الله قد أخذ على شيعتنا الميثاق فمن وفى لنا وفى الله له بالجنة ومن أبغضنا ولم يؤد إلينا حقنا فهو في النار وإن عندنا سرا من الله ما كلف الله به أحدا غيرنا ثم أمرنا بتبليغه فبلغناه فلم نجد له أهلا ولا موضعا ولا حملة يحملونه حتى خلق الله لذلك قوما خلقوا من طينة محمد وذريته صلى

الله عليهم ومن نورهم صنعهم الله بفضل صنع رحمته فبلغناهم عن الله ما أمرنا فقبلوه واحتملوا ذلك ولم تضطرب قلوبهم ومالت أرواحهم إلى معرفتنا وسرنا والبحث عن أمرنا وإن الله خلق أقواما للنار وأمرنا أن نبلغهم ذلك فبلغناه فاشمأزت قلوبهم منه ونفروا عنه وردوه علينا ولم يحتملوه وكذبوا به وَطَبَعَ الله عَلى قُلُوبِهِمْ ثم أطلق ألسنتهم ببعض الحق فهم ينطقون به لفظا وقلوبهم منكرة له ثم بكى عليه السلام ورفع يديه وقال اللهم إن هذه الشرذمة المطيعين لأمرك قليلون اللهم فاجعل محياهم محيانا ومماتهم مماتنا ولا تسلط عليهم عدوا فإنك إن سلطت عليهم عدوا لن تعبد) هـ.

فتدبّر فيما قال وفي دعائه فإنّه يستشفع إلى الله فيهم في محياهم ومماتهم وألاّ يُسلِّطَ عليهم عدوّاً يهلكهم بالقتل كسائر الظالمين ولا يهلكهم بالكفر والضلالة كالشياطين من الإنس والجن فافهم.

قال عليه السلام فإني لكم مطيع مَنْ أطاعكم فقد أطاع اللّه ومن عصاكم فقد عصى اللّه ومن أحبّكم فقد أحبّ اللّه ومن أبغضكم فقد أبغض اللّه

أقول: قوله (فإنّي لكم مُطيع) يريد أنه تجب لي الشفاعة واستيهاب ذنوبي لأجل طاعتي فجعل طاعته لهم علّة لاستيهاب الذنوب والشفاعة له فيها أو مطلقاً، أوْ أنّ قوله (فإني لكم مطيع) استعطافٌ أرْدفَ القسم عليْهم به للتأكيد فيه، فعلى العلّة يكون فيه استنجاز لما وعدوا به من أطاعهم وأحبّهم من تحمّل الذنوب عنه والشّفاعة له كما تكرّم به سبحانه وتعالى عليهم عليهم السلام من الإذن في الشفاعة لمن أحبّهم وأطاعهم والإذن في تحمّل الذنوب عنهم وغفرانها لهم عليهم السلام والإذن لهم في وعدهم شيعتهم بذلك، فهو بعد ثبوت طاعته طالبُ حقّ

أوْ كطالب حقٍّ ثمّ أخبر أني قد أطعتُ الله تعالى بطاعتكم، ومن أطاع الله تعالى فقد وفى بعهَد الله، والله عز وجل قد تكرّم وتفضّل عَوْداً كما تكرّم وتفضّل بدءاً فقال (وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ)وقال (وَمَنْ أَوْفى بِعَهْدِهِ مِنَ الله)وأحببتُ الله بحُبّكم واتّباعكم ومن أحبّ الله فقد وعده الله بغفران ذنوبه فقال تعالى لنبيّه ﷺ يبلّغ عنه (إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ الله فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ الله وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ)وحيث قام بشروط الشفاعة وغفران الذنوب من اتّباعهم ومحبّة الله تعالى بحبّهم وطاعة الله بطاعتهم كان طالبُ حقٍ أوجبه الله تعالى على نفسِه تفضّلاً وأوجبه عليهم تشريفاً لهم وتكريماً وتنويهاً بهم ورفعاً لدرجتهم فهو طالبُ حقِّ الوعدِ والعهد والكرم والجزاء أو كطالب ذلك، لأنّ الوعد والعهد والكرم والجزاء إنّما وجبَتْ له وجوب تفضّل ورحمة وكرم لا وجوب استحقاق وإن سمّاه بذلك كرماً في كرم فقال تعالى (جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ)فإنما هو كما في الدعاء بعد ركوع (وَجَعَلَ مَا امْتَنَّ بِهِ عَلَى عِبَادِهِ كِفَايَةً لِتَأْدِيَةِ حَقِّهِ)وعلى الاستعطاف فهو سؤال معنويّ ثانٍ.

وقوله (أني لكم مطيع) إذا صدر عن غير المعصوم فلا بدّ من صرفه عن الحقيقة، إمّا بأن يراد من الطاعة العزم عليها أو التندم على ما فاته منها أو التشوّق إليها ورؤية أنّها أُمنية المتمنّي لو ساعد الحظ أو يراد بها بعضها كما أشار إليه سبحانه وتعالى بقوله (فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا كُفْرانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كاتِبُونَ)أو المحبّة بالفؤاد والقلب والخيال واللسان أو الولاية لهم أو البراءة من أعدائهم بالفؤاد والقلب والخيال واللسان أو الاعتراف عند نفسه بالتقصير في طاعتهم أو الاعتراف بالفؤاد والقلب والخيال واللسان بأن الحق لهم ومعهم وفيهم وبهم إلى غير ذلك ممّا قد يسمّى طاعةً معتبرة لعدم وجود

منافٍ أقوى كما في المنافقين فإنّهم يتلفّظون بالشهادتين بألسنتهم، وقلوبهم منكرة وهم مستكبرون لأنّ الإنكار القلبي أقْوى من الإقرار اللفظي فإنَّ طاعة المنافقين وإن كانت تسمّى إيماناً كما يدلّ عليه قوله تعالى (يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ ما لا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ الله أَنْ تَقُولُوا ما لا تَفْعَلُونَ)وذلك لأن اللفظ إيمان وإن خالفه القلبُ كما قال تعالى، ولذا قال (كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ الله أَنْ تَقُولُوا ما لا تَفْعَلُونَ) ويسمّى عملاً أيضاً وهو قول الصّادق عليه السلام كما في الكافي بسنده إلى جَمِيلِ بْنِ دَرَّاجٍ قَالَ (سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِالله عليه السلام عَنِ الإِيمَانِ فَقَالَ شَهَادَةُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا الله وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ الله قَالَ قُلْتُ أَ لَيْسَ هَذَا عَمَلٌ قَالَ بَلَى قُلْتُ فَالْعَمَلُ مِنَ الإِيمَانِ قَالَ لا يَثْبُتُ لَهُ الإِيمَانُ إِلا بِالْعَمَلِ وَالْعَمَلُ مِنْهُ)انتهى.

إلا أنّها لَمّا كان القلب مخالفاً لما يقول ولما يعمل لم يعتبر ذلك الإيمان ولا تلك الطاعة لقوّة المنافي لهما وهو الإنكار القلبي لأنّهما لم يقعا منه على الوجه المأمور به ولا المسكوت عنه ولا المباح له بل وقعا على الوجه المنهي عنه، فإذا فعل ذلك قيل له كذبتَ مثل ما كذّب الله سبحانه المنافقين في شهادتهم بأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مع أنّهم يعلمون ذلك ويصدّقونه صلى الله عليه وآله وسلم فيما ادّعاه من النبوّة وإلاّ لكانوا معذورين إذ ليس على العباد أن يعلموا حتّى يعلّمهم الله والنّاس في سعةٍ ما لم يعلموا ولهذا قال تعالى (وَجَحَدُوا بِها وَاسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوًّا)وقال تعالى (فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَ لكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآياتِ الله يَجْحَدُونَ)ومع هذا كذّبهم فقال (وَالله يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنافِقِينَ لَكاذِبُونَ) لأنّ العلم والمعرفة والاستيقان والعمل بغير الباعث القلبي على ما يفعله للحق الواقع والإخلاص لله لا يسمّى إيماناً نافعاً

ولا طاعةً معتدّاً بها.

وأمّا إذا كان الباعث على مقتضى العلم والمعرفة والاستيقان ذاتيّاً من القَلْب فلا بُدّ أن يقع من اللسان والأركان شيء من أعمالهما ما يكون مُصدِّقاً لهمَا ولباعِثهما، فإذا وقع تحقّقت الطاعة وكان ما وقع من المعاصي منه غير منافٍ لتلك الطاعة لأنّ الباعث الذاتي لا يرد من مقامٍ واحدٍ متغايرٍ، فإن وقعت طاعة من الفؤاد قبلت واعتدّ بها وكانت موجبةً لقبول الأعمال وغفران الذنوب ولدخول الجنّة كما قال تعالى (فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ) أي بعض الصالحات (وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا كُفْرانَ لِسَعْيِهِ وَ إِنَّا لَهُ كاتِبُونَ)لأن الفؤاد أعلى مشاعر الإنسان وأقربها إلى الله تعالى، وأوّل ما خلقه الله من الإنسان وهو حقيقته من ربّه وهو المعبّر عنه بالوجود وبالنور الذي خلق منه وبنور الله الذي ينظر به المؤمن ويتفرّس به وإذا صدرت عنه طاعة لم يتوسط بينها وبين الفؤاد باعث منافٍ، لأنها إنما صدرت عن العقل من الفؤاد، والعقل متوسط موافق وداعٍ معينٌ لمراد الفؤاد وإذا صدرت عنه قبلت وإذا قبلت دخل الجنّة، وإن وقعت منه مَعاصٍ فبواعثُها من دون ذلك فهي لا تحبط ما فوقها وما لا تصل إلى رتبتها ومقامها، وفي الكافي والتهذيب والفقيه عن أبي عبدالله عليه السلام قال (مَنْ قَبِلَ الله مِنْهُ صَلاةً وَاحِدَةً لَمْ يُعَذِّبْهُ وَمَنْ قَبِلَ مِنْهُ حَسَنَةً لَمْ يُعَذِّبْهُ)هـ، وهو صريح فيما ذكرنا عند من له قلب سليم.

فالقبول علامة الذّاتية ولو كان المنافي ذاتياً لم يقبل منه صلاة ولا حسنة، والدليل على هذا ما ثبت أن من قبل الله منه صلاة لم يعذّبه كما تقدم في هذا الحديث المذكور في الكتب وقد تلقّته العلماء بالقبول لم يتوقّف فيه من عرفه وما ثبت أنّ السرّ في صلاة الجماعة أنها بحكم بيع الصفقة فإذا قبلت صلاة واحد من

الجماعة قبلت صلاتهم جميعاً، لأن الله تعالى أكرم من أن يأمر العبد بعملٍ ويأتي به كما أمره ولم يقبله فإذا قبِلَهُ في الجماعة قبل من معه فإن الله تعالى أكرم من أن ينهانا عن تبعيض الصفقة ويبعّض هو، فكما أمرنا عند وجود العيب في بعض المبيعات المتعدّدة صفقةً إمّا بقبول الجميع أو ردّ الجميع فهو أولى بالجميل، فمن قبل صلاته في الجماعة لم يجز في كرمه أن يقبلها ويردّ الباقي لأنه تبعيض للصفقة التي أمرنا بها، وقد عُلِمَ من ضرورة مذهب المسلمين أنّ رسول الله ﷺ ممّن أتى بما أمره الله به كما أمره وأنه قد قبل صلاته كل مرّة لا يشكّ فيه إلاّ كافر وكان المنافقون دائماً يصلّون معه، فيلزم من هذا أنّ صلاتهم مقبولة وقد ثبت أنّ من قبلت منه صلاة لم يعذّبه الله مع أنه تعالى قال (إِنَّ الْمُنافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ)لأن المنافي للقبول ذاتي يعني أنّه صادر عن ماهيّته فلا يكون ما فعله عملاً ليدخل في الصفقة بل هو ليس شيئاً لعدميّة أصله كما قال تعالى (وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ ما لَها مِنْ قَرارٍ) ، فقوله (اجْتُثَّتْ) إشارة إلى عدميّة أصلها، فإن أصلها الماهيّة الّتي ما شمّت رائحة الوجود إلاّ بالعرض، ومعنى هذا على المذهب الحق أنّ الماهيّة وإن كانت موجودة في الخارج إلاّ أنّها وجدت بإيجادٍ عرضي أي أنها لمّا كان الوجود يحتاج في تقومه في الظهور إليها وجدت لأجل تقوّمه لا لنفسها إذ لا خير فيها لنفسها فهي موجودة بالعرض، أي لأجل الوجود إذ لولا منفعته لم توجد.

هذا هو المراد بالإيجاد العرضي ووُجدت من نفس الوجود من حيث نفسه لأنّها انفعاله وهذا هو المراد من عدمية أصلها (وَجَدْتُها وَقَوْمَها يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللهِ)لأنّها لا ترجع إلى الوجود من حيث ربّه فهي شجرة مجتثّة،

أي مجتثة الأصل ما لَها مِنْ قَرار، ولهذا كان ما صدر عنها من الأعمال ليس شيئاً بمعنى الثبات قال الله تعالى (وَالَّذِينَ كَفَرُوا) بربّهم (أَعْمالُهُمْ كَسَرابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ ماءً حَتَّى إِذا جاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً)وإن كان شيئاً في نفسه غير ثابت الأصل لأنّ السراب في نفسه شيء ولكن كونه ماء يروي الظمآن ليس شيئاً قال تعالى (وَوَجَدَ اللهَ عِنْدَهُ) لأنه في نفسه (فَوَفَّاهُ حِسابَهُ)كما أن الظمآن يحسَبُ السَّراب ماءً حتّى إذا جاءهُ لم يجده شيئاً ممّا حَسِبَهُ ووَجد الله عند السّراب فوفّاه حسابه من مقتضى السراب وهو أنَّهُ يُميتُه ظمأً، فقوْلُهُ عليه السلام (فإنّي لكم مطيع) لا بدّ أن تكون هذه الطاعة المشار إليها صادرة عن أحد هذه الأمور التسعة وعن ما أشبهها لأنّ ذلك هو الّذي يصدر عن الفؤاد ولا رَيْبَ أنَّ شيئاً منها معتبرٌ فيلحظ فيه أحد الوجهين التّعليل أو الاسْتعطاف.

قال عليه السلام اللهُمَّ إني لوْ وجدْتُ شُفعاء أقْربَ إليك من محمّدٍ وأهْل بيته الأخْيار الأئمة الأبرار لجَعَلْتهم شفعائي.

يقول اللهمّ إنّك خَلقتَني وابْتدأتَني بنعمِك وأوّل نعمك عليّ وأجلها وأشْرفُها ما عرّفتني من نَفْسِك ومِنْ رَسُولك وأوليائك ووفّقتني لطاعَتِك وطاعة رسولك وأوْليالك وعرّفتني مقامَهُمْ منك حتّى جعلتهم ظاهرك في عبادك ومقاماتك التي لا تعطيل لها في كلّ مكان ومعانيك وأركاناً لتوحيدِك وآياتِك وبُيوتَك وأبوابك وحججك على خلقك وأخذت لهم الميثاق على من خلقتَ وقَرنْتَ طاعتهم بطاعتِك ولم تقبل الأعمال إلاّ بولايتهم ومحبّتهم وطاعتهم فلمّا أوجدتني ذلك وجَدْتُ بإيجادك إيّاي، ذلك أنّه لا يكون شفعاء أقرب إليك من محمد وأهل بيته الأخيار الّذين هم العامِلُونَ بالخيرات وأفعالهم وأقوالهم وأعمالهم وعلومهم

وفروعهم الخيرات، وهم الّذين يُسارعون في الخيرات وهم لها سابقون.

والأخيار جمع خيّر بالتشديد فاعل الخير وبالتخفيف الفاضل في الخير كالعلم والعمل والأخيار ضدّ الأشرار جمع شرير فاعل الشرّ وجمع شرّ وهو البالغ في الشرّ فهم عليهم السلام الأخيار قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ جَزاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ) وأعداؤهم الأشرار قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نارِ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها أُولئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ).

والأئمة جمع إمام وهو من يؤتمّ به وتقدم الكلام فيه.

الأبرار جمع بَرّ بفتح الباء أي الصّادق أو الذي عادته الإحسان أو الولي لله تعالى.

فالأبرار على الأوّل الصادقون مع الله تعالى في جميع المواطن فإنّ الله سبحانه منذ خلق أنوارهم قبل الخلق بألفِ ألفِ دهرٍ إلى أنْ قبضهم إليه مكرّمين لم يفقدهم حيث أمرهم أوْ أحب ولم يجدهم حيث نَهاهُمْ أوْ كَرِهَ.

وعلى الثاني هم الّذين استقرّت حقائقهم على وجهٍ واحدٍ وهو وجه أفئدتهم وقلوبهم فلا اعتبار لهم في شيء من أحوالهم إلاّ من جهة أفئدتهم في ما يتعلق بالمعارف أو من جهة قلوبهم في العلوم والأقوال والأعمال، أو من نفوسهم المطمئنّة فيما يتعلّق ويرتبط بالأبدان من المآكل والمشارب والمناكح وغير ذلك بتعليم عقولهم أو نفوسهم الراضية فيما يناط بالعبوديّة أو نفوسهم المرضيّة فيما يناط بالولاية والنّيابة، أو نفوسهم الكاملة فيما يناط بالقطبيّة الكليّة والعقل

وسط الكل في هذه النفوس، فلمّا استقامت حقائقهم على هذه الأحوال المرضية وطبائعهم التي عادتُها ومقتضاها الجميل والإحسان ضعُفت الجهة المخالفة فيهم للأعمال المرضيّة لعدم التفاتهم إليها بحالٍ واضمحلّت حتّى لم يبق منها إلاّ ما يتحقّق به كونهم واختيارهم صلّى الله عليهم فلذا كانت عادتهم الإحسان كما تقدّم في هذه الزيارة الشريفة.

وعلى الثالث هم الذين ذكرهم سبحانه في مفهوم قوله تعالى (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ)أي لم يكن له عين ناظرة في عباده وعضدٌ لخلقه ولسان يخاطبهم به وأذن واعية لنجواه ونجواهم وترجمان يعبّر عن وحيه من عجزٍ أو جهلٍ أو عدم إحاطةٍ أو حاجةٍ أو لغوب في صنع وغير ذلك، بل جعل له ذلك من عزٍّ وتكرّم وعدم استطاعة تلقّي أحدٍ منه تعالىً غيرهم كما يتكرّم الملِك عن سياسةِ خيله وكنس بيته وطبخ طعامه وغير ذلك من خدمة بيته ومملكته مع قدرته على مباشرة هذه ولكنه يتكرّم عن ذلك ولله المثل الأعلى فهم أولياؤه على خلقه تكرّماً لذاته ولطفاً بضعفاء خلقه، فلمّا أوجدتني يا إلهي ما أنعمت به عليَّ من معرفة مقامهم عندك ومكانهم منك لم أجدْ شُفعاء أقْرَبَ إليهم منك فاستشفَعْت بهم إليك وقد أخبرتني أنا وجميع خلقك علىَ ألْسُنِ أنبيائك ورسلك وأوليائك ودُعَاتِك بأنه ليس أحد من خلقِك أقربَ إليك منهم وإنّك لا تردّ سائلاً سألك بهم ولا مستشفِعاً استشفع إليك بهم على ما هو عليه، وقد دعوت عبادَك الذين عصوك وخالفوا أمرك ونهيك واستوجبوا غضبك وسخطك أن يلجأوا إليهم ويعوّلوا عليهم، فإنّهم عليهم السلام يجيرون عليك بإذنك عن غضبك وسخطك ودعوتهم إليهم وأخبرتهم بأنهم عليهم السلام أبواب رحمتِك ورضاك فمن رجاهم ولجأ إليهم دخل في

رحمتك ورضاك وإنْ كان عاصياً لأمرك ونهيك، وقد تقدّم كثير من الأحاديث الدالّة على هذه الأمور والمعاني المذكورة.

ومّما يدلّ من أحاديثهم على أنه تعالى جعلهم ظاهره في خلقه ما رواه محمد باقر المجلسي بالوجادة وهو مذكور في كتاب أنيس السمراء وسمير الجلساء في حديث جابر بن يزيد الجعفي عن علي بن الحسين عليه السلام في حديث الخيط الأصفر وهو طويل إلى أن قال (يا جابر إثبات التوحيد ومعرفة المعاني أمّا إثبات التوحيد فمعرفة الله القديم الغاية الذي لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير وهو غيبٌ باطن كما سنذكره كما وصف به نفسه وأمّا المعاني فنحنُ معانيه وظاهره فيكم اخترعنا من نور ذاته وفَوّض إلينا أمور عباده).

ومّما يدلّ على كونهم مقاماته تعالى التي لا تعطيل لها في كل مكان وأركاناً لتوحيده وآياته ما تقدَّم في دعاء شهر رجب الذي ذكرناه مراراً كثيرة من قول الحجة عليه السلام (فجعلتهم معادنَ لكلماتك وأركاناً لتوحيدِك وآياتك ومقاماتِك التي لا تعطيل لها في كل مكان يعرفك بها مَنْ عرَفك لا فرق بينك وبينها إلا أنّهم عبادُك وخلقك) الدعاء.

وعلى أنّهم معانيه وبيوته وأبوابه وحججه على خلقه فقد تقدّم فيما ذكرنا من الأخبار فراجع إن احتجتَ إلى ذلك.

وعلى أنه تعالى أخذ الميثاق لهم من جميع خلقه ما في مختصر بصائر سعد الأشعري للحسن بن سليمان رواه من كتاب المعراج عن الصدوق بإسناده إلى موسى بن جعفر عن أبيه عن جده عليه السلام قال (لما عرج بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى السماء قال العزيز عز وجل آمَنَ الرَّسُولُ بِما أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ قال قلت وَالْمُؤْمِنُونَ قال

صدقت يا محمد من خلفت لأمتك وهو أعلم قلت خيرها لأهلها قال صدقت يا محمد إني اطلعت إلى الأرض اطلاعة فاخترتك منها ثم شققت لك اسما من أسمائي فلا أذكر في موضع إلا ذكرت معي وأنا المحمود وأنت محمد ثم اطلعت إليها اطلاعة أخرى فاخترت منها عليا فجعلته وصيك فأنت سيد الأنبياء وعلي سيد الأوصياء إني خلقتك وخلقت عليا وفاطمة والحسن والحسين من شبح نور ثم عرضت ولايتهم على الملائكة وسائر خلقي وهم أرواح فمن قبلها كان عندي من المقربين ومن جحدها كان عندي من الكافرين يا محمد وعزتي وجلالي لو أن عبدا عبدني حتى ينقطع أو يصير كالشن البالي ثم أتاني جاحدا لولايتهم لم أدخله جنتي ولا أظللته تحت عرشي)انتهى.

قال عليه السلام فبحقّهم الذي أوجبتَ لهم عليك أسألك أن تدخلني في جمله العارفين بهم وبحقّهم وفي زمرة المرحومين بشفاعتهم إنك أرحم الراحمين وصلى الله على محمّد وآله الطاهرين وسلّم كثيراً وحسبنا الله ونعم الوكيل.

أقول: أقسم على الله تعالى بحقّهم كما أقسم عليهم بحَقِّه تعالى أوّلاً، وقدّم القسم عليهم بحقّه تعالى لسبق حقّه وأصالته وذاتيّته وأخّر القسم عليه بحقِّهم لتفرّعه على حقّه تعالى ولأنّه حقهم تَفضُّلٌ منه تعالى عليهم ومِنّةٌ، ولذا قَيَّدهُ بأنّه أوْجَبهُ على نفسه لا أنَّهُ واجب عليه بالذات إذ لا يجب عليه بالذّاتِ شيء، وقد تقدّم في بيان الحقّ إنّ من أعظم حقّه عليهم أنه تعالى خلقهم له واصْطَنَعَهُمْ لِنَفْسِه، وإنَّ مِن أعظم حقّهم عليه تعالى أنهم قاموا بما أراد منهم من خلقه لهم كما أراد وهو من حقّه عليهم لأنّه منْ عظائم النِّعَمِ عليهم فأردف هذه النعمة بالمؤكّدِ

لها بأنْ أوْجب على نفسِه ذلك وهو نعْمَةٌ بَعْدَ أُخْرى، فهذا الإيجاب والتوفيق للقِيام بها أراد منْهُمْ هو أعظم حقّهم عليه تعالى.

وقوله ﷺ (أسْألُكَ) اسْتِشْفاعٌ بالْحَقِّ المُقْسَمِ به لأنَّهُ دُعاءٌ بشفيع أخبر سبحانه أنّه لا يَرُدُّ مَنْ دَعاهُ به.

وقولُه (أنْ تُدْخِلني في جملة العارفين بهم وبَحَقِّهِم) الجملة المذكورة مشتملة على أشخاص كثيرة من العارفين بهم وبحقهم متفاوتين في مراتب المعرفة بقرينة قوله بأن تُدْخِلني المشعر بأنّه لولا الاستشفاع المذكور لما استحق الدخول، وبقرينةِ قوله (في جملة) لأن الجملة إنّما تُسْتَعْمل فيما يجمع من الأشياء الّتي يتسامح في تَماثُلِها وتساويها فهي مشتملةٌ على ما يصدق عليه اسم العارف حقيقةً أوْ حُكْماً أوْ شرْعاً أوْ عُرفاً أوْ لُغَةً.

وقوله هذا أراد به الاعتراف بالتَّقْصير أو القُصور أوْ عملاً بيقين قُصُوره وتقصيرِه والشَّكِّ في قصورِ غيرِه وَتَقْصيرِه، والمراد بالعارف العارف بهم بالمعرفة النورانية كما في حديث علي ﷺ لسلمَان وأبي ذرٍّ على ما في أنيس السُّمراء، وهي مراتب متفاوِتَةٌ جدّاً قد اشتمل هذا الشرح على ما يمكن منها لغير أهل العصمة على محمد وآله وعلى جملتهم السلام فتدبّر، فقد ذكرنا الإشارة إلى ذلك في عدّة مواضع منه وأعلاها أنهم ﷺ العلامات والمقامات التي لا تعطيل لها في كل مكانٍ، ثم أنّهم مَعَانيه تعالى، ثم أَنَّهُمْ بُيُوتُهُ وخزائنُه، ثمّ أنَّهُمْ أبْوابُهُ ومَفاتِحُ الغَيْب أيْ مفاتِحُ خزائنِه وغَيْبه وتفاوتُ مراتب أهل كلّ مقام في الإجمال أو التَّفْصيلَ في محض الاعتقاد وخصوصه أو في العمل بمقتضاهُ باَللِّسَانِ أو الأركان أوْ فيهما معاً لا يكاد ينحصر في عددٍ، بل هو من مراتب المشكِّكِ والمراد

بالعارف بحقّهم حيث يُراد منْهُ أوْ يشترط في الأعمال أوْ في قَبُولها العارف بأنّهم أئِمّةٌ مُفْتَرَضُوا الطّاعة من الله تعالى وأنّهم حججُه على بريّته، ومراتب أهل هذا المقام فيما ذكرنا من التّفصيل والإجمال والعمل والقول كما مر متفاوتة على نحو ذلك، وقد يكون حقّ يعرفه بالسماع من غير عيانٍ ولا دليلٍ لا في إجمالٍ ولا تفصيلٍ كما رواه في كتاب الخرائج والجرائح وفي كتاب الاحتجاج بسنده إلى كامل بن إبراهيم المدني عن المهدي عجل الله تعالى فرجه من جملة الحديث أن قال قائِل لي (يا كامل بن إبراهيم فاقشعررت من ذلك وألهمت أن قلت لبيك يا سيدي فقال جئت إلى ولي الله تسأله لا يدخل الجنة إلا من عرف معرفتك وقال بمقالتك قلت إي والله قال إذن والله يقل داخلها والله إنه ليدخلها قوم يقال لهم الحقية قلت ومن هم قال قوم من حبهم لعلي بن أبي طالب عليه السلام يحلفون بحقه ولا يدرون ما حقه وفضله) انتهى.

قال شيخنا الشيخ حسين بن محمد بن جعفر الماحوزي (أي قوم يعرفون ما يجب عليهم معرفته جملة لا تفصيلا من معرفة الله تعالى ورسوله والأئمة عليهم السلام) .

والأحاديث الدالّة على الاكتفاء بالمعرفة الإجماليّة كثيرة أورد الكليني جملةً منها فلا بعد في الاكتفاء بها والحكم بها اتّصف بها ولم يقم دليل على اعتبار الدليل التفصيلي فتدبّر انتهى قوله رحمه الله، ولم يقم دليل على اعتبار الدليل التفصيلي إن أراد على الاعتبار في صدق الاسم، فكما قال رحمه الله لأنه إذا حصلت له المعرفة الإجماليّة ولم يُفْتَتن حتّى مات على ذلك فيرجى له النجاة، وإن كان لا بدّ من أن يجدّد له التكليف يوم القيامة إلاّ أنَّ موته على ذلك بغير افتتانٍ إمارةُ النجاة والله

سبحانه أعلم.

وإن أراد على الاعتبار مطلقا فالأخبار على اعتبار الدليل التفصيلي عند إرادة المعرفة الكاملة متظافرة بل فيها ما يدل على عدم اعتبار غير التفصيلي، كما قال الصادق عليه السلام رواه في الكافي عَنْ طَلْحَةَ بْنِ زَيْدٍ قَالَ (سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ الله عليه السلام يَقُولُ الْعَامِلُ عَلَى غَيْرِ بَصِيرَةٍ كَالسَّائِرِ عَلَى غَيْرِ الطَّرِيقِ لا يَزِيدُهُ سُرْعَةُ السَّيْرِ إِلا بُعْداً).

وفيه عنه عليه السلام قال (قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم مَنْ عَمِلَ عَلَى غَيْرِ عِلْمٍ كَانَ مَا يُفْسِدُ أَكْثَرَ مِمَّا يُصْلِحُ).

وفيه عَنِ الْحَسَنِ بْنِ الْجَهْمِ قَالَ (قُلْتُ لأَبِي الْحَسَنِ عليه السلام إِنَّ عِنْدَنَا قَوْماً لَهُمْ مَحَبَّةٌ وَلَيْسَتْ لَهُمْ تِلْكَ الْعَزِيمَةُ يَقُولُونَ بِهَذَا الْقَوْلِ فَقَالَ لَيْسَ أُولَئِكَ مِمَّنْ عَاتَبَ الله إِنَّمَا قَالَ الله فَاعْتَبِرُوا يا أُولِي الأَبْصارِ).

وغير ذلك مما يدل على أن الإجمالي محل الشبه والغلط والجهل كما وجدنا كثيرا ممن يقول بالكلام الحق مجملا، فإذا اختبر بالتفصيل قال بخلاف الحق لأن هذا الإجمال متداول بين المسلمين فيعرفه الجاهل فإذا اختبر بالتفصيل أو نطق بمعناه نطق بالكفر، ولقد رأيت شخصا ممن هو يقول بهذا المذهب الحق يعني يقول بالولاية والبراءة وظاهره الزهد والصلاح وملازمة العبادة وقعدت بعد الفراغ من الصلاة أعظ الجماعة وأعلمهم بعض المعارف وكان الرجل بالقرب مني فأخذت أقول بأن الله تعالى لا يشابهه شيء من خلقه ولا في مكان ولا في جهة وما أشبه هذا فاعترض ذلك الرجل بالكلام فقلت له أسكت لأني قلت إن تكلّم قال بالكفر فقلت أسكت لا تتكلم فلم يقدر على إمساك نفسه إلى أن قال البارحة رأيت ربي في المنام وعنده جروا كلب جبرئيل وميكائيل هذا وأنا

أقول له أسكت أسكت مع أنه يقول إن الله تعالى ليس كمله شيء وليس الملائكة بأجراء كلاب ولكن يقول ذلك بلسانه، فإذا نطق بمقتضى التفصيل نطق بمثل ما سمعت وأصل هذا عدم معرفته بالدليل التفصيلي، نعم ممن لا يعرف التفصيلي قد يعافى من الفتنة فيكون ناجيا، فقول الحجة عجل الله تعالى فرجه لكامل بن إبراهيم إنما هو فيمن قال بالإجمال وعافاه الله من الفتنة وأكثر أهل الإجمالي بل أكثر أهل التفصيلي يفتنون في دينهم، أما سمعت قول الله تعالى (أَ حَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ) وقول أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة (لَتُبَلْبَلُنَّ بَلْبَلَةً وَلَتُغَرْبَلُنَّ غَرْبَلَةً وَلَتُسَاطُنَّ سَوْطَةَ الْقِدْرِ حَتَّى يَعُودَ أَسْفَلُكُمْ أَعْلاكُمْ وَأَعْلاكُمْ أَسْفَلَكُمْ وَلَيَسْبِقَنَّ سَابِقُونَ كَانُوا قَصَّرُوا وَلَيُقَصِّرَنَّ سَابِقُونَ كَانُوا سَبَقُوا) نعم إذا كان التفصيلي ذوقيّا عيانِيّاً غير مخالفٍ لكلام أهل العصمة عليهم السلام بمعنى أنّهم يقولون طِبْقَ ما قال هذا المستدلّ ليكونوا عليهم السلام مخبرين عن صدقه لا أنّه يصرِف كلامهم عن ظاهره ويدّعي أنّ هذا مرادهم فإن ذلك ضلال، بل شرط صحة قولِ المستدلِّ أن يَحْصُلَ له شاهدانِ بقوله بلا تأويل.

أحدهما: كلام المعصوم عليه السلام بظاهره وبباطنه الذي يوافِقُ ظاهره.

وثانيهما: أن يكون قوله مطابقاً لما عليه ظاهر كلام العوام من المسلمين المؤمنين لا ما يتأوّلونه كما ذكرنا سابقاً.

فإنّهم لا يفهمون إلاّ ما ينافي الحق ولكن ظاهر كلامهم صحيح ومثال ما قلنا أن كلام المعصوم عليه السلام صريح بظاهره وبباطنه إنّ الله على كل شيء قدير وكذا كلام العوام بظاهر القول منهم ومن الأشياء التي هو قادر عليها أن لو شاء لهدى الناس جميعاً، والقرآن مشحون به وكلامهم عليهم السلام وكلام العوام من شيعتهم بظاهره متطابقةٌ فمن تعمّق في الدليل التفصيلي الذوقي واستخرج من بحر معرفته ولجج

غمره جواهر علمه مطابقاً لذلك فهو حقّ ودليل تفصيليّ صدق وأنه لا يلزم من ظاهر قولك إنّ الله سبحانه يعلم كفر ذلك الشخص فلو هداه انقلب علمُه جهلاً كما يقوله بعض المتعمّقين، أو أنّ حقائق الأشياء ليست مجعولةً وإنّما هي صورٌ علميّة ولا يمكن تبديلها لاستحالة انقلاب الحقائق ولزوم كون الشيء ليس هو حينئذٍ إيّاه وإنّما المتغيّر غير الأوّل، وأمثال هذه المقالات الفاسدة كما ذهب إليه أشباه الناس كالصوفيّة ومن سلك مسلكهم كالملاّ محسن فإنه في كتابه الوافي في باب الشقاوة والسعادة وغيره أحال أن يهدي الله سبحانه جميع الخلق لأنّهم لم يعطوه العلم من أنفسهم، والعالم علمه مستفاد من المعلوم وذلك لأنّه شحن كتابه من كلام عبد الرزاق الكاشي في شرح الفصوص لمميت الدين ابن عربي ويزعم مع هذا أنه مذهب الأئمة عليهم السلام والأئمة عليهم السلام بُرَاء من هذا المذهب كيف وإنما يقولون بقول الله سبحانه وهو يقول (وَلَوْ شاءَ الله لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدى فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجاهِلِينَ) .

وأنا أقول ممّن عنى الله سبحانه مميت الدين وعبد الرزاق وأتباعهما فإذا أردتَ أن تعرف صدق كلامي فانظر في الوافي في الموضع المذكور فإنّك تجده كما ذكرتُ لك وعبارته بعينها عبارة عبد الرزاق في شرح الفصوص واسأل جميع عوامّ المسلمين فإنهم يتّفقُون على أن الله تعالى قادر على أن يجمع الخلق على الهدى، وأنه لو شاء لهدى الناس جميعاً.

وكلام أهل العصمة عليهم السلام كذلك، وأمّا كلام الصوفيّة فعلى خلاف ذلك فإنهم يقولون ليس لله ذلك، وقولي قبلُ كلام المعصوم بظاهره وبباطنه الذي يوافق ظاهره احتراز عن دعواهم الباطلة فإنهم يقولون كلامنا هذا هو مراد الإمام عليه السلام،

ولكن القِشريّين لا يفهمونه فهم يؤولون لكلام الإمام عليه السلام معنى يخالف ظاهرهُ ويخالف القرآن ويخالف ما أقرّ الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم عليه المسلمين وإن الله تعالى (سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ).

وقوله عليه السلام (وفي زمرة المرحومين بِشفاعَتِهِم) عَطْفٌ على جملة والزُّمْرة الجماعة من الناس، والمعنى أسألك يا من فضّلهم وأذِنَ لَهُم في الشّفاعةِ ومَلّكهم إيّاها فيمن شاؤوا بحقّهم الّذي أوجبتَ لهم على نَفْسِكَ بأن تقبل منهم ولا تردّهم في شيء أرادُوا منك أن تدخلني في زمرة المرحومين بِشَفاعَتِهِمْ فإنّي تقرّبت إليك بما تقرّبوا به من ولاية أوليائِك ومحبّتهم والبراءة من أعدائهم والبغض لهم وسألتهم بحقّك أن يكونوا شفعائي عندك في الذنوب التي بيني وبينك وسألتك بحقّهم وما فعلتُ من الولاية والحُبِّ ومن البراءة والاستشفاعُ والقسَمُ عليهم بحقّك وعليك بحقهم هو الموجب لمحبيّهم الرحمة بشفاعِتهم وآتيتُك من الباب الذي أمرتَ أن تُؤتى منه فأدخلني في زمرة المرحومين بشفاعتهم فإني بنعمتك واحد من جملتهم بحكم ما وعدتَ في كتابك وعلى ألْسِنَةِ أوليائِك وأنت لا تُخْلِف الميعاد وأنت أرحم الرّاحمين.

وإنّما قال (إنّك أرْحَمُ الراحمين) تنبيهاً على أن ما أتينا به ممّا تَقربْنَا به لا نستوجبُ به منك الإدخال في جملة العارفين بهم وفي زمرة المرحومين بشفاعتهم إستيجاب استحقاق وإنّما أتينا بما تقربنا به استعطافاً بفقرنا وحاجتِنا وضعفنا لأنّك أرحم الراحمين.

وإنما قال (أرحم الراحمين) لأنه أمرنا بأنّ مَنْ أتى منّا أحداً منّا بمثل ما آتيناه به من التقرّب إليه بأحب الناسِ إليه وأعزّهم عليه ومن وعد من تقرّب

به الإكرام والقبول والإجابة وبمحبّة مَنْ أحبَّ وبغض من عاداه وامتثلَ أمرَهُ في أحب الأشياء من أوامره إليه، واجتنبَ ما نهى عنه في أبغض الأشياء إليه بأن نقبل عذرَهُ ونغفر ذنبه وتقصيره ونقرّبه منّا ونعطف عليه ونرحمه وأنت أوْلى بذلك وأنت أرحم الراحمين، لأنّك ابتدأت عبادك برحمتك وخلقتهم برحمتك وأعظمْتَ عليهم النعمة برحمتك ورزقتهم برحمتك وقد أمرتنا بالرحمة، وإنّما وصل منك إلينا من رحمتك فاضل جزءٍ من مائة جزءٍ من رحمتك وأنت قد وعدتنا على لسان نبيّك وألسنة أوليائك صلى الله عليه وعليهم، إنّك تضمّ ذلك الجزء الذي أوصلتَ إلينا فاضلَهُ وأردت منا أن نتراحم بذلك الفاضل الذي هو جزء من سبعين جزءاً من ذلك الجزء فتضمّه إلى باقي الرحمة المدَّخرة عندك وهو تسعة وتسعون جزءاً فترحم به عبادَك ، وفي تفسير الإمام عليه السلام للبسملة في الرحيم قال عليه السلام (وأما قوله الرَّحِيمِ فإن أمير المؤمنين عليه السلام قال رحيم بعباده المؤمنين ومن رحمته أنه خلق مائة رحمة وجعل منها رحمة واحدة في الخلق كلهم فيها يتراحم الناس وترحم الوالدة ولدها وتحنو الأمهات من الحيوان على أولادها فإذا كان يوم القيامة أضاف هذه الرحمة الواحدة إلى تسع وتسعين رحمة فيرحم بها أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ثم يشفعهم فيمن يحبون له الشفاعة من أهل الملة حتى أن الواحد ليجيء إلى مؤمن من الشيعة فيقول له اشفع لي فيقول له وأي حق لك علي فيقول سقيتك يوما ماء فيذكر ذلك فيشفع له فيشفع فيه ويجيء آخر فيقول إن عليك حقا فيقول وما حقك فيقول استظليت بظل جداري ساعة في يوم حار فيشفع له فيشفع فيه فلا يزال يشفع حتى يشفع في جيرانه وخلطائه ومعارفه وأن المؤمن

أكرم على الله مما يظنون)انتهى.

وأنت أرحم الراحمين لأنّك أردت من عبادك الرحمة وهم فقراء محتاجون ورحمتهم من فاضل جزء من رحمتك وأنت الغني المطلق الذي لا يحتاج إلى شيء، الكريم الذي لا تزيده كثرة العطاء إلاّ كرماً وجوداً ورحمتك وسعت كلّ شيء فأنت أولى بكل جميل.

وقوله عليه السلام (وصلى الله على محمد وآله الطاهرين) قد تقدّم ما يبيّن المعنى المراد من الصلاة من الله تعالى ومن الملائكة ومَن الناسِ وهذا إن شاء الله غير خفيّ على من راجع ما هنالك، فقد ذكرنا أنّ الصلاة من الصّلة وعليه فقد أعطى سبحانه نبيّه وأهل بيته عليه وعليهم السلام ما أرضاه من كل خير بمقتضى فضله وكرمه وبمقتضى قوابلهم واستعدادهم صلوات الله عليهم، وبدُعاء كلّ من لهم عليه شكرُ نعمة الهداية والتعليم والإعانة والتوفيق لطاعة الله تَعالى والإيمان وشكر البابيّة الكبرى والوساطة العُظْمى في كلّ ما وصل إليهم من الله تعالى من أحوال الخلق والرّزق والحياة والمهات من النّعم والإمدادات فإنها لم تصل إلى أحدٍ من الخلق شيء من الله إلاّ بواسطتهم أو أنّ الصلاة من الوصل، وعليه فقد وصل نبيه صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام بكلِّ خَيْر مطلوب وأمرٍ مرغوب، أوْ أنّ الصلاة من الوصْلة، أي ما يتوصّل به من الأسباب فإن الصلاة هي السَّبَب الموصل إلى الله تعالى، فقد أنزل إلى نبيه وأهل بيته صلى الله عليه وعليهم من أسْبَاب القرب إليه والتكرمة والتشريف والنّيابة والوسيلة وغير ذلك بمقتضى كرمه وتفضّله وبمقتضى قوابلهم واستعداداتِهِمْ عليهم السلام وبدعاء من أشرنا إليه من الخلق لجميع

جهات طرقهم إلى الطاعات ما هم أهله صلى الله عليهم أجمعين.

وروى القميّ في قوله تعالى (إِنَّ الله وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً قال صلوات الله عليه تزكية له وثناء عليه وصلاة الملائكة مدحهم له وصلاة الناس دعاؤهم له والتصديق والإقرار بفضله وقوله وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً يعني سلموا له بالولاية وبما جاء به).

وفي ثواب الأعمال عن الكاظم عليه السلام أنه سُئِلَ ما معنى صلاة الله وصلاة ملائكته وصلاة المؤمن قال عليه السلام (صلاة الله رحمة من الله وصلاة الملائكة تزكية منهم له وصلاة المؤمنين دعاء منهم له).

وفي المعاني عن الصادق عليه السلام أنه سئل عن هذه الآية فَقَالَ (الصَّلاةُ مِنَ الله عَزَّ وَجَلَّ رَحْمَةٌ وَمِنَ الْمَلائِكَةِ تَزْكِيَةٌ وَمِنَ النَّاسِ دُعَاءٌ وَأَمَّا قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً فَإِنَّهُ يَعْنِي التَّسْلِيمَ لَهُ فِيمَا وَرَدَ عَنْهُ قَالَ فَقُلْتُ لَهُ كَيْفَ نُصَلِّي عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ قَالَ تَقُولُونَ صَلَوَاتُ الله وَصَلَوَاتُ مَلائِكَتِهِ وَأَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ وَجَمِيعِ خَلْقِهِ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ وَالسَّلامُ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ وَرَحْمَةُ الله وَبَرَكَاتُهُ قَالَ فَقُلْتُ فَمَا ثَوَابُ مَنْ صَلَّى عَلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله وسلم بِهَذِهِ الصَّلَوَاتِ قَالَ الْخُرُوجُ مِنَ الذُّنُوبِ وَالله كَهَيْئَةِ يَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ)انتهى.

واعْلم أنّ المعروف بين العلماء أنّ الصَّلاة من الملائكة اسْتِغْفار، والملائكة يسبّحون الله ويستغفرون للمؤمنين كما دلَّتْ عليه آية (الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَبَ الْجَحِيمِ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ وَأَزْواجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَقِهِمُ السَّيِّئاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئاتِ

يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)، وَلَمِ يذكر تعالى لَهُمْ حالاً ثالثاً فلعل استغفارهم له صلَّى الله عليه وآله استغفارهم لأمّته ﷺ المؤمنين أوْ أنهم صلى الله عليهم لما تحمّلوا ذنوب شيعتهم كان استغفارهم لأنْفُسِهم لأجل ما تحمّلوا من الذنوب عن شيعتهم واستغفار الملائكة لمحمد ﷺ وأهل بيته عليهم السلام الذي هو صلاتهم عليهم هو استغفارهم لشيعتهم لأنهم إذا استغفروا لشيعتهم سقطت عنهم ذنوبهم ،كما في العيون عن الرضا عليه السلام في هذه الآيات قال (للذين آمنوا بولايتنا) .

وفي الكافي عن الصادق عليه السلام (إنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ مَلائِكَةً يُسْقِطُونَ الذُّنُوبَ عَنْ ظُهُورِ شِيعَتِنَا كَمَا يُسْقِطُ الرِّيحُ الْوَرَقَ فِي أَوَانِ سُقُوطِهِ وَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ الآية قال اسْتِغْفَارُهُمْ وَالله لَكُمْ دُونَ هَذَا الْخَلْقِ)انتهى.

فإذا سقطَتْ عَنْهم ذُنُوبهُمْ باستغفارِ الملائكة لم يَبْقَ شيءٌ تتحمله الأئمّة عَنْهُمْ، ولعل ما ذكر في الأخبار المتقدّمة من تفسير صلاة الملائكة على النبيّ ﷺ بأنّها تزكية له ﷺ إنّ المراد بها أنّهم إذا استغفروا لشيعته فقد سَلِمَ ﷺ من تحمُّلِها فقد طهّروه عن الأخلاق الذّميمة الّتي هي المعاصي، فمعنى أنّ صلاتهم عليه تزكية له أنّ صلاتهم استغفارهم لَهُ ممّا لوْلا اسْتِغْفَارُهم لتحمّل تلك الأخلاق الذميمة التي هي ذنوب الشيعة فكانتْ صلاتهم عليه تزكيةً لهُ ﷺ من تلك الذّنوب.

بقي شيء، هل استغفارهم له بعد ما تَحَمَّل من ذنوب شيعتهم أمْ لشيعتهم لحطّ ذنوبهم قبل أن يتحمّلها ﷺ احتمالان:

الأول من ظاهر صلاتهم عليه وإن معناها الاستغفار وهو صلى الله عليه لا ذنب عليه من نحو نفسه كما تقدم من قول الصادق عليه السلام في تفسير قوله تعالى

(لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ) حين سُئل عن هذه الآية فقال عليه السلام (ما كان له ذنب ولا هم بذنب ولكن الله حمله ذنوب شيعته ثم غفرها له)انتهى.

والثّاني من ظاهر الآيات السّابقة (وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا)فإنّه في الحقيقة لأجله ولأجل أهل بيته صلى الله عليه وآله وسلم فالاستغفارُ لهم وإنْ وقع ظاهراً لشيعتِهِمْ ولهذا قال العلماء إنّ الصلاة من الملائكة الاستغفار، مع أن الأئمة عليهم السلام قالوا إن استغفارهم تزكية له والتّزكية لغة التطهير من الأخلاق الذميمة فلا يحصل على ما بيّنّا تنَافٍ إن شاء الله تعالى.

واعلم أن العلماء اختلفوا في وجوب الصلاة عليه عند ذكره على أقوال ليس هنا محل بيانها، وإن كان الصحيح عندي الوجوب ليس على الفور المطلق ولا على التراخي المطلق جمعاً بين ما دلّ على الفور وعلى النهي عن التراخي، وبين ما دلّ على الفصْل كما هو مذكور في الأدعية المرويّة عنهم عليهم السلام من الفصل بين ذكره وبين الصلاة عليه بدعاء قدر السطرين أو الثلاثة أو الأرْبعة والمعروف من كلام الأصحاب أنّ الصلاة لا تجب على أحدٍ غيره من الأنبياء والرُسُل ولا من أهل بيته إلاّ أنه قد ورد عنه صلى الله عليه وآله وسلم النهي عن الصلاة البتراء وهو أن يُصَلى عليه ولا يُصَلّى على آله معه.

والمعروف من المذهب حمل هذا النهي على الكراهة وإن إدخالهم في الصلاة عليه مستحبٌّ، والّذي أفْهَمُ أنّ النهي على حقيقة التحريم وأن المنهيّ بذلك النهي هم أعداؤهم وأتباعهم الّذين لا يصلّون على أهل بيته، فلا أقلّ أنهم تركوا ما ندبَ الله إليه وحرّموه أو كرّهوه فيكون النّهي عَلَماً زائد ألحق على حقيقته في حقّهم مع أن الله سبحانه ألحقَ أهل بيته به كما قال أمير المؤمنين عليه السلام فيما تقدّمَ من

خطبته قال (فعلاّهم بتعليته وسما بهم إلى رتبته).

وفي تفسير فرات بن إبراهيم بسنده إلى جعفر بن محمد عليه السلام مُعَنعناً عن الحسن بن علي عليهما السلام في حديث طويل إلى أن قال (وفضل الله الصلاة في مسجد النبي صلى الله عليه وآله وسلم بألف صلاة على سائر المساجد إلا المسجد الذي بناه إبراهيم النبي بمكة لمكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وفضله وعلم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال قولوا اللهم صل على محمد وآل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد فحقنا على كل مسلم أن يصلي علينا مع الصلاة عليه فريضة واجبة من الله) الحديث.

فيحتمل أن يكون المراد بالفريضة الواجبة الندْب للتأكيدِ أو الوجوب على المنكرين أو المكرّهين كأهل الخلاف بقرينة قوله على كلّ مسلمٍ.

واعلم أنك إذا قلتَ صلى الله عليه وآله وسلم فإنّ أهل العربيّة ينصبون الآل لأنّ العطف على الضمير بدون إعادة الجار قبيح بل ربّما منعه بعضهم والأكثر على جواز الجر وقد قرء (وَاتَّقُوا الله الَّذِي تَسائَلُونَ بِهِ وَالأَرْحامَ) بجرّ الأرحام، هذا ما يعرفونه أهل اللغة، وأمّا الموجود في كتب الأدعية المرويّة عنهم عليهم السلام المصحّحة المعربة فكلّها بجرّ آلـه لا يكاد يوجد في جميع أحاديثهم وأدعيتهم موضع بالنّصب بحسب ما ورد عنهم إلاّ ما كان في بعضها يوضع الفتح بالأحمر، وهو من أعْراب الرواة والنقلة إلْتِفاتاَ إلى أصل العربيّة، ولقد رأيتُ مسائل للشيخ ناصر الجبيلي الأحسائي سأل بها الشيخ حسين ابن الشيخ محمد بن جعفر الماحوزي رحمهما الله وكان من مسائله هذه المسألة فأجاب الشيخ حسين المذكور بما معناه أنّ الأكثر في أدعيتهم

الجر وفي كثير منها بالفتح وذكر أصل القاعدة وهو رحمه الله نظر في جوابه إلى ما قرّروه في النحو، وإلاّ فالوارد عنهم عليه السلام كلّه بالجرّ، نعم ربّما كتب بعض النُّسَاخَ الفتح نظراً إلى اللغة وأنه أرجح من الجرّ فيكتب نسخةً بالفتح، وهذا وإن كان مرجوحاً بالنسبة إلى المشهور عند النحويين إلاّ أنّه لغة صحيحةٌ وكانت اللّغة تتبدّل وتتعدّد باختلاف القرون، فربّما يشتهِرُ بعض الألفاظ أو الإعراب في هذا القرن وتنعكس الشهرة في القرن الذي يكون بعده ويسمّون المشتهر الأوّل شاذّاً نادراً وليس إلاّ لقلّةِ استعماله في زمانهم، ولهذا كان القرآن الذي نزل على أعلى درجات الفصاحة والبلاغة مشتملاً على اللغات الشاذّة، وليست شاذة وإنّما كان استعمالها في زمن نزول القرآن قليلاً فكانت بقلّة استعمالها كما في كُبّاراً (إِنْ هذانِ لَساحِرانِ) والأصل أن القرآن محيط باللغات في جميع القرون، فإذا أتى قرن لا يعرف لغة ما قبله أو كانت قليلة الاستعمال كانت عنده شاذةً أو نادرةً وما نحنُ فيه الذي تقتضيه اللغة الصحيحة الأصليّة هو الجر في لفظة (وآله) خاصّة وأن الفتح مرجوح أو لا ينبغي وإن كان في تَسائَلُونَ بِهِ وَالأَرْحامَ جائز الفتح أو راجحَة، والفرق بينهما من جهة المعنى، فانّك إذا قرأتَ في صلّى الله عليه وآله بالجرّ كانت الصلاة عليهم معطوفةً على الصلاة عليه فهي تابعة ولاحقة ومتأخرةً عن الصلاة عليه رتبةً ولفظاً وهذا هو المناسب للترتيب الطبيعي والوجودي فإن الله تعالى خلقه صلى الله عليه وآله وسلم قبلهم وخلقهم من نوره وصلّى عليه قبلهم وصلى عليهم بعده فعلى الجرّ يتّسق الترتيب الوجودي والطبيعي مع اللفظي وإذا قرأت بالفتح كان

إمّا على المعيّة أو عطْفاً على المحلّ.

وفي الأول يلزم ظاهراً إنّ صلاة الله عليه وعليهم في الإفاضة سواء، ويلزم من هذا إمّا التساوي في الوجود إن لاحظْنا الترتيب الطبيعي، وإمّا مخالفة الترتيب الطبيعي أن قدّرنا سبقه على وجودهم، وفي الثاني يكون المراد أن الضمير المجرور منصوب المحل بمعنى أنه منصوب فيكون العامل قدْ توجَّه إليه في المعنى بدون واسطة الجار فتكون الصلاة واقعة عليهم بغير فاصل، فإذا قُرِأَتْ بالنصب كان المعطوف مشاركاً له في عدم الفاصل ويلزم التّساوي في الوجود أو في الصلاة فعلى التساوي في الوجود يلزم خلاف الواقع وعلى التساوي في الصلاة يلزم خُلوُّ السّابِق عن صلة المتَفَضّل عز وجلّ إلى أن وُجِد اللاّحق ويلزم من هذا أفضلية اللاحق وهو مناف للحكمة.

وإن قلت: أنّه معطوف على المحل ولا يلزم التساوي في الوجود ولا في الصّلاة لتأخّره لفظاً.

قُلتُ: إنما يتوجه هذا إذا كان المعطوف مجروراً ليكون عطفاً على لفظ الضمير الذي دخل عليه الجار، وأمّا إذا قدرت العطف على المحل فلا يتّجه ذلك لأن الألفاظ قوالبُ المعاني والإرادة لا تُفْرِغُ المعاني عن قَوالِبها فالذي ينبغي أن يُقرَأ بالجرّ لينتظم اللفظ على ترتيب الوجود والطبيعة.

وعلى هذا كان ﷺ أول مخلوق فكان نورهُ يطوف حول القدرة ثمانين ألف سنة وصلاة الله عليه واصبة دائمة ثم نزل إلى العظمة فخلق الله من نوره نور علي بن أبي طالب عليه السلام كإيجاد السراج من السراج فكان نور عليٍّ يطوف بالقدرة ونور محمد يطوف بالعظمة صلى الله عليهما وآلهما الطاهرين. وقوله عليه السلام (وآله

الطّاهرين) قد تقدّم الكلام فيه في معنى الآل ومعنى طَهارتهم فراجِعْ .

وقوله عليه السلام (وسلم تسليما كثيرا) هو عطفٌ على (وصلى الله) وهو فعل ماضٍ مِثْلُهُ قصد به الدُّعَاء مثله ولوُحِظ فيه اعتباران.

أحدهما: أنه اقتُبِسَ من القُرآنِ لإرادةِ ما تَضَمَّنَهُ في قوله تعالى (وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً) تلويحاً وإن كان بعيداً بالنظر إلى ظاهر العربيّة فإنّ معنى التسليم في الآية في الظاهر كما هو في هذا الكلام فتقول صلى الله عليه وآله وسلم واللهم صلّ على محمد وآله وسلِم بكسر اللاّم وسلِّم بصيغة الأمر للدعاء وبالتّسليم عليه بمعنى اللهم احفظه وآله من كل ما لا تحبّ في الدّنيا وبصيغة الماضي صلى عليه بمعنى رحمه وسلّم عليه بمعنى حفِظه لأن التسليم من قولك السلام عليه والسلام اسم لله تعالى بمعنى الحافظ، وتقدّمَتْ له معانٍ في أوّل الشرح وفي الآية معنى (وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً) أمْرٌ للمكلّفين بأن يقولوا السلامُ عليه على الظّاهر ومعناهُ في التأويل وسلِّموا فيما ورد عنه صلى الله عليه وآله وسلم كما تقدّم في حديث المعاني وفي المحاسن عن الصادق عليه السلام أنه سُئِل عن هذه الآية فقال (اثنُوا عليه وسلّموا له)ومعناه في الباطن كما في تفسير علي بن إبراهيم (وقوله وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً يعني سلِّموا له بالولاية وبما جاء به) .

وفي الاحتجاج عن أمير المؤمنين عليه السلام (لهذه الآية ظاهر وباطن فالظاهر قوله صَلُّوا عَلَيْهِ والباطن قوله وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً أي سلموا لمن وصاه واستخلفه وفضله عليكم وما عهد به إليه تسليما وهذا مما أخبرتك أنه لا يعلم تأويله إلا من لطف حسه وصفا ذهنه وصح تمييزه)انتهى.

ولو خلص لفظ سلِّموا تسليماً في الدلالة على معنى سلّموا الأمر لمن نصبه يوم الغدير لأسقطه أعداؤهم كما أسقطوا نظائره من جميع القرآن لكنه لمّا كان ظاهره والمتبادر منه أن يقولوا السلام عليه أو سلّموا له على إرادة العموم أبقوه

ولم يحذفوه لعدم منافاة ظاهره لغرضهمْ مع أنهم يعرفون باطنه ولكنّ الله تعالى ألقى في نفوسهم أن العوام وسائر الناس الذين يستجلبون قلوبهم لا يفهمونه فلا يفوتُ غرضهُم ولو حدثتهم أنفسهم بإسقاطه كراهة أن يعثر أحدٌ على المنافي لغرضهم ألقى سبحانه في نفوسهم أنّ الإكثار من الإسقاطِ ربّما يكون منافياً لأن سائر الناس قد يتنفّرون ويتوحّشون من كثرة التغيير فيقتصرون على أقلّ ما يندفع به المنافي، وكلّ ذلك رعاية منه تعالى لإعلاء كلمته وإتمام نوره إلى فعله بهم وبما شاء من تدبير النظام بحكمته الإشارة بقوله تعالى (وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ) لأنه تعالى قال (وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقاظاً وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذاتَ الْيَمِينِ وَذاتَ الشِّمالِ) وقال تعالى (وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِها) فافهم الإشارة، فلاحظوا عليه السلام في ذكر التسليم المعطوف على الصلاة عليه صلى الله عليه وآله وسلم ما ذكر في الآية وما نبّهْنا عليه سابقاً في أول الشرح في بيان (السلام عليكم يا أهل بيت النبوّة) وكلّ هذا فيما لحظوا على الأوّل.

وثانيهما أنّ سادة أعدائهم وكبرائهم عرفوا باطن وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً، وأنّه إنما أتى بهذا الكلام للحثّ على الولاية وذلك مُنافٍ لغرضهِمْ وكَرِهُوا إسقاطَهُ كراهة الإكثار من الإسقاط وسائر النّاس لا يعرفُون ذلك فقَدْ أمِنوُا غائِلَةَ عوام النّاس فصرفوا الأفهام عن فهم ما عرفوا من باطنه بإلقاءِ معنىً في ذلِكَ مناسب يصرف أفهام العوامّ بل غير من لَطُفَ حِسه وصفا ذهنُه وصحَّ تمييزُهُ عما أراد الله سبحانه فقالوا يُكره إفْرادُ الصلاة على محمّد صلى الله عليه وآله وسلم عن السلام بل ينبغي إذا قلت اللهم صل على محمّد تقول وسَلِّمْ وإذا قلتَ صلّى الله عليه تقول وسَلّم، فتُقْرنُ الصلاة عليه بالسلام لأنّ الله تعالى أنزل في ذلك قرآناً للاقتران بينهما فقال (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً) وذلك تعليم منه تعالى وهداية للمكلّفين ولَمْ يُريدوا

بهذا الكلام إلاّ صرف الأفهام عمّا أراد المَلِكُ العلاّم وهذا من قوله تعالى (وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ)يعني في قراءته، ولا شكّ عند جميع مَنْ عرف الحقَّ بتوفيق الله أنّ فعلهم هذا مِنْ إلقاء الشَّيْطان فكان النّاس في استعمال الإتيان بالسَّلام بعد الصلاة على ثلاثة أقسام:

قسم منهم العارفون فإن أَتَوْا بالسَّلام قصدُوا ما أراد اللهُ بذلك من الظاهر بالتسليم عليه بعد الصلاة والدعاء بالحفظ والسلامة له وعليه وبالتّسليم له فيما جاء به عن الله تعالى خصوصا وعموما، ومن الباطن بالتسليم لولي الأمرِ مِن اللهِ والطّاعة له، فمعنى قوله ﷺ (وسلم) أي لوصيّه الأمر أي حفظه له وعليه وأدّاه إليه وقصدوا التّقية بأنْ لا يفارِقوا الأعداء المُتَغلِّبين فيما لهم المناص منه وعدم الضرر عليهم في الإتيان به لا في الدنيا ولا في الدين بل الإتيان به أرجح، لأنّهم يقصدون به أفضل المقاصد وأجلّ المطالب وإن تركوه قصدوا بالترك المخالفة لأهْل البدَع.

وقسم منهم المعاندون للحق وأتباعهم وقد سمعتَ ذِكرَ إرادَتِهم وقصدِهم الشقاق البعيد.

وقسم منهم الجاهلون فهم قد يذكرون وقد يتركون منهم من يتابع أهل ملّته بلا بصيرة ومنهم من لا يريد المتابعة وإنما يفعل بحالِ ما يجري على خاطره حال الصلاة والله سبحانه يقول (كُلٌّ يَعْمَلُ عَلى شاكِلَتِهِ).

وقوله عليه السلام (وسلم تسليما كثيراً) على ما سلكه الأوّلون، ويحتمل أن يكون قوله كثيراً مُرجِّحاً لإرادة الظاهر، وهذا الاحتمال هو الذي أفاده لفظ كثيراً، ويمكن أن يقال إنّه إنّما أراد الباطن أو المعنى الأعم ليدخل الباطن فيه لأن الباطن هو

الأهم عنده، وإنّما قال كثيراً تَعْمِيةً لأجل التقيّة وإرادة المعنى الأعم ليدخل الكل، والإتيان بقوله كثيراً للتقية قريبةٌ والله سبحانه أعلم.

وقوله عليه السلام (وحَسبنا الله) يُرادُ منه أنّه تعالى كافينا فإنّه يكفي من توكّل عليه وقد توكلّنا عليه فيما سألناه بحقهم عليهم السلام من أن يُدْخِلَنا في جملة العارفين بحقهم وفي زمرة المرحومين بشفاعتهم أو في هذا وفي سؤالهم صلّى عليهم أنْ يشفعوا لنا عند الله تعالى في استيهاب ذنوبنا منه عز وجلّ وتوكّلنا على الله سبحانه في أن يرزقنا قبولهم عليهم السلام لسُؤَالِنا والإجابة لدعائنا والإنجاح لطلبتِنَا أو في الجميع وفي قبول زيارتنا وما أمّلنا منه تعالى ثم منهم من حسن الجزاء في الآخرة والدنيا، أو الأعم مما ذكرنا انقطاعاً وتفويضاً إليه تعالى ليكفينا مؤنة كلّ أمرٍ مرهوب ويُنيلنا كلّ أمرٍ مرغوب ويوصلنا بفضله إلى كلّ أمرٍ محبوب فإنه الكافي ج لمن توكّل عليه.

وقوله عليه السلام (ونعم الوكيل) أي نعم المعتمد الذي تُوكَلُ إليه الأمور أثنى عليه تعالى بما اعتمد فيه عليه وفوّض أمره إليه وهو كلّ شيء منه ومن غيبه وشهادته ومِنْ أحْواله واعتقاداته وأقواله وأعماله وجميع مطالبه في الدارين وما انتظم عليه أحوال النشأتين فإنه في وجهه إلى الله تعالى عند قوله (وحسبنا الله) خلع جميع وجوداته من وُجْدَانِه فلمّا خلعها من وجدانه توكل عليه، أقام النظر إليه بعين الرجاء منه والانقطاع إليه مقام ما خلع ومن يتوكّل على الله فهو حسبه.

وفي معاني الأخبار بسند مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال يعني محمد بن خالد البرقي قَالَ (جَاءَ جَبْرَئِيلُ فَقَالَ يَا رَسُولَ الله إِنَّ الله أَرْسَلَنِي إِلَيْكَ بِهَدِيَّةٍ لَمْ يُعْطِهَا أَحَداً قَبْلَكَ قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم مَا هِيَ قَالَ الصَّبْرُ وَأَحْسَنُ مِنْهُ قَالَ وَمَا هُوَ قَالَ الرِّضَا

وَأَحْسَنُ مِنْهُ قَالَ وَمَا هُوَ قَالَ الزُّهْدُ وَأَحْسَنُ مِنْهُ قَالَ وَمَا هُوَ قَالَ الإِخْلاصُ وَأَحْسَنُ مِنْهُ قَالَ وَمَا هُوَ قَالَ الْيَقِينُ وَأَحْسَنُ مِنْهُ قُلْتُ وَمَا هُوَ يَا جِبْرَئِيلُ قَالَ إِنَّ مَدْرَجَةَ ذَلِكَ التَّوَكُّلُ عَلَى اللهِ عَزَّ وجَلَّ فَقُلْتُ وَمَا التَّوَكُّلُ عَلَى اللهِ قَالَ الْعِلْمُ بِأَنَّ الْمَخْلُوقَ لا يَضُرُّ وَلا يَنْفَعُ وَلا يُعْطِي وَلا يَمْنَعُ وَاسْتِعْمَالُ الْيَأْسِ مِنَ الْخَلْقِ فَإِذَا كَانَ الْعَبْدُ كَذَلِكَ لا يَعْمَلُ لأَحَدٍ سِوَى اللهِ وَلَمْ يَرْجُ وَلَمْ يَخَفْ سِوَى اللهِ وَلَمْ يَطْمَعْ فِي أَحَدٍ سِوَى اللهِ فَهَذَا هُوَ التَّوَكُّلُ قُلْتُ يَا جِبْرَئِيلُ فَمَا تَفْسِيرُ الصَّبْرِ قَالَ تَصْبِرُ فِي الضَّرَّاءِ كَمَا تَصْبِرُ فِي السَّرَّاءِ وَفِي الْفَاقَةِ كَمَا تَصْبِرُ فِي الْغِنَى وَفِي الْبَلاءِ كَمَا تَصْبِرُ فِي الْعَافِيَةِ فَلا يَشْكُو حَالَهُ عِنْدَ الْمَخْلُوقِ بِمَا يُصِيبُهُ مِنَ الْبَلاءِ قُلْتُ فَمَا تَفْسِيرُ الْقَنَاعَةِ قَالَ يَقْنَعُ بِمَا يُصِيبُ مِنَ الدُّنْيَا يَقْنَعُ بِالْقَلِيلِ وَيَشْكُرُ الْيَسِيرَ قُلْتُ فَمَا تَفْسِيرُ الرِّضَا قَالَ الرَّاضِي لا يَسْخَطُ عَلَى سَيِّدِهِ أَصَابَ مِنَ الدُّنْيَا أَمْ لا يُصِيبُ مِنْهَا وَلا يَرْضَى لِنَفْسِهِ بِالْيَسِيرِ مِنَ الْعَمَلِ قُلْتُ يَا جِبْرَئِيلُ فَمَا تَفْسِيرُ الزُّهْدِ قَالَ يُحِبُّ مَنْ يُحِبُّ خَالِقَهُ وَيُبْغِضُ مَنْ يُبْغِضُ خَالِقَهُ وَيَتَحَرَّجُ مِنْ حَلالِ الدُّنْيَا وَلا يَلْتَفِتُ إِلَى حَرَامِهَا فَإِنَّ حَلالَهَا حِسَابٌ وَحَرَامَهَا عِقَابٌ وَيَرْحَمُ جَمِيعَ الْمُسْلِمِينَ كَمَا يَرْحَمُ نَفْسَهُ وَيَتَحَرَّجُ مِنَ الْكَلامِ كَمَا يَتَحَرَّجُ مِنَ الْمَيْتَةِ الَّتِي قَدِ اشْتَدَّ نَتْنُهَا وَيَتَحَرَّجُ عَنْ حُطَامِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا كَمَا يَتَجَنَّبُ النَّارَ أَنْ يَغْشَاهَا وَأَنْ يُقَصِّرَ أَمَلَهُ وَكَانَ بَيْنَ عَيْنَيْهِ أَجَلُهُ قُلْتُ يَا جِبْرَئِيلُ فَمَا تَفْسِيرُ الإِخْلاصِ قَالَ الْمُخْلِصُ الَّذِي لا يَسْأَلُ النَّاسَ شَيْئاً حَتَّى يَجِدَ وَإِذَا وَجَدَ رَضِيَ وَإِذَا بَقِيَ عِنْدَهُ شَيْءٌ أَعْطَاهُ فِي اللهِ فَإِنْ لَمْ يَسْأَلِ الْمَخْلُوقَ فَقَدْ أَقَرَّ للهِ بِالْعُبُودِيَّةِ وَإِذَا وَجَدَ فَرَضِيَ فَهُوَ عَنِ اللهِ رَاضٍ وَاللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَنْهُ رَاضٍ وَإِذَا أَعْطَى للهِ عَزَّ وَجَلَّ فَهُوَ عَلَى حَدِّ الثِّقَةِ بِرَبِّهِ قُلْتُ فَمَا تَفْسِيرُ الْيَقِينِ قَالَ الْمُؤْمِنُ يَعْمَلُ للهِ كَأَنَّهُ يَرَاهُ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ يَرَى اللهَ فَإِنَّ اللهَ يَرَاهُ وَأَنْ يَعْلَمَ

يَقِيناً أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ وَهَذَا كُلُّهُ أَغْصَانُ التَّوَكُّلِ وَمَدْرَجَةُ الزُّهْدِ) انتهى.

وليكن هذا الحديث الشريف ختاماً لهذا الشرح يكون ختامه مسكاً نفعنا الله تعالى ببركة الأئمة الطاهرين صلى الله عليهم أجمعين ونفع الله به طالبي اليقين من المؤمنين في الدين ونوّر الله به قلوب العارفين بعين القين وجلى به أفئدتهم بحق اليقين بحرمة محمد الأمين وآله الميامين إنه أكرم المتفضلين وأرحم الراحمين والحمد لله رب العالمين ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم وصلّى الله على محمد وآله الطاهرين.

وقد وقع الفراغ من تسويده بيد مؤلّفة العبد المسكين أحمد بن زين الدين بن إبراهيم بن صقر بن إبراهيم بن داغر المطيرفي الاحسائي تجاوز الله عنهم أجمعين في الليلة العاشرة من شهر ربيع الأول سنة ثلاثين ومائتين وألف من الهجرة النبوية على مهاجِرها وآله أفضل الصلاة والسلام حامداً مصلياً مستغفراً.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.

أما بعد، فيقول العبد المسكين أحمد بن زين الدين الأحسائي إنّي لما فرغت من هذا الشرح للزيارة الجامعة الكبيرة أحببتُ أن ألحقه بشرح الوداع الملحق بها في الرواية فإنّه خاص بها وإن جاز استعماله بعد غيرها من الزيارات والله سبحانه خير

موفق ومعين.

قال عليه السلام فإذا أردت الإنصراف.

قال الشارح المجلسي رحمه الله إذا أردت الإنصراف إلى البلد أو مطلق الخروج وهو أولى انتهى.

أقول: الأولى استعمال الوداع إذا أراد الانصراف من البلد لأنّه هو المتعارف والمعروف من طريقة الشيعة علماً وعملاً بل ربما كان التّوديع بعد الزيارة أوّل النَّهار وهو يريد أنّ يعود إليه آخر النهار لزيارته مثلاً من سُوء الأدب، وإن كان يجوز بملاحظة كراهة المفارقة وإرادة الملازمة لقبره الشريف فيشبه نفسه عند ترك الملازمة ولو لقضاء الحاجة بالمفارق بالخروج من البلد إلى البلد النائية فيودّعه عليه السلام إشعاراً بالمحبة لملازمة قبره الشريف، إلاّ أن هذا غير مأنوس عند الشيعة ولا مأثورٍ في الشريعة فيما أعلم والله سبحانه أعلم.

فالمراد بالانصراف المذكور الذي يقع الوداع قبله هو الإنصراف إلى بلد الزائر إذا كانت غير بلاد الإمام عليه السلام وإن كانت قريبة من بلده بشرط أن تكون مغايرة للبلد التي هي محل قبره صلوات الله عليه.

قال عليه السلام فقل السلامُ عليكم سلام مودّع لا سئِم ولا قال ولا مالٍّ

أي الله حافظٌ عليكم، يعني يحفظ لكم فيكم ما أنعم به عليكم من التقريب لكم والعلوم التي أفاض عليكم وما أتاكم من الشفاعة المطلقة العامّة والوسيلة

والمقام والمرتبة والشرف والتّنويه بهم ورفع الدرجات ما لم يؤتِ أحداً من العالمين.

فمعنى يحفظ لكم أنّه تعالى يَدخِرُه لكم ومعنى يحفظ عليكم أنّه تعالى يُلحِقكم بما أراد لكم من النِّعَم والخيرات حتى يجعلها لازمةً لكم ويحفظها لكم فيكم فالحفظ المُعَدّى باللاَّم بمعنَى الإدّخار والمُعَدّى بِعلى بمعنى الالصاق بهم حقيقةً أو حكماً ويحفظ ذلك بهم يعني يحفظه بواسطتهم كما يحفظ الصباغ الحمرة للثوب به فيه.

ولمّا كان الموجود في النّفوس والأوهام أن الشيء ما دامَ الإنسان حاضراً عنده مشاهِداً له لا يخاف عليه الفوات كما يخاف عليه لوْ أراد مفارقته وإن كان يعتقد أنّه لا يملك له من الله شيئاً ناسَبَ تجديد الدعاء بالحفظ لهم بعدما دَعَا لهم عندَ أوّلِ قلومه عليهم لأنّ الأول تحِيّةٌ لهم وبعد المفارقة محاذرة عليهم فقال هذا السلام الثّاني ليس تحيّة لكم كما فعلتُ لكم أوّل قلومي بل هو سلام مودعٍّ مفارق يخاف من إشفاقه عليكم التّغيير ولو فيما يتعلّق باتباعكم في شيء من نعمه تعالىً عليهم كان فواقهَ لكم لقدرٍ جرى عليه بما كتب فيه عليه من اللواعي الضروريّة التي أغلبها موجب عندكم وفي دينكم للفراق لأن تركه مخالفٌ لأمر الله الذي به تحكمون.

(لا سَئِم) من باب تعِب على وزن فرِح (بكسر الراء) بمعنى الملال، والفترة يعني ليس سلامي عليكم سلامَ مودعّ لكم لأجلِ سأمةٍ وملالٍ من الحضور عندكم والملازمة لقبوركم ولا فترةٍ عوضت لي لأنها إنّما ترد لفترة لضعف الباعِثِ، وأمّا إذا كان الباعِثُ قوِّيا فلا تحصل معه فترة فوِداعي لكم ليس عن ملالٍ ولا فترة وليس سلام قالٍ أي مبغضٍ لكم محبّ لمفارقتكم ولا مَالٍّ بتشديد اللام اسم فاعل من ملل، أي ليس سلامي عليكم سلام مالّ ضجرٍ من الإقامة بمشاهدكم وحضور قبوركم وإنّما سلامي عليكم سلام مودّع لكم مفارق بالرغم منّي غير محبٍّ للبعد

عنكم والمفارقة لقبوركم وحضراتكم.

قال عليه السلام ورحمة الله وبركاته عليكم يا أهل بيت النبوّة إنّه حميد مجيد.

أقول: قد تقدّم في شرح الزيّارة بيان رحمة الله وبركاته وإنّما قال هذا لأنه الْتفَت إلى ما في الآية الشّريفة الّتي في حقّ إبراهيم وسارة وإنّ ما ذكر من الدّعاءِ بالرحمة فظاهره قُصِدَ به إبراهيم وسارة، وباطنُه قُصِدَ به آل محمّدٍ صلوات الله عليهم فذكر هذا الكلام لمن هو في حقّهم على الحقيقة لأنّ الرحمة التي هي علّة الإيجاد وبها حياة القلوب وصلاح الظاهر والباطن إنّما قامت بمحمد وآله صلى الله عليه وآله وسلم فهم محلّها وخزائنها وأبوابها ومفاتِحُهَا ومصادرُها والذين يقسمونها بين العباد بإذن الله تعالى، وبعبارةٍ أُخرى والله سبحانه يقسمُها بين عباده بهم عليهم السلام ، فإذا أراد أنْ ينشرها بيْنَ أحدٍ من خلقه نشرها بهم ولم ينشر منها ما بَسَطهُ عليهم صلَّى الله عليهم ولا بدونهم وإنّما ينشر منها بهم ما كان من أثر ما بَسَطهُ عليهم فينشر تلك الآثار على من يشاء مِنْ عباده فيحي الموتى بها، فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحي الأرض بعد موتها وقال تعالى (وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ)فالله هو الوليّ وهو يحي الموتى واتّخذ وليّاً من العزّ والتكرّم فهو بإذنه ينشر تلك الآثار على من يشاء الملك الجبّار وهم بأمره يعملون واشتقّ له اسماً من اسمه فالله المحمود وهو محمد صلى الله عليه وآله وسلم أي كثير المحامد وهو الوليّ الحميد واتّخذ من بعده وليّاً من العزّ والتكرّم واشتقّ له اسماً من اسمه فالله الأعلى وهو عليٌّ عليه السلام ، فالرّحمة عليهم وآثارُها نشرها بهم على من يشاء من عباده ومنهم إبراهيم وآل إبراهيم في الظاهر يعني به ما في ظاهر الآية وهو قوله (رَحْمَتُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ) ، وقبل هذا قالُوا (قالُوا أَ تَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ رَحْمَتُ اللهِ) إلخ ، فالخِطاب في الاستفهام لسارة والدعاء عام شاملٌ لإبراهيم

وأهل بيته دخل الموجود بالخطاب ومن لم يوجد بالتبعيّة يعني يبقى الدعاء في الموجودين فإذا وُجد من بعدهم دخل

في الدّعاء كما في دعاء إبراهيم عليه السلام في قوله (رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي)هذا في ظاهر الدُّعاء والمُراد بباطنه محمّد وآله صلى الله عليه وآله وسلم وهم آل إبراهيم وكلامه عليه السلام هذا الذي نحن بصدده حكاية لقول جبرائيل وميكائيل وكُروبيل فإنّهم أرادوا بالقصد المعنوي محمّداً وأهل بيته صلى الله عليه وآله وسلم فحكى قولهم وَعَنَى ما عَنوا وَرُبّما يُشيرُ إليه قولهم عليهم السلام في تفسير هذه الآية في معاني الأخبار أن الصادق عليه السلام (سلم على رجل فقال الرجل وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ومغفرته ورضوانه فقال لا تجاوزوا بنا قول الملائكة لأبينا إبراهيم عليه السلام رَحْمَتُ الله وَ بَرَكاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ) .

ويقرب منه ما في الكافي وتفسير العيّاشي وهذا وإن كان ظاهره (أنّ الملائكة إنما سلّموا على أهل بيت إبراهيم عليه السلام وأن قولهم عليهم السلام لا تجاوزوا بنا... الخ) ظاهر معناه (لا تجاوزوا بنا أي لا تزيدونا في دعائكم على دعاء الملائكة لإبراهيم عليه السلام وآل إبراهيم) إلاّ أن الأخبار متواترة معنى بأن آل إبراهيم في التأويل وفي الباطن محمد وآله صلى الله عليه وآله وسلم وأنّهم المَعْنيّون بالقصد الحقيقي بدعاء الملائكة وأنّ إبراهيم وآله إنّما دخلُوا في هذا الدّعاء وفي كل خيرٍ بالتبعيّة، وأنّ من المراد من قولهم عليه السلام (لا تجاوزوا بنا إلى آخره) إنّكم لا تزيدوا في دعائكم على ما قالتْه الملائِكةُ لأبينا إبراهيم في دعائهم لنا، فإن الأَوْلى لكم أنْ تقتصِرُوا في دُعائكم لنا على دعاء الملائِكة لنا في خطابهم إبراهيم وأهل بيته ولا تزيدوا على ما قالوا فإنكم لا تعلمون ما الحكمة في قولهم.

والبركات جمع بركة وهو زيادة الخير والمنفعة ودوام المدد فيما يتعلّق بالإيجاد والاعتقاد والأعمال والأقوال والأحوال والأفعال الذّاتية والعرضية والنسبية في الذاتية والتبعيّة، ولما كانت الرحمة لا يخرج تأثيرها عن الحياة الظاهرة أو الباطنة

كالعلوم أفودها، والبركات لمّا كانت متكثّرة كزيادة الخير أي زيادة الأعيان وزيادة المنفعة ودوام المدد في الذوات والصفات وغير ذلك جمعها لتعدد متعلّقاتها.

وقوله (أهل البيت) يراد منه أهلُ بيت النبوة ليشمل الظاهر والتأويل كما أشرنا إليه.

وقوله عليه السلام (إنه حميد مجيد) (حميد) فاعل ما يستوجب عليه الحمد، ومجيد كثير الخير والإحسان، وذكر حميد هنا من دُون أسمائه تنبيه على أن مفيض الرحمة الواسعة التي منها كل خير حميد يستحقّ من جميع عباده الحمد الدائم بدوام بقائه، وإنّ معطي الخيرات الكثيرة التي لا تتناهى والمبتدئ بالجميل والإحسان الذي لا ينقطع ولا يتناهى (مجيد) يستحق بنعمه الشكر على جميل العطاء وجزيل النّعماء ومن حيث ظهوره بهذين الاسمين وقبولهم لجميع فيوضاته استحقّوا نشر الرحمة والبركات عليهم.

وقال الشارح المجلسي رحمه الله إنّه حميد مجيد أي لأجل أنْ جعلكم أهل بيت النبوّة أو للسلام والرحمة والبركة انتهى، وهو كما قال رحمه الله .

قال عليه السلام سلام وليّ لكم غير راغب عنكم ولا مستبدلٍ بكم

ولا مؤثرٍ عليكم ولا منحرفٍ عنكم ولا زاهد في قربكم.

قال الشارح المجلسي رحمه الله ولا مستبدلٍ بكم أي لا أجعل لكم بدلاً عقداً أو اتّباعاً ولا مؤثر (بالهمزة) أي لا أختار غيركم عليكم ولا زاهدٍ أي تارك لعدم الرغبة انتهى.

أقول: يعني أن سلامي عليكم سلامَ وليّ لا سلام قالٍ ولا سَئِم ولا مالٍّ، يعني أنّ المودّع إذا كان وليّاً كان سلامه للتوديع لما قدر عليه لا عن سئم ولا قلاً ولا مللٍ،

ثم استشعر أنّ ممن يصدق عليه اسم الولي ما تعرض له تلك الصفات المنافية للرغبة فأبان عن حال اعتقاده وما يجد في نفسه (غير راغبٍ عنكم) إلى شيء (ولا مُسْتبَدِلٍ بكم) أحداً سواكم (ولا مُوثرٍ عليكم) غيركم (ولا منحرفٍ عنكم) مَنْ سِوَاكم (ولا زَاهدٍ في قربكم) إلى قرب أحدٍ غيركم أوْ إلى مطلب لا يرضيكم وهذا مِنْهُ احْترازٌ عَنْ وَلي يقع منه أحد هذه الأمُور، وإنْ كان بظاهرِه دون باطنِه بأنْ يَميلَ إلى بعْضِ الظّلَمةِ وبَعْضِ أعدائهم لِغَرَض من أغراض الدُّنْيَا وإنْ كان قلبه معهم عليه السلام ولكن هذا في الغالِبِ يكون دينُهُ ناقصاً، ولأنه قدْ يُوَدعّ ويُسَلم عليهم سَلامَ راغبٍ عنهم إلى حاجته ومُسْتبدِل بهم غيرهم لبعضِ أغْراضِه أوْ مُوثرٍ كذلك أوْ منحرفٍ عنهم أو زاهدٍ في قربهم، كما وَجَدْنا كثيراً من المحبّين ربّما يكون منزلُه قريباً منهم من قبورهم ومشاهدهم ولا يأتي لزيارتهم أو يأتي نادِراً وربما يكون الشخص منهم حسن الاعتقاد والمعرفة ولكنه لا يقدر على مفارقةِ أهله وأمواله أويصعب عليه السفر والتنقل ويحبّ الرّاحة أوْ يخافُ على مالِه من صرفه في غير معيشته، وكل هؤلاء من سائر المؤثرين عليهم والزّاهدين في قربهم، وإن كان أكثر هؤلاء يؤول أمرُهم إلى الخير وتتداركهم الرّحمة ما لم يكن ما وقع منه من قلبه واعْتِقادِه أوْ عنْ شَكٍّ منه فإنّ غالب هؤلاء يؤُول أمرُهم إلى سوء العاقبة نعوذ بالله من سخط الله.

قال عليه السلام لا جعله الله آخر العهد من زيارة قبوركم وإتيان مشاهدكم.

هذا دعاء منه بأن يرزقَهُ زيارتهم أبداً فإن قال ذلك عازماً على المعاودة أبداً ما دام حيّاً فإنّ الله تعالى يقبل منه دعاءهُ لأنه أمر الزائرين على ألْسِنَةِ أوليائه بذلك فإن علم الله صلاحه في ذلك وفّقه لذلك ما دامَ رزقه لم ينفد من اللوح المحفوظ، وقد يبقى

رزقه ولا يكون دوام الزيارة صلاحاً لهُ فيمنع منها ويكتب له ثواب نيّتهِ، وكذلك إذا انتهى رزقه وانقضت مدّته فإنّ الله بكرمه يكتب له ثواب ما نواه لأنّ زيارة الإمام عليه السلام تزيد في العمر وفي الرّزق، ففي كامل الزيارة لجعفر بن محمد بن قولويه بسنده إلى مُحَمَّدِ بْنِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام قَالَ (مُرُوا شِيعَتَنَا بِزِيَارَةِ قَبْرِ الْحُسَيْنِ عليه السلام فَإِنَّ إِتْيَانَهُ يَزِيدُ فِي الرِّزْقِ وَيَمُدُّ فِي الْعُمُرِ وَيَدْفَعُ مَدَافِعَ السَّوْءِ وَإِتْيَانُهُ مَفْرُوضٌ عَلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ يُقِرُّ لِلْحُسَيْنِ عليه السلام بِالإِمَامَةِ مِنَ اللهِ) .

وفيه بسنده عَنْ مَنْصُورِ بْنِ حَازِمٍ قَالَ (سَمِعْتُهُ يَقُولُ مَنْ أَتَى عَلَيْهِ حَوْلٌ لَمْ يَأْتِ قَبْرَ الْحُسَيْنِ عليه السلام نَقَصَ اللهُ مِنْ عُمُرِهِ حَوْلًا وَلَوْ قُلْتُ إِنَّ أَحَدَكُمْ يَمُوتُ قَبْلَ أَجَلِهِ بِثَلاثِينَ سَنَةً لَكُنْتُ صَادِقاً وَذَلِكَ أَنَّكُمْ تَتْرُكُونَ زِيَارَتَهُ فَلا تَدَعُوهَا يَمُدُّ اللهُ فِي أَعْمَارِكُمْ وَيَزِيدُ فِي أَرْزَاقِكُمْ وَإِذَا تَرَكْتُمْ زِيَارَتَهُ نَقَصَ اللهُ مِنْ أَعْمَارِكُمْ وَأَرْزَاقِكُمْ فَتَنَافَسُوا فِي زِيَارَتِهِ وَلا تَدَعُوا ذَلِكَ فَإِنَّ الْحُسَيْنَ بْنَ عَلِيٍّ عليه السلام شَاهِدٌ لَكُمْ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى وَعِنْدَ رَسُولِهِ صلى الله عليه وآله وسلم وَعِنْدَ عَلِيٍّ وَعِنْدَ فَاطِمَةَ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ) انتهـى.

والزيادة فيهما على حسب مصلحة الزائر فربّما يزور الحسين عليه السلام ويموتُ وذلك لأنّه ربما علم الله أن رزقه انقطع وانتهى أجله فلما عزم على زيارته عليه السلام مد الله تعالى فيهما له على حسب مصلحة العبد، فقد يكونان إلى أثناء الطّريق وقدْ يكونان إلى أن يصل أو قبلهما أو بعدهما، وفي جميع الأحوال يكتب له ثواب نيّته إن عزم على مرّة أوْ مرّاتٍ أوْ أبداً ما حيا، ومن ترك زيارته نقص من عمره ورزقه، فإذا وجدتَ تاركاً لزيارته وعمره طويل ورزقه كثير، فهو إمّا أن يكون المكتوب له في اللوح بحسب مقتضى خلقته كثيراً في الرزق طويلاً في العمر وهو ما قال تعالى في كتابه (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ) وهذا

النصيب هو المكتوب لهم بمقتضى الكون.

وأمّا ما يحتمل الزيادة والنقصان فيهما فهو ما كان بمقتضى الأعمال وزيارته عليه السلام من أعظم الأعمال المقتضية لذلك ولو زاره عليه السلام هذا لطال عمره وزاد رزقه أعظم منه حين ترك.

وإمّا أنْ يكون قد عمل بعض الأعمال الصالحة الموجبة لزيادتهما كصلة الأرحام مَثَلاً وربّما يكون تركه لزيارته عليه السلام لعذرٍ فلا يكون موجباً للنقص فيهما، وأمّا أن يكونَ إنّما ترك لعُذْرٍ وإنْ لم يطّلع عليه غيره من الناس وأمثال ذلك.

وهذا الذي ذكرناه من أنّ زيارة الحسين عليه السلام كذلك لم يكن مختصّاً به بحيث لا تكون زيارة غيره من الأئمة عليهم السلام بل كلّما جرى لأوّلهم يجري لآخرهم، وقد ورد في زيارة الرضا عليه السلام ما يقرب من ذلك، نعم إنّما الأسباب الخارجة لها في شأنهم عليهم السلام تأثير بزيادة الأجْر والجزاء وتفاوتهم في الزيادة لا يستلزم النفي لأنّ الأصل التساوي فافهم.

قال عليه السلام والسّلام عليكم وحشرني الله في زمرتكم وأوردني حوضكم وجعلني في حزبكم وأرضاكم عني.

أقول: قد تقدم في الزّيارة سؤال الزائر من الله تعالى أن يدخله في زمرة المرحومين بشفاعتهم وهنا قال عليه السلام في تعليم هذا الزائر عند توديعهم أن يدعُو الله تعالى أن يحشره في زمرتهم، ولعلّ الاختلاف لفظي لأنّ من دخل في زمرة المرحومين بشفاعتهم فقد حشره الله معهم، ويجوز أن يكون من المراد أنّ يوم القيامة يُدْعا فيه كل أناسٍ بإمامهم فتقدم راية وليّ الله عليه السلام ومعه أهل ولايته والبراءة من أعدائه من

أهل زمانه فكلّ إمام منهم عليه السلام كذلك ، وتأتي رايات أعدائهم كلّ إمام ضلالةٍ مع أتباعه من أهل زمانه فعلمه أن يسأل الله أن يحشره في زمرتهم يعني مع إمامِ زمانه عليه السلام ويجوز أنْ يكون المراد أن يجعل له مِنبراً بحذاء منابرهم يوم القيامة ما دام الخلائق في الحساب، فإذا جعل في زمرة المرحومين بشفاعتهم جعل الله تعالى له ببركتهم منبراً يجلس عليه بحذاء منابرهم إلى أن يفرغ الخلائق مِن الحِسَاب ولا منافاة.

وروى جعفر بن محمد بن قولويه في كامل الزيارة عن عَلِيِّ بْنِ إِبْرَاهِيمَ قَالَ (قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام مَنْ زَارَ قَبْرَ أَبِي بِطُوسَ غَفَرَ الله لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ قَالَ فَحَجَجْتُ بَعْدَ الزِّيَارَةِ فَلَقِيتُ أَيُّوبَ بْنَ نُوحٍ فَقَالَ لِي قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام مَنْ زَارَ قَبْرَ أَبِي بِطُوسَ غَفَرَ الله لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ وَبَنَى لَهُ مِنْبَراً حِذَاءَ مِنْبَرِ مُحَمَّدٍ وَعَلِيٍّ عليهما السلام حَتَّى يَفْرُغَ الله مِنْ حِسَابِ الْخَلائِقِ فَرَأَيْتُ بَعْدَ ذَلِكَ أَيُّوبَ بْنَ نُوحٍ وَقَدْ زَارَ فَقَالَ جِئْتُ أَطْلُبُ الْمِنْبَرَ)انتهى.

وفيه بسنده إلى يحيى بن سليمان المازني عن أبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام قال (من زار قبر ولدي كان له عند الله سبعين حجة مبرورة قال قلت سبعين حجة قال نعم وسبعمائة حجة قلت سبعمائة حجة قال نعم وسبعين ألف حجة قلت وسبعين ألف حجة قال نعم ورب حجة لا تقبل من زاره وبات عنده ليلة كان كمن زار الله في عرشه قلت كمن زار الله في عرشه قال نعم إذا كان يوم القيامة كان على عرش الله أربعة من الأولين وأربعة من الآخرين أما الأربعة الذين هم من الأولين فنوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام وأما الأربعة الذين هم من الآخرين فمحمد وعلي والحسن والحسين صلوات الله عليهم أجمعين ثم يمد المضمار فيقعد معنا من زار قبور الأئمة عليهم السلام إلا أن أعلاهم درجة وأقربهم حبوة من زار قبر ولدي

علي)انتهــى.

وفيه في حديث إبراهيم بن رئاب مثله.

أقول: في الحديث الثاني ما يقرب في الاستشهاد من الأول وفيه زيادة إشارة لما أشرنا قبل هذا أنّ ما جرى لأوّلهم يجري لآخرهم، وإنما الأسباب الخارجة لها في شأنهم صلى الله عليهم تأثير بزيادة الأجر والجزاء وهو قوله عليه السلام فيقعد معنا من زار قبور الأئمة عليهم السلام إلاّ أنّ أعلاهم درجةً وأقربهم حبوة زوّار قبر ولدي عليّ صلّى الله عليه وذلك لأجل غربته وبعد مشهده عليه السلام عن مشاهدهم عليهم السلام وأنّه لا يزوره إلاّ الخواصّ من الشيعة لأنّ غيره من الأئمة عليهم السلام يزورهُ غير الشيعة ويزوره غير الخواصّ لأجل زيارة غير الشيعة له.

إمّا لأنّ غير الخواصّ لا يزورونه خوفاً أن يعيب عليهم أعداؤهم فإذا رأوا أعداءهم زاروه زاروه هم ولو لم يزره الأعداء لم يزره بعض غير الخواص خوف العيب بخلاف زيارة الرضا عليه السلام فإنّه لا يزوره إلاّ من لا يبالي بعَيْب الأعداء فهم إذ ذاك خواصّ وإن كان جهّالاً وليس المراد بالخواصّ الخواص في غير الموضع لأن المراد بهم هناك العارفون وأهل البصيرة في الدين فتفهم.

وأمّا لعدم شدة رغبتهم ومَنْ سوى الرضا عليه السلام من الأئمة عليهم السلام قريبون منهم فلا تشقّ عليهم زيارتهم لقرب مشاهدهم عليهم السلام منهم فيزورونهم، وأمّا الرضا عليه السلام فلبُعْدِ مشهده عنهم تكون في زيارته مشقَّةٌ شديدة فالخواص يتحمّلونها وأمّا غيرهم فلا يتحملونها لعدم شدّة رغبتهم وهذان الوجهان باعتبار الزّائرين.

وإما باعتبار حال المزور عليه السلام فإنّه كان نائِياً عن مسقط رأسه ومأنسِ نفسِه غريباً من أهله وأقربائه منفرداً من بين سائر أهل بيته، وهذه الأحوال وأمثالها موجبة

لخمول الذكر ونسيان الاسم وإطْفاءِ النّور فلو كان فضل زيارته كفضل زيارة غيره من الأئمة عليهم السلام لكانت زيارته ناقصةً عن زيارة أحدهم، وإنّما ساوَتْها بما اشتملت عليه من المشاقّ من البعد وقلّة الزائرين وغربة المزور وأمثال ذلك فتكون في أصلها ناقصةَ عن زيارة مثله، ويلزم من هذا عدمُ المماثلة بل يكون في نفسه عليه السلام ناقصاً عن أحدهم عليهم السلام ، فلمّا ثبت أنّهم سواء ثبت أنّ أصل زيارتهم سواء ولمّا اشتملت زيارته عليه السلام على مزايا لم تحصل لغيرها خصوصاً هذا الوجه الأخير وهو كونه عليه السلام غريباً وحيداً بعيداً عن مسقط رأسه وعن مساكن آبائه وقبره بعيداً عن قبورهم عليهم السلام .

والحال أنّ هذه وأمثالها موجبة لتصغير قدره وخمول ذكره وإطفاء نوره ومساواته لسائر الناس والحكمة التي أجرى الله سبحانه عليها النّظام ولأجلها خلق الأنام، وبسببها أسبغ على جميع خلقه الإنعام والإفْضال والإكرام مقتضاها الذي لا تكون الحكمة حكمة إلاّ به على كمال ما ينبغي أنْ يكون قدره عليه السلام كبيراً وذكره مشهوراً ونوره تامّاً مُنيراً لا يعدله أحدٌ من الناس ولا يعتري فضله وظهور شأنه وعلوّ مكانه التباس، فوجب في الحكمةِ أنْ يَلْطُفَ سبحانه بعباده فيما يتوقّف عليه صَلاحُهُمْ وتمام نظام الخلقِ من إظهارِ اسْمِه عليه السلام وإعلاء شأنه والتنويه باسمه فأوجب ذلك الحَثَّ على زيارته والترغيب فيها بما لا يحصل في غيرها لأنّ في ذلك ترغيب الزائرين بكثرة الثواب بأن زيارته عليه السلام يغفر الله بها ما تقدّم من ذنب الزائر وما تأخّر، ويبني الله له منبراً يوم القيامة بحذاء منبر محمد وعلي صلى الله عليهما وآلهما وأنه يجلس عليه بجوارهما عليهما السلام حتى يفرغ سبحانه من حساب الخلائق، وإنّ زيارته تعدل سبعين ألف حجة وعمرة أو مائة ألف حجة وعمرة وما أشبه ذلك، لأنّ الحكمة الإلهيّة

التي يستقيم بها النظام تقتضي ذلك جبراً لما جرى عليه صلى الله عليه من الغربة والوحدة والبعد عن الأهل والأوطان وهذا الوجه لا يرد عليه شيء، وأما الوجهان فيرد عليهما.

أمّا الأوّل فيقال إنّه عليه السلام أيضاً قد يزوره غير الخواصّ ويجري في حقه ما يجري في حقّ باقي الأئمة عليهم السلام .

وأمّا الثاني فيُقال إنَّ مشهده الشريف قريب من كثير من الشيعة بحيث لا تشقّ زيارته عليهم وتشقّ عليهم زيارة الأئمة عليهم السلام فيكون الأمرُ بالعكس.

والجَوابُ أنّ الخطابات الشرعية العامّة مبنيّةٌ هي وما يترتّب عليهما من الجزاء على الأمور الغالبة والابتدائيّة فعلى الأمْر الأول الغالِب أنّ زُوَّار الرضا عليه السلام لا يكونون إلا الخواصّ من الشيعة والمحبّين بخلافِ غيره من الأئمّة عليهم السلام .

وعلى الأمر الثاني فلأن الخطاب إنّما جرى على من كان قريباً من الأئمة عليهم السلام بعيداً من الرضّا عليه السلام مع أنّ من كان قريباً من الشيعة من الرضا صلوات الله عليه في وقت الخطاب كان قليلاً وكونه الآن كثيراً لا يوجب انقلاب الحكم لأنّ الحكم نَزلَ من عند الله تعالى حين السؤال على حدِّ قوله تعالى (وَإِنْ تَسْئَلُوا عَنْها حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ)فأجْرَاها الله سبحانه سنته فيه عليه السلام (وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً) .

قوله عليه السلام (وأوردني حوضكم) إنْ أُريد به الحوض الباطني فهو هُداهم وهم عليهم السلام يوردون بإذن الله من شاؤوا ذلك الحوض من أوليائهم ويذودون من شاؤوا عنه بإذن الله تعالى وهو المشارُ إليه في كلام أمير المؤمنين عليه السلام الذي ذكرناه في شرح الزيارة في حديث أبي الطفيل قال (قلت يا أمير المؤمنين أخبرني عن حوض النبي صلى الله عليه وآله في الدنيا أم في الآخرة فقال بل في الدنيا قلت فمن الذائد عنه فقال أنا بيدي فليردنه أوليائي

وليصرفن عنه أعدائي)الحديث.

ومعروف عند من سقط إليه شيء من علومهم عليهم السلام أن هداهم ومذهبهم ودينهم هو حوض النبي صلى الله عليه وآله وسلم الذي من شَرِبَ منه شربةً لم يظمأ بعدَهُ أبداً وهو دينُ اللهِ الحق الذي لا يوجد إلاّ عندهم وهو ما اجتمع عليه محكم القرآن.

وقولهم (فإنّه هو الدّين ولا يخرجان عنه كما قال صلى الله عليه وآله وسلم (لَنْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ)انتهـى.

فهم يُورِدُون من شاؤوا بإذن الله تعالى وينودون عنه من شاؤوا بإذن الله تعالى فقوله (وأوردني حوضكم) مثل ما قلنا من نظيره في الشرح فهنا إن شئتَ قلتَ أوردني الله الحوض بهم، وإن شئتَ قلتَ أوردني الحوض بإذن الله تعالى، والمعنى واحد من حيث فائدة الإيجاد فعلى هذا يكون المعنى ثبّتني الله على دينكم ووفّقني للعمل الصالح الذي يرضي الله ويرضيكم حتّى أجد حلاوة الإيمان الّذي هو من ماء حوضكم ووفّقني للاستقامة عليه حتى لا أظمأ بعده.

(لا أظمأ) أي لا أُواقع ذنباً ولا أخرج من هديكم حتى يتوفاني الموت، وإن أريد به المعروف وهو الحوض الذي يظهر يوم القيامة وهو الذي يوردونَهُ أولياءهم ومحبيهم الذين يحشرون معهم في زمرتهم فإنّه سأل الله أن يحشره في زمرتهم يوم القيامة ويوردَهُ حوضهم كما حشَرَهُ في زمرتهم في الدنيا وأوردهم حوضهم في الدنيا.

ويفيد سؤاله الدعاء بالثبّات على ما وفّقه لمتابعتهم وولايتهم ومحبّتهم حتى يتوفّاه ليحشر في زمرتهم ويُورد حوضهم.

وفي كنز الكراجكي بسنده إلى أيّوب السجستاني قال (كنت أطوف فاستقبلني في الطواف أنس بن مالك فقال لي ألا أبشرك بما تفرح به فقلت بلى فقال كنت واقفا

بين يدي النبي صلى الله عليه وآله وسلم في مسجد المدينة وهو قاعد في الروضة فقال لي أسرع وأتني بعلي بن أبي طالب فذهبت فإذا علي وفاطمة عليهما السلام فقلت له إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم يدعوك فجاء علي عليه السلام فقال يا علي سلم على جبرئيل فقال علي عليه السلام السلام عليك يا جبرئيل فرد عليه جبرئيل السلام فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم جبرئيل يقول إن الله يقرأ عليك السلام ويقول طوبى لك ولشيعتك ومحبيك والويل ثم الويل لمبغضيك إذا كان يوم القيامة نادى مناد من بطنان العرش أين محمد وعلي فيزخ بكما إلى السماء حتى توقفان بين يدي الله فيقول لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم أورد عليا الحوض وهذا كأس أعطه حتى يسقي محبيه وشيعته ولا يسقي أحدا من مبغضيه ويأمر لمحبيه أن يحاسبوا حسابا يسيرا ويؤمر بهم إلى الجنة)انتهـى.

فقوله (حتى يسقي محبّيه وشيعته) يدل على أن ذلك لمن أتى يوم القيامة بمحبتِهم فلمّا علم ذلك سأل الله أن يورده حوضهم يعني أن يثبّته على ما وفّقه لمحبّتِهم وولايتهم فإنّه إذا أثبته على ذلك حتّى يموت فإنه تعالى يجب عليه في الحكمة، ولما رأى على نفسِه لشيعتهم ومحبّيهم أنْ يَحْشُرَهُ في زُمْرَتِهِمْ ويُورِدهُ حوضهم فيفيد قوله (وأن يحشرني في زُمرتكم وأن يُوردَني حَوْضَكم) أنّه يسأل ما يُوجب ذلك وهو الثّبات على ما وَفّقه له من محبتهم وولايتهم وطاعتهم ومتابعتهم.

وقوله عليه السلام (وجعلني في حزبكم وأرضاكم عنّي) يريد الدعاء بأن يجعلني معكم في حزْبكم في الآخرة كما جعلني في حزبكم في الدنيا فإنّه تعالى وله الحمد جعلني في الدنيا من محبيّكم ومواليكم فأسأله أن يثبتني على ذلك حتّى ألقاه محبّاً لكم موالياً لكم ولأوليائكم معادياً لأعدائِكم وأوليائهم وأكون في حزبكم وأسألُهُ أن يجعلكم راضين عنّي بأن يبلّغني ما يوجبُ رضاكم عنّي من طاعته وطاعتكم ويثبّتَني عليه

حتّى ألقاكم عني راضين فإنّه تعَالى ابتدأني بنعمة التوفيق لمحبتكم وولايتكم فلقديم الرجاء فيه وعظيم الطمع في كرمه وفضله ورحمته سألتُه ذلك وهو أرحم الراحمين فإنكم لا ترضون عنّي إلاّ لرضا الله ولا يرضا اللهُ تعالى إلاّ لرضاكم فرضاكم رضا اللهِ ورضا الله رضاكم اللهم بحقهم عليك ارض عنّي وبحقك عليهم إرضهم عني إنّك على كل شيء قدير.

قال عليه السلام ومكّنني في دولتكم وأحياني في رجعتكم وملّكني في أيامكم

يقول أسأل الله الّذي وعدكم ليسَتَخْلِفنكم في الأرض كما استخلف الّذين من قبلكم وليُمكنن لكم في الأرض بأن يجعلكم الوارثين للأرض والمالكين لها أنْ يمكّنني في دولتكم بأن يجعلني في وقت ملككم من المملّكين الممكنين بكم المقرّبين لديكم، وهذا كناية عن أن يجعله من شيعتهم الخُلَّصِ فإنّه إذا رجعوا ذهبت دولة أعدائهم وأشياع أعدائهم ورجع الأمر كلّه إلى محمّد وأهل بيته صلى الله عليه وآله وسلم ، ومن كان من شيعتهم كامل الإيمان مكّنوه فيما شاؤوا من الأرض وملّكوه منها ما أرادُوا وجعلوه مقدّماً بنسبة معرفته وإيمانه، فدعاؤهُ طلباً لرفع درجته عند الله وعندهم لأنّهم عليهم السلام إنّما يقدِّمون من تقدّم بعلمه وعمله ومعرفته.

وأمّا أعداؤهم فهم الذين عناهم الله بقوله (وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً) يعني من أعرض عنهم وعن ولايتهم فإنّ له معيشةً ضنكاً في رجعتهم عليهم السلام لأنّ الأرض لا تعطيه من نبتِها والتجارة لا تعطيه من ربحها ولا تحلّ له الزكاة ويبقى مهيناً محتقراً فقيراً جائعاً حتى روي أنّهم ليأكلون العَذَراتِ، وفي الكافي عن الصادق عليه السلام في قوله (وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً قَالَ يَعْنِي بِهِ وَلايَةَ

أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام قُلْتُ وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى قَالَ يَعْنِي أَعْمَى الْبَصَرِ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى الْقَلْبِ فِي الدُّنْيَا عَنْ وَلايَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام قَالَ وَهُوَ مُتَحَيِّرٌ فِي الْقِيَامَةِ يَقُولُ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً قالَ كَذلِكَ أَتَتْكَ آياتُنا فَنَسِيتَها قَالَ الآيَاتُ الأَئِمَّةُ عليهم السلام فَنَسِيتَها وَكَذلِكَ الْيَوْمَ تُنْسى يَعْنِي تَرَكْتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُتْرَكُ فِي النَّارِ كَمَا تَرَكْتَ الأَئِمَّةَ عليهم السلام فَلَمْ تُطِعْ أَمْرَهُمْ وَلَمْ تَسْمَعْ قَوْلَهُمْ) انتهـى.

وفي تفسير علي بن إبراهيم عن الصادق عليه السلام (أنّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً قال هي والله للنصاب قال جعلت فداك قد رأيناهم دهرهم الأطول في كفاية حتى ماتوا قال ذاك والله في الرجعة يأكلون العذرة) انتهـى.

وقوله عليه السلام (وأحياني في رجعتكم) سأل الله أن يَكِرَّهُ فيمن يكرّ معهم في رجعتهم وهو كناية عن توفيقه لأن يكون ممّن محض الإيمان محْضاً فإنّ من محض الإيمان محضاً ومحض الكفر والنفاق مَحْضاً فإنّه يرجع في رجعتهم إلاّ أنْ يَكُونَ مَحض الكفر والنِّفاقَ مَحْضاً وقد أُهلِكَ في الدُّنْيا بالعذاب فإنّه لا يرجع في رجعتهموذلك قول الله تعالى (وَحَرامٌ عَلى قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ).

وأمّا ماحِضُ الإيمان فإنّه لا بدّ أن يرجع فإن قُتِلَ في الدنْيا رجعَ حتّى يموت بعد أن يعيش بالضّعفِ من عمرِه في الدنيا.

وأمّا من يرجع في رجعتهم العامّة الأخيرة التي يجتمعون فيها كلهم عليهم السلام فروي أنّه لا يموت حتى يرى ألفَ ولَدٍ من صلبه وإن مات في الدنيا فيرجع حتّى يقتل، إذ كلّ مؤمن محض الإيمان محضاً فله قتلةٌ وميتةَ مَنْ مات بُعِث حتى يقتل ومن قتل بُعِثَ حتّى يَمُوتَ فسأل الله أنْ يُوفّقه لمحض الإيمان ليحيى في رجعتهم وهذا من قول

الصادق عليه السلام (اللهمَّ أحيي شيعتنا في دَوْلتِنا وأبقهم في مُلِكنا ومملكَتِنا) .

وهذا قوله عليه السلام (ومَلَّكني في أيامِكم) أي جَعَلَني من المملكين، وهو كما تقدّم كناية عن التوفيق لكمال الإيمان والمعرفة فإنّهما من جهة كرم الله وفضله موجبان لمن جعله الله كذلك لأن يكون في رجعتهم إذا مكّنهم الله في أرضه وأظهرهم على الدين كله ولو كره المشركون مملّكاً من قِبَلهم حاكماً بأمرهم بنسبة كمال إيمانه ومعرفته.

قال عليه السلام وشكر سعيي بكم وغفر ذنبي بشفاعتكم وأقال عثرتي بمحبّتكم وأعلى كعبي بموالاتكم وشَرَّفَني بطاعتكم وأعزّني بهُداكم

قال الشارح المجلسي رحمه الله (وشكر سعيي بكم) أي جزاني الله تعالى في زيارتي إياكم أو ببركتكم أو شفاعتكم (وأقال عثرتي) أي تجاوز عن سيئاتي (وأعلى كعبي) أي جعلني مشرّفاً وعالياً أو جعل أعدائي تحت قدمي أو تحتَ رُمحي بغَلَبَتي عليهم بموالاتكم إيّاي أو بموالاتي إياكم انتهى.

أقول: الشكر أعم من الحمد في المصدر وأخصّ منه في المتعلق، فالحمد مصدره اللسان خاصة ومتعلقه الفضيلة والفاضلة، والشكر مصدره الجنان والأركان واللسان ومتعلّقه الفاضلة، فالشكر من جهة المتعلّق الباعث له الفاضلة وهي النعمة التي تصل من المشكور إلى الشاكر ومن جهة المصدر يصدر من الجنانِ والأركان واللسان، فشكر الجنان الاعتقاد بأنّ هذه الفاضلة من المشكور على جهة الفَضْلِ الابتدائي والرضا عنه بالعطيّة وإن كانت قليلة بالنسبة إلى غيره أو عند غيره

أوْ إلى غيرها ويعتقد أنه مقصِّرٌ في أداء شكرِها.

والشكر من الأركان امتثال أمر المنعم واجتناب نهيه وطاعته بكلّ ركنٍ فيما خلق له فطاعة العينين النظر لما أمر الله بنظره كنظر المصلي في القيام إلى محل سجوده وفي القنوت إلى كفيه وفي الركوع إلى ما بين رجليه وفي السجود إلى طرفِ أنفه وفي التشهد إلى حجره وكالنظر إلى كتابة القرآن وكتب العلم وغير ذلك وغَضُّهما عن النظر إلى ما حرّم الله عليه نظره ، والأذنان طاعَتُهما السماع لما ندب الله إلى سماعه أوْ أباحه بقصد الأخذ بما أباحه الله ، واليدان طاعتهما البطش فيما أمر الله به أو ندب إليه أو أباحه كذلك ، وطاعةُ الرجلين السعي كذلك.

والحاصل طاعة الجوارح استعمالها فيما خلقت له كما أمر سبحانه والشكر من اللسان الثناء على المنعم بإظهار نعمه وآثارها وذكرُه بها على جهة التعظيم له ولنعمه، فإذا عرفتَ هذا في الجملة فقوله عليه السلام (وشكر سعيي بكم) يريد به أنّي أدعوه سبحانه وأسأله أن يشكر سعيي بكم أي أن يعاملني معاملة المنعِم من المنعَم عليه فيحبّني ويحبّبنَي إلى خلقه ويرضا عنّي بالقليل من السعي ويراه كثيراً، ويرى أن ما فعل بي من الجميل أني مستحقّ له ويوصل إليّ من الثواب والنعم جزاء سعيي على جهة الاستحقاق ويذكرني بالثّناء الجميل في الملأ الأعلى وعلى ألسِنَةِ أوليائه وفي ما أنزل من كتبه وما أشبَه ذلك، وهذا إنّما يكون منه تعالى إذا كان محتاجاً إلى سعيي وكان سعيي ليس منه وكل ذلك لم يكن بل هو غنيّ عن سعيي وعن كل شيء، وسعيي على فرض صحته وحقيته نفعه لي وراجع إليّ، ومثاله لو أن زيداً جدَّ في عمل التجارة حتّى ربح كثيراً فما حصل من الربح فهو له ينتفع به في مهمّاته، فهل يجب عليك أن تشكره جزاءً لما عمل لنفسه، وإنّما يجب عليك لو كان ربحُه يصل

إليك وأيضاً ما أتيتُ به من السعي فمنه تعالى وبتوفيقه وهو أوْلَى به منّي فكيف يصحّ أن يشكر من لا يحتاج إلى شيء، وذلك النعمة التي صارت من العبد منه تعالى فهو أولى بالشكر فلا يصحّ أن يشكر مَنْ لا يفعل شيئاً وهذا ما تعرفه العقول ولكنّه سبحانه وتعالى جَدّدَ تَفضّله على عبادِه مرّة بعد أخرى فأبرز لطفا من غيبه على أفئدة أوليائه وأوليائهم لا تسعَهُ عقولهم لطفا بالعباد وتيسيرا لما خلقوا له بما أراد بأنه تعالى وله الفضل يشكر من شكره ويذكر من ذكره ويجازي من عمِل له، وقد أشار سيد الساجدين عليه السلام في الصحيفة السجاديّة إلى ما أشرنا إليه بقوله في وداع شهر رمضان (تَشْكُرُ مَنْ شَكَرَكَ وَأَنْتَ أَلْهَمْتَهُ شُكْرَكَ وَتُكَافِئُ مَنْ حَمِدَكَ وَأَنْتَ عَلَّمْتَهُ حَمْدَكَ)يعني أنك تفضلا منك تشكر من شكرك على شكرِه وشكرهُ من فضلك ألهمته إيّاه وأجريته عليه ولولاك لكفر نعمتك (وتكافئ) أي تجازي من حمدك على ما عرفته من نفسك وأنعمتَ عليه من نعمك وذلك منك أنت علمته وقوّيتَه على ذلك ووفقته له وأعنتَهُ عليه ولولا فضلك عليه ثانيا لما قدر على شيئ من ذلك وإنما عاملك معاملة الغني الحميد فجعل ما أنعم به عليك من شكره وحمده مكافأة لتأدية حق نعمِه عليك ليجزيك على ما أجرى عليك من نعمه نِعَماً وفضلاً نعماً وفضلا مرّة بعد أخرى كما في دعاء مفردة الوتر بعد الركوع (وَجَعَلَ مَا امْتَنَّ بِهِ عَلَى عِبَادِهِ كِفَايَةً لِتَأْدِيَةِ حَقِّه) انتهـى.

وقد ذكر سيد الساجدين عليه السلام في دعاء الوداع المذكور ما أشرنا إليه لك من أنه تعالى تفضل مرّة بعد آخرى فركز في أفئدة أوليائه والخصيصين من شيعتهم لطفاً من غيبه لا تسعه عقولهم، ولولاه تعالى لما وجد المخلوق شيئاً من ذلك لأنّه مخالف في الأفهام والقلوب لمعنى القدم، ولهذا قلنا ركزه في الأفئدة لأنّها هي التي تسع ذلك وتعيه قال

عليه السلام (وَأَنْتَ الَّذِي دَلَلْتَهُمْ بِقَوْلِكَ مِنْ غَيْبِكَ وَتَرْغِيبِكَ الَّذِي فِيهِ حَظُّهُمْ عَلَى مَا لَوْ سَتَرْتَهُ عَنْهُمْ لَمْ تُدْرِكْهُ أَبْصَارُهُمْ وَلَمْ تَعِهِ أَسْمَاعُهُمْ وَلَمْ تَلْحَقْهُ أَوْهَامُهُمْ فَقُلْتَ اذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ وَقُلْتَ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ وَقُلْتَ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ)إلى آخر الآيات، وذلك لأنّ ما دلّ عليه نوع من الإنفعال وهو لا يصحّ في حقّ الأزل سبحانه، والذي تفهمه العقول عدم جواز نسبة ذلك إليه فلمّا تفضّل عليهم وأراد أن يجدد النعم ويغمرهم بالخيرات التي فيها حظهم ونجاتهم من غضبه أبان للأفئدة سرّ ذلك وتعبّد خلقه بذلك ليلزمهم ما به نجاتهم وفيه صلاحهم فألزمهم بما لا يعلمون سره، ولو لم يلزمهم ذلك لم يقبلوه وإن طلبوا رضاه لأنّهم ينكرونه ولكنّه أَلْزَمَهم به لأجل نجاتهم من عذابه فقال (إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِي) يعني بألا يدعوني فأستجيب لهم (سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِينَ) فلذا قال عليه السلام (فَسَمَّيْتَ دُعَاءَكَ عِبَادَةً، وَتَرْكَهُ اسْتِكْبَاراً، وَتَوَعَّدْتَ عَلَى تَرْكِهِ دُخُولَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ)الدعاء.

ولكنّه لما جرت حكمته بأن لا يظهر شيئاً إلاّ مشروحاً مبيّن العلل والأسباب لتطمَئِنَ بها أُولو الألباب إلا أن بيان كلّ شيء في مقامه ورتبته من الوجود كما أن مقتضى الحكمة التامّة ركز في الأفئدة التي هي حقيقة المخلوق من فعل ربّه سبحانه وتعالى بيان ذلك والإشارة إلى ذلك في رتبة الأفئدة، ورتبة ذلك السرّ على جهة الاقتصار أن المخلوق لا ينتهي إلى الخالق وإنّما ينتهي إلى مثله، والمثال المخلوق لهذا السر المشار إليه أنه لا ينتهي المخلوق إلاّ إلى مثله مضافاً إلى قول أمير المؤمنين عليه السلام في خطبته الموسومة باليتيمة التي لم يوجد مثلها قطّ في معرفة الله تعالى قال عليه السلام (انتهى المخلوق إلى مثله وألجأهُ الطلب إلى شكلِه السبيل مسلود والطلب مردود)

مثل الكتابة التي هي مثل المخلوق تنتهي إلى حركة الكاتب لا إلى الكاتب، بمعنى أنّك تقطع بأنّ هيئات الكتابة من هيئات الحركة فإذا رأيتَ كتابة حسنة علمتَ أنّ حركة يد كاتبها معتدلة مستقيمة وإن كانت الكتابة غير حسنة علمتَ بأن حركة يد كاتبها غير مستقيمة بل معوجّة مضطربة، فدلّتك الكتابة بهيئتها على حركة يد الكاتب لأنها منتهية إليها ولم تدلّك الكتابة على كاتبها بأن تعلم إذا وجدتها حسنة أن كاتبها حسَن أو إذا وجدتها قبيحة أنه قبيح فقد انتهى المصنوع إلى الصنع لا إلى الصانع، فكان الإنفعال المشار إليه في الفعل لأنه هو المقبول والمفعول كالمخلوق والداعي والعامل والسائل هو القابل وغير الأفئدة من المشاعر كلّها لا تفهم من معنى اذكروني أذكركم وادعوني أستجب لكم إلا أن المنفعل هو الفاعل وهذا باطل.

وأما الأفئدة فتفهم من معنى ذلك أن المنفعل هو الفعل لا الفاعل لأن الله سبحانه أشهدها خلق أنفسها فتعرف أنفسها وما في رتبتها وما دون ذلك ولهذا قال ﷺ (أعرفكم بنفسه أعرفكم بربه)، وقال أمير المؤمنين عليه السلام (من عرف نفسه فقد عرف ربه)، والفرق بين العبارتين هو الفرق بين النبوة والولاية فإذا أردت أن تعرف نفسك فاطلب رسالتنا الموضوعة في ذلك ولا يوجد ذلك في غيرها أبداً إلاّ ما أُخِذ منها.

فإذا عرفت ما ذكرنا فالجواب أنه سبحانه بنَى أفعالِهِ في عِبَاده على التفضّل لغناه المطلق الذي لا يتخصص وكرمِهِ المحقّق الذي لا ينقص، وأجرى قدرته على التجاوز لكمال حاجة الخلق إليه وفقرهم إلى لطفه بهم ولتكمل آثار رحمته التي بها خلقهم وإنّما خلقهم لمحمد وآله صلى الله عليهم أجمعين وأمرهم بطاعته المأخوذة

عنهم ﷼ لأنّها لهم وإنّما أمرهم بأن يوقعُوها له تعالى خاصة لتصحّ الطاعة فإذا صحّت كانت لهم، وشرط صحة الطاعة شيئان:

أحدهما إيقاعها تقرّباً إليه تعالى خاصة لا يشاركه في ذلك أحدٌ.

وثانيهما أخذها وحدودها عنهم ﷼ كما أمروا وحددوا مقرونة بالإئتمام بهم والتسليم لهم والمحبة لهم والولاية لهم ولأوليائهم لأجلهم والبرائة من أعدائهم ، فإذا فعلها العبد كما أمروه قبلها الله تعالى وكانت صحيحة ثابتة وجعلها لأهلها المستحقين لها، لأنّها دعاء لهمَ وثناء من الله تعالى على قوابل عباده عليهم فكان عليهم العوض صلى الله عليهم، فلما أعطاهم أعمال عباده وجب في الحكمة على الجواد المطلق أن يجعلها موفرة عليهم فيحمل سبحانه جزاء ذلك عنهم، وإنما حمل الجزاء لأجلهم فكان جزاء العاملين من تمام العطيّة لهم ﷼ لأن الكريم لو أرسل لك بعطيةٍ عند شخص وقال لك إعط حامل العطية أجرة حمله كان ذلك نقصا في كرمه، وتمام كرمه أن يعطيك إيّاها موفّرة بأن يعطي أجرة حملها إليك لتصل إليك تامة وإلا لنقصت بأجرة الحمل.

ولمّا كان إيصال أجرة العاملين متوقّفا على استحقاقهم وهم لا يستحقون شيئا كما ذكرنا سابقا، ولو لم يعطهم وقد أمرهم وجب على من أعطاهم العمل العوضُ للعاملين ولو أعطوا نقصَ كرمه كما سمعتَ، فجدّد تفضله مرةً بعد أخرى فجعل ما أعطى العاملين من النعم والأقدار والتعليم والإعانة على طاعته وغير ذلك مما لا تتقوم الطاعات والأعمال الصالحة إلا به كفاءً لتأدية حقه فنسب عوائدها إليهم كما نسب سوابقها إليهم تفضلا بعد تفضل فشكرهم على ما وفّقهم له من السعي لأجل محمد وأهل بيته ﷺ بما أمدهم من الأنوار والتأييدات والمعارف

والعلوم وبنسبتهم إليه بقوله (عبادي) ومن التوفيق لما يرضيه عنهم وبرضاه عنهم وقبوله اليسير منهم وجعله كثيرا بالتجاوز عنهم والعفو والمغفرة لهم وجعلهم أتباعا لأوليائه المقربين عنده وقربهم بقربهم ومحبته لهم وبالثناء عليهم مثل قوله تعالى (فَبَشِّرْ عِبادِ الَّذينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولئِكَ الَّذِينَ هَداهُمُ الله وَأُولئِكَ هُمْ أُولُوا الأَلْبابِ).

وعلى ألسنةِ أوليائِه من الأوّلين فإن كل رسولٍ ونبي أثنى على شيعة علي عليه السلام بأمر الله تعالى ومن الآخرين كما أثنى الأئمة عليهم السلام على شيعتهم فيما ذكرنا وما لم نذكر وإنّما شكر الله سعي شيعتهم بهم ولأجلهم وهو قوله (وشكر سعيي بكم).

وقوله عليه السلام (وغفر ذنبي بشفاعتكم) كما ذكرنا في شرح الزيارة من أحاديثهم أن الله تعالى يغفر ذنوب محبيهم على ما هُمْ عليه فإن كانت التبعات لله تعالى استوهبوه منه فهو لشيعتهم، وإن كانت لهم فهو لشيعتهم وإن كانت لأعدائهم فهو لشيعتهم وإن كانت لبعض المؤمنين عوضوهم عنه فهو لشيعتهم فإذا شفعوا قَبِل اللهُ تعالى شفاعتهم وبغير شفاعتِهم يجب في الحكمة ألاّ يتجاوز ظلم ظالم لأنّه مقتضى العدل فيعطي كل ذي حق حقهُ إلا أنْ يحصل مُرَجّحٌ وذلك من شفاعتهم بالقَلْبِ بأن يحبّوا الشخص فيرضونه فيرضا الله عنه فمحبّتهم له شفاعتهم لهُ عِنْدَ اللهِ، وَمِنْها أعمالهم فإنّ ذلك المحبّ يهبونه لأجل محبّتهم من فاضل أعمالهم ما ترجح به موازينه وتكثر حسناتُه ويدخل بذلك الجنة، ومنْها دُعاؤهم له كما في الأخبار الكثيرة الواردة وهذه وأمثالها من شفاعتهم لشيعتهم.

وقوله عليه السلام (أقال عثرتي بمحبتكم) أقال بمعنى فَسخ ونقض ووافقَ على ما طلب منه، والعَثْرة الخطيئة وَذلك أن من فعل الخطيئة لَزمتْهُ ومن أخطأ فَقدْ وَقع

كالعاثِرِ، فقَوْلُهُ (وأقال عثرتي) كما يُقال أقالَهُ البيع الّذي لزِمَ بالعقدِ فأقالَهُ البيع أي فسخ العَقْد الملزم ونقضَهُ ووافقه على ما طلبَ من الفَسخ، (وأقال عَثرتي) يعني خطيئتي الّتي لزمتني محاها وفكَّ لُزُومها لي والمعنى غفر لي خطيئتي بمحبّتكم لأنّها تكفِّرُ الذنُوبَ وتمحوها، فيكون الغفران بمقتضى القابِلِ أوْ بسَبَب مَحبّتكم فيكون الغفران بمقتضى المُتمّم للقابل وهذا هو الظاهر من الإضافة إلى المفعول ولو اعتبرت الإضافة إلى الفاعل وإن كان بعيداً عن الظاهر كان الغفران بمقتضى الشفاعة كما أشرنا إليه قبل.

وقوله عليه السلام (وأعلى كعبي بموالاتكم) الكعب ما عَلا وارتفع، (وأعلى كعبي) كناية عن الشرف والرفعة يعني ما ارتفع من مقامي أوْ ما من شأنه الارتفاع مني أعلاه الله بموالاتكم، وهو دعاء منه وسؤال من الله بأن يرفع ما انحطّ من قدرِه بسبب تقصيره أوْ قُصُورِه بموالاتهم، فإنّ موالاتهم تتم ما نقص من الأعمال وتقوم مقام ما فُقِدَ منها فإن موالاتهم أقلّها المحبة بالقلب واللّسان والولاية كذلك يعني بالقلب واللّسان وهذا كافٍ في إعلاء الكعب إذا لم يحصل ما ينافيهما لأن المحبّة الصّدق والموالاة الحق أن يطابق القول العمل والقلب اللسان، فإذا خالَف القلبُ اللسان بأن أقرّ بولايتهم وأنكرها بقلبه فقد خرج عن ربقة الإيمان إن كان جاهلا بما أنكر وأقر وعن ربقة الإسلام إن كان عالما وإذا خالف القولُ العمل بأن يقرّ بلسانه ولا يعمل فإن طابق حينئذٍ قلبُه لسانه فذلك الذي قلنا إنه كافٍ في إعلاء الكعب، وإن كان كلّ شيء بحسبه وإن خالف القلبُ اللسان فكالفرض الأوّل يعني كان عن جهل فليس بمؤمنٍ وإن كان عن معرفةٍ فليس بمسلمٍ، فإن تطابقت حصل الكمال فصاحبها شافع لا مستشفع فيه وإن خالفهما القلبُ فعلى التفصيل المتقدّم،

وإن خالفهما العمل بأن أقرّ اللسان بالموالاة وطابقه القلب، فالكافي المشار إليه وإن خالفهما اللسان فعن الجهل موجىً لأمر الله وعن العلم فللتقيّة لا بأس ولغير التقية هل يكون ارْتداداً أم لا والعلم قد يكونُ عن بصيرة وقد يكونُ عنْ غيرِ بصيرةٍ، فإذا كان العلم عن بصيرة يعني أنّ لسانه أنكر الولاية من بعد ما تبيّن له الهدى لغير تقيّةٍ وقلبه مستيقن لها ويعمل بعمل أهل الحقّ فالأقرب أنّه ارتداد لقوله تعالى (وَلُعِنُوا بِما قالُوا) .

وأمّا كون قلبه مستيقِناً فلا يفيده كما قال تعالى (وَجَحَدُوا بِها وَاسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوًّا)على أن الكافر والمشرك والمُنَافق إذا لم يستيقن حقيّة ما دعي إليه لم تقم عليه الحجّة أن الله تعالى يقول (وَما كانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَداهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ ما يَتَّقُونَ)وقال (وَمَنْ يُشاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدى)فإذا لم يستيْقِنْ حقيّة ما دُعِي إليه بقي الحكم عليه موقوفاً إلى يَوْم القيامة حتّى يُجَدِّدَ لَهُ التكليف ويستقرّ الحكم عليه بعد ما يتبيّن له الحَقُّ.

وقوله عليه السلام (وشرّفني بطاعتكم) دعاء منه بأنْ يشرّفه بطاعتهم بأنْ يُوَفِّقَه ويُعينه على طاعتهم فإنّها هي طاعة الله تعالى وفيها شرف الدنيا والآخرة وهي مقولةٌ على جميع مراتب الاعتقادات الحقّة والأقوال الصّادِقة والأعمال الصحيحة بالتّشكيك في كل واحدةٍ من هذه الثلاث وفي كلّ جزئيّ من كلّ منها والمسؤول منها المطلق أوْ ما يَحْصُل به التشريف لا أعْلى مراتبها، فإنّ سؤال ذلك محرّم على كلّ مَنْ سواهم إذْ لا ينال أعْلى طاعتِهم أحدٌ غيرهم من جميع الخلق وجعْلُ أعْلى ما يمكن منها طاعةً لأحدهِمْ لا يلزم منه كونُ الواحِدِ طائِعاً مُطَاعاً، لأنّ المراد بهذه الطّاعة بالنسبة إليهم طاعةُ محمدٍ صلى الله عليه وآله وسلم فإنّها واجبَة عليهم ثم من دونه علي عليه السلام فإن طاعته واجبةٌ عليهم ثم

من سابقٍ على لاحَقٍ أو إنها واجبةٌ عليهم من حيث أنّها طاعة الله تعالى وإنّما وجبت عليهم طاعةُ الله تعالى وإنْ قُلْنَا بالاتحَادِ أوْ إنّما تتحقّقُ فيهم أو بهم أو عنهم فلذلك أُسْنِدت إليهم فافهم.

قوله عليه السلام (وأعزّني بهُداكم) ، يعني أعزّني الله أي أيّدني وقوّاني ورفع خسيستي ودفع ذلّي بهداكم وهو دعاء منه لله تعالى كما أنعم علي بأن أعزّني ورفعني عن ذل الكفر والنّفاق والجهل إلى عزّ الإسلام والإيمان والعلم بكم، أي ببركة وُجُودِكم وهُداكم فأسألُه أنْ يعزَّني ويرفعَني عن ذُل المَعْصيَةِ إلى عزّ الطّاعة بهُداكم، وهداهم هو ما أسسُوا من قواعد الدين بإذن الله تعالى وَأمْرِه وبيّنوا أحكامه وعرّفوا المعارف والاعتقاد وأبانوا ما أراد الله تعالى من جميع العباد من الاعتقادات والعلوم والفرائض والنوافل والآداب وما أعانوا عليه من مال إليهم واقتدى بهم وسلم لهم وردّ إليهم من التسديدات والإيراد حياض الرشاد والدعاء الذي لا يحجب عن ربّ العباد فسأل الله سبحانه أن يعزّه ويقويهُ ويرفع خسيسته بالتوفيق للقيام بواجب مقتضى هداهم ويعينَهُ على تحمل ما أراد منه تحملهُ والقيام بواجبه وندبه ليجعله بذلك عزيزاً بعد ذلّ الجهل والتقصير وهو تعالى على كل شيء قدير.

قال عليه السلام وجعلني ممّن انقلب مفلحاً منجحاً غانماً سالماً معافاً غنيّاً فائزاً برضوان الله وفضله وكفايته

قال الشارح المجلسي رحمه الله وجعلني ممّن انقلَبَ بالماضي أي رجع مع الفلاح من السلامة من النار والفوز بالجنّة غانماً بالغنيمة الصورية والمعنويّة انتهى. قوله (ممّن انْقلبَ) أي إلى أهله من زيارتكم مسروراً مُفلِحاً أي ظافراً بمطلوبه من صلاح الدارين وسعادة النشأتين والفلح محرّكةً الفوز والنجاة والبقاء في الخير، أي إجعلني

من نوع الذي انقلب من زيارتكم فائزاً بما طلب في رجائه أو بزيارتكم أو فيكم من طول العمر ودوام اليسر ناجياً من الاخترام ومن البلايا والفقر ومن سوء المنقلب بميتة السوء ومن سوء المرجع في القبور ومن الندامة يوم القيامة باقياً في الخيرات الأبديّة والسعادة السرمديّة (منجحاً) هو مرادف لقول مفلحاً أو أنّ النجاح أمكن في الظفر بالمطلوب بأن يكون الفلاح الظفر بالمطلوب والوصول إليه، والنجاح الاستقلال به والحيازة له الموجبة للأمن من فواته ولهذا يؤخر النجاح في الذكر عن الفلاح لأن الفلاح كالمقدمة له أوْ كأوّلِ إدراك المطلوب، أوْ أنّ الفلاح مطلق الظفر بالمطلوب والنجاح تَنَجُّزُهُ بسرعةٍ من قولهم استنجحتُ الحاجة أي تَنَجّزتُها ، (غانِماً) أي كاسِباً للفائدة المطلوبة لأهل الدارين وللغنيمة العظيمة مدركاً بها تقر به العين سالماً من تغيّر نعم الدنيا والدين ووقوع النّقم بسبب الذنوب فإنّي أسأل الله أن يغفرها لي بمحبّتكم وولايتكم والبراءة من أعدائكم ، (مُعَافىً) إن شاء الله تعالى من وقوع الفِتَن والاختبار والابتلاء والتمحيص والتمييز والبلبلة والسوط، فإنّ كثيراً من المكلّفين إذا لم يُعَافَ من الاختبار والفتنة انقلب وتغيّرَ عن طريق الهدى إلى الضلالةِ ولو عافاه الله ربما آل أمرُه إلى الخير.

هذا في ظاهر الأمر والأحاديث دالّة على أنه لا يكون أحد من هؤلاء من أُولئك ولا أحدٌ من أولئك من هؤلاء فالاختبار والبلبلة والفتنة إنما تقع بمن كان في أصل إجابته في الخلق الأوّل من أهل القلا ممن خلقوا للنّار، فلمّا كانوا في الخلق الثاني أصابَهُم لطخ من أهل الجنّة وعاشوا شطراً من أعمارهم بين ظَهْرَانَيهِم وظهر أثر لطخ أهل الإيمان على ظواهر أقوالهم وأعمالهم ويأبى الله أن يجعلهم في المؤمنين فيختبرهم بما لا يعلمون ويفتنهم بما لا يعرفون حتى يستقرّ أمرهم على طِبقْ حقيقتهم وينقلب إلى ما يسّر له من شأن بدئه في علم الغيب، وربّما تكون حقيقته طاهرة ولكن غلب

عليه مقتضيات اللطخ بحيث يكون على تمام المشابهة بمن لطخوه من طينتهم في الاعتقاد مثلاً بحيث لو اختبر غلبت الطينة الثانية على الأولى وإن كانت ليست سابقةً ولا ذاتيّة والأولى ضعيفةٌ لعدم استمدادِها من أعماله لأنها لا تستمد إلاّ من الأعمال الصّالحة وأغلب أعماله بمقتضى الثانية فإذا عوفي من البلايا والفِتَن ربّما قويت الأولى بسبب العافية لأنّ مقتضى الفتنة غالباً يكون مقوّيا للثانية لما بينهما من الموافقة، وذلك لأن اللطخ الثاني موافق للنفس الأمّارة والفتنَةِ موافقة لها لأنّها باعثة للإنيّة على التشخّص والتعيّن اللذين هما أصل الأمّارة وفرعها فتكون العافية من الفتنةِ منافيةً للأمّارة لأنها لا تبعثُها على ما يقوّي الإنيّة، وربما لو اختبر هجر الأولى بالكلية ولا ريب أنه إذا مات مُعَافى وكان ممن لم يمحض الإيمان محضا أُخِّرَ حِسَابه إلى يوم القيامة فإذا كان يوم القيامة حوسب ويكون أهون حالاً ممن اختبر قبل موته لأنّ الموت له نوع تقرير للصفة التي يموت عليها ، أمّا في الماحض فالموجب للتقرير هو الموت.

وأمّا في غيره فالعافية في الدنيا لطف من الله به فيكون الموتُ له غالباً مقرّراً وإن جدّد له التكليف يوم القيامة وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿وَجاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾وهذا إشارة وتلويح لأنّ البيان يحتاج إلى تطويل لدقّة مسلكه. (غنياً) أي بكثرة الحسنات كما في دُعاء غسل اليد اليمنى في الوضوء في قوله والخلد في الجنان بيساري بفتح الياء المثناة بعد حرف الجر أي أعطني كتابي بيميني، وبراءة الخلد بيساري أي بكثرة حسناتي على أحدِ الوجهين، ومثله ما في العيون عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال (إن أُمَّ سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ عليه السلام قالت لإبنها سُلَيْمَانَ عليه السلام يا بُنَيَّ إِيَّاكَ وَكَثْرَةَ النَّوْمِ بِاللَّيْلِ فَإِنَّ كَثْرَةَ النَّوْمِ بِاللَّيْلِ تَدَعُ الرَّجُلَ فَقِيراً يَوْمَ الْقِيَامَةِ) انتهى، يعني لقلّة الحسنات فهو سأل الله تعالى أنْ يقلبه من زيارتهم غِنيّا لكثرة حسَناتِه ممّا

كتب له لأجل زيارتهمْ ويحتمل أن يكون المراد غَنِيّاً من جهةِ كثرة الرِّزْق لأنّ زيارتهم المقبولة تزيد في العمر والرزق.

وكذا قوله ﷺ (فائزاً برضوانِ الله وفضله وكفايته) يعني ظافراً برضوان الله عليَّ بمحبّتِكم وولايتكم فإن رضاكم رِضا الله عز وجلّ ومن رضيتم عنه فقد انقلبَ برضوانِ الله عنه في الدنيا والآخرة، أو فقد ظفر بأعلى مراتب الجنان وهو الرضوان فإنه نهاية نعيم أهل الجنة، فإنّ أهْل الجنّةِ يؤول نعيمهم إلى رضوان الله ولا غاية له ولا نهاية فدعا الله بحقّهم عليه أن يبلّغه رضوانه بما أوجب تعالى على نفسه لمن زاره فطلب حقّ الزيارة من الله تعالى لأنه تعالى أخبر على ألسنَةِ أوليائه إنّ من زار وليّا له فكأنّما زاره في عرشِه.

وللزائر حقّ على المزور فدعا الله عز وجلّ بأن يجعله فائزاً برضوانِه وفضله من جميع نعم الدنيا والآخرة، إذْ كُلُّها تَفَضلٌ وبكفايته بأنْ يدبره في مصالح دنياه وآخرته فإنّ الزائر لمّا أطاع الله سبحانه فيما ندب إليه على ألْسنَةِ أوليائه من فضل زيارة أوْليائه وما وَعَدَ على نفسِه لمن زارهم فقد توكّل عليه سبحانه ومن توكّل عليه كفاه فأراد بدعائه ألا يَكِله إلى نفسه طرفة عينٍ أبداً لا في شيء من أمرِ الدنيا ولا الآخرة.

قال ﷺ بأفضل ما ينقلب به أحدٌ من زوّاركم ومواليكم ومحبّيكم وشيعتكم

بأفضل متعلّق بانقلَبَ يعني جعلني الله من نوع الزائر الذي انقلب إلى أهله من زيارتكم بأفضل ما ينقلب به أحدٌ من زوّاركم الذين قصدوا زيارتكم من بُعدٍ أو

قوب سواء كانوا من مواليكم أم من محبّيكم أم من شيعتكم، أم لا لجواز أن يأتيهم لزيارتهم من ليس من المذكورين، بل قد يكون من موالي مواليهم أو من موالي محبّيهم أو شيعتهم، أو من محبّي مواليهم أو محبّي محبيهم أو محبي شيعتهم، فإن هؤلاء وإن كانوا أضعف إلاّ أنّهم يقع منهم حال الزيارة اعتقادٌ أو ازراء من بعض الزائرين أو المحبّين وتنكسر قلوبهم بذلك الازراء فيقبل منهم عملهم أفضل من الذين أزرَوْا عليهم، أو أن عطف مواليكم عطف تفسيري يعني من زوارِكم من مواليكم ومحبّيكم وشيعتكم.

وقد يراد (بأفضل ما ينقلبُ به أحدٌ من زُوارِكم) من أجر زيارتكم ومحبّيكم من أجر محبّتِكم (وشيعتِكم) من أجر متابعتهم لكم وتسليمهم لكم وموالاتهم لكم والبراءة من أعدائكم ، والمراد من ذلك كله إجعلني من نوع من انقلَبَ بأفضل ما ينقلب به أحدٌ من الخلق بخير من خيرات الدّنيا والآخرة كنتم سبَبهُ ومنشأه ومبدأهُ ومأواهُ ومنتهاه، وأتى بـ(انقلب بصيغة الماضي في الدعاء للتّحقّق اعتماداً وثقة في الرجاء في الله تعالى وفيهم عليهم السلام وفي زيارتهم ، وأتى بالمضارع في قوله (بأفضل ما ينقلب به أحد) للسؤال لما يتجدّد من العطايا من الله تعالى بهم عليهم السلام لزوّارهم ومحبّيهم وشيعتهم على استقبال الأوقات يعني انقلبتُ بالله تعالى من زيارتهم إلى أهلي كواحدٍ من نوع من انقلَبَ من زيارتهم بالله تعالى إلى أهله بأفضل ما ينقلب به الوُفّاد عليهم عليهم السلام من العطايا والتّحف الظاهرة والباطنة للدنيا والآخرةمن زوّارهم

ومحبيهم وشيعتهم إلى يوم القيامة أو إلى قيامهم ورجعتهم عليهم السلام

قال عليه السلام ورزقني الله العود ثمّ العود أبداً ما أبقاني ربي بنيّة صادقة وإيمان وتقوى وإخبات ورزق واسع حلال طيّب

قال الشارح المجلسي رحمه الله (بنيّة صادقةٍ) متعلّق بالعود أو بإبقائي وإخباتٍ أي خضوع تام انتهى.

قوله (ورزقني الله) دعاء بأن يرزقه ويوفقه لأنْ يعود لزيارتهم ثمّ يعود (أبداً) أي دائماً ما أبقاه في الدنيا بحيث لا يكون جافياً لهم عليهم السلام بترك زيارتهم، ويكون الباعث إلى زيارتهم النية الصادقة بأن يكون الباعث على ذلك طاعة الله تعالى وصِلَة نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم وصِلَة أهل بيته عليهم السلام متقرّباً بذلك إلى الله تعالى بأنْ يكون عوده لزيارتهم مصاحِباً للنيّة الصادقةِ من القلب والإيمان والتقوى والإخبات خاضعاً خاشعاً لله تعالى ثم لهم منقاداً مسلِّماً مفوضاً غير مترددٍ ولا مشكّكٍ ولا مرتاب في شيء مما نُدِبَ إليه، ولرزق واسعٍ حلالٍ طيبٍ يكون زاداً للسفر إلى زيارتهم ليكون زاداً للسفر إلى الآخرة.

والحلال الطيب له عند أهل الشرع عليهم السلام إطلاقان يطلقونه ويريدون به ما هو في نفس الأمر كذلك، وهذا قوتُ النبيين والمرسلين والأئمة صلى الله على محمد وآله وعليهم، فالداعي من غيرهم للرزق يحرم عليه طلب ذلك لأنّه هو الحلال وغيره قد يكون حلالاً على سائر الناس وهو عليهم حرام، فإذا قُصِد الحلال الواقعيٍ لا غيره كان طالباً لرتبة النبيين وذلك ممنوع بخلاف ما لو قصد الرزق الحلال شرعا وهو

الواقعي التّشريعي، بمعنى ما حكم الشرع بحلّيّته في ظاهره وهو الإطلاق الثاني فإنه لا بأس به بل مندوب إليه.

فالأول هو كالحكم الواقعي الوجودي لا يكلّف به إلاّ من كان معصوماً ولا يجوز له المصير إلى الواقعي التشريعي إلاّ بالتوقيف من الوحي الخاص من قبل الله تعالى لمصالح تُوَجِهُه على الواقعي الوجودي بعد الاطلاع عليه.

والثاني هو كالحكم الواقعي التشرَيعي فإنّه حكم من لم يكن معصوماً فالرزق الحلال الطيب الواقعي لا يصلحُ طلبه لغير المعصوم لأنّه طلبٌ لِرُتبتِهم والرزق الحلال الطيب التّشريعي هو ما حكم في ظاهر الشّرع بكونه حلالاً والفرق بين الطّلب المنهي عنه والطّلب المندوب إليه أن يطلب الحلال الواقعي الوجودي لا غير، فهذا لغير المعصوم عليه السلام منهيّ عنه إذا قصدَه لا غير، فإنّه حينئذٍ طالبٌ لما اختص به أهْلُ العصْمةِ وهو مُحرَّمٌ، والثاني أنْ يطلب الحلال سواء كان خصوص ما حكم الشَّرْع بكونه حَلالاً في الظّاهر أم مطلقاً مِنْ دُونِ تعيينِ خصوص الوُجودي فلا بأس به لأنّا لا نمنع منه لو اتّفقَ وإنّما المنهي عنه طلب الخاص.

وفي الكافي بسنده إلى البزنطي قَالَ (قُلْتُ لأَبِي الْحَسَنِ عليه السلام جُعِلْتُ فِدَاكَ أَدْعُو الله عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يرْزُقَنِي الْحَلالَ فَقَالَ أَتَدْرِي مَا الْحَلالُ فَقُلْتُ جُعِلْتُ فِدَاكَ أَمَّا الَّذِي عِنْدَنَا فَالْكَسْبُ الطَّيِّبُ فَقَالَ كَانَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ عليه السلام يَقُولُ الْحَلالُ قُوتُ الْمُصْطَفَيْنَ وَلَكِنْ قُلْ أَسْأَلُكَ مِنْ رِزْقِكَ الْوَاسِعِ).

وفيه بسنده إلى مُعَمَّرِ بْنِ خَلَّادٍ عَنْ أَبِي الْحَسَنِ عليه السلام قَالَ (نَظَرَ أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام إِلَى رَجُلٍ وَهُوَ يَقُولُ اللهمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ رِزْقِكَ الْحَلالِ فَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام سَأَلْتَ قُوتَ

النَّبِيِّينَ قُلِ اللهمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ رِزْقاً حَلالا وَاسِعاً طَيِّباً مِنْ رِزْقِكَ).

وظاهر هاتين الروايتين النّهي عن طلب الحلال الخاص، وقال بعض العلماء لا ينبغي ذلك وظاهر عبارته مرجوحيّته، وفي كتاب الوافي للملا محسن هكذا (بيان لمّا كان للحلالِ مراتب بعضَها أعلى من بعضٍ وأطيب جاز الأمر بطلبه تارةً والنهي أخرى ويختلف أيضاً بحسب مراتب الناس في أهليّتهم له ولطلبه فلا بين الأخبار) انتهى.

وفيه في باب طلب الرزق بالدعاء والقرآن قال (بيان لتعقيب الدعاء بعقب الصلاة وقد مضى في كتاب الصلاة صلوات ودعوات وقراءات لطلب الرزق وأنه ينبغي أن يطلب الرزق الواسع الطيب دون الحلال لأن الحلال قوت النبيين والمصطفَيْن) انتهى.

وظاهر الروايتين والكلام المذكور من عباراتهم كراهة الدعاء بقصد الحلال الخاص والذي تشير إليه الأدلّة ببواطنها هو التحريم لأنّه طلب ما يختصّ به المعصومون عليهم السلام وهو تعدّي الحدّ العامّ، وما ورد من جواز الطلب ومشاركة المعصومين عليهم السلام للمؤمنين.

فمن الأول ما ذكر في هذا الوداع الذي نحن بصدده، وما في الكافي بسنده إلى ابن عمار قَالَ (سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ الله عليه السلام أَنْ يُعَلِّمَنِي دُعَاءً لِلرِّزْقِ فَعَلَّمَنِي دُعَاءً مَا رَأَيْتُ أَجْلَبَ مِنْهُ لِلرِّزْقِ قَالَ قُلِ اللهمَّ ارْزُقْنِي مِنْ فَضْلِكَ الْوَاسِعِ الْحَلالِ الطَّيِّبِ رِزْقاً وَاسِعاً حَلالا طَيِّباً بَلاغاً لِلدُّنْيَا وَالآخِرَةِ صَبّاً صَبّاً هَنِيئاً مَرِيئاً مِنْ غَيْرِ كَدٍّ وَلا مَنٍّ مِنْ أَحَدٍ من خَلْقِكَ إِلا سَعَةً مِنْ فَضْلِكَ الْوَاسِعِ فَإِنَّكَ قُلْتَ وَسْئَلُوا الله مِنْ فَضْلِهِ فَمِنْ فَضْلِكَ أَسْأَلُ وَمِنْ عَطِيَّتِكَ أَسْأَلُ وَمِنْ يَدِكَ الْمَلأَى أَسْأَلُ)انتهى، وهذا لا ينافي عدم جواز

طلب الخاص لأنّ المراد به العام ، ومن الثاني ما في مجمع الجوامع عن النبي ﷺ (إنّ الله طيّب لا يقبل إلاّ طيّباً وإنّه أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال يا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّباتِ وقال يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ) انتهى. والمراد به العام وليس ما أمر به المؤمنين من الطيّب الخاص بل من العام، وما ذكرنا من أن ما يختص بأهل العصمة عليه السلام لا يجوز لغيرهم طلبُهُ وإلاّ لم يكن مختصاً لا إشكال فيه وتوقف من توقف إنّما هو في أن هذا أعني الحلال هل هو مختصّ أم لا والأخبار كما سمعت.

قال عليه السلام اللهم لا تجعله آخر العهدِ من زيارتهم وذكرهم والصلاة عليهم وأوجب لي المغفرة والرحمة والخير والبركة والفوز والنور والإيمان وحسن الإجابة كما أوجبتَ لأوليائك العارفين بحقّهم الموجبين طاعتهم الراغبين في زيارتهم المتقربين إليك وإليهم.

أقول: سؤاله يمكن تصحيح إجابته أبدا كما تقدّم والاعتراض أن يقال إذا جاز إجابته في كل مرّة يجب أن لا يموت إلى يوم البعث لتتّصل زيارته بالآخرة التي لا انقطاع لها ولا نفاد، وقد قامت الأدلّة القطعيّة على أنه يموت فيجب أن يكون بعد الزيارة التي مات بعدها في وداعها لم يستجَب دعاؤه.

والجواب أن الوداع الذي توفي بعده يجوز أنه استجيب له ولا يكون آخر العهد بل يجوز ذلك ويزورهم في البرزخ، ويوم القيامة يزورهم في الجنة أو يكتب له أجر الاستجابة بأن يجمع بينهم في الجنّة.

وقوله عليه السلام (وذكرهم) يعني في الزيارة بأسمائِهم وكناهم وألقابِهِمْ وصفاتهم وفي الدعاء بحقّهم وفي ذكر الله سبحانه بأسمائه، فإنّهم أسماؤه فمن ذكر الله فقد ذكرهم

وقد تقدم في الزيارة من أراد الله بدَء بكم.

وكذا قوله عليه السلام (والصلاة عليهم) بظاهر الصلاة مثل اللهم صلى على محمد وآل محمد وبباطنها مثل جميع ما ذكر الله به من كلّ ذكر فإنه عند من عرفهم يكون كل ذكر لله تعالى فهو ثناء عليهم كما ورد في حق الملائكة في قوله تعالى (إِنَّ الله وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ) صلى الله عليه وآله وسلم ما معناه قيل له عليه السلام إذا كانت الملائكة كما ذكرهم الله (يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ لا يَفْتُرُونَ) فمتى يصلّون على النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال عليه السلام إن الله سبحانه لمّا أمرهم بالصلاة عليه أوحى إلى الملائكة أن نقّصوا من تسبيحي وتهليلي وتمجيدي بقدر صلاتكم على محمد وآل محمد صلى الله عليه وآله وسلم فإذا قال اللهمّ صلّ على محمد وآل محمد فقَدْ سَبح الله وهَلَّلَهُ ومجّدَهُ فمَعْنى الصلاة على مُحَمد وآل محمد تسبيحُ اللهِ وتكبيره وتهليله وتحميده وتمجيده والثناء عليه بأكمل أسمائه وصفاتِه، ومعنى تسبيح الله وتكبيره وتهليله وتحميده وتمجيده والثناء عليه بأكمل أسمائه وصفاته اللهم صلّ على محمد وآل محمد ، وفي معاني الأخبار بسنده إلى موسى بن جعفر قال (قال الصّادق جعفر بن محمد عليه السلام من صلى على النبي صلى الله عليه وآله وسلم فمعناه أني أنا على الميثاق والوفاء الذي قبلت حين قوله أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى) انتهى.

ومعنى قوله (لا جعله الله...إلخ) لا أخلاني في كلّ أحوالي من ذلك في الدنيا والآخرة بظواهرها وبواطنها.

(وأوجب لي.... إلخ) أي أوجب لي مغفرة ذنوبي وسيّئاتي وجميع تقصيراتي بما تفضّل عليّ من ولايتهم ومحبّتهم ووفّقني له من زيارتهم وذكرهم والصلاة عليهم وإدخالي في رحمته الواسعة التي هي ولايتهم ومحبّتهم والبراءة من أعدائهم وإفاضة خيره وبركته في أحوال مبدئي ومعادي وحصول الفوز لي بما فاز به ببركتهم عباده

الصالحون وبثّ النّور في غيبي وشهادتي بهم من آثار ولايتهم ومحبّتهم وكتابة الإيمان في قلبي بروح منه بواسطتهم وتوفيقي لحسن إجابته بهم وإجابتهم بهدايته تعالى.

ومعنى قوله (كما أوجبت....إلخ) إنّك يا متفضل أوجبتَ لأوليائِك الذين والوا فيك أوليائك وأوليائهمْ إجابةً لأمرك العارفين بحقّهم بما دللتهم عليه من معرفتهم ومعرفة حقّهم فإنّك قد وصفتَ نفسك لهُمْ بذلَك فعرفوك بمعرفتهم وعرفوا حقك بمعرفةِ حقّهم والموجبين لطاعتك بإيجاب طاعتهم الراغبين في زيارتهم بما رغّبتهم فيها وندبتهم إليها طمعاً في وعدك ، المتقرّبين إليك بطاعتهم ومحبتهم وولايتهم وإليهم بإجابتك وطاعتك فيما أمرتنا به من إيجاب حقّهم وإجلالِهم وإحلالهم المحلّ الرفيع الذي أحللتهُمْ فيه فجعلتهم وجهك الّذي يتوجّه إليه من قصدك وبابك الذي تؤتى منه وطريقك الموصل إليك وسبيلك القصد المستقيم.

قال عليه السلام بأبي أنتم وأمّي ونفسي وأهلي ومالي اجعلوني في همكم وصيّروني في حزبكم وأدخلوني في شفاعتكم واذكروني عند ربكم.

أقول: قد تقدّم الكلام في شرح الزيارة على قوله (بأبي أنتم وأمي...إلخ) يعني أفديكم بأبي وأمي ونفسي وأهْلي ومالي مما تكرِهون وهو دعاء منه، ويجوز أنْ يكون إخُباراً (اجْعلوني في همّكم) أي فيمن تعتنون به وتهتمّون به ممّن يكون على بالكم في الدعاء والإمداد بالتّوفيق لما يُحبّ الله عز وجل وتحبّون من جميع ما تريدون منّي مما أراده الله منّي بواسطتكم وفي الشفّاعة لي عند ربّكم في ذنوبي وإيرادي الحوض في الدنيا والآخرة، وَسَقْيي منه بكأسكم وإصداري رَيّاناً وإدْخالي الجنّة سالماً

بشفاعتكم وجاهكم عند الله تعالى،

وقوله (وصيّروني في حِزْبِكم) اجعلوني في المتوالين بكم المُطيعين لله ولكم المحبين لكم المُبْغِضين لأعْداكِم ولأوْليائهم أي انقلوني من حالة العموم إلى حالةِ الخصوص من طائفتِكم وحزبِكم وجُنْدِكم الأغْلب.

وقوله (وأدخلوني في شفاعتكم) أي اجعلوني في جملة من تشفعون له مِن عُصَاةِ مُحبّيكم ومواليكم المعتمدين على حبّكم الواجين شفاعتكم، (واذْكُروني عِنْدَ ربّكم) أي اذكُروني في الشَّفاعة بخُصوصي باسمي واسم أبي عند ربّكم لِتَخُصّوني بوجهٍ خاص بي من جاهِكم لأنال الفَوزَ ببركتكم وجاهكم عند الله سبحانه.

قال عليه السلام اللهمّ صلّ علي محمّد وآل محمّد وأبلغ أرواحهم وأجسادهم منّي السلام والسلام عليه وعليهم ورحمة الله وبركاته

وصلّى الله على محمد وآله وسلّم كثيراً وحسبنا الله ونعْمَ الوكيل.

أقول: قد تقدّم الكلام في بيان الصلاة على محمد وآل محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وأمّا (اللّهمَّ) فالمراد منه الله وهو منادىً أُلحِقَ بالميم المشدّدة لطلب إقبال المدعوّ ليُسْأل منه المطلوب فأفادت الميم المشدّدة شيئين:

أحدهما طلب الإقبال فأغنت عن حرف النداء لإفادته مفادَهُ.

وثانيهما الدلالة على أن الطلب للسؤال منه حاجة السائِل.

فاللّهمَّ مفيد فائدة يا الله أطلبُ منك حاجتي وهي كذا، ويا الله إنما يفيد طلب الإقبال عليه والتوجه إليه من غير إفادة السؤال، ولهذا يترجّح (اللهمَّ) في إرادة المبالغة في الدّعاء على يا اللهُ وحذفت (يا) تخفيفا بعد وجود ما يفيد مفادَها وإدخالها مع الميم المشدّدة قليل في الاستعمال، فإنّهم إنما حذفوها تخفيفا وكراهةً للجمع بين

العِوَض والمعوّض ولقلّة فائدتها لوجود فائدتها في الميم ولا توجد فائدة الميم فيها ومن أتى بها كما في قول الشاعر:

إني إذا مـــا حدثٌ ألمـا

أقولُ يا اللهمّ يا اللهمَّا

قصد التأكيد في إرادة التوجه والإقبال ولضرورة الشعر ولأنه جمع بين (يا) وبين الميم بلحاظين، بلحاظ الابتداء أتى بـ (يا) وبلحاظ الدعاء أتى بالميم.

وقولي قليل في الاستعمال أنه قياسي، ولكن لأجل التخفيف غلب في الاستعمال الحذف وليس فيه في الحقيقة جمع بين العِوَض والمُعَوَّضْ لأنّ الميم لم يؤتَ بها للعِوَض عن (يا) وإنّما أتى بها للمبالغة في طلب الإقبال والتنبيه عليها قبل ذكرها ولكنّها لما أفادت فائدة وهو طلب الإقبال وتوجّه المدعوّ للدعاء استغنوا عنها طلباً للتخفيف، وإنما قطعت الهمزة في يا الله لأنها وإن كانت على الصحيح أنها همزة وصل ولكنها للزومها للاسم طلباً لملازمة التعريف ليلحق بالأعلام بل هو اسم علم بالتغليب كما قال الصادق عليه السلام في تفسير بسم الله الرحمن الرحيم (والله علم على الذّات الواجب الوجود) الحديث، كانت كالأصلية فعوملت معاملة همزة القطع لأجل لزومها ولأجل أنّ استعمالها بصورة القطع أبلغ في الدعاء ، وطلب الإقبال من المدعو وتوجّهه للداعي وهذا الوجه أوجه من غيره ولأجل هذا كانت توصل في غير النداء مثل بالله ومن الله وإلى الله مع مراعاة الملازمة للتعريف وإنّما وصلها الشاعر لضرورة الشعر.

وقوله عليه السلام (وأبلغ أرواحهم) أي أوْصِل أرواحهم وأجسادهم سلامي، والأرواح جمع رُوح (بضم الراء) سُمّيت بذلك لمجانستها للريح في اللطافة كما قال الباقر

ﷺ لمحمد بن مسلم حين سأله ما هذا النفخ في قوله تعالى ونفختُ فيه من روحي وما ورد عنهم ﷺ إنّ روحهم واحدة لا ينافي الجمع هنا، لأن الجمع باعتبار كل فرد منهم والأفراد باعتبار عدم الاختلاف والتغاير فيها لأن جميع أرواحهم من حقيقة واحدة هذا في الشهادة.

وفي الغيب إنما هي واحدة كانت هناك واحدة من متعدّدين هنا كما كانت صورة المرئيّ الواقعة عليه من عيني الرائي واحدة من صورتين كل عين فيها صورة غير الأخرى، فإنّكَ إذا نظرت وقابلت المرئي انطبعت صورته في كلّ عينٍ فكانت فيك أي في عينيك صورتان فإن شخصتَ في المرئي أي تحقّقتَ الرؤية والإدراك انطبعتا عليه وإن لم تُشخّص رأيته اثنين، فكذلك هم في الأجساد متعدّدون كصورتي المرئي الواحد في عينيك وهم في الغيب متّحِدُون كالواقع على المرئيّ من عينيك.

واعلم أن الروح قد اختلف العلماء في معرفة حقيقتها اختلافاً كثيراً ربّما عدّاها بعضهم إلى أربعة عشر قولاً أو أكثر.

والحق أنّها جسم مجرّد ولونها أصفر وشكلها المعنوي صورة قائم الزاوية هكذا وصورتها قبل التكليف بألستُ بربّكم كهيئة ورق الآس هكذا ولهذا ورد في أخبار أهل العصمة ﷺ تسميتها بورق الآس وبالأظلّة وهي في الغيبي للإنسان كالمضغة في الوجود الجسماني شكلاً ورتبة، فالدعاوى هنا خَمسٌ أشير لك إلى بيانها على جهة الاختصار من غير ذكر الدليل على كلّ دعوى لأن ذلك ممّا يطول ذكره ولو ذكرناه صعُبَ عليك إدراك المعنى منه لأنه لا يذكر إلاّ بدليل الحكمة، وأمّا دليل المجادلة فلا يفيد هنا شيئاً وإن كان بالبرهان القطعي فمن طلب هذه الأمور بغير

دليل الحكمة أخطأ الصواب ولم يعلم أخطأ أم أصاب.

وأمّا دليل الحكمة فإن كُنتَ عارفاً به فهمتَ مرادي بمجرّد الذكر وانتقش وجودها بفؤادك عن قلبِك في نفسك وخيالك وإن لم تكن عارفاً به فلا تفهم شيئاً منها قط ، فأقول وبالله المستعان:

الأول: قولي (إنّها جسم) فمن النقل قول الصادق عليه السلام (إنّها جسمٌ لطيف ألبسَ قالباً كثيفاً).

وأما من الحكمة فلأنها جوهر لا عرض وهي مركبة من مادةٍ وهو النور الأصفر ومن صورة وهي هيئة ورق الآس، ولا نعني بالجسم إلاّ المركب من مادة وصورة فإنه تلزمه الأبعاد الثلاثة في كلّ شَيْءً بحسبه وأيضاً لها حيّز من نوعها وهو أرض الورق الأخضر ولها وقتٌ من نوعها وهو الدهر هي في وقتها ومكانها كفلك الثوابت المعبر عنه بالكرسي في زمانه ومكانه، هذا إذا أريد بالروح البرزخ بين العقل والنفس.

أمّا إذا أُريدَ بها العقل كما في قوله صلى الله عليه وآله وسلم (أوّل ما خلق الله روحي) فكالعقل بل هي العقل أو أُريدَ بها النفس كما تقول قبض ملك الموت روحه فكالنفس بل هي النفس، والعقل وقته أول الدهر كفلك المحدد للجهات زمانه أول الزمان وأعلاه وألطفه ، والنفس وقتها وسط الدّهر كالأفلاك السبعة زمانها وسط الزمان في اللطافة والكثافة ، والروح ليست مفارقة كالعقل بل هي متعلقة بالعقل ولها نَظَرْ إلى الأجسام بفعلها فهي في نفسها شكلها شكل الكرة كما هو شأن كلّ كامل إلاّ أنّها منجذِبةٌ بأسفلها إلى جهة الأجسام وبأعلاها إلى جهة العقل فامتَدّ شكلها، ولمّا كان أعلاها ألطف من أسفلها لقربه من العقل كان امتداده دقيقاً للطافته، وأسفلها

لمّا كان غليظاً كثيفاً بالنسبة إلى أعلاها لقربه من جهة الأجسام كان امتدادُه عريضاً فكان شكلها الصوري كهيئة ورق الآس كما مثّلنا لك فافهم.

الثاني: قولي (مجرّد) فمن النّقل قول أمير المؤمنين صلوات الله عليه كما رواه الشيخ عبد الواحد بن محمد بن عبد الواحد الأسدي في كتابه الغرر والدرر قال عليه السلام (وقد سُئِل عن العالم العلوي صور عالية عن الموادّ عارية عن القوّة والاستعداد تجلّى لها فأشرقت وطالعها فتلألأت وألقى في هُويتها مثالَهُ فأظْهرَ عنها أفعاله)الحديث.

وأما من الحكمة فمرادُنا بأنها جسم مجرّد ما أرادُوا يعني القائلين بوجود المجرّدات من أن المراد بالمجرّد هو المجرّد عن المادة العنصرية والمدّة الزمانيّة لا المجرّد عن مطلق المادة ومطلق الصورة، فقول صاحب البحار في كتاب العقل بتكفير من أثبت مجرداً غير الله تعالى ونفى وجود هذا في الأخبار غفلة منه لأنهم إنّما أرادوا أنه مجرّد عن المادةِ العنصرية التي هي تحت الأفلاك وهو يقول به في كثير من المخلوقات منها الأفلاك كلها والكواكب كلها أجسام وهي مجردة عن المادة العنصريّة وكذلك الأعراض والألوان وكذلك نور محمد وأهل بيته صلى الله عليه وآله وسلم خلقها الله قبل الأفلاك وقبل العناصر وقبل الزمان كما تدل عليه الأخبار الكثيرة، وكذلك كثير من الملائكة وكذلك القلم واللوح والعرش والكرسي وغير ذلك، وإنكار وجوده في الأخبار وقع غفلةً كيف وقد أورَدتُ لك قول أمير المؤمنين عليه السلام (صور عالية عن الموادّ عارية عن القوة والاستعداد) وغير ذلك كما في كلامه عليه السلام للأعرابي الذي سأله عن النفس وحديث كميل وأمثال ذلك فمن كتب الله له فهم ذلك عرف فأيّ دليلٍ أصرح من هذا وقد

رواه هو بنفسه.

الثالث: قولي (لونها أصفر) فمن النقل ما في الكافي بسنده إلى عمار بن مروان قال حدّثني من سمع أبا عبدالله عليه السلام في حديث طويل إلى أن قال عليه السلام (ثُمَّ يَسُلُّ) يعني ملك الموت (نَفْسَهُ سَلا رَفِيقاً ثُمَّ يَنْزِلُ بِكَفَنِهِ مِنَ الْجَنَّةِ وَحَنُوطِهِ مِنَ الْجَنَّةِ بِمِسْكٍ أَذْفَرَ فَيُكَفَّنُ بِذَلِكَ الْكَفَنِ وَيُحَنَّطُ بِذَلِكَ الْحَنُوطِ ثُمَّ يُكْسَى حُلَّةً صَفْرَاءَ مِنْ حُلَلِ الْجَنَّةِ) الحديث.

والمراد بالمكسي حلّة صفراء من حلل الجنّة الرّوح والمعنى أن الروح كان لونه أصفر (أنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين) فلمّا دخلت في الجسد بعد ما تمّت خلقتُهَا كانت خضراء بسواد كثرة الحدود مع صفرتها، فلمّا فارقت رجعت على لونها، ومعنى أنّ ملك الموت يكسوها حلّة صفراء الكناية عن قبضها من الجسد ورجوعها على لونها الأصلي.

وأمّا من الحكمة فلأنّ العقل نور أبيض كناية عن شدّة بساطته والروح نور أصفر لأنّه أوّل تنزّل العقل، فلمّا نزل حصلت فيه كلورة التزول فإنه في الروح كالنّطفة في الجسد في كمال البساطة والروح في الغيب كالمضغة في الجسد وهي تنزّل النّطفة وأوّل تخلّق الصورة وأول التخطيط المعبّر عنه في حديث علي بن الحسين عليه السلام في أنوار العرش، (ونور أصفر اصفرّت منه الصفرة والنور الأبيض في حديثه هو العقل ونور أخضر اخضرّت منه الخضرة) هو النفس لاجتماع صفرة الروح مع سواد الكثرة فحدث منهما الخضرة (والنور الأحمر الذي احمرّت منه الحمرة) نور الطبيعة لاجتماع بياض العقل مع صفرة الروح كاجتماع الزئبق مع الكبريت الأصفر فيحدث منهما

الزنجفر فافهم.

الرابع: قولي (وشكلها المعنوي صورة قائم الزاوية هكذا) ليس في ظاهر النقل فيما اطلعتُ عليه شيء يدل على ذلك.

وأمّا في باطِنه فما من شيء إلاّ وفيه كتاب أو سنّةٌ، وعلماء الفن ذكروا هذا وهو مستفاد من إشارات الأخبار مثل ما ذكرنا من أن العقل يسمّى بالقلم ويسمونه بالألف القائم كناية عن بساطته وصورته هكذا والوح يسمى بالألف المبسوط وبالباء من بسم الله الرحمن الرحيم.

روى ابن أبي جمهور في المجلي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم إنه قال (ظهرت الموجودات من باء بسم الله الرحمن الرحيم) وهي اللوح، وسمي بالألف المبسوط عبارة عن الكثرة التي فيه من النقوش والصور وصورته المعنويّة هكذا والروح لها اعتباران، اعتبار كالعقل في كونه ألفاً قائماً، واعتبار كالنفس في كونها ألفاً مبسوطاً فالروح صورته بينهما يعني بين وبين فيكون هكذا .

الخامس: قولي (وصورتها قبل التكليف) كما أشرنا إليه في الأوّل وهذا أقلّ ما يُشار به إلى ما ذكرنا من صفات الرّوح ويأتي له تتمّة في ذكر الأجساد.

وقوله عليه السلام (وأجسادهم) والمراد المدفونة في القبور وقد تقدّم في شرح الزيارة الإشارة إلى شيء من البيان وهي جمعُ جسَدٍ ويطلق على الأجْسام أو على ما حلّته الروح، وذكرنا قبل الاختلاف هناك والجسد جَسَدان جَسدٌ عنصريّ بشريّ مركب من العناصر الأربعة الّتي هي تحتَ فلك القمر وهذا يفنى ويلحق كلّ شيء إلى أصله ويعود إليه عود ممازجة واستهلاكٍ فيعود ماؤه إلى الماء وهواؤه إلى الهواء وناره إلى النار

وترابه إلى التراب، ولا يرجع لأنه كالثوب يلقى من الشخص.

والثاني جسد أصليّ من عناصر هُورقليا وهو كامِنٌ في هذا المحسوس وهو مركب الروح وهو الباقي في قبره مستديراً مترتّب الوضع كتَرَتُّبِه في الشخص حال حياته، مثلاً أجزاء الرقبة بين أجزاء الرأس وأجزاءِ الصَدر، وأجْزاءُ الصدر بين أجزاء الرَقبة وأجزاء البطن، وأجزاءُ البطن بين أجزاء الصدر وأجزاء الرجلين، وهكذا الأجزاء في أنفسها مرتّبة وهو المراد من كونها باقية في قبرٍ مستديرةً، فإذا كان يوم القيامة ألّف أجزاء هذا الجسد الذي بدأه أوّل مرّة حتّى يكون بصورته في الدنيا ثم تتعلق به الروح فيقوم للحساب، وهذا الجسد هو الذي يتألّم ويتنعّم وهو الباقي وبه يدخل الجنة أو النار، وهو المراد هُنَا وإن كان لَهُ تصفية ثانية للآخرة لأنّه ظاهراً من جنس البرزخ وهو جسدك هذا وقشره كثافته وهو الجسد العنصري البشريّ الفاني، وهذا الجسد الثاني يقال عليه الجسم كما في بعض الزيارات يقال (والسلام على أرواحكم وأجسامكم) والمراد بها الأجساد الباقية في القبور وهي من عناصر البرزخ المعبر عنه بجنّة الدنيا وبنار الدنيا المشار إليهما في القرآن في قوله في جنة الدنيا (جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمنُ عِبادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً إِلاَّ سَلاماً وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيها بُكْرَةً وَعَشِيًّا)وهذه جنة الدنيا لأن الآخرة ليس فيها بكرة وعشيُّ، ثم أخبر تعالى إنّ جنّة الدنيا هذه هي جنّة الآخرة فقال (تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا)فأشار إلى أنّ هذه التي فيها بكرة وعشيّ هي الجنة التي نورث من عبادِنا من كان تقياً أي يوم القيامة.

وفي نار الدنيا في قوله (وَحاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذابِ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ)فأخبر إنهم يعرضون عليها غدوّاً وعشيّا وهذا في الدنيا

ويوم تقوم الساعة في الآخرة، فجنّة الدنيا هي جنّة الآخرة بعد التصفية ونار الدنيا هي نار الآخرة بعد التّركية وبعد إذهاب ما فيها من برودة البرزخ ورطوبته.

وذلك كما أنّ جسدك هذا هو جسد الدنيا وهو بعينه هو جسد الآخرة بعد التصفية وهو لطيف أسفله في اللطافة مُسَاوٍ لمحدب محدّد الجهات في اللّطافة فافهم.

وأمّا الروح التي يقبضُها ملك الموت فهو الإنسان وقلنا إنها جسم لطيف لأنّها مركّبة من ستة أشياء (مثال وهيولى وطبيعة ونفس وروح وعقل) فإذا أخذها ملك الموت أرسلها في ذلك العالم وتبقى ساهرة لا تنام كما قال جعفر بن محمد عليه السلام في قوله تعالى (فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ) فإن كان ممن محض الإيمان محضا أو محض الكفر محضا بعث في الرجعة ثم يموت أو يقتل، فإذا مات أو قتل رجع إلى الساهرة إلى أن ينفخ في الصور فإذا نفخ إسرافيل في الصور نفخة الصعق جذب بنفخته الأرواح كل روح إلى ثقبها الذي خرجت منه من الصور حين نفخ الحياة في الدنيا، وفي ذلك الثقب ستّة بيوت يدخل في الأوّل المثال، وفي الثاني جوهر الهباء الذي هو المادة والهيولى، وفي الثالث الطبيعة، وفي الرابع النفس، وفي الخامس الرّوح، وفي السادس العقل، فتبطل الأرواح وذلك بين النفختين أربعمائة سنةٍ فإذا نفخ إسرافيل في الصور نفخة البعث دفعت النفخة العقل حتى دخل في الروح ودفعتها حتى دخلا في النفس ودفعت الجميع حتى دخلت في الطّبيعة ودفعت الجميع حتى دخلَتْ في المثال فقامت سَوِيّةً، وطارت حتى دخلت الروح في الجسد ومجموع هذه الستة ثلاثةٌ منها هي جِسمٌ مجرّد وهو مجموع النفس والطبيعة والمادّة، والمثال صورته، والعقل روحه في الرّوح، وهذا الجسم اللّطيف يلحقه بعض التّصفية في جهة الطبيعة

والمادة فيلقى منها عند النفخة الثانية الجسم الثاني بالتّصفية لأنه بَشَريّةٌ برزخيّة لا تلحق بذاتِ المكلّف لأنها من أحكام الرتبة كما أنّ الجسَدَ العنصري من أحكام الدُنيا ولوازمها فلا يخرج منها، كذلك الجسم الأول البرزخيّ فإنه من أحكام البرزخ فلا يخرج منه ولا تخرج الرُّوحُ من الصور إلاّ بعد أن تتصفّى من كدورات الطبيعة والمادة، وهذه الكدورات هي الجسم الأوّل الّذي لا يلحق بالإنسان فكان الجسد جَسَدينِ، الأوّل فانٍ في الدنيا، والثّاني باق أبداً، وللروح المقبوضة جسمان، الأوّل فانٍ في البرزخ، والثاني باق أبداً، ومثال الأوّل من الجسدين ومن الجسمين كالوسخ المتعلّق بالثوب يُغسل الثوب فيذهب الوسخ لا حاجة فيه ولا فائدة بل فيه تنقيص الثوب في لونه وقيمته فإذا أزيل طهر الثوب وزكا.

فقوله عليه السلام (وأبلغ أرواحهم وأجسادهم) يريد الأرواح والأجساد الباقية التي هي الإنسان لا ما لحقه مما ليس منه حقيقة وإنّما لحقه بحكم المكان، وذلك لأنّ هذا اللاحق لا يشعر بلذّة ولا ألم وليس من الإنسان.

واعلم أنّ ما أشرنا إليه هو الرّوح والجسد الجزئيّان، والمراد في الوداع وفي الزيارة هما الكليّان وذلك في المعصومين من أهل بيت محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وليس المراد بالكلّي والجزئي الكلّي والجزئي اللّذان يبحث عنهما الحكماء والعلماء في كتب المنطق وما أشبهه، لأنّ ذلك الكلّي معنى ذهني ظِلّي منتزع من أفراده الخارجة حين لاحظ الذهن في الأفراد معنى تساوت فيه أخذ صورته عنده يحكم به عليها في علمه باعتبار ما اشتملت عليه منه.

وأمّا هذا الكلّي فالمراد منه الذات القائمة التي لها أمثال وصفاتٌ من ظهوراتها قامت تلك الأمثال بتلك الذات الشريفة كقيام الأشعّة وأظلّتها من الشمس

بالشمس، فأرواح الأنبياء والمرسلين عليهم السلام أشعة أرواح محمد وآله صلى الله عليه وآله وسلم وأمثِلَتها ومظاهرها وأرواح المؤمنين أشعّة أرواح الأنبياء والمرسلين فأرواح المؤمنين أشعّةُ أشِعّةِ أرواحهم صلى الله عليهم أجمعين.

وباقي الكلام قد تقدم الكلام عليه في شرح الزيارة ولنقبض عنان القلم على ما أراد الله سبحانه لنا من إثبات ما حصل من شرح الزيارة الجامعة الكبيرة وشرح وداعها والحمد لله رب العالمين جعله الله زادا ليوم الدين ونفع به طالبي البيان واليقين من عارفي المؤمنين.

وفرغ من تسويده مؤلفه العبد المسكين أحمد بن زين الدين بن إبراهيم بن صقر ابن إبراهيم بن داغر المطيرفي الأحسائي في الليلة التاسعة عشر من شهر ربيع المولود سنة ثلاثين ومائتين وألف من الهجرة النبوية على مهاجرها وآله أفضل الصلاة صلى الله عليه وآله وسلم وأزكى السلام حامدا مصليا مستغفرا ، تمت.